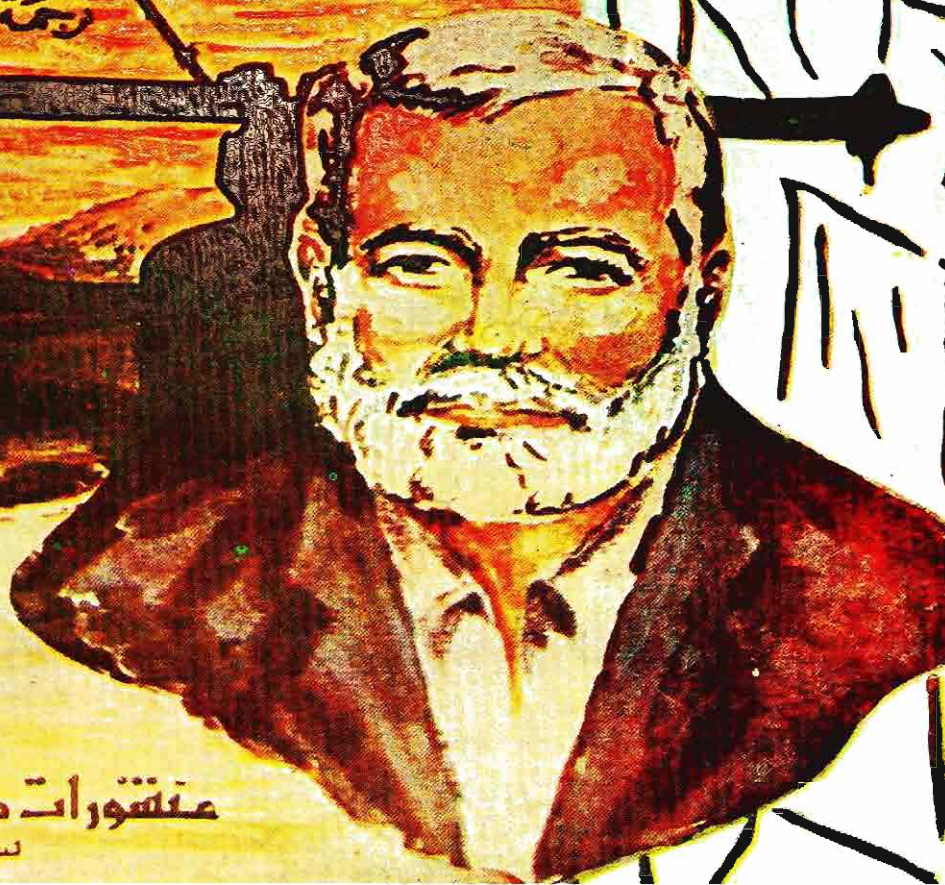


ممنقواتي

معرفتي

عن تعرف الأجراس

ترجمة: خير عيتمان



ممنقوات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

لمن يُقرع الأجراس؟

أرنست همنغواي

لمن تُقرع الأجراس؟

ترجمة

خيزي حماد

**

منقورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان



المؤلف والكتاب

ارنست همنغواي .. شيخ كتاب القصة المعاصرة ، وأكثرهم شهرة في الميدان الادبي .. والحائز على جائزة نوبل في القصة لعام ١٩٥٤ .

لم تنل كتب اي قصصي في العصر الحديث .. ما نالته قصصه من شهرة داوية وصيت ذائع .. لما فيها من روعة في الاسلوب ، والحوار ، وسيطرة على الفن ..

« رجال بلا نساء » . « وداعا يا سلاح » .. « الفقر والغنى » .. « لمن تفرع الاجراس » .. اسماء داوية ، في عالم القصة ، نقلت الى كل لغة ، ودوى صيتها في كل افق ..

قال عنه .. رئيس المجمع العلمي السويدي .. « ان همنغواي ، هو اعظم مؤلفي العصر .. لما يصوره من مناظر الحياة وحقائقها » ..

وهذا الكتاب .. اروع ما كتبه همنغواي .. فيه صراع العواطف الانسانية ، والحب ، والخيال ، والفقر ، والغنى .. والحروب بويلاتها ، والنزاع بين العقائد والمثل ..

الكتاب الذي يصور الحرب الاهلية الاسبانية كما لم يصورها اي كتاب آخر ..

انه الكتاب الذي يرسم خطوط النضال بين الفاشية والشيوعية ، وبين الديكتاتورية والجمهورية ..

اعظم كتاب قصصي .. لاعظم كاتب



استلقى على ارض الغابة ، التي تغطيها اوراق الصنوبر الصفراء الذابلة؛ وقد اسند ذقنه الى ذراعيه اللذين ضمهما الى بعضهما ، بينما اخذت الريح تثر في الاعالي ، متلاعبة ، بهامات اشجار الصنوبر ، وكان الجبل ينحدر ، بهدوء ، في المنطقة التي استلقى فيها . ولكن الى الناحية الثانية ، امتد واد عميق ، كان يرى في غوره الطريق المتتوية ، وهي تجتاز المضائق الجبلية . وهناك على مقربة من الطريق ، ينساب جدول ، فتندفق مياهه ، عبر سد اقيم في نهاية المضيق ، مكونة شلالا ، يعكس ، لونا ابيض ، تتخلله اشعة الشمس ، وهي تطبق على الطاحونة ، التي تصل اليها مياه الشلال . .

وقال متسائلا : هل هذه هي الطاحونة ؟

اجل .

— انالا اذكرها .

— لقد بنيت بعد ان ارتحلت . اما الطاحونة القديمة ، فهناك ، بعيدا وراء المضيق . ونشر خريطته العسكرية المفصلة ، على ارض الغابة ، واخذ يتطلع اليها ، بعين الفاحص الخبير . ووقف الرجل المعجوز ، وراه ، ينظر

اليها من وراء كتفه . كان رجلا عجوزا ، قصير الهامة ، مستقيما ، يرتدي قميصا اسود ، مما يرتديه الفلاحون عادة ، وسراويل رمادية ، لا تقبل الكمي ، وفي قدميه ، حذاءان ، نعلهما من القنب . وكان تنفس العجوز متلاحقا ، من جراء متاعب الصعود ، بينما اتكا بعرفقه على احد الكيسين الثقيلين اللذين كانا يحملانهما .

– اذن فانت لا ترى الجسر من موقعك هذا ؟

فرد العجوز قائلا – لا . هذه هي الارض المنبسطة ، قرب المضيق ، التي ينساب فيها الجدول بهدوء . وهناك ، حيث تنعطف الطريق ، وتناى عن النظر ، مختفية وراء الاشجار ، فانها تنحدر فجأة ، حتى تصل المضيق السحيق ...

– آه ... لقد تذكرت .

– ويقوم الجسر على ذلك المضيق .

– ولكن اين هي قوائمه ؟

– ان احداها ، توجد في الطاحونة التي تراها هناك .

واخرج الشاب الذي كان يدرس المنطقة منظاره ، من جيب سرواله الخالي الباهت . ومسح عدسته ، بمنديله ، ثم أخذ يدير لوابه ، حتى اصبح في وسعه ان يرى الطاحونة بوضوح عليهما ، وابصر بالمقعد الخشبي . قائما الى جانب الباب ، وباكوام النشارة ، وبالقناة ، التي تمر بها جذوع الاشجار ، مندفعة من سفح الجبل الى الطاحونة . وبدا الجدول ، واضحا ، ناعما ، على عدسة المنظار ، بينما تطاير رذاذ الماء المتساقط من الحاجز ، وقد حملته الريح الى كل مكان .

– لا ارى حارسا في الباب .

فقال العجوز – ارى دخانا يتصاعد من المدخنة . وارى ملابس .

منشورة على الجبل .

- انني اراها ، ولكنني لا ارى اي حارس .

- ربما كان يجلس في الظل . ان الحرارة شديدة هناك في هذه اللحظة .
واعتقد انه يجلس في الظل القائم في المؤخرة التي نراها .

- ربما . ولكن اين قاعدة الجسر الأخرى ؟

- انها وراء الجسر . على مقربة من كوخ ، عامل الطريق ، على مقربة
من الكيلو متر الخامس من فوهة المعر .

وقال مشيرا الى الطاحونة . . . كم عدد الرجال هناك ؟

- اعتقد انهم اربعة ، ومعهم عريف .

- وهناك ، بعيدا ؟

- اكثر من هذا الرقم . سأحاول ان اعرف .

- وعلى الجسر ؟

- دائما رجلان . واحد في كل ناحية .

- سنحتاج الى عدد من الرجال ، كم في وسعك ان تؤمن لنا ؟

- اي عدد تريد . فهناك عدد من الرجال . هنا في هذه التلال .

- كم ؟

- هناك اكثر من مائة . ولكنهم في مجموعات صغيرة . كم رجلا تحتاج ؟

- سأبلغك عندما تنتهي من دراسة الجسر .

- اتود ان تدرس وضعه الان ؟

- لا . اريد ان نمضي الان الى مكان نخفي فيه هذه المتفجرات ، حتى
يحين وقت استخدامها . واريد ان نضعها في مكان امين ، شريطة ، ان
لا يبعد هذا المكان اكثر من نصف ساعة عن الجسر ، اذا امكنا ذلك .

فقال المعجوز . . . - هذا هين ، سنمضي الآن الى مكان ، يقع فوق
الجسر مباشرة . ولكن علينا الان ان نصعد الجبل بجد ، حتى نصل هناك ،
هل انت جائع ؟

- اجل . ولكن لتؤجل الاكل بعض الوقت . ما اسمك ؟ لقد نسيت ؟
- انسيلمو ، وانا انتمي الى باركو دي افيللا . دعني اساعدك ، في حمل
هذا الجراب . وكان الشاب طويل القامة ، نحيلها ، ذا شعر اشقر لوحته
الشمس . ووجه تغطيه سمرة غير طبيعية ، يرتدي قميصا باهتا من
الكتان ، وسروالا من سراويل الفلاحين ، وفي قدميه حذاءان ايضا نعلهما
من القنب ، وقد انحنى الآن فحمل احد الكيسين ، ووضع على كتفه ،
ثم امسك بالكيس الآخر بلذاعة ، والقاه على ظهره . وقال . . . لقد
حملتهما الان ، فاين نمضي ؟

فقال انسيلمو - نمشي صعدا في الجبل .

واخذا يصعدان ، وقد انحنى الكيسان ظهر الشاب ، فتساقط العرق
منه ، ومضيا في غابة الصنوبر ، الممتدة ، على طول الجبل المرتفع . ولم
يكن ثمة طريق معروفة يسلكانها ، ولكنهما كان يغدان السير ، فاجتازا
جدولا صغيرا ، ومضى الرجل المعجوز امامه ، يتسلق المنحدر الصخري
الذي يملو الجدول . وبدأ الصعود ، يقسو شيئا فشيئا ، حتى بدا وكان
الجدول ، قد انتهى الى جرف من الجرانيت الناعم ، امتسد امامهما ،
ووقف المعجوز عند حافة الجرف ينتظر وصول الشاب وقال :

- كيف تحس ؟

- لا بأس . . . قال هذا وكان العرق يتصبب منه وقد تقلصت عضلات
فخذيه .

- انتظرني هنا . ساسبقك لاندروم . فانت لا تريد ان يطلقوا عليك
النار وانت تحمل هذا الحمل ؟

- حتى ، ولو على شكل مزاح . هل هم بعيدون ؟

- لا ، انهم قريبون . ماذا يلقبونك ؟
- روبرتو ... قال هذا والقى بالعبء عن كتفه وظهره الى الارض .
- اذن انتظرنى هنا ، يا روبرتو ، وسأعود اليك .
- حسنا . ولكن هل تتصور الهبوط من هنا . الى الجسر ؟
- كلا . عندما نذهب الى الجسر . سنمضي في طريق آخر اقصر واسهل .
- لا اريد ان نضع هذه المواد في مكان ناء جدا عن الجسر .
- سترى عينك ، واذا لم ترض عن المكان فسنختار مكانا آخر .
- حسنا سنرى .

وجلس الشاب على مقربة من حملة ، يتطلع الى المعجوز ، وهو يتسلق الجرف ، لم يكن التسلق صعبا ، وكان يجد اشياء ، يمسك بها في مرتقاه ، دون ان يجهد نفسه في البحث عنها ، مما اشار الى انه ، قد ارتقى هذا المكان مرارا من قبل ، لكن كل من يصعدون ، كانوا حريصين على ان لا يتركوا اثرا يدل عليهم .

وشعر روبرت جوردان الشاب ، بجوع مخيف ، وبقلق عنيف ، وكان كثيرا ما يحس بالجوع ، ولكنه يندر ان يحس بالقلق ، لانه لا يكثر كثيرا بنفسه ، وكان يعرف بحكم التجربة ، سهولة التحرك وراء خطوط العدو ، في جميع هذه البلاد ، وكان من السهل عليه ان يتحرك وراءها بقدر ما كان من السهل عليه ، ان يتجول فيها ، اذا اتيج له دليل قدير ، وكل مسا في الموضوع من صعوبة ، هو التفكير بما سيحل بالانسان ، اذا ما قبض عليه ، وتقرير من في وسعه ان يعتمد عليهم ويشق بهم ، وعليه ان يثق تمام الثقة بالرجال الذين يعملون معه ، او لا يثق بهم على الاطلاق ، على ان يتخذ قراره في موضوع الثقة ، باسرع وقت ممكن ، ولم تكن هذه الامور لتقلقه او تزعجه ، ولكن ثمة امورا اخرى .. تشير في نفسه الاضطراب .

فانسيلمو هذا ، دليل ممتاز ، وفي وسعه ، ان يرتحل في الجبال ، وفي

وسع روبرت جوردان أيضا ، ان يمضي على احسن ما يرام ، وقد علمه سيره معه طيلة هذا اليوم ، منذ الفجر الباكر ، ان الرجل العجوز ، يستطيع ان يمضي به ، حتى درجة الانهك والموت . وكان في وسع جوردان ، ان يثق بانسيلمو تمام الثقة ، الا من ناحية تقديره للأمور وحكمه عليها ، اذا لم تتح له الفرصة بعد لاختبار هذا التقدير ، لا سيما وان الحكمس النهائي ، جزء من مسؤوليته هو نفسه . . . لا ، انه لا يساوره القلق بصدد انسيلمو ، ولم تكن مشكلة الجسر ، اصعب من غيرها من المشاكل ، فقد اتقن صناعة نسف الجسور صغيرها وكبيرها ، ومهما اختلفت صورها وتباينت اشكالها . وكان يحمل في كيسيه كميات كبيرة من المتفجرات ، ومعدات تكفي لنسف هذا الجسر على ما يرام ، حتى ولو كان يبلغ في حجمه ضعف ما وصفه له انسيلمو ، وكما تذكره عندما مر به في طريقه الى لاغرانجا ، في مسيرة على الاقدام في عام ١٩٣٣ ، وكما قرأ له وصفه ، غولز ، في الليلة السابقة عندما كانا يجلسان في تلك الغرفة العلوية فسي ذلك المبنى الذي يقوم خارج ايسكوريال .

فقد قال غولز ، آنذاك ، وهو يشير بقلمه الى خريطة كبيرة امامه ، وقد انعكست اضواء الصباح على راسه الاصلع المحلوق ، السذي تغمره الندوب . . . ان نسف الجسر ليس بالأمر العسير ، هل فهمت ؟

– اجل فهمت ؟

– ان النسف شيء بسيط . والاكتفاء بنسف الجسر ، يعني الغشل .

– اجل ، ايها الجنرال الرفيق .

– المهم هو ان ينسف الجسر في ساعة معينة ، تركز على الوقت المحدد للبدء بالهجوم . لا شك أنك تدرك ذلك . هذا ما يجب ان تفعله على الوجه الصحيح .

وتطلع غولز الى القلم واخذ يقرع بطرفه اسنانه . . . اما روبرت جوردان فقد ظل صامتا ، ومضى غولز يقول . . . هل فهمت ، هذا ما يجب ان

تفعله على الوجه الصحيح . وهذا ما يجب ان اعمله . ولكننا لا نستطيع .

- لماذا ابها الجنرال الرفيق ؟

- لماذا ؟ كم هجوما رأيت في حياتك ، وما زلت تسال لماذا ؟ ما الذي يضمن لي ان اوامري ستنفذ بحدا فيرها ، دون اي تبديل ؟ بل ما الذي يضمن لي ان الهجوم لن يلقى ؟ ما الذي يضمن لي ان الهجوم لن يؤجل ؟ وما الذي يضمن لي انه سيقع في غضون ست ساعات من الموعد المقرر للبدء به ؟ وهل وقع كل هجوم ، كما يجب ان يقع حتى الآن ؟

وقال روبرت جوردان . . . - انه سيقع في الوقت المعين ، اذا كنت انت الذي ستقوم به .

- انها ليست هجماتي . صحيح ، انني انا الذي اقوم بها ، ولكنها ليست هجماتي ، فالمدفعية ليست مدفعيتي ، وهلي ان اطالب بها . ولم يسبق لهم ان قدموا لي ما اطلبه حتى ولو كان ما اطلبه متوفرا لديهم . هذا اسوا ما في الامر . وهناك اشياء اخرى . فانت تعرف اي نوع من الناس هم . ولا ارى لي حاجة الى البحث في التفاصيل . فهناك دائما شيء من الخطأ . تدخل من احد الناس . لذا ، هل تاكدت انك فهمت الآن .

- اذن متى يجب ان ينسف الجسر ؟

- بعد الشروع في الهجوم . بعد البدء به مباشرة ، وليس قبل ذلك . وذلك لمنع الامدادات من المرور في تلك الطريق . . . واثار بيده السي الخريطة ثم مضى يقول . . . يجب ان أعرف ان لا شيء ، سيعمر بتلك الطريق ابدا .

- ومتى سيقع الهجوم ؟

- ساخبرك . ولكن عليك ان تستعمل التاريخ والساعة ، كاشارة على احتمال الموعد . وعليك ان تكون متاهبا فيه . ولن تنسف الجسر الا بعد ان يبدأ الهجوم . هل فهمت ؟ واثار الجنرال بقلمه الى الخريطة وقال . . .

« هذه هي الطريق الوحيدة التي يستطيعون ان يأتوا بالامدادات منها . انها الطريق الوحيدة التي تصلح لمرور الدبابات والمدفعية ، وحتى السيارات الشاحنة ، الى المضيق الذي سأهاجمه . وعلي ان اعرف ان الجسر قد ازيل من الوجود . ومن الواجب ان لا يتم تدميره قبل الهجوم ، حتى لا يقوم العدو باصلاحه . اذا ما تأخر الهجوم عن مواعده . لا ، انه يجب ان يزال ، عندما يبدأ الهجوم ، ويجب ان اعرف ذلك وانه قد ازيل . وهناك حارسان ليس الا . وقد جاء الرجل الذي سيمضي معك الى هناك ، لتوه من الناحية . يقولون لي انه رجل موثوق للغاية . وهذا ما ستعرفه بنفسك . ان له رفاقا في الجبال ، استخدم منهم اي عدد تحتاج اليه . وكل ما كان العدد اقل ، كلما كان العمل احسن . ولكن استخدم العدد الكافي ، ولا اشعر بالحاجة الى ارشادك الى ما تعمله .

– وكيف يسعني ان اقرر ان الهجوم قد بدأ ؟

– ستقوم فرقة كاملة بالهجوم . وسيسبقه قصف جوي عنيف كتمهيد ، وبالطبع فأنت لست بالاصم ؟

– اذن عندما تنتهي الطائرات من افراغ محمولها ، يكون الهجوم قد بدأ ؟

– ليس في وسعك ، ان تقدر الامور دائما على هذا النحو . ولكن نسي هذه الحالة ، نعم . فالهجوم هجومى .

– لقد فهمت يا سيدي ، وان كنت اود القول انني لا احبه كثيرا .

– وانا لا احبه كثيرا كذلك . ولكن اذا كنت لا ترغب في القيام به ، فعليك ان تقول لي ذلك الآن . واذا كنت تشمر بعجزك عنه ايضا ، فقل ذلك الان .

ورد روبرت جوردان قائلا : . . سأنفذ الامر يا سيدي ، على احسن ما يرام .

– هذا كل ما اردت معرفته . وهو ان شيئا ما لن يمر على الجسر ، هذا شيء نهائي .

- فهمت .

- وانا لا احب ان اطلب الى الناس ، ان ينفذوا مثل هذه الامور بمثل هذا السبيل ، وليس في وسمي ان آمرك ، بالقيام به ، وانا اقدر ما ينطوي عليه الارغام في حالة فرضي مثل هذه الشروط ، وقد اوضحت لك كل شيء بدقة وعناية حتى تفهم كل شيء ، وتذكر كل الامور الممكنة ، واهميتها .

- وكيف ستزحف على لاغرانجا ، اذا نسف ذلك الجسر .

- سنعطي قدما لاصلاحه ، بعد ان نكون قد اكتسحنا المضيق ، انها عملية جميلة ومعقدة في آن واحد ، لقد وضعت الخطة في مدريد ، وهي من الخطط غير الناجحة التي يضمها فيسنتو روجو ، وساقوم بالهجوم واحققه كما افعل دائما ، حتى ولو بقوات قليلة ، ومع ذلك فالعملية ممكنة وانا مرتاح اليها هذه المرة اكثر من المعتاد ، والشروط الاساسي لنجاحها ، هو نسف ذلك الجسر ، في وسعنا ان نحمل سيفوفيا ، انظر ، سأريك كيف انفذ الخطة ، هل ترى ؟ اننا لن نهجم قمة المضيق ، بل سنحتفظ به ، ولكن ما سنهجمه ابعد من ذلك . انظر ... هنا ... مثل هذا ..

- افضل ان لا اعرف ...

- حسنا ، انك تقلل بذلك ، ما تحمله من متاع ، اذا وقعت في ذلك الجانب ..

- افضل دائما ان لا اعرف ، فمهما حدث بعد ذلك فانني لن اكون انا الذي تحدثت او افشيت الخطة .

وضرب غولز بالقلم على راسه وقال ... حسنا ، من الافضل ان لا تعرف ، وكم مرة وددت لو لم اعرف انا ، ولكنك تعرف الشيء الوحيد الذي يجب ان تعرفه ، وهو الجسر ؟

- اجل انني اعرف ذلك .

- انا اصدقك ، ولن احاول القاء خطبة قصيرة عليك ، دعنا الان نحتسي

كاسا . فقد عطشت من كثرة ما تحدثت ، ايها الرفيق هوردان ، ان اسمك
عندما ينطق بالاسبانية يصبح مضحكا ، ايها الرفيق هوردان .

- وكيف تنطق اسمك غولز بالاسبانية ايها الجنرال الرفيق ؟

- هوتزيه ... هوتزيه ... الرفيق الهنرال خوتزيه . لو كنت اعرف
انهم سيلفظون اسمي على هذا الشكل ، لجئت باسم آخر للاشتراك في
الحرب ... وعندما اتخيل انني جئت الى هنا لاتولى قيادة فرقة ، ولا
استطيع ان ابدل اسمي هذا خوتزيه ... الخنرال خوتزيه ... يا له من
اسم مضحك ... ولكن قد فات الوقت على تبديله . والان كيف تسرى
عملك مع الانصار وراء الخطوط ؟ انه التعبير الروسي لاعمال العصابات .

- انه عمل اجبه ، ولا سيما عندما يكون في الهواء الطلق .

- لقد كنت اجبه ، عندما كنت في مثل سنك . يقولون لي ، انك تحسن
نسف الجسور . وانك تزيلها من الوجود ، بطريقة علمية . هذه مجرد
اقوال ، اذ انني لم ارك بنفسني تعمل شيئا . وربما لم يحدث شيء حقا .
فهل تنسف الجسور ؟ ... خذ اشرب هذا ...

وقدم لروبرت كاسا من الكونياك الاسباني ثم قال ... احقا تنسف
الجسور ؟

- احيانا .

- ارجو ان لا تستعمل كلمة احيانا ، في جسرنا المعهود . لا ، دعنا لا
نتحدث عنه . لقد فهمت ما فيه الكفاية عن هذا الجسر . اننا نعيش حياة
جدية ، ولذا ففي وسعنا ان نسخر احيانا . اسمع ، الك صديقات كثير ،
في الجانب الآخر من الخطوط ؟

- لا فليس لدي وقت اضيعه مع الفتيات .

- انا لا وافقك على ذلك . فكلما كانت الخدمة العسكرية اكثر شذوذا ،

كلما تطلبت حياة اكثر شذوذا ، وخدمتك شاذة كل الشذوذ . ثم انك في حاجة الى تشذيب شعرك .

– انني اقص شعري ، عندما اشعر بالحاجة الى ذلك . ولدي الكثير ، مما افكر فيه دون ان اشغل نفسي بالفتيات .

وقال روبرت جوردان متسائلا . . . واي زي يجب ان ارتدي ؟

– لست في حاجة الى زي . ان شعرك على ما يرام . لقد كنت امزح . انك تختلف عني .

قال هذا ومضى يملا القدحين من جديد ثم استطرذ قائلا . . . انك لا تقصر تفكيرك على الفتيات . اما انا فلا افكر مطلقا ، فلماذا افكر ؟ انني جنرال سوفيتي ، وانا لا افكر ابدا . لا تحاول ، ان توقعني في شباك التفكير .

وتنعم احد موظفيه ، وكان يجلس في مقعد . في زاوية مسن الغرفة ، يشتغل في احدى الخرائط ، على لوحة للرسم ، بلغة لم يفهمها روبرت جوردان . . . فقال غولز بالانكليزية . . . صه لا تتحدث ، اليس من حقي ان امزح ، انا كثير الجد ، دائما . والان اشرب هذا وانصرف . لقد فهمت ، اليس كذلك ؟

– اجل ، لقد فهمت .

وتصافح الرجلان ، ثم ادى روبرت التحية ، وخرج ، الى سيارة القيادة حيث كان الرجل المعجوز ينتظره فيها ، وهو نائم ، فمرأ في غواداراما ، وهو ما زال نائما ، ثم الى نافاسيرادا ، حيث اوبا الى كوخ « النادي الالبي » حيث هجع روبرت ثلاث ساعات ، قبل ان يبدءاً رحلتها .

كان هذا اخر لقاء له بغولز ، بوجهه الابيض الغريب ، وعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر ، وانفه الضخم ، وشفتيه الرقيقتين ، وراسه العليق ،

الذي تملوه التجاعيد والندوب ، سيكون في الغد ، خارج الايسكوريال ،
يسير في ظلمة الليل على الطريق ، ورجاله ، وقد دججوا بالسلاح يستلقون
سياراتهم الشاحنة ، ورجال فصائل الرشاشات ، يحملون مدافعهم
الرشاشة ، والدبابات ترفع ، لتقلها الشاحنات ايضا ، ثم يتجه مع فرقته
في هداة الليل ليشرع في هجومه على المضيق ...

ولكن روبرت لا يريد ان يفكر في كل هذا ، فهو ليس من شأنه ، انه شأن
غولز ، فعليه مهمة واحدة ، يجب ان يؤديها ، ومن واجبه التفكير فيها ،
بوضوح ، وان يتقبل الأمور بهدوء ، دون ان يقلق ، او ينزعج ، فالقلق
كالخوف ، سواء بسواء ، كلاهما يعقد الأمور .

وجلس الى جانب الجدول ، واخذ يتطلع الى الماء وهو ينساب امامه بين
الصخور ، وراى وراء الجدول ، بعض الاعشاب التي لا تنمو الا في الماء ،
من الرشاد . فعبر الجدول ، وقطف حزمة منه ، ثم شرع ينظف ما على
جدورها من الوحل في الماء ، وعاد الى مقعده ، قرب كيسه ، واخذ يأكل
الاوراق الخضراء النظيفة الباردة ، وسيقانها ذات الطعم اللاذع ، وركع
بعد ذلك ، قرب الجدول ، ودفع بمسدسه الاوتوماتيكي ، في نطاقه الى ما
وراء ظهره ، مخافة ان يبتل بالماء ، ثم اقمى وقد انكأ على مرفقيه يعب الماء
في جوفه من الجدول ، كان الماء شديد البرودة .

وعندما ارتوى ، رفع رأسه ، فأبصر بالعجوز بهبط من الجرف ، ومعه
رفيق ، يرتدي ملابس الفلاحين السوداء ، وسراويلهم الرمادية ، التي
تبدو كأنها الزي الشائع في المقاطعة ، وقد تمنطق بغدارته ، التي اطلت من
وراء ظهره . لقد كان الرجل حاسر الرأس . وهبط الرجلان الصخور ،
وكانهما عنزتان ... واتجها اليه ، فوقف روبرت جوردان على قدميه
وقال ... تحية ... أيها الرفاق ...

– تحية ... قالها الرجل ، بلهجة تحز بالالم ... وتطلسع روبرت
جوردان ، الى وجه الرجل ، العبوس ، الذي تفره لعينه الكثة . كان
وجهه مدورا وقد التصق بكتفيه . وكانت ميناه صغيرتين ، وفيهما بعض

الحول ، واذناه صغيرتين ، وقد التصقتا براسه . كان رجلا بدينا ، وبلغ طوله خمسة اقدم وعشر بوصات ، وكانت يداه وقدماه كبيرتين . أما انفه فقد تحطم في وسطه ، وفمه ، مشروم من طرفه .

واخى الرجل العجوز راسه ، مشيرا الى الرجل ، ثم ابتسم ... وقال ... انه الرئيس هنا ، وهو رجل قوي للغاية .

فقال روبرت مبتسما - في وسعي ان ارى ذلك ... انه لم يشعر بالراحة السى هذا الرجل .

وقال الرجل صاحب الفدارة - هل معك ما يثبت هويتك ؟

واخرج روبرت جوردان ، ورقة مطوية من جيب قميصه ، وقدمها الى الرجل ، ففتحها ، متطلعا اليها ، وفي عينيه بعض ملامح الشك ، ثم اخذ يقلبها بين يديه .

وادرك روبرت ، ان الرجل لا يعرف القراءة ، فقال له ... انظر السى الختم .

واشار الرجل العجوز الى الختم ، واخذ صاحب الفدارة يدرسه بعينين فاحصتين ويقبله بين اصابعه ... ثم قال ... اي ختم هذا ؟

الم تره من قبل ؟

- لا .

- هناك ختمان ، احدهما ختم دائرة الاستخبارات العسكرية ، والثاني ختم القيادة العامة .

- اجل لقد رايت هذا الختم من قبل . ولكننى انا القائد هنا ... ماذا تحمل فى الكيسين ؟

فقال العجوز - متفجرات ...! لقد عبرنا الخطوط فى ظلمة الليل امس ،

وقد حملنا هذه المتفجرات عبر الجبال ، طيلة اليوم .

فقال صاحب الفدارة - في وسمي ان استعمل المتفجرات ... قال هذا
واعاد الى روبرت ورقته ، واخذ يتطلع اليه ، بعين تنضح بالشك : « اجل ،
في وسمي ان استخدم المتفجرات . فهل اثبت لي بكمية كبيرة ؟

فقال روبرت ... انا لم آت لك ، بأية متفجرات . انها لهدف آخر .
ما اسمك ؟

- وماذا يهكم اسمي ؟

فقال العجوز - اسمه بابلو .

وقال روبرت - لقد سمعت الكثير عنك من الامور الطيبة .

- ماذا سمعت عني ؟

- سمعت انك من خيرة قادة حرب العصابات ، وانك مخلص للجمهورية
وانك تبرهن على اخلاصك باعمالك ، وانك رجل صارم وشجاع . وقد
حملت اليك تحيات القيادة العامة .

- واين سمعت كل هذا ؟

- لقد سمعته في كل مكان بين بويتراغو والايسكوريال ...

- ولكنني لا اعرف احدا في بويتراغو او ايسكوريال ...

- هناك كثيرون ، في الطرف الاخر من الجبال ، لم يكونوا هناك قبلا .
من اين انت ؟

- من افيللا . ولكن ماذا تريد ان تفعل بالمتفجرات .

- اريد ان انسف جسرا .

- اي جسر ؟

- هذا شغلي .

- اذا كان الجسر في هذه المنطقة ، فهو شغلي . فليس في وسعك أن تنسف جسوراً ، على مقربة من المنطقة التي تعيش فيها . اذ عليك ان تعيش في منطقة ، وان تعمل في منطقة اخرى . فكل من استطاع ان ينجو بعد سنة من العمل ، يعرف شغله .

فقال روبرت - ولكن هذا شغلي ، على كل حال ، في وسعنا ، ان نبحت الموضوع معا . او تريد ان تساعدنا في موضوع الكيسين ؟

فرد بابلو وهو يهز رأسه - لا .

والتفت اليه الرجل العجوز فجأة ، واخذ يتحدث اليه بسرعة ، وبلهجة تنطق بالغضب والهياج ، وبتعابير لم يكن في وسع روبرت ان يتابعها تماما . وبدا انسيلمو وكأنه يقرأ في كتاب ، انه يتحدث باللهجة القشتالية القديمة ، وكان يبدو وكأنه يقول له : هل أنت وحش ؟ اجل ، هل أنت حيوان ؟ نعم . نعم . هل عندك عقل ؟ لا ، لا ، ابدأ . فما نحن نأتي الى هنا لاكمال عمل بالغ الاهمية ، ثم تأتي انت ، مطالباً بعدم ازعاج مسقط راسك . وتقدم مصلحة جحرك ، الذي تعيش فيه كالثعالب ، على مصلحة الانسانية ، وعلى مصلحة شعبك . ثم بدأ ينهال عليه بالشتائم والسباب ، قائلاً ، هيا ، احمل هذا الكيس .

واحنى بابلو رأسه ثم قال : على كل منا ، ان يعمل ما يستطيع اداءه . وفقاً للطريقة التي يجب ان يتم فيها العمل . فأتانا أعيش في هذه المنطقة ، واعمَل فيما وراء سيفوفيا . ولو قمت بأي اضطراب هنا ، فسيطاردوننا في هذه الجبال . ونحن لا نستطيع العيش فيها ، الا لاننا لا نقوم فيها بأي عمل . هذا هو مبدأ الثعالب .

وقال انسيلمو بمرارة - اجل . انه مبدأ الثعالب الذي تطبقه ، عندما تحتاج الى مبدأ اللدئاب .

وقال بابلو ، وقد ادرك روبرت ، انه سيحمل الكيس اخيراً - ولكنني

ذئب اكثر منك .

فرد انسيلمو وهو يضحك ساخرا . . . انت ذئب اكثر مني وانا في الثامنة
والستين . ثم بصق انسيلمو على الارض وهز راسه .

وقال روبرت ، وهو يحاول تهدئة الجو - هل بلغت هذا العتي من العمر
- سأبلغ الثامنة والستين في شهر تموز .

وقال بابلو - اذا قدر لنا ان نعيش حتى ذلك الشهر . . . واتجه الى
روبرت يقول . . . دعني اساعدك في حمل هذا الكيس ، ودع الآخر
للعجوز . فهو قوي البنية .

فرد روبرت - لا ، سأحمل انا الكيس .

فقال العجوز - كلا ، دعه لهذا الرجل القوي .

وقال بابلو ، وفي صوته رنة حزن ازعجت روبرت ، واقلقتة . . . كلا ،
ساحمله انا .

- اذن اعطني الفدارة .

وعندما ناوله اياها بابلو ، وضعها على ظهره ، ثم بدأ ، يرتقي مع الرجلين
الآخرين الجرف ، وهما يصعدان امامه ، بثقل واعياء حتى وصلوا جميعا
الى بقعة خضراء تتوسط الغابة . ومروا بطرف المرج الصغير ، واخذ
روبرت يخطو ، بنشاط الآن ، وقد استراح من العبء الثقيل الذي كان
يحملة قبل مدة قصيرة على ظهره والذي حمل العرق على الانصباب منه .
ولاحظ ان الاعشاب ، قد قطعت قبل مدة قصيرة ، في عدة اماكن ، كما
رأى طريقا ضيقا ، وقد تركت الخيل التي مرت به اخيرا اثارها ، من روث
وما شابه ذلك في اكثر من مكان . وادرك . انهم يأتون بخيولهم الى هذا
المكان في الليل ، لترعى ، ثم يعودون بها الى الغابة في وضع النهار ، لاختفائها
عن عيون الاعداء . وتساءل عن عدد الخيول التي يملكها بابلو هذا .

وتذكر انه رأى ملابس بابلو وقد اهترت في أكثر من موضع ، ولا سيما عند ركبتيه وفخذيته . . . وعاد به خياله الى هذه اللحظات من الحزن ، التي طافت بوجه الرجل ، والتي لم يحبها ، ومثل هذا الحزن علامة سيئة ، فهو يسبق عادة ، أحد امرين ، اما التخلي عن قضية ، او الخيانة . انه الحزن الذي يسبق عادة افشاء السر .

ورأى امامه حصانا يصهل بين الاشجار ، كانت الغابة كثيفة ، والنور فيها ضئيلا ، اذ لا تنفذ اشعة الشمس ، الا من الفرجات الضيقة القائمة بين اعالي اشجار الصنوبر ، وعندما اقترب الرجال ، اتجهت اليهم الخيل بابصارها ، ورأى على مقربة من جذع شجرة ، عددا من الاسرجة ، وقد كومت فوق بعضها البعض .

وتوقف الرجلان عن السير ، وادرك روبرت ان عليه ، ان يمتدح هذه الجياد المظهمة . وقال ملتفتا الى بابلو . . . حقا انها جميلة ، ارى ان لديك افراسك .

كانت خمسة من الجياد ، اخذ روبرت يتفحصها بنظره ، واحدا اثر آخر . وكان بابلو وانسيلمو ، يدركان حقا ، قيمة هذه الجياد ، فوقف صاحبا ، مزهوا بها فخورا ، وقد ضاعت معالم الاسى من وجهه ، يرقبهما بحنان وحب ظاهرين .

وقال انسيلمو . . . كيف تراها ؟

فقال بابلو - لقد سلبتها كلها . . . وشعر روبرت بالسرور وهو يسمع ما رافق هذا القول من زهو وكبرياء ، ثم اشار الى جواد منها اشقر ، في جبهته شعر اصهب ، واحدى قوائمه بيضاء . . . هذا حصان رائع .

فقال بابلو - كلها جياد رائعة ، اتفهم في الخيل ؟

- اجل .

– هذا يحسن الوضع . اترى عيبا في هذه الجياد ؟

واحسن روبرت ، ان الرجل الامي ، الذي لا يعرف ان يقرأ ورقة ، يريد الآن ، اختبار معلوماته . . . وكانت الجياد كلها تتطلع الى الرجل . . . فتقدم روبرت منها ، واخذ يتفحصها ثم قال . . . ان الجواد الاحمر الغامق اللون ، يطلع من رجله الخلفية . وقد تصدع سنمه ، وعلى الرغم من ان اصابته قد لا تسوء ، اذا حذي بصورة سريعة ، ومناسبة ، الا ان قدمه هذه ، قد تصاب بأذى شديد ، اذا مشى مسافة طويلة على ارض صلبة .

وقال بابلو – لقد كانت قدمه على هذا الشكل عندما حصلت عليه .

– اما خير جيادك ، وهو الاشهب ، فهناك تورم في الجزء العلوي من عمود ظهره وهو ما لا يعجبني فيه .

– المسألة بسيطة ، فقد اصيب في ظهره قبل ثلاثة ايام ، ولو كان الامر على جانب من الخطورة ، لاشتد التورم في هذه المدة .

واخذ بابلو يعرض عليه ، الاسرجة ، فرأى بينها سرجين ، عسكريين من الجلد الاسود . . وقال بابلو موضحا . . لقد قتلنا رجلين من الحرس المدني – كانت لعبة ظريفة . . . اليس كذلك ؟

– لقد ترجلا عن جواديهما بين سيفوفيا وسانتا ماريا ديل ريال ، ليطلبنا من احد سائقي العربات اوراقه . وقد تمكنا من قتلهما ، دون ان نلحق بالجوادين أي اذى .

– هل قتلت في حياتك عددا كبيرا من رجال الحرس الوطني ؟

– اجل عددا كبيرا ، ولكنني لم افلح في عدم الحاق الاذى بالجياد الا في هذا الحادث .

وقال انسيلمو – لقد كان بابلو ، هو الذي نسف قطار اريغالو . اجل انه بابلو .

فرد بابلو – كان معنا رجل غريب قام بعملية النسف ، هل تعرفه .

– ما اسمه ؟

– لا اذكر ، فقد كان اسمه غريبا ، نادرا .

– وما شكله ؟

– كان اشقر الشعر ، مثلك تماما . ولكنه لم يكن طويلا . وكانت يداه ضخمتين وانفه مكسورا .

– كاشكين ، لا ريب انه كاشكين .

– اجل ، قلت ان اسمه غريب نادر ، مثل هذا الاسم . ماذا حل به ؟

– لقد مات منذ شهر نيسان .

– هذا مصير كل انسان . وهذه هي نهايتنا جميعا .

فقال انسيلمو – مصير كل انسان الى الموت ، ماذا دهك ايها الرجل ؟
قل ما في فؤادك ؟

فرد بابلو ، وكأنه يخاطب نفسه ، وكان يتطلع الى جياده بنظرة تنطق بالحزن – انهم اقوياء ، ولن تستطيع ان تدرك . ما هم عليه من قوة . انني اراهم يزدادون قوة كل يوم ، وتصل اليهم اسلحة جديدة ، وكذلك المعدات . وانا اقف هنا مع هذه الجياد . فما الذي آمل فيه . ان يصطادوني واموت . لا شيء غير هذا .

فقال انسيلمو – في وسعك ان تصطادهم كما يصطادونك .

– لا ، لم يعد لي مجال . واذا تركنا هذه الجبال ، الآن ، فالى اين نمضي ، قل ، اجب على سؤالي ، اين نمضي ؟

– في اسبانيا كثير من الجبال ، في وسع الانسان ان يذهب الى سيراى غريديوس ، اذ يترك هذه الجبال .

– لا ، بالنسبة الي . لقد تعبت من الطراد . اننا نشعر بالراحة هنا .

والآن اذا نسفت جسرا هنا ، نسيطاردوننا . واذا عرفوا اننا هنا ،
وطاردونا بالطائرات فسيعثرون علينا . واذا بعثوا الينا بالمغاربة ، فانهم
يعثرون علينا ، وعلينا ان نذهب . لقد مللت كل هذا . هل تسمع ؟ ...
وانت ايها الغريب ، بأي حق ، تأتي الى هنا ، وتصدر الي امرك ، بما
يجب ان افعله .

– انا لم اصدر اليك اي امر .

– ولكنك ستصدره ، فهناك ، مصدر الويل ... قال هذا و اشار الى
الكيسين الثقيلين .

ووقف الرجال الثلاثة . امام الجياد ، وكانت الشمس ، تنفذ بأشعتها
عبر الاغصان . وركل بابلو احد الكيسين ، بقدمه ثم قال ... هذا هو
مصدر الشر .

– لقد جئت هنا ، اطيع امرا . اجل لقد حملت الأوامر ، التي اصدرها
اولئك الذين يوجهون دفة الحرب . فاذا طلبت منك ان تساعدني ، فلك
الحق في ان ترفض ، وسأبحث عن العون عند آخرين . يضاف الى هذا
انني لم اطلب مساعدتك بعد . ولكن علي ان اتفد الامر الذي تلقيته ، واود
ان اؤكد لك اهميته . اما انني غريب ، فهذا ليس ، بخطئي . كنت افضل
لو ولدت في هذه البلاد .

– ان كل ما يهمني الان . هو ان لا يلحق بنا ازعاج في هذه المنطقة
وهذا واجبي اليوم نحو من معي . ونحو نفسي .

وقال انسيلمو – نحو نفسك ، اجل نحو نفسك ونحو جيادك . لقد
كنت معنا حتى صرت صاحب جياد . اجل لقد غدوت رأسماليا .

– لا . انك تظلمني ، فانا اعرض الجياد طيلة الوقت لخدمة القضية .

لا انك لا تخدم القضية الا بعض الوقت . هذا رأيي . انك تريد ان
تسرق ، وان تأكل وان تقتل . اما ان تحارب فلا .

– أنك عجوز ستسبب لنفسك المتاعب بسلاطة لسانك .
– انني عجوز ، ولكنني لا اخاف احدا . يضاف الى هذا انني لا املك
جيدا .

– انك عجوز ، قد لا تعيش طويلا ...

– انني عجوز ، سأعيش حتى اموت . وانا لا اخشى الثعالب .

ولم ينبس بابلو ببنت شفة ، وانما حمل احد الكيسين .

وحمل انسيلمو الكيس الاخر ، وهو يقول ... ولا اخشى الذئاب ايضاً ،
اذا كنت منهم .

فقال بابلو – اغلق فمك . انك عجوز مهتار ، كثير اللجاجة .

– ولكنني اعمل كل ما اعد به ... وانا جائع الان ، وعطش . سر يا
قائد العصابات بوجهك الحزين ، وقدنا الى ما ناكله .

حقاً لقد كانت البداية سيئة ، هذا ما فكر به روبرت جوردان . ولكن
انسيلمو رجل لا كالرجال . يا لهؤلاء الناس ما اروعهم ، عندما يكونون
طيبين ... انهم لا صنو لهم عندما يكونون من الاخيار ، ولا مثيل لهم
عندما يكونون من الاشرار . لا ريب في ان انسيلمو ، كان يعرف ، ما هو
مقدم عليه ، عندما جاء الى هذا المكان ... وقال روبرت لنفسه ...
ولكنني لا احب هذا الوضع ، اجل انني لا احبه .

وكانت العلامة الطيبة الوحيدة ، ان بابلو قد حمل الكيس ، وترك له
غدارته . لعله هذا النوع الحزين دائما من الرجال ...

ومضى يحاور نفسه قائلاً ، لا ، لا تحاول خداع نفسك ، انك لا تعرف
هذا الرجل من قبل . ولكنك تعرف الآن ، انه يتجه في طريق الشر ، بسرعة
هائلة ، ودون ان يحاول اخفاء نيته . وعندما يشرع في اخفائها ، يكون
قد وصل الى قرار . هذا ما يجب ان تتذكره . فعندما يبدي لك اية اشارة

ودية ، عليك ان تتأكد من انه قد حزم امره ، واتخذ قراره . وهذه الجياد انها طيبة واصيلة ، وجميلة . ولا ادري ، ما تثيره هذه الجياد في نفس صاحبنا . لقد كان العجوز على حق . لقد جعلت الجياد منه رجلا غنيا ، وعندما شعر بالثروة ، ود ان يتمتع بالحياة . ولا ريب في انه سيشعر عما قريب ببعض المرارة ، لانه لا يستطيع الانتماء الى نادي الفرسان . يا بابلو المسكين . لقد اخطأ فارسه .

واحس ببعض الارتياح لهذه الفكرة . وتطلع امامه ، فرأى الرجلين يحملان الكيسين ، وهما يسيران امامه . انه لم يهزل طيلة النهار ، اما وقد حضرته النكتة الآن ، فقد شعر ببعض التحسن . وقال لنفسه ، انه قد فدا واحدا من هؤلاء الناس لا يتميز عنهم بشيء . فها هو الحزن يخيم عليه ايضا ، ولقد كان حزينا ولا شك اثناء مقابلته لغولز . فقد افزعته المهمة بعض الشيء . هل كان فزعه ، خفيفا ، او عنيفا . لقد كان غولز مرحا ، وكان يريد منه ، ان يسخر ويمزح ، ولكنه ظل محتفظا بجموده وحزنه .

لقد كان الخيار دائما مرحين . فالمرح ، من الخصال الطيبة ، وهو يرمز الى شيء ابعد منه . انه يرمز الى تمتعك بالخلود ، وانت ما زلت على قيد الحياة . اليس هذا التفكير معقدا . ومع ذلك ، لم يبق من المرحين الا القليل ، اجل لم يبق منهم الا قلة ، وقلة لا تعدو اصابع اليدين . . . واذا ظللت على هذا التفكير ، فانك لن تبقى ايضا . . . اذن فاتجه بفكرك الى ناحية اخرى ايها الرفيق . . . انك لست اكثر من ناسف جسور الان . . . لقد توقفت عن ان تكون مفكرا . . . آه انني جائع وآمل ان يكون بابلو من خيرة من يأكلون .



وصل بهم السير ، عبر الغابة التي تكتظ بالاشجار السامقة ، السى الطرف الاعلى من الوادي الصغير ، ورأى من وراء الاشجار ، المكان الذي يجب ان يكون المعسكر قائما فيه ، تحت تلك الصخرة الشاهقة .

حنا لقد كان المخيم هناك ، وكان مخيما رائعا ، فالعين لا تراه الا اذا وصل المرء اليه ، وادرك روبرت جوردان ، ان مثل هذا المخيم ، لا يمكن ان تحدد مكانه الطائرات ، انه خفي كالكهف الذي لا يرى ابدا ، ولكن الحراسة عليه تبدو ضعيفة ، وهكذا اخذ يتطلع اليه بعناية ، منذ اطلوا عليه .

وكان هناك كهف كبير في سلسلة الصخور ، وقد جلس رجل على مدخل الكهف ، مسندا ظهره الى الصخر ، وقد امتدت ساقاه امامه ، وأسند بندقيته الى الصخر ، كان الرجل ، يقطع بمديته في يده ، عصا يحملها ، فنظر الى القادمين ، محمقا فيهم ، ثم بدأ يصهل كالحصان .

وقال الرجل ... هولا ... من القادمون ؟

فرد بابلو قائلا ... الرجل العجوز ، وشخص يعمل في النسف والتدمير ..

وقذف بابلو ، بالكيس الذي يحمله ، في مدخل الكهف ، وانزل انسيلمو
حمله ايضا ، بينما ، اتكا روبرت جوردان ببندقيته على الصخر .

وقال لرجل الجالس ، ذو العينين الزرقاوين ، والوجه الجميل الذي
يشبه وجوه الفجر ... ابعده الكيس عن الكهف ، فهناك نار في الداخل .

ورد بابلو - انهض انت ، واحمله بعيدا ، الى تلك الشجرة .

ولم يتحرك الفجري ، ولكنه تتم قائلا ... دعه في مكانه ، وانسف
نفسك به ، فسينقذك من اوجاعك .

وجلس روبرت الى جانب الفجري ، وهو يقول .. ماذا تفعل ؟ ..

وعرض عليه الفجري ما يفعله ، دون ان يتكلم ، لقد كان فخا ، ذا اربع
شعب ... لكنه ما لث ان قال ... انه للشعاب ... وهو كان للقضاء
عليها ، وكسر ظهرها ...

وقال انسيلمو - انه يصطاد الارانب ، فهو فجري . واذا ما امسك
بارنب زعم انه ثعلب ، واذا ما صاد ثعلبا ، زعم انه فيل من الافيال .

وقال الفجري ، وهو يبتسم ، متطلعا الى روبرت ، واذا ما صدت فيلا .
فرد انسيلمو - قلت انه دبابة .

- ساصيد دبابة ، اؤكد لك ، ساصيد دبابة وفي وسعك انذاك ان
تقول ما تشاء .

فرد انسيلمو قائلا ... ان الفجر يكثر من الكلام ، ولا يفعلون الا
القلييل .

ولم ينبس الفجري ، ببنت شفة ، وانما اخذ يتطلع الى روبرت جوردان
بينما دخل بابلو الى الكهف ، واشتد الامل في فؤاد روبرت ، ان يكون قد
مضى طلبا للطعام . وجلس الى جانب الفجري على الارض ، واخذت اشعة
الشمس ، المتسللة عبر اوراق الاشجار ، تلمع ساقيه الممدودتين ،
واندفعت رائحة الطعام الى انفه ، من الكهف ، فقد شم رائحة الزيت

والبصل واللحم المشوي ، واخذت معاوّه تتلوى من الجوع .
وقال روبرت للفجري .. في وسعنا ان نحصل على دبابة ، هذا ليس
بالامر العسير .

فرد الفجري ، وهو يشير الى الكيسين ... بهذا الشيء ؟
- اجل ، سأعلمك ، عليك ان تهيء الشراك ، انه ليس بالامر الشاق .
- انت وانا ؟

- اجل ، ولم لا .
وقال الفجري لانسيلمو - هي .. ابعدهذين الكيسين الى مكان امين ،
انهما ثمينان .
ورد انسيلمو - انا ماض اطلب النبيذ ...

وهب روبرت جوردان على قدميه ، وحمل الكيسين ، مبعدا اياهما عن
مدخل الكهف ، واسندهما على جذعي شجرتين متباعدتين . انه يعرف
ما بداخلهما ، وكان يكره ، ان يراهما قريبين من بعضهما ..
وقال الفجري - اثنتي بقدر معك ..

وقال روبرت - وهو يجلس ثانيا الى جانب الفجري .. هل عندكم نبيذ؟
- نبيذ ؟ ولم لا ، عندنا زق مملوء بالنبيذ ..
- وماذا عندكم لتأكل .. ؟

- كل شيء ايها الرجل ، اننا نأكل كالجنرالات ..

- وماذا يعمل الفجر ايام الحرب ؟

- انهم يواصلون الحياة كفجر .

- حقا انه لعمل طيب .

- احسن عمل ... ما اسمك ؟

- روبرتو . وانت ؟

- رافاييل . وهل حديثك عن الدبابة جدي ؟

- طبعا . بكل تأكيد ، ولم لا ؟

وخرج انسيلمو من الكهف يحمل ، جرننا من الحجر ، وقد امتلأ بالنبيذ الأحمر ، القاني ، وبين يديه ثلاثة اقداح ... وقال ... ان لديهم اكوابا ، وكسل شيء ...

ودلف بابلو ، خارجا وراءه .. وهو يقول ... سيكون الطعام جاهزا بعد هنيهة . امعك طباق ؟

ومضى روبرت الى احد الكيسين ، فمد يده في جيب سري ، بداخله ، واخرج علبة من السجائر الروسية ، كان قد حصل عليها من مقر قيادة غولز . وفتح العلبة باصبعه ثم قدمها الى بابلو الذي تناول نحواً من ست لغائف . ثم امسك بها في يده الضخمة الكبيرة ، وتناول لغافة واحدة منها اخذ يتطلع اليها في ضوء الشمس . كانت لغائف طويلة رفيعة ، وفي اسفلها نوع من الفلين ... ثم قال ... انها تحوي الكثير من الهواء والقليل من التبغ . انا اعرف هذا النوع ، فقد كان الرجل الاخر ذو الاسم الغريب يحملها دائما .

وقال روبرت - كاشكين ... ثم قدم العلبة الى الفجري وانسيلمو فتناول كل منهما احدى اللغائف .

وهتف روبرت بهما ... خذا اكثر ، فاخذ كل منهما لغافة ثانية . ولكنه اعطى لكل منهما اربعا اخرى ، فأحنى الرجلان رأسيهما علامة الشكر والامتنان .

وقال بابلو - اجل لقد كان اسمه غريبا .

ومضى انسيلمو يملأ الاقداح بالنبيذ ... وقال وهو يمد احدها الى روبرت ... خذ ، هذا هو النبيذ ، ثم ملأ قدحا ثانيا له وثالثا للفرجي .

وقال بابلو - اليس هناك قدح لي ...

فناوله انسيلمو قدحه ، وعاد الى الكهف ليأتي بقدح رابع ، فملاه ، ثم
فرعوا جميعا الكؤوس ببعضها ، على عادة الندامى .

كانت الخمر رائحة ، ولذيذة المذاق ، واخذ روبرت يتناول قدحه ببطء
وهو يحس ، بالدفاء ، ينتشر في جسده التعب .

وقال بابلو - سيصل الطعام قريبا ... والان قل لي كيف مات هذا
الغريب ذو الاسم النادر ؟

- لقد قبضوا عليه فقتل نفسه .

- وكيف تم ذلك ؟

اصيب بجراح ، وكان يكره ان يؤخذ اسيرا .

- ما هي التفاصيل ؟

- لا ادري لقد كذب ، فقد كان يعرفها ، تمام المعرفة ، ولكنه لم
يرغب في الحديث عنها الان .

- لقد حملنا على ان نعدده باطلاق النار عليه في حالة اصابته بجراح
في حادث القطار ، وعدم تمكنه من النجاة لقد كان يتحدث بشكل
غريب نادر .

وخيم الصمت على روبرت ، فقد اخذ يفكر في كاشكين المسكين .

ومضى بابلو يقول كان يخشى من الانتحار ، كما كان يخاف
من التعذيب .

وقال بابلو - هل قال لكم كل ذلك ايضا ؟

فرد الفجري قائلا : - اجل ، لقد حدثنا جميعا ، بكل شيء .

- وهل كنت انت ايضا في حادث القطار ؟

- اجل لقد كنا جميعا ، هناك .

قال بابلو - كان حديثه غريبا، ولكنه ، كان رجلا شجاعا للغاية .

واخذ روبرت يفكر في كاشكين المسكين ، يبدو ، انه قد اساء للوضع اكثر مما احسن اليه هنا . وكم ود روبرت لو عرف حينئذ ، ان كاشكين على هذا النحو من الثروة ، فانه كان سيعمل حتما على سحبه من هذا المكان . فليس في الامكان ، ان يعهد الى انسان ثرثار بمثل هذا النوع من العمل . ان الحديث من هذا الطراز ، لا يليق برجل في مثل مهمته . وحتى لو كان يحسن اداء المهام ، فانه يسيء اكثر مما يحسن بمثل هذه الاحاديث .

وقال روبرت اخيرا ... لقد كان غريب الاطوار ، واعتقد ، انه كان مصابا بمس في عقله .

ورد الفجري قائلا - ولكنه كان ماهرا في احداث الانفجارات ، وكان شجاعا للغاية .

- اجل ، ولكنه مجنون في الوقت نفسه ، فهذه الاعمال تتطلب دماغا كبيرا وهدوءا اكبر ، وما كان يليق به ، ان يتحدث بهذا الشكل .

وقال بابلو - واذا اصبت انت بجراح ، في حادث الجسر ، فهل تريد منا ان نتركك وراءنا .

فرد روبرت ، وهو يملأ لنفسه قدحا ثانيا من الخمر ... اسمعوا ، اصفوا الي بانتباه ، واسمعوا ما اقوله بوضوح . اذا كانت لي رغبة عند احدكم .. فساطلبها منه في الوقت المناسب .

وقال الفجري - حسنا ، اذن فلا تتحدث الا بما تريد ... آه ، لقد جساء الطعام .

وقال بابلو - لقد اكلت انت .

- ولكن في وسمي ان آكل مرتين ايضا . انظر من يحمل الطعام .

وخرجت من الكهف فتاة تحمل قدرا كبيرا من الحديد . فرأى روبرت وجهها من احدى زواياه . ولكنه رأى في هذا الوجه شيئا غريبا ... وقالت

الفتاة وهي تبتسم ... « هالو ايها الرفيق » فرد روبرت قائلا ... وهو يتحاشى ان ينظر الى وجهها بجماع عينيه « هالو » . ووضعت الفتاة الوعاء المضخم امامه فرأى يديها الالسمراوين الجميلتين . ووقفت الآن تتطلع اليه وهي تبتسم ... كانت اسنانها بيضاء تشرق في وجهها الالاسمر الدافئ . بينما كانت عيناها الرماديتان الضاحكتان في منتهى الروعة والجمال ، وفمها دقيق مستقيم تلفه شفتان ممتلئتان . اما الشعر فبني اسود لفحته الشمس ، فزادته سمرة على سمرة الطبيعية . وقد قص بشكل غريب ، جعله قصيرا اشبه ما يكون بفراء صغير . وتطلعت اليه الفتاة وهي تبتسم ثم رفعت يديها على راسها . لتعدل بها شعيرات خرجت من موضعها . وخيل اليه انها في منتهى الجمال . لو لم يجزوا لها شعرها ، على هذا النحو .

وقالت لروبرت ، وهو يتطلع اليها ... هذه هي طريقي في تمشيط شعري هم وابدأ طعامك ... لا تنظر الي هكذا محملا ، لقد حلقوا لي شعري ، على هذا النحو من فالادوليد ، ولكنه قد نما الآن ...

وجلست امامه ، تتطلع اليه ... فرفع نظره اليها ، وابتسمت ثم بسطت يديها ، على ركبتيها . وامتدت ساقاها ، طويلتين نظيفتين ، من السروال الالذي ترتديه ، ورأى ثدييها الناهدين يكادان يندفعان وراء القميص الرمادي الذي تلبسه . وكان روبرت كلما تطلع اليها احس بشيء ثقيل فسي حلقه .

وقال انسيلمو - ليس لديهم صحون ياكلون فيها . وفي وسعك ان تستعمل مديتك .

وبدا الجميع ياكلون . دون ان يتحدثوا عن الطريقة الالاسبانية المألوفة . كان الغداء ارنبا مطبوخا مع البصل والفلفل الالاخضر ، وبعض الخضار . وقد طبخت في حساء تخلله النبيذ الالاحمر . واحتسى روبرت قدحا آخر من النبيذ وهو ياكل هذا الطعام الذي احسنت الفتاة طبخه . وظلت الفتاة ترقبه طيلة الوقت . اما الآخرون فقد اهتموا بانفسهم وبما ياكلون .

وعندما انتهى روبرت من الاكل تناول قلدح النبيل من جديد ، والفتاة لا تزال تتطلع اليه .

واخيرا قال يخاطب الفتاة ... ما اسمك ؟

ونظر اليه بابلو نظرة سريعة ، ثم هب على قدميه ومضى بعيدا ...

– اسمي ماريا ، وما اسمك ؟

– روبرتو ، هل مضى عليك وقت وانت في الجبال ؟

– ثلاثة شهور .

– ثلاثة شهور ؟ ... قال هذا وهو يتطلع الى شعرها القصير ...

لقد حلقوه لي بالموسى وانا في سجن فالادوليد . وها قد مضى اشهر ثلاثة . حتى نُبت الى هذا الحد . لقد كنت في القطار وكانوا ينقلونني الى الجنوب وهربت مع عدد من المسجونين ، ولكن معظمهم قد اعتقل ، اما انا فنجوت وجئت الى هنا مع هؤلاء .

وقال الفجري – عثرت عليها مختفية بين الصخور ، كنا على وشك ان نمضي . كم كانت قبيحة ايها الرجل . على كل حال حملناها معنا ، وكم مرة فكرنا بان نخلفها وراءنا .

وقالت ماريا – وذلك الرجل الآخر الذي كان مهم في حادث القطار ؟ ذلك الرجل الغريب الاشقر اين هو ؟

– لقد مات في شهر نيسان .

– في شهر نيسان ؟ لقد وقع حادث القطار في نيسان .

– اجل لقد مات بعد عشرة ايام من الحادث .

– يا له من مسكين . لقد كان رجلا شجاعا . وهل تقوم بنفس العمل ؟

– اجبل .

– وهل نسفت قطرا ايضا ؟

- نعم ثلاثة فطر ،

- هنا ؟

- في السيتراماندورا . كنت هناك قبل ان آتي الى هنا . والعمل هنا كثير ، كما ان الكثيرين منا يعملون في السيتراماندورا .

- ولماذا جئت الى هذه الجبال الآن ؟

- لقد حلت محل ذلك الرجل الاشقر هنا . يضاف الى هذا انني اعرف هذه المنطقة منذ عهد بعيد .

- هل تعرفها جيدا ؟

- ليس تماما ولكنني سريع التعلم . وعندي خريطة ممتازة ، ودليل طيب .

- الرجل العجوز ... ؟ انه رجل طيب .

وقال انسيلمو - شكرا لك ...

- وادرك روبرت جوردان انه ليس وحيدا مع الفتاة وان من الصعب عليه ان ينظر الى الفتاة ، لان مجرد النظر اليها ، سرعان ما يظهر اثره في صوته وحديثه ، انه يخالف الآن القاعدة الثانية من قواعد السلوك ، مع الاسبان ، وهي ان يعطي الرجال تبغا ، وان لا يتحدث الى النساء . وادرك فجأة ، انه لم تعد تهمة تلك القاعدة ، فهناك اشياء كثيرة ، لا يريد ان يهتم بها ، وهذه القاعدة من هذه الامور .

وقال لروبرت ... ان لك وجها جميلا للغاية ، وكم كنت اود لو اتاح لي الحظ ان اراك قبل ان يحلقوا شعرك .

- سينمو ، بعد ستة اشهر ، سيكون غزيرا .

وقال الفجري : آه لو رايتها ، عندما نقلناها من القطار ، كانت على درجة كبيرة من القبح ، بحيث تشعر برغبة شديدة في التقيؤ .

- لمن انت يا فتاة ؟ هل انت فتاة بابلو ؟

وضحكت الفتاة ، ثم ربت بيدها على ركبته .

- فتاة بابلو ؟ هل رايت بابلو ؟

- اذن هل انت فتاة رافائيل ؟ لقد رايت رافائيل .

- ولست لرافائيل ايضا .

وقال الفجري : انها ليست لانسان ... انها امرأة غريبة ، انها ليست لانسان ولكنها تجيد الطهي .

وقال روبرت يسالها - حقا ، الست لانسان ؟

- لا ، لست لانسان . لا جدا ولا هزلا . ولست لك ايضا .

- لا ؟ ... قال هذا واحس بشيء يفص في حلقه ... حسنا ، ليس لدي وقت لاضيعه مع امرأة ، وهذا حق وصدق .

وقالت الفتاة ساخرة ... حتى ولا ربع ساعة ؟

ولم ينبس روبرت ببنت شفة ... ولكنه تطلع الى الفتاة ... واحس وكأنه قد فقد القدرة على النطق .

وقال اخيرا ... لقد احمر وجهه خجلا ... هل من عادتك الخجل ؟

- ابدا .

- اذن لم احمر وجهك ؟

- اذن سامضي الى الكهف .

- قفي ، يا ماريبا .

- لا ... سامضي الى الكهف الان .

وتناولت الصفحة التي تناولوا فيها الطعام ، واخذت تخطو ، وكأنها فلو صغير ... ثم قالت ... او تريدون الاقداح ؟

وكان روبرت ، لا يزال يتطلع اليها ، فاحمر وجهها من جديد ... وقالت : « لا تجبرني على ذلك ، فانا لا احب الخجل » .

وقال الفجري ... أتركها في موضعها ... ثم تناول قدحا منها ، فملاه
وقدمه الى روبرت الذي كان لا يزال يرقب الفتاة ، وهي تحني رأسها
دالفة الى الكهف وهي تحمل الوعاء الحديدي الثقيل .

وقال روبرت وقد استعاد هدوءه ... شكراً لك ، هذا آخر كأس .
لقد شربنا الكثير .

- يجب ان ننهي من الجرف . وعندنا اكثر من نصف زق ، حملناه
على ظهر احد الجياد .

فقال انسيلمو - كانت تلك غارة بابلو الاخيرة . ومنذ ذلك اليوم ، لم
يعمل شيئاً .

- وكس عددكم ؟

- سبعة رجال ، وامراتان ؟

- امراتان ؟

- اجل ، زوجة بابلو .

- وأين هي ؟

- في الكهف . فالفتاة لا تجيد الطبخ ، وقد زعمت قبل قليل انها
تجيده . لأرضيها ، اما الحقيقة فهي تساعد زوجة بابلو .

- وما شكل زوجته ؟

- انها متوحشة جدا . واذا كنت تعتقد ان بابلو ، قبيح الصورة ، فعليك
ان ترى زوجته . لكنها شجاعة باسلة . انها اشجع منه مائة مرة .
ولكنها متوحشة .

فقال انسيلمو - لقد كان بابلو شجاعا في البداية ، اجل كان انسانا
جديرا بالتقدير .

- نعم ، لقد تفوق ، على الحمى الصفراء (الكوليرا) ، في عدد الذين
قتلهم ، في بدء الحركة . وكان ضحاياه اكثر عددا من ضحايا التيفوئيد .

- ولكنه فدا منذ مدة ، انسانا مترهلا كسولا ، يخشى أن يموت .
قد يكون هذا راجعا الى انه قتل في البداية عددا كبيرا من الناس لقد قتل
بابلو عددا يفوق ما افناه الطاعون الدملي .

- لكن هذا ليس بالسبب الوحيد ، فهناك ، الثراء الطاريء ، وهناك
ادمانه على الشراب . انه يريد ان يتقاعد الآن كيطل حلبات المصارعة .
ولكنه لا يستطيع .

- لو عبر الخطوط الى ذلك الجانب ، نسيأخذون جياده ، ويجندونه في
الجيش . وانا لا احب ايضا ... العمل في الجيش .
فقال انسلمو - هذا شأن الفجر دائما ...

- اجل ، ماذا يدعوننا الى العمل في الجيوش ؟ هل قمنا بالثورة ، لنعمل
في الجيش ، انتي اتوق الى القتال ، ولكن خارج الجيش :

وقال روبرت متسائلا - ولكن اين الآخرون ؟ ...

وأحسن بخدر لديد ، يتسلل الى جسمه ، من الكؤوس التي احتساها ،
فود لو نام ، وافقى على ارض الغابة التي استلقى عليها ، متطلعا ، الى
هامات الأشجار ، ليبصر من الفرجات القائمة بين اوراقها ، سحب المساء
الصفيرة ، وهي تتجمع ، متجهة في سير وئيد ، عبر السماء الاسبانية
العالية ، نحو سمت الجبال .

ورد الفجري قائلا ... هناك رجلان ينامان داخل الكهف ، وآخران
يقومان بالحراسة ، هناك على ذلك المرتفع ، حيث أقمنا مدفننا . وخامس
يتولى الحراسة بعيدا في المنخفض ، ولعلمهم جميعا من النيام الآن .

وقال روبرت : اي نوع من المدافع هو ؟

- اسمه غريب جدا ، لقد نسيته في هذه اللحظة ، انه مدفع رشاش .

وخيل لروبرت ، انه بندقية اوتوماتيكية ...

– وما وزنه ؟

– في وسع رجل واحد ان يحمله ، ولكنه ثقيل ، وفي اسفله ثلاث قوائم ،
لقد غنمناه في غارتنا الاخيرة ، قبل تلك التي غنمنا فيها النبيذ .

– وكم طلقة عندكم لهذا المدفع ؟

– عدد لا يحصى ، صندوق ضخم وثقيل ...

– وخيل لروبرت ، ان العدد لا يربو على الخمسمائة طلقة .

– وهل تكون العيارات في خزان او في نطاق ، في المدفع ؟

– لا في علبة في اعلاه .

– وادرك روبرت لتوه ، ان المدفع الرشاش من طراز لويس ... ثم قال
موجها حديثه الى الرجل العجوز ... هل تفهم شيئا عن المدافع الرشاشة ؟

– لا ابدا .

– وانتي ؟

– كل ما افهمه ، انها تنطلق بسرعة ، وان انبويه تشتد حرارته ، حتى
لا يكاد الانسان يستطيع ان يمسه بيده .

– وقال انسيلمو ... بازدرء – كل انسان يعرف هذا .

– ربما ، ولكنه طلب الي ان احذثه بما اعرفه عن المدفع الرشاش ، وقد
قلت ما اعرفه . وهو يختلف ايضا عن البندقية العادية ، في انه يواصل
الانطلاق ، طالما انك تضع يدك ضاغطا على الزناد .

– الا اذا نفذ العناد ، او اشتدت الحرارة ، فانصهرت « الماسورة » .

– ماذا تقول ؟

– لا شيء ، كنت اهرف ببعض الكلمات بالانكليزية ، باحثا عن المستقبل .

– يا له من قول غريب ، تبحث عن المستقبل بالانكليزية ؟ هل تستطيع

قراءة الكف ؟

- لا ، ولكن اذا كنت تحسن القراءة ، فارجو ان تقرا لي كفي ، وان تخبرني بما سيقع في الايام الثلاثة القادمة .

- تستطيع امرأة بابلو ، ان تقرا الكف ، ولكنها امرأة شديدة العصبية ، وذات طبيعة متوحشة ، ولا ادري ، اذا كانت ستوافق على ان تقرا لك ما في كفك .

وجلس روبرت ، وتناول قدحا جديدا ، ملاء بالنبيذ ، وشرع يعب منه .. ثم قال .. دعونا نرى هذه المرة الآن . واذا كانت الامور سيئة فلنواجهها فوراً .

- لا . لن ازعجها ، فهي تكرهني اشد الكراهية .

- لماذا ؟

- انها تتهمني بانني مضياح للوقت ..

وقال انسيلمو .. ساخرا .. يا لها من تهمة باطلة !

- انها تكره الفجر .

فاستطرد انسيلمو يقول .. لا شك انها مخطئة !!

- ان فيها دما فجريا . فهي تعرف ما تتحدث عنه . ولكن لها لسانا يقرص ويجلد كالسوط المربع . حقا انها في منتهى الوحشية .

وقال روبرت ... - وكيف تعامل الفتاة ماريا ؟

- خير معاملة ، انها تحبها ، ولكن اذا دنا احد منها ...

فرد انسيلمو - انها تحسن معاملة الفتاة ، وتعني بها خير عناية .

- عندما التقطنا الفتاة بعد حادث القطار ، كانت على جانب كبير من غرابة الاطوار . انها لا تتحدث ابدا ، وتفرق في عويل لا ينقطع ، واذا مسها

انسان ، ارتجفت ، كالكلب الذي بللته المياه . ولم يتحسن وضعها الا منذ ايام . اجل لقد تحسنت اخيرا . وكانت اليوم رائحة في حديثها أليك . وكنا نريد ان نتخلى عنها بعد حادث القطار ، اذ لم يكن من الجدير بنا ان نضيع وقتنا في انقاذ فتاة قبيحة وحزينة ولا قيمة لها . ولكن المرأة العجوز ربطتها في جبل اليها ، وعندما خيل الى الفتاة انها اصبحت عاجزة عن السير ، ضربتها بطرف الجبل ، لترغمها على المشي . ولكن الفتاة عجزت تماما . فحملتها المرأة العجوز على كتفها ، وكنت أتناوب معها في حملها ، اذ كنا نسير صعدا ، في طريق ذلك الجبل الوعر . وعندما لحق بي التعب والانهاك . حملها بابلو .. ولكن لو سمعت ، ما قالته المرأة العجوز لنا ، لترغمنا على ذلك .. حقا ان الفتاة طويلة الساقين ، ولكنها ليست بالثقيلة . فعظامها خفيفة . ولكن مهما كان حملها خفيفا ، فقد كان من الشاق علينا ان نحملها ، ثم نطلق النار خلفنا ، ونعود الى حملها من جديد ، ولا سيما وان المرأة كانت تنهال على بابلو بالحيل ، لترغمه على حملها ، عندما يضعها من يديه ليحشو بندقيته . وكانت الام تأخذ البندقية فتحشوها بالنيابة عنه ، وتنهال عليه ، بالسباب والشتائم . وعندما هبط المساء اصبنسا بعض الراحة . وكان من حسن حظنا ان قوة العدو كانت تخلو من الفرسان

وقال انسيلمو - يبدو ان معركة القطار ، حامية الوطيس ، انا لم اشهدا لقد اشتركت فيها عصابة بابلو ، وعصابة ايل سوردو الذي سنجتمع اليه هذه الليلة ، وعصابتان آخريان من عصابات هذه الجبال . اما انا فكنت قد مضيت الى الجانب الآخر من الخطوط .

وقال الفجري - وكان هناك ايضا الرجل الاشقر ، ذو الاسم الغريب :

- كاشكين .

- اجل ، انه اسم لا يستطيع ان احفظه ، وكان معنا رجلان بعث بهما الجيش الينا ، يحملان مدفعا رشاشا ، ولم يستطع الرجلان ، الخلاص بمدفعهما فخلفاه ورائنا ، وبالطبع لم يكن اثقل وزنا من الفتاة ، ولو كانت المرأة العجوز مهمما ، لما خلفاه ..

ومضى يتذكر ثم قال .. ولا اذكر انني في حياتي سمعت صوتا كصوت ذلك الانفجار ، وكان القطار يسير الهينا ، رايناه يقترب من بعيد ، واحسست بشيء يثور حماسا في صدري . وراينا البخار يتصاعد من القاطرة ، ثم سرعان ما سمعنا صوت الصغير ، يتصاعد منها . واخذ هدير القاطرة يرتفع شيئا فشيئا ، وعندما وقع الانفجار ، ارتفعت عجلات القاطرة الامامية عن الارض ، وتصاعدت الى السماء سحابة كثيفة من الدخان والغبار ، لفت القاطرة التي طارت في الهواء ، لتتقلب بعد قليل على جانبها كحيوان جريح وسرعان ما تعاقبت الانفجارات ، ودوبها يملأ الفضاء .. آه انني لم ار منظرا ، كذلك الذي رايت ، يوم القطار ، الجنود يفرون كالارانب ، والرجال يتساقطون ، هنا وهناك . ووضعت يدي على بندقيتي دون ان اطلق عيارا واحدا ، واذا بيد تنهال علي صغعا .. كانت يد المعجوز ، وهي تهدر قائلة اطلق النار ، ايها الاحمق ، اطلق النار والا قتلتك . وبدأت في اطلاق النار ، وكان من الصعب علي ان احفظ التوازن ، ولكن الجنود يهربون الى سفح الجبل ، كالفيران المدعورة . وعندما هبطنا فيما بعد الى القطار ، لثرى ما يمكننا اخذه منه ، ارغم ضابط جنوده ، تحت وطأة مسدسه ، على الكر علينا . وكان يلوح بمسدسه ، وهو يهتف بجنوده ، فاطلقنا عليه النار جميعنا ، ولكننا لم نصبه ، وانبطح جنوده على الارض واخذوا يطلقون علينا نيرانهم ، وهو يخطو وراهم ، جيشة وذهابا ملوحا بمسدسه ، دون ان نتمكن من اصابته ، واطلق نيرانه على رجاله ، ليرغمهم على النهوض ، لمهاجمتنا ، فاصا باثنين منهم واخيرا اذعنوا لتهديده وسبابه ، فكروا علينا ، وعلى القطار . وسرعان ما عادوا الى الانبطاح ثانية ، يطلقون النار . وسرعان ما غادرنا المكان تحت ستار من النيران الحامية التي اصلاها مدفعنا الرشاش ، وهناك عثرت على الفتاة مختفية بين الصخور بعد ان فرت من القطار ، وركضت معنا . وواصلت هذه القوات مطاردتنا حتى هبط الظلام .

وقال انسيلمو - يبدو ان المغامرة ، كانت شاقة ، ومثيرة .

- كانت اروع ما حققناه من انتصارات .. جملة انطلقت من صوت عميق

واستطرد الصوت قائلاً .. والان ماذا تعمن هنا ايها الفجري الكسول
القدر ، يا سليل ، القدارة ، والنجاسة ؟ ماذا تعمل ؟

ورفع روبرت نظره ، ليرى امرأة في نحو الخمسين من عمرها ، لا تقل
ضخامة عن بابلو ، طويلة القامة ، عريضة المنكبين ، ترتدي قميصا اسود ،
ورداء يعلو زوجين من الجوارب الصوفية الخشنة ، تختفي وراءهما ساقان
غليظتان ، وفي قدميها خف من الحبال ، وعلو قامتها ، وجه اسمر ، اشبه
ما يكون بوجوه تماثيل الصخر . وراى يديها الكبيرتين ، لا تخلوان من
جمال . كما راى شعرها الأسود الغزير معقوصا ' في عقدة تقف على
عنقها ..

وقالت موجة حديثها الى الفجري ، ومتجاهلة الاخرين ... اجبني
ايها القدر .

- كنت اتحدث الى هؤلاء الرفاق . فهذا الرجل يأتي الينا ليعمل
في التفجير .

- اعرف ذلك . قم الان من هنا وخذ مكان اندريه الذي يقوم على
الحراسة في المرتفع .

- سمعا وطاعة ساذهب ... وتطلع الى روبرت وقال ... سأراك ، في
موعد الطعام . فردت المرأة قائلة ... حتى ولا في المنام ... لقد اكلت
ثلاث مرات اليوم . اذهب الآن ، وليأت اندريه .

وقالت لروبرت وهي تمد يدها اليه .. هو لا .. كيف انت ، وكيف
تسير الامور في الجمهورية ؟

- على احسن ما يرام ، انا والجمهورية .

وقالت ، وهي تتطلع اليه مبتسمة ، وقد لاحت له عيناها العسليتان
الجميلتان ... انا سعيدة برؤيتك . هل جئتنا ، لتنسف قطارا آخر .

فقال روبرت ، وقد احس نحوها بالثقة فورا .. لا لقد جئت لنسف
جسر .

- لا ، الجسر شيء تافه ... متى ننسف قطارا آخر ، لا سيما ونحن
نملك الجياد الآن .

- فيما بعد . اما الجسر فعلى جانب كبير من الاهمية والخطورة .

- قالت لي الفتاة ، أن زميلك الذي كان معنا في حادث القطار قد مات .

- اجلس .

- يا للأسف .

- لم ار في حياتي انفجارا كذلك الانفجار . لقد كان رجلا موهوبا . وكنت
راضية منه كل الرضى . اوليس في الامكان ان تقوم بحادث قطار مماثل
الآن ؟ عندنا في الجبال الآن ، عدد كبير من الرجال ، انهم اكثر من الزوم .
وقد بدأ العثور على الطعام ، يصبح مهمة شاقة . ومن الخير ان نخرج ،
لا سيما وعندنا الان الجياد .

- علينا ان ننسف الجسر اولا .

- واين يقع هذا الجسر ؟

- في مكان قريب .

- هذا افضل . دعنا ننسف جميع الجسور في هذه الضاحية ثم نطلق
منها . لقد مللتها . فقد اصبح حشد الناس فيها اكثر من الزوم . وليس
ثمة من جدوى في ذلك . فقد غدت رائحة الننانة لا تطاق ...

وابصرت ببابلو .. ياتي من وراء الاشجار . ثم قالت ... تعال ايها
السكرير القذر . والتفتت الى روبرت وقالت بمرح ... لقد أخذ زجاجة
من الخمر ، ليشربها وحيدا في الادغال .. انه يحتمي الخمر طيلة الوقت .
وهذه الحياة تقضي عليه ..! اسمع ايها الشاب ، انا سعيدة بمجهتك .

وربتت على ظهره ، ثم قالت وهي تمر بيدها ، على عضلات كتفيه ، تحت قميصه الكتاني .. انك اقوى مما ظننت اولا .. حسنا ، انا سعيدة بمجيئك

– وانا سعيد برؤيتك .

سنفهم بعضنا جيدا . هل لك في كأس من الخمر ؟

– لقد شربنا ما فيه الكفاية ... ولكن اتشربين معي ؟

– لا حتى العشاء . انه يحرق فؤادي .. ورات بابلو ثانية وهتفت ..
ابها السكير ، ثم عادت تلتفت الى روبرت ، وهزت رأسها قائلة .. لقد كان رجلا طيبا للغاية ، ولكنه قد انتهى الآن .. والان ، اسمع ، سأحدثك عن شيء آخر ، كن طيبا مع الفتاة ، وكثير العناية بها .. اجل ماريا .. لقد مرت بمحنة قاسية ، هل فهمت ؟

– اجل ، ولكن لم تقولين ذلك ؟

– لقد رايت موقفها منك ، وما تحس به نحوك ، عندما عادت الى الكهف وابتصرت بها ، وهي ترقبك عندما خرجت .

– لقد مزحت معها بعض الشيء .

– كانت في حالة سيئة ، وقد تحسن وضعها الان . ومن الواجب ان تخرج من هنا .

– في وسعنا ان نبعث بها عبر الخطوط مع انسيلمو .

– في وسعك ان تأخذها ، مع انسيلمو ، عندما ينتهي الموضوع .

واحس روبرت بغصة في حلقه ، وهو يقول .. في وسعنا ان نفعل ذلك .

ونظرت اليه زوجة بابلو ، وهزت رأسها ، وهي تقول .. هل كل الرجال من هذا الطراز ؟

– لم اقل شيئا ، انها جميلة ، وانت تعرفين ذلك .

– لا ، انها ليست جميلة ، ولا ريب انك تعني انها بدأت تصبح جميلة ..

الرجال ، ياله من عار علينا معشر النساء ، ان تلدهم . لا . أرجوك ، فانا احديثك بكل جد . اليست هناك اماكن في الجمهورية للعناية بمثل هذه الفئاة ؟

- أجل ، هناك ، اماكن ممتازة ، على الساحل قرب فالانسيا . وهناك اماكن اخرى ايضا ، وبالطبع سيمنون بها هناك احسن عناية ، وتستطيع ان تعمل في تربية الاطفال ، الذين نقلوا من القرى التي جلبونا عنها ، وتعهدهم بها وهم سيدربونها على هذا العمل .

- هذا ما اريده لها ، ان يابلو مولع بها ، وهذا يلعب دوره ايضا في تدميره ، فهو عندما يراها ، يشعر وكأنه مريض ، من الخير ان تذهب الان .

- في وسعنا ان نأخذها ، بعد ان ننتهي من هذا الموضوع .

- وستعني بها الان ، اذا وثقت بك ؟ اتني احديثك وكانني اعرفك منذ امد طويل .

- هذا هو المألوف عادة ، عندما يتفاهم اثنان .

- اجلس ، انا لا اطلب وعدا ، فكل ما هو مقدر آت . اما اذا لم تأخذها فاريد منك ان تعدني بشيء .

- ولماذا لا اخذها ؟

- لانني لا اريد ان تصاب بالجنون ، بعد ان تمضي ائت عنا . لقد خبرت جنونها قبلا ، وانا في غنى عن جنونها من جديد .

- سنأخذها بعد ان ننتهي من قضية الجسر . اذا قدر لنا ان نعيش بعد حادث الجسر ، فسناخذها .

- لا يرضيني ان نتحدث على هذا الشكل ، فالحديث على هذا الطراز ، ياتي بالحظ الحسن .

- لقد تحدثت على هذا النحو ، لكي اعدك فقط ، فانا لست من الذين يتشاءسون .

- دعني أرى يدك ...

وبسط لها روبرت كفه ، فأخذتها المرأة بين يديها الضخمتين ، ثم أخذت تفرك إبهامها فيها ، وتنظر إليها بدقة وامعان . ثم أسقطتها من بين يديها ، ونهضت ، فوقف روبرت أيضا ، وتطلعت إليه دون أن تبتسم .

- ماذا رأيت في كفي ، أنا لا اصدق عادة ، ولذا فلن اخاف .

- لا شيء ، لم أر فيها شيئا .

- لا ، لقد رأيت ، ماذا رأيت .. هذا مجرد فضول ، فأنا لا أومن بمثل هذه الامور .

- بماذا تؤمن إذن ؟

- أومن بأشياء كثيرة ، الا هذه ؟

- بماذا ؟

- أومن بعملتي .

- أجل ، لقد رأيت هذا .

- ماذا رأيت أيضا ..

ردت بعمرارة ... لم أر شيئا آخر ، يبدو ان موضوع الجسر شاق كما تقول ؟

- لم اقل انه شاق ، قلت انه مهم .

- ولكن يمكن ان يكون شاقا ؟

- حتما ، وسأمضي الان لاراه . كم رجلا عندك هنا ؟

- خمسة يمكن الاعتماد عليهم ، اما الفجري ، فلا نفع فيه ، وان كانت نواياه طيبة ، ان قلبه طيب . اما بابلو ، فقد فقدت الثقة فيه .

- كم رجلا عند ايل سورودو ، يمكن الاعتماد عليهم ؟

- ثمانية ... سنرى الليلة على كل حال ، أنه آت إلنا ، وهو رجل عملي واقعي ، ولديه بعض المتفجرات ، ولكنها ليست كثيرة .. وستحدث إليه .

- أبعث في طلبه ؟

- انه يأتي كل ليلة ، فهو جار لنا ، بالإضافة الى انه صديق ورفيق .

- ما رأيك فيه ؟

- رجل طيب ، وواقعي ، لقد كان رائعا في قضية القطار .

- وما الموقف بالنسبة الى المصائب الأخرى ؟

- اذا ابلغناها في الوقت المناسب ، أمكننا حشد خمسين بندقية ، يمكن الركون إليها الى حد ما .

- الى أي حد ؟

- الى الحد الذي تسمح به خطورة الوضع .

- وكم طلقة عندنا لكل بندقية ؟

- نحو من عشرين ، والأمر يتوقف على كل حال ، على العدد الذي سيعمدونه لهذا العمل ، اذا وافقوا على الاشتراك فيه ، فعليك أن تتذكر ، أن قضية الجسر لا تنطوي على غنائم ، أو أموال ، وإنما تنطوي على الخطر بالنسبة الى تحفظك في الحديث ، ثم هناك ما هو الأهم ، وهو احتمال المضي عن هذه الجبال ، أن الكثيرين سيعارضون في موضوع الجسر .

- واضح ...

- لذا من الخير ، عدم الخوض في الحديث عنه ، الا عند الضرورة .

- انا متفق معك .

- أذن بعد أن تدرس موقع الجسر ، فستحدث الليلة الى ايل سوردر .

- سأنزل الآن مع انسيلمو .

– ابقظه اذن .. انريد غدارة ؟

– شكرا ، قد يكون وجودها نافعا ، ولكنني لن استعملها . انا ذاهب
لادرس لا لاثير المشاكل . شكرا لك على حديثك . لقد احببت فيك
طريقتك في الحديث ...

– انا احاول التحدث بصراحة .

– اذن قولي ماذا رأيت في يدي ؟

– لا . لم ار شيئا . امضي الان الى جسرک ، وسأعني بمتاعك .

– أسدلي عليه شيئا ، ولا تدعي احدا يلمسه . من الخير ان يظل في
مكانه .

– سأغطيه بشيء ، ولن يلمسه احد ... امض الآن في طريقك .

ووضع روبرت يده على كتف انسيلمو بهزه ، من سباته .. وهتف ..
انسيلمو .. وفتح العجوز عينيه ، وقال .. اجل .. دعنا نذهب .



هبط الرجلان المائتي ياردة الاخيرة ، وهما ينتقلان ، بحرص وحذر من شجرة الى ثانية ، مختفيين في ظلالها . واخذوا الان ، ينظران عبر ما تبقى من اشجار الصنوبر على سفح الجبل ، الى الجسر الذي يقع على بعد خمسين ياردة فقط . وكانت شمس الاصيل ، التي ما زالت تلقي باشعتها، من وراء كتف الجبل ، تظهر الجسر قائما معتما . يقوم فوق تلك الهوة الهائلة من الخواء ، الهابط الى الوادي السحيق . كان الجسر من الفولاذ وهو ذو معبر واحد ، والى جانبيه يقوم ملاذان لرجال الحرس ، ياويان اليهما عند الحاجة . اما الطريق فوق الجسر ، فتتسع لسيارتين في آن واحد ، وفي الهوة السحيقة ، ينساب جدول ، صغير ، بمياهه البيضاء المندفعة بين الصخور والجنادل ، ليتصل ، بالنهر الرئيسي عند المضيق .

وكان روبرت يواجه اشعة الشمس ، ولدا لم يستطع ان يرى من الجسر الا خطوطه المريضة . وبدات الاشعة تتضاءل شيئا فشيئا ، السى ان اختفت نهائيا ، وعندما تطلع عبر الاشجار الى القمة العالية الداكنة التي اختفت ورائها الشمس ، رأى انه لم يعد يرى القا ، وانما يرى انحدارا جبليا ، تغطيه الخضرة في كل مكان ، وهناك بعيدا على القمة ، كتسل

تلجئة ، تنتشر هنا وهناك .

وعاد يتطلع الى الجسر من جديد ، ليدرس ، على ما تبقى من ضوء النهار، تركيبه وبنائه . وادرك ان قضية نفسه ليست بالامر العسير . وتناول من جيبه دفترا صغيرا ، اخذ يرسم عليه بعض الخطوط السريعة ، ولم يحسب ، عندما رسم هذه الخطوط حساب ، المتفجرات التي سيضعها بل ترك تقدير ذلك ، الى وقت اخر . اذ كان كل ما يريد تحديده الآن ، هو الموقع الذي يجب ان يضع فيه المتفجرات ، لينسف احدى دعائمه ، فتهدم ، به الى الهوة السحيقة . وقرر ان في التوسع انجاز المهمة باناة ودقة ووفقا للاسلوب العلمي بست متفجرات ، توضع بشكل متعاقب بحيث يتوالى انفجارها ، كما يمكن انجازها ايضا بمتفجرين كبيرين يوضع كل منهما في ناحية من الجسر ، على ان ينفجرا في وقت واحد . ومضى يرسم بسرعة ، وهو يحس بالسعادة ، لانه اصبح اخيرا مسيطرا على المشكلة ، ولانه قد بدأ اخيرا في تنفيذ المهمة الموكلة اليه . وانتهى اخيرا من الرسم ، فاعاد القلم الى موضعه ، ثم اخفى دفتره في جيبه .

وبينما كان روبرت مستغرقا في عملية الرسم ، كان انسيلمو يراقب الطريق والجسر وملاذ الحرس . وقدر انهما إقتربا من الجسر اكثر من اللزوم ، وان سلامتهما أصبحت معرضة للخطر ، ولذا ، ما كاد روبرت ينتهي من الرسم ، حتى شعر بالراحة تعاوده .

وعندما انتهى روبرت من وضع دفتره في جيبه ، وانبطح وراء شجرة الصنوبر متطلعا من ورائها ، وضع انسيلمو ، يده على ذراعه ، مشيرا بأصبعه . ففي ملاذ الحرس المواجه لهم ، كان الخفير جالسا ، وقد امسك بندقيته بيده ، بعد ان وضع حربته في رأسها ، وكان الحارس يدخن لفافة من التبغ ، وقد ارتدى فوق رأسه ، قبعة مخيطة ، وبالطبع لم يكن في وسعهما من مسافة خمسين ياردة ، ان يتبيننا وجهه تماما ، وأعد روبرت منظره ، ووضع على عينيه ، فرأى الجسر امامه واضحا كل الوضوح ، وابصر بوجه الحارس المغضن ، ووجنتيه الفائرتين ، كما شاهد رماد سيكارتته وبريق حربته ، لقد كان وجه فلاح ، بلحيته الكثة ، والعينين وقد

احاط بهما حاجبان كثيفان . وراى روبرت يديه الفليظتين تمسكان
بالبنديقية ، والى جانبه ، زق خمر من الجلد ، وبعض الصحف ، وبحث
روبرت بعينيه عن جهاز الهاتف فلم يره . وتطلع الى الاسلاك ، فلعل
الجهاز قائم فى الزاوية التى لا تنكشف امامه ، ولكنه لم ير اثرا للاسلاك ،
كان ثمة خط هاتفي يسير عبر الطريق ، ممتداً فوق الجسر .

ومد روبرت المنظار الى انسيلمو ، ولكن الرجل العجوز ، لم يأخذه
واكتفى بهز رأسه ، قائلاً . . لقد رأيت . .

ولم يستطع روبرت أن يرى شيئاً فى الملاذ الثانى القائم عند الطرف الآخر
من الجسر ، فالطريق العريضة الحسنة التعميد والممتدة فوق الجسر
تنحرف الى اليسار فى نهايته ، ثم تختفى عن النظر عند المنعطف يمتد الى
اليمن ، وراى روبرت ، أن المنعطف يتسع هناك ، بعد أن نحت جانب من
الصخر ، ليصبح جزءاً من الطريق ، أما من الجانب الآخر ، فهناك قوائم
مرتفعة من الاحجار ، موضوعة فى صف طويل ، لترمز الى انتهاء الطريق
وامتداد الوادى السحيق .

وقال روبرت سائلاً انسيلمو – واين المركز الآخر للحرس ؟

– على بعد خمسمائة متر ، وراء المنعطف ، فى كوخ العامل الذى يشرف
على تصليح الطريق ، والمنحوت فى قلب الصخر .

– وكم عدد الرجال فيه ؟

كان يتطلع من جديد الى الحارس . رآه ، يطفىء سيجارته ، ثم يخرج ،
حقيبة جلدية ، من جيبه ، ملأى بالطبايق ، ويفتح ورق السيكاارة التى
اطفاها لتوه ، ليخرج ما فيه من تبغ ، يضمه الى ما فى الحقيبة ، ووقف
الحارس فاسند بندقيته الى الجدار ، وتشاءب متمطياً ، ثم عاد فحمل
بندقيته ، واضماً اياها على كتفه ، وخرج يسير على الجسر . وانبطح
انسيلموا تماماً على الأرض ، بينما وضع روبرت منظاره فى جيبه ، واختمى

تماما وراء شجرة الصنوبر .

وقال انسيلمو ، وهو يهمس في اذنه ، هناك سبعة رجال وعريف . هذا ما علمته من الفجري .

– سنمود الآن ، حالما يهدا الرجل ، اننا قريبان جدا منه .

– او رأيت ما وددت ان تراه ؟

– اجل ، لقد رأيت كل ما انا في حاجة الى رؤيته .

وبدا الطقس يبرد بسرعة مخيفة ، بعد ان اختفت الشمس وراء الافق ، وأخذ الظلام يدب الى الكون شيئا فشيئا ، بينما يختفي وهج الشفق ، وراء الجبل السامق .

وقال انسيلمو لرفيقه ، عندما رأى الحارس ، يعبر الجسر متجها الى الملاذ الثاني وقد انعكس نور الشفق على حريته ، واختفى قوامه ، وراء معطفه الاسود المصنوع من الخيش ، وما هو رايتك في الوضع ؟

– على خبير ما يرام .

– يسعدني هذا ، هل نمضي الان ؟ فليس ثمة من خطر في ان يرانا .

كان الحارس واقفا ، في نهاية الجسر القصوى ، وقد ادار ظهره اليهما ، ومن الهوة السحيقة ، ارتفع هدير الماء ، وهو يصطدم بالجنادل ، ووراء هذا الهدب سَمَا أزيلا يتعالى ، ورفع الحارس رأسه ، الى السماء ، فتطلعا الى حيث بتطلع وابصرا بثلاث طائرات ، تطير على شكل حرف (V) ، وتهب السماء ، مسرعة في طريقها ، بينما انعكست اضاءة الشمس المختفية وراء الافق ، عليها .

وقال انسيلمو – هل هي طائراتنا ؟

- يخيل الي ذلك .. لكنه لم يكن وانقا ، اذ من الصعب على الانسان ان يميز الطائرات ، وهي على مثل هذا الارتفاع ، فقد تكون طائرات تقوم

بالدورية الليلية لأي من الفريقين ، ولكن في وسعك ان تنسب دائما ،
الطائرات المطاردة الى فريقك ، لانها توحى بالثقة ، اما القاذفات فمسللة
اخرى .

واحس انسيلمو بنفس الشمور وقال .. انها طائراتنا ، فقد ميزتها ،
انها من طراز موسكا .

– حسنا ، يبدو لي انها من طراز موسكا

– انها من طراز موسكا حتما .

وكان في وسع روبرت ، ان يتطلع اليها بمنظاره ليتأكد لتوه ، ولكنه آثر
ان لا يفعل ذلك ، ولا يهमे في هذه الليلة بالذات ، لمن تكون هذه الطائرات
واذا كان الرجل العجوز يريد لها ، ان تكون لفريقه ، فلماذا يحرمه من هذه
الرغبة . اما وقد ابتعدت عن مدى النظر باتجاه سيغونيا ، فانها لم تبد
تلك الطائرات الخضراء ، ذات الجناح الخفيض الاحمر ، الذي يسميه
الروس « بونغ بي ٣٢ » ويسميه الاسبانيون موسكا ، وبالطبع لم يستطع ،
روبرت تمييز الالوان من هذا المدى البعيد ، ولكن تركيبها ليس من النوع
الذي يعرفه . حتما انها دورية فاشية تعود الى قاعدتها .

وكان الحارس لا يزال واقفا في الطرف النائي من الجسر ، وقد ادار
لهما ظهره . وقال روبرت .. هلم بنا .. وشرع يرتقي الجبل ، ماشا
بحرص ، يختفي وراء كل شجرة ، ووراءه انسيلمو يفعل فعله ، حتى
اختفيا عن النظر .. وعندما اصبحا في منجاة من ان يراهما الحارس ، عاد
انسيلمو ، يسبقه ، في الارتقاء ، بثبات .

وقال العجوز .. لدينا سلاح جوي قوي .

– أجل .

– وسنريح الحرب .

– يجب ان نربحها .

- أجل ، وبعد أن ننتهي منها ، يجب ان تأتي الينا لنصيد في بلادنا .

- ماذا اصيد ؟

- الخنازير ، والدببة والثعالب والوعول ...

- اتحب الصيد ؟

- نعم ، يا رجل ، احبه اكثر من كل شيء . كلنا نصيد في قريتنا . او لا تحب الصيد ؟

- لا ، فانا لا ارغب في قتل الحيوانات .

- اما انا ، فعلى العكس منك . لا ارغب في قتل الرجال .

- ليس هناك من يرغب في قتلهم ، الا المصاب بخلل في عقله . ولكنني لا ارى ما يحصل دون ذلك ، عندما يكون ضروريا . لا سيما اذا كان دفاعا عن قضية .

- ومع ذلك ، فهذا شيء آخر . لقد كان عندي في البيت ، عندما كان لي بيت ، اتياب الخنازير التي قتلتها في الغاب . وكنت احتفظ ، بجلود الذئاب التي قضيت عليها . اجل كنت اصيدها ، في الشتاء ، فوق الثلوج . وفي ذات ليلة من ليالي تشرين الثاني ، وكنت عائدا الى القرية ، قتلت في خارجها ذئبا كبيرا للغاية ، عند الفسق . كان عندي جلود اربعة ذئاب . لقد بليت ، من الاقدام ولكنها جلود ذئاب على كل حال . وكان عندي قرون الوعول ، وهياكل النسور التي حافظت عليها ، بعد ان حشوتها بالملح . انها فاتحة اجنتها ، وعيونها صفراء . وكأنها حية . يالها من اشياء جميلة ، وكنت دائما اشعر بالمتعة عندما اتطلع اليها .

- حقا .

- وعلى باب الكنيسة في قريتنا ، دققت مخلب دب قتلته في الربيع ، عثرت عليه عند سفح الجبل ، فوق الثلوج ، وكان يدحرج جلدا ضخما بعين هذا المخلب .

– ومتى كان هذا ؟

– قبل ست سنوات . وكنت كلما رأيت ذلك المخلب ، كيد الإنسان
تماما ، ولكن على شكل اضخم ، كنت اشعر بالسرور .

– افتخارا واعتزازا ؟

– أجل ، عندما اتذكر معركتي معه عند سفح الجبل في اوائل الربيع .
أما قتل الإنسان للإنسان ، فأمر لا يترك ، اي اثر للذكرى .

– أجل اذ ليس في وسعك ان تدق مخلبه على باب الكنيسة .

– طبعاً ، فمثل هذه الفظاعة تفوق حد التصور ، ومع ذلك فان يد
الإنسان تشبه الى حد ما مخلب الدب .

– وصدر الإنسان لا يختلف ايضا عن صدر الدب ، فاذا ما نزعنا الجلد
من الدب ، ظلت هناك اوجه شبه متعددة في الاوضاع .

– أجل ، فالعجر يعتقدون ان الدب هو اخو الإنسان .

– وهذا ما يؤمن به هنود أمريكا ايضا . فعندما يقتلون دبا ، يعتدرون
اليه ويسالونه الصفح والمغفرة . فهم يضعون جمجمته على احدى الأشجار،
ثم يتقدمون اليها طالبين الغفران ، قبل ان يرحلوا .

– أما العجر ، فيعتقدون ان الدب اخ للإنسان ، لان جسمه اذا ما نزع
عنه جلده اضحى شبيها بجسم الإنسان ، ولانه يشرب الجعة ، ويطرب
للموسيقى ويحب الرقص .

– وهذا ما يعتقدده الهنود ايضا .

– وهل الهنود من العجر ؟

– لا ، ولكنهم يتشابهون معهم في اعتقادهم عن الدب .

– واضح . ويؤمن العجر ايضا انه اخ للإنسان لانه يسرق طلبا للمتعة .

– هل في دمك ، قطرة من دماء العجر ؟

- كلا . ولكنني رأيت الكثيرين منهم . وقد تضاعفت معرفتي بهم بعد الثورة . فهناك عدد كبير منهم يعيش في الجبال . وهم لا يعتبرون قتل الغريب عن عشيرتهم « جريمة » ومع أنهم لا يعترفون بذلك ، إلا انهسا الحقيقة . . ولهم عدد من القوانين التي يعترفون بها في الظاهر ، فقد اصبح عدد منهم أيام الحرب من الأشرار ، كما كانوا في الأيام السالفة .

- أنهم لا يعرفون سببا لهذه الحرب . وهم لا يعرفون لماذا نحارب .

- لا . وكل ما يعرفونه ان ثمة حربا ، وان في وسع الانسان ان يقتل كما كان شأنه في الأيام الخوالي ، دون ان يخشى العقاب .

- وهل قتلت في حياتك يا انسيلمو ؟

- اجل . عدة مرات . ولكن دون ان اشعر بمتعة . فقتل الانسان في رأيي خطيئة . حتى ولو كان من الفاشيين ، الذين يجب ان تقتلهم . فثمة فرق كبير في رأيي بين الانسان والذب ، وانا لا أومن بسحر الفجر ، وشعوذتهم عن الاخوة القائمة بين الانسان والحيوان . انني اكره قتل الانسان .

- ومع ذلك فقد قتلت .

- اجل ، وسأقتل ثانية ، ولكن اذا قدر لي ان اعيش لما بعد هذه الحرب فسأحاول ان احيا ، دون ان الحق اذى بانسان ، مما يغفر لي اخطائي السابقة .

- ومن الذي يغفر لك ؟

- لا ادري ؟ ما دمنا لم يبق لنا في هذه البلاد ، اب او ابن او روح قدس ننال غفرانهم ، لا ادري .

- اليس لك اله ؟

- لا ، ايها الرجل ، طبعا لا ، لو كان ثمة اله ، لما سمح بهذه الفظائع التي رأيتها بعيني ، دع الله لهم .

– انهم يزعمون انه الهمم .

– من الطبيعي ، ان احسن بالحاجة اليه ، اذ نشأت متدينا . ولكنني ارى الان ان يكون كل انسان مسؤولا عن نفسه .

– اذن فانت تطلب المغفرة عن قتلهم من نفسك .

– يخيل الي ذلك ، ما دمت ، قد اوضحت القضية على هذا الشكل . ولكن سواء اكان ثمة اله او لم يكن ، فاني لا اعتقد ان قتل الانسان خطيئة ، فمن الجريمة ان تسلب انسانا حياته ، وقد ارتكبتها عندما يكون ذلك لازما لا مفر منه ، ولكنني لست من طراز بابلو .

– ومع ذلك ، يتطلب الانتصار في الحرب ، ان تقتل اعداءك ، هذه قاعدة اثبتت الايام صحتها .

– واضح ، ففي ايام الحرب ، يتحتم على الانسان ان يقتل ، ولكن لي آراء غريبة .

وكانا يسيران الان متلاصقين في هدأة الليل ، وكان انسيلمو يتحدث بركة ونعومة ، وهو يستأنف الصعود ، ملتفتا الى رفيقه بين الفينة والفينة . . وقال . . ومع ذلك ، فانا لا احب ان اقتل انسانا حتى ولو كان مطرانا ، او ملاكا من اي نوع . وكل ما افرضه على هؤلاء الناس ، ان يعملوا في الحقول كما عملنا ، او في الجبال في قطع الاخشاب ما تبقى من حياتهم ، فيدركون آنذاك لماذا يخلق الانسان ، واحتم عليهم ان يناموا حيث نام ، وان ياكلوا ما ناكل ، ولكن اهم من ذلك كله ، افرض عليهم العمل ، فهذا وحده يعلمهم .

– وترك لهم مجال العيش ليعودوا الى استعبادك ثانية ؛

– ان القتل لا يعلم شيئا ، وليس في وسعك ان تستاصلهم ، فمن بدورهم ينشأ جيل جديد ، يعيش على الكراهية ، والسجن لا يفيد ، فهو يخلق الحقد ، ان ما اریده هو ان يتعلم جميع اعدائنا .

– ومع ذلك فقد قتلت .

- أجل ، لقد قتلت عدة مرات ، وسأقتل ثانية ، ولكن دون ان اشعر بالمتعة ، وعلى الرغم من اعتباري القتل خطيئة .

- والحارس ؟ لقد كنت تهزل عندما تحدثت عن قتله ؟

- أجل كنت أهزل . سأقتله . أجل سأقتله حتما ، وضميري مرتاح ، لاننا نؤدي واجبا ، ومع ذلك فلا اشعر بمتعة في قتله .

- سنترك القتل لمن يتمنون به ، فهناك ثمانية وخمسة ، اي ثلاثة عشر ، وهو عدد كاف لمن يريد التمتع .

- ان من يتمنون بالقتل كثيرون . ولدينا منهم عدد جم . أجل ، ان لدينا منهم ، عددا اكبر من اولئك الذين يؤثرون المعارك على القتل .

- وهل خضت في حياتك معركة ما ؟

- لا ، ابدا . لقد حاربنا في بداية الحركة في سيفوفيا ، ولكن سرعان ما هزمنا ، وهربنا . لقد هربت مع الآخرين . ولم تكن نفهم حقا مسا كنا نعمل ، أو كيف يجب ان نعمل . ولم تكن لدي الا بندقية صيد ، مع عدد من الخراطيش ، اما الحرس المدني ، فكانوا يحملون بندق الموزر . ولم يكن في وسعنا ان نصيبهم ببنادقنا ، من مسافة مائة ياردة ، اما هم ، فكان في وسعهم ان يصيبونا ببنادقهم ، من مسافة ثلاثمائة ياردة وان يقتلوننا كما يقتلون الارانب . لقد اطلقوا علينا نيرانا حامية ، وصائبة ، وكنا اشبه ما نكون بالاغنام امامهم . . وسكت العجوز برهة ثم قال . . او تظن ان معركة سننشعب عند الجسر ؟

- هناك احتمال .

- لم ار في حياتي معركة لم افر فيها . ولا ادري كيف سأحتفظ برباطة جأشي ، وانا كما تعلم رجل عجوز . .

- سأقوم بالقتال ، نيابة عنك .

- وهل خضت معارك عدة ؟

- اجل .

- وما رايتك . في قضية الجسر هذه ؟

- انا افكر في الجسر اولاً . فهذا عملي . وليس من الشاق ، ان اقوم بنسف الجسر . ثم تقوم باستعداداتنا الاخرى . اما بالنسبة الى الاعمال التمهيدية ، فستكون كلها اوامر مكتوبة .

- ولكن ليس بين هؤلاء من يقرأ الا النزر اليسير .

- انها ستكتب على كل حال ، ولكنها ستوضح ايضا .

- سأقوم بتنفيذ ، ما يفرض علي . ولكن مع ذكرياتي لما وقع في سيفوفيا ، عندما اطلقت النيران ، فاني اريد تعليمات واضحة عما يجب ان افعله في حالة وقوع معركة لتجنب الفرار . انني ذكرت ، ان حافزاً قويا كان يدفعني الى الفرار في سيفوفيا .

- لا تخف ، فستكون معاً . وسأبلغك ما تعمله طيلة الوقت .

- اذن فقد انتهت المشكلة . في وسعي ان انفذ كل ما تأمرني به .

- ستكون هناك مشكلة الجسر ، ثم قضية المعركة اذا تحتم علينا ان نخوضها .

- لا ريب في ان التجربة ستكون ممتعة حقاً .

وخيل لروبرت جوردان ، انه محظوظ ، لان القدر قد اتاح له هذا الرجل المعجوز . وبعد ان درس وضع الجسر ، وتناول المشكلة من جميع نواحيها ، مبسطاً اياها ، فقد قدر ان خير سبيل يلجأ اليه هو ان يداهم المراكز العسكرية المحيطة بالجسر ، وان ينسفه بطريقة عادية ، فسخط على اوامر غولز ، ولم ير ضرورة لها . اجل سخط عليها ، لما قد تاتي به من شر له وبهذا الرجل المعجوز . فقد كانت اوامري تنطوي على الشر بالنسبة لمن يقوم بتنفيذها .

وخيل اليه ان مثل هذا التفكير لا يصلح له البتة ، وان ليس ثمة اناس ،

يجب ان يكونوا في منجاة من ان يقع لهم شيء . وقال لنفسه .. انك لا شيء ، وهذا الرجل العجوز لا شيء ايضا . انكما اداتان من ادوات تنفيذ الواجب . وهناك اوامر ، ليست خطيئة من خطاياك ، كما ان ثمة جسرا ، وهذا الجسر قد يكون نقطة التحول في تاريخ الجنس البشري . ومن المحتمل . ان تكمن نقطة التحول هذه . في اي امر يتعلق بهذه الحرب . هناك شيء واحد عليك ان تنفذه . اجل شيء ، لا اكثر ولا اقل . ولو كان شيئا واحدا لهان الامر . ولكن ، كف عن التعليق ايها اللقيط المغرور .. وفكر بشيء آخر .

واشتغل تفكيره ، الى هذه الفتاة ماريما ، بشرتها الصافية ، وشعرها الداكن وعينيها البنيتين اللهيبتين .. ان بشرتها شاحبة صافية .. تخفي سمرة وراءها .. وهي ناعمة ، ناعمة ، في كل ، جزء من اجزاء جسمها ، وهي تخطو خطوا لا مباليا ، وكان شيء يضايقها ، ويحيرها ، ولكن هذا الشيء لا وجود له الا في خيالها .. وتذكر حمرة الخجل . وهي تلعو وجبها عندما يتطلع اليها ، وراها في خياله تجلس وقد ضمت يديها الى ركبتيها ، وانفتح قميصها ، ليبين عنقها ، وتذكر نديها ، وهما يكادان يقفزان من ذلك القميص ، فأحس بفضة في حلقه ، وتعثر في مشيته ، واذا به يفيق من احلامه على صوت الرجل العجوز يهتف به قائلا .. سنهبط هذه الصخور ، فنكون قريبين من المسكر .

وعندما خرجا من الصخور ، في ظلمة الليل الحالك ، سمعا صوتا يقول .. كف .. من هناك ؟ وسمعا صوت قرعة زناد البندقية .

وقال انسيلمو - رفاق ...

-اي رفاق ؟

- رفاق لبابلو .. الا تعرفنا .

- اجل ، ولكنها الاوامر . ما هي كلمة السر .

- لا نعرفها ، لقد اتينا من المنحدر .

- اعرف ... لقد جئتما من الجسر . اجل انا اعرف كل هذا ...
ولكنها الاوامر .. ويجب ان تعرف نصف كلمة السر .

- وما هو النصف الثاني ؟

- لقد نسيتته .. اذن امض الى نار المسكر مع متفجراتك اللعينة .

- هذا ما يسمى بنظام حرب العصابات .. اغلق بندقيتك يا هذا ..

- لقد امننتها . فقد انزلت الزناد بابهامي .

- قد يحدث هذا في بندقية « موزر » ومع ذلك تنطلق .

- انها بندقية « موزر » ، ولكن لي ابهاما وسلامة قويين كل القوة ..

انا الجأ دائما الى هذه الطريقة .

- واين تتجه البندقية ؟

- اليكما ، كانت تتجه اليكما طيلة الوقت . وعندما تصلان الى المسكر

ابعثا بمن يخلفني في توبة الحراسة ، فانا اشعر بجوع قتال ، ثم انسي

نسيت كلمة السر .

- ما اسمك ؟

- اوغسطين . ومع ذلك ، فانا اكاد اموت من الملل في هذا المكان .

- سنحمل الرسالة ..

- اسمع يا هذا .. واقترب اوغسطين من روبرت ، والقي بيده على

كتفه ، ثم قدح زناد قداحته وقربها من وجه الشاب متطلعا اليه على

ضوئها .. وقال .. انك تبدو كالرجل الآخر ، ولكنك تختلف عنه ..

اسمع .. هل صحيح ما قيل لي عن قصة الجسر .

- وماذا سمعت عن الجسر ؟

- سمعت انا سننسف جسراً قدراً ، ثم نطرد انفسنا بقدارة من هذه

الجيال .

- لا ادري شيئاً .

- لا تدري شيئاً ؛ يا للفضاعة ! اذن لمن المتفجرات ؟

- انها لى .

- ثم لا تعرف الغاية منها ، وستعرفها انت في الوقت المناسب . اما الان فسننصرف الى المسكر .

- اذهب ، حيث شئت ، وافعل بنفسك ما تشاء ، ولكن اتريدني ان اقول لك شيئاً قد ينفعك .

- اجل . شريطة ان لا ينطوي على السباب والشتائم .

وبدا اوغسطين يتحدث بقذارة ، مضيفاً نعت القذارة الى كل اسم يتملمه حتى خيل لروبرت ان الرجل لا يستطيع ان يفوه بجملته كاملة .. ومضى يقول .. انها طريقتي في الحديث ، وقد تكون بشعة ، فمن يدري ، فكل انسان يتحدث بما في نفسه ، وكل اثناء ينضح بما فيه . اصغ الي : انا لا يهمني الجسر ، كما لا يهمني اي شيء آخر ، ثم .. لقد مللت من الحياة في هذه الجبال ، واذا كان لا بد من ذهابنا ، فيجب ان نذهب ، فليس لهذه الجبال من اهمية عندي . اجل يجب ان نتركها ، ولكنني اود ان اقول شيئاً .. احرص على متفجراتك .

- شكراً .. منك ؟

- لا ، ولكن من اناس ، اقل انطباعاً مني .

- هذا رايبك ؟

- لا شك انك تفهم الاسبانية ؛ احرص على متفجراتك

- شكراً لك .

- لا ، لا تشكرني ، ولكن احرص عليها .

- وهل حل بها شيء ؟

- لا ، والا لما كنت اضيع وقتي في الحديث اليك بهذه الطريقة .

– شكرا على أي حال ، سنذهب الآن الى المعسكر .

– حسنا ، وليرسلوا ، من يعرف كلمة السر .

– هل سمراك في المعسكر ؟

– حتما ايها الرجل ، وبعد وقت قصير .

وقال روبرت لانسيلمو – هلم بنا .

ومضيا في طريقهما ، يسيران في طرف المرج الصغير ، وكان ثمة ضباب يلف المكان ، واضحى العشب رخيا ، طريا ، تحت اقدامهما ، من اثر الندي عليه ، ورأى روبرت عبر الاشجار بصيصا من النور ، فادرك ، انه الضوء المنبعث من فم الكهف .

وقال انسيلمو – ان اوغسطين رجل طيب ، ومع ان طريقته في الحديث قدرة ومهارة الا انه غالباً ما يكون رجلاً جاداً لا هازلاً

– وهل تعرفه جيداً ؟

– اجل ، اعرفه منذ امد طويل ، واني اتق فيه كل الثقة .

– وما رايتك فيما قاله ؟

– اجل ايها الرجل . لقد ساءت طباع بابلو . وكان في وسعك ان تقر ذلك بنفسك .

– وما خير طريق نسلكه ؟

– علينا ان نتولى حراسة المتفجرات طيلة الوقت .

– من يتولاها ؟

– انت ، انا ، المرأة ، اوغسطين ، ما دام انه يرى الخطر .

– وهل تعتقد ان الامور قد ساءت الى هذا الحد ؟

– لا ، لقد ساءت بسرعة ، ولكن كان علينا ان ناتي الى هنا . وهي بلاد

بابلو وايل سورددو ، وعلينا في بلادهم ، ان نتعامل معهم ، الا اذا كان في
وسمنا الاستغناء عنهم .

– وما رايبك في ايل سورددو ؟

– انه طيب ، بقدر ما هو بابلو شرير .

– اذن فانت تعتقد انه سيء حقا .

– كنت افكر في الموضوع طيلة النهار ، وبعد ان سمعت الان ما سمعناه
يخيل الي انه سيء حقا .

– او ليس من الخير ان نتركهم ، وان نتحدث عن جسر آخر ، ونحصل
على ما نحتاج اليه من رجال ، من عصابات اخرى ؟

– لا ، انها بلاده ، فليس في وسعك ، ان تخطو خطية واحدة ، دون ان
يحس بك ، ولكن على الانسان ان يكون حذرا في خطوه .





ووصلا الى مدخل الكهف ، وكان بصيص من النور ، ينفذ من وراء الستارة التي علقت على هذا المدخل ، ورأى روبرت الكيسين ، عند جذع الشجرة ، وقد غطيا بقطعة من الخيش ، وركع بجانب كيسيه فتحسهما ووجد ان الغطاء ، قد غدا مبتلا ، وتناول في ظلمة الدجى من جيب احد الكيسين ، وجس ما في داخلهما بيده ، فوجد ان كل شيء على ما برام ، من متفجرات واسلاك ، وصمامات ، وتناول صندوق سكاثر روسية من تلك التي اخدها من مقر قيادة غولز ، فوضعه في جيبه ، ثم اغلق الكيسين كما كانا ، وغطاهما بقطعة الخيش ، ووجد ان انسيلمو ، قد دخل الى الكهف .

ومضى روبرت جوردان ، يلحق به ، ولكنه سرعان ما اعاد النظر في الوضع ، فرفع الشراع من جديد ، وحمل الكيسين بيديه ، ومشى الى مدخل الكهف ، ووضع احد الكيسين جانبا ثم رفع الستارة ، واطل براسه وهو يحمل الكيس الآخر الى الكهف .

كان الجو حارا في داخل الكهف ، وقد اختلط الهواء بالدخان ، ورأى مائدة مرتكزة الى الجدار ، وعليها قنديل مرتفع ، وقد جلس حولها بابلو وثلاثة رجال لا يعرفهم ورافائيل الفجري ، وكان ضوء القنديل ينعكس على

الجدار وراء الرجال ، راسما خطوطا من الظلال ، وكانت زوجة بابلو ، تقف عند الموقد المليء بالفحم ، والقائم في زاوية الكهف . اما الفتاة ، فراكعة على الارض على مقربة منها ، وهي تدير بملعقة كبيرة محتويات قدر ضخمة من الحديد ، ورفعت الفتاة ملعقتها الخشبية ، وتطلعت الى روبرت وهو يقف في الباب ، فرأى ان المرأة ، كانت تنفخ بمنفاخها النار ، كما ابصر بوجه الفتاة وذراعيها وبنقاط الحساء ، وهي تتصبب من الملعقة الى القدر .

وقال بابلو - ماذا تحمل ؟

فقال روبرت وهو يضع الكيسين في زاوية من الكهف بعيدا عن المائدة -
احمل متاعي .

- لماذا لم تكن في امان في الخارج ؟

- قديمير عليها شيء في الليل .. في الظلام .. ومضى الى المائدة :موضع عليها: علبة لغائفه .

وقال بابلو - ولكنني لا احب ان يكون عندنا في الكهف متفجرات .

- انها بعيدة عن النار .. خذ بعض اللغائف .. ومد يده بالعلبة الى بابلو .

واتى له انسيلمو باريكة ، خفيفة جلس عليها ، حول المائدة ايضا ، وتطلع اليه بابلو من جديد ، وكأنه يريد ان يقول شيئا سكت على مضض ، واقبل على اللغائف ، يعب منها .

ومد روبرت بالعلبة الى الآخرين ، ولم يكن قد نظر اليهم بعد ، ولكنه لاحظ ان احدهم تناول من السكاثر بينما امتنع الآخرون . . كان كل اهتمامه مركزا على بابلو .. وقال لرافائيل .. كيف حالك ايها الفجري ؟

- على ما يرام .

وكان في وسع روبرت ان يدرك ، ان الحديث ، كان يتناوله عندما وصل اليهم .. انهم جميعا في حالة من القلق ، وحتى الفجري ايضا ..

وقال روبرت موجها حديثه الى الفجري - وهل سيسمح لك بالاكل ثانية؟
- طبعا ، ولم لا . . ؟ كانت لهجته بعيدة عن اللهجة الودود التي عرفها
روبرت منه بعد الظهر . .

ولم تنبس زوجة بابلو بنت شفة ، وانما واصلت ، النفخ في النار بمتفاخها
وقال روبرت اخيرا . . هناك رجل يدعى اوغسطين ، يقول انه كاد يموت
من الضجر . . هناك .

فرد بابلو قائلا . . ذلك لا يقتل ، على كل حال ، دعه ، يموت بعض الوقت
وقال روبرت - هل هناك بعض الخمر ؟
فقال بابلو بخشونة - لم يبق الا القليل .

ورأى روبرت ان من الخير له ان ينظر الى الرجال الثلاثة الآخرين ، وان
يحاول رؤية الموقف الذي يقف فيه . . ثم قال مخاطبا الفتاة . . اذن فأرجو
ان تأتيني بقدر من الماء .

وتطلعت الفتاة الى المرأة ، التي لم تعلق بشيء ، وتظاهرت بانها لم تسمع ،
ثم مضت الى جرة منيئة بالماء ، فمالت قدحا منها ، وعادت به الى المائدة
حيث وضعته امام روبرت . فتناول هذا الكاس ، وهو يتسم لها ، ثم ادار
نفسه على مقعده ، ليدير مسدسه ، الملق الى جانبه الى الوضع الذي يريده
ان يكون فيه ، ومد يده الى جيبه الخلفي ، وكان بابلو يرقبه . . وادرك
روبرت ان الجميع يرقبونه ايضا ، ولكنه كان يتطلع الى بابلو وحده ، دون
الآخرين ، ورفع يده من جيبه ، وقد حمل بها زجاجة مغطاة بالجلد ، ففتحتها
ثم شرب نصف ما في الكاس من ماء ، واخذ يصب من الزجاجة في الكاس . .
وقال للفتاة « انه شراب قوي عليك ، والا كنت اعطيتك قليلا منه » . .
ثم تطلع الى بابلو وقال . . ولم يبق في الزجاجة الا القليل ، والا كنت قدمت
لك بعضه .

وقال بابلو – ولكنني لا احب اليانسون .

وانشمرت في الكهف رائحة الشراب وقال روبرت . . هذا حسن ، فلم يبق في الزجاجاة الا القليل .

وقال الفجري – اي شراب هذا ؟

– انه دواء . اتحب ان تذوقه ؟

– دواء لماذا ؟

– لكل عاهة . انه يشفي كل شيء . فاذا كنت تشعر بالمل ، انقلدك منه

– دعني اذوقه .

ودفع روبرت بالكأس اليه . كان لون الشراب كالحليب ، بعد ان امتزج بالماء ، وساوره الامل ، بان لا يتناول الفجري الا جرعة صغيرة . . لم يبق معه الا القليل ، وكان الكأس منه يعوض عليه قراءة الصحف ، وقضاء الامسيات في المقاهي ، والتجول في الشوارع والتطلع الى المكتبات والمخازن وزيارة الحدائق العامة ، وحضور الحفلات ، وشهود المراقص ، وجميع المع التي عرفها في الماضي البعيد والتي نسيها ، فلا يذكره بها الا هذا الشراب العاذق ، المخدر للسان ، المدفئ للفؤاد ، المبدل للافكار .

وبدأ على الفجري انه لم يستدق الطعم ، فأعاد الكاس الى صاحبه وهو يقول ، « ان فيه رائحة اليانسون ، ومرارة العلقم . وخير للانسان ان يظل مريضا من ان يتناول هذا الدواء .

– انه الاسبنت الحقيقي . والمفروض فيه ان يتلف عقل الانسان ولكنني لا اصدق ذلك ، فكل ما يفعله انه يغير الافكار . وعليك ان تصب الماء عليه ببطء . وان يكون ذلك على شكل نقط قليلة في كل مرة . ولكنني صبيته في الماء .

وقال بابلو غاضبا . . ماذا تقول ؟

– اشرح حقيقة الدواء . لقد أبتعته من مدريد . كانت الزجاجاة الأخيرة ،
وقد ظلت ممي ثلاثة اسابيع . . وتناول جرعة أخرى احرقت لسانه ثم
تطلع الى بابلو وقال . . وكيف احوالك ؟

ولم يرد بابلو ، فتطلع روبرت بعناية الى الرجال الثلاثة الآخرين . كان
لأحدهم وجه كبير مفلطح ، شديد السمرة ، وفي وسطه انف مقصوم من
وسطه ، وبدت السيكرة الروسية الطويلة في فمه غير منسجمة مع هذا
الوجه البسوط . وكان شعره اشيب وقصيرا ، وله ذقن مدبية ، وهو
يرتدي جاكيتة مقلقة من الامام حتى العنق . وعندما تطلع اليه روبرت
خفض عينيه الى المائدة ، ولكن نظرتة كانت مسددة ومستقيمة . وبدأ على
الآخرين انهما اخوان . فقد كانا متشابهين في قصر قامتيهما ، وبدانة
جسميهما ، واسوداد شعرهما وعميونهما السوداء . وكانت في جبهة احدهما
فوق عينه اليسرى ندبة واضحة . وبدأ ان احدهما في الثامنة والعشرين
من عمره ، والآخر اكبر منه بسنتين .

وقال صاحب الندبة متسائلا . . – علام تتطلع ؟

– عليك .

– اترى شيئا غريبا .

– كلا . . أو تريد لفافة ؟

– ولم لا . انها كلفائف الرجل الآخر ، الذي كان معنا في القطار .

– وهل كنت في حادث القطار ؟

– لقد كنا جميعا هناك ، باستثناء الرجل العجوز .

وقال بابلو – وهذا ما يجب ان نفعله الآن – قطار اخر .

فقال روبرت – سنفعل ذلك ، بعد الجسر .

وادرك ان زوجة ، بابلو ، قد تركت الآن ، عملها في النار ، وبدأت تصفي .

وعندما نطق بلفظة الجسر ، خيم الصمت على الجميع .

وعاد يتناول جرعة من كأسه بهدوء وقال بكل اصرار .. بعد الجسر .
وقال بابلو ، وهو يتطلع الى المائدة .. لن اذهب الى الجسر ، لا انا ولا
رفاقي . ولم يرد روبرت ، تطلع الى انسيلمو ورفع كأسه .. ثم قال ..
اذن فسنقوم بالعمل وحدنا ايها العجوز ..

ورد انسيلمو قائلا ... ولن نكون بحاجة الى هذا الجبان .

وقال بابلو : ماذا تقول ؟

- انا لا اخاطبك .

ونظر روبرت عبر المائدة ، الى زوجة بابلو ، وهي تقف بجانب النار . تم
تكن قد فاهت بعد بكلمة واحدة ، كما لم تشر بآية إشارة . ولكنه رآها
الآن تهمس في اذن الفتاة ، فتنهض هذه من مكانها قرب النار ، وتسير
بجانب الجدار ، ترفع الستارة وتخرج من الكهف . وخيل لروبرت ...
ان الساعة الفاصلة قد دنت .. اجل لقد دنت ... ولم يكن لييريدها ان
تكون على هذا الشكل ، ولكن ما دامت قد حلت فليكن ما يكون .

وقال روبرت لبابلو : اذن سنؤدي المهمة دون عونك .

ورد بابلو وقد تصبب العرق من جبينه : كلا ، لن تنسف اي جسر في
هذه الضاحية .

- حقا ؟

- اجل لن تنسف جسرا هنا .

وتطلع روبرت الى زوجة بابلو ، التي تقف بجسمها الضخم عند النار ،
وقال ... وانت ! ماذا تقولين ؟ فالتفتت اليهم جميعا ، وقد احمر وجهها
من لهب النار ، وبدا رائع الجمال .. فقالت : انا مع القائل بنسف الجسر .

وتطلع اليها زوجها ، وقد اشتد تساقط العرق من وجهه : ماذا تقولين ؟

- انا مع الجسر ، وضدك على طول الخط . هذا كل شيء ...

وقال الرجل ذو الوجه المسطح : وانا مع الجسر ايضا .

وقال احد الاخوين - اما انا فلا يعني الجسر لي شيئا ، ولكني مسع زوجة بابلو .

وقال الاخ الثاني - وانا كذلك .

وقال العجري - وانا ايضا .

وكان روبرت ، يرقب بابلو ، تاركاً يده اليمنى تهبط شيئاً فشيئاً لتستعد للعمل اذا اقتضى الامر ، مخافة ان يضيع النصر الذي حققه ، ومدركاً ان تقاليد الاسرة والمشيرة والمصابة ، تقضي بان ينقلب الجميع ضده ، وهو اقرب ، اذا ما وقعت معركة بينهما وعازما على انهاها بضربة فاصلة من مسدسه . . . وتطلع الى الزوجة ، فرآها وقد شعرت بالاعتزاز من هذا الولاء الذي ابداه الجميع لزعامتها ، فاحمر وجهها خجلاً . وقالت . . . انا مع الجمهورية ، والجمهورية مع الجسر ، وعلى كل حال فلدينا وقت كاف للقيام بمشاريع اخرى .

وقال بابلو بمرارة - وهل تظنين بعقلك الصغير وبقلبك الماهر ، انه سيكون لدينا وقت بعد هذا الجسر ؟ وهل فكرت بما سيقع بعد نسف الجسر ؟

- فليات اي شيء ، فكل ما هو آت آت .

- ولا يهمك ان يطاردوننا بعد ذلك كالوحوش . بعد ان نسف هذا الجسر ، الذي لا يجدينا نفعا ؟ ولا يهمك اننا قد نموت في الحادث .

- لن يحدث شيء ، ولا تحاول اخافتي ايها الجبان .

- جبان ! انك تصفين بالجبن من يفكر تفكيراً واقعياً ، لانه يرى النتائج المترتبة على عمل احمق كهذا سلفاً . ليس من الجبن في شيء ان يميز الانسان الحمافة من غيرها .

وقال انسيلمو - وليس من الحمافة ان يميز الانسان الجبن من غيره .

وقال بابلو ، بكل جد واصرار ... اتريد الموت ؟

- لا .

- اذن اغلق فمك . فانت تكثر من التحدث عن اشياء لا تفهمها . اولا ترى ان الموضوع جدي للغاية ؟ انني الوحيد بينكم الذي يدرك خطورة الوضع .

وجالت فكرة في راس روبرت جوردان ... ان الرجل على حق ، ان بابلو على حق ، وانا اعرف هذا واصدقه ، ولكنني لا ادركه . وقد قرأته المرآة في يدي وهي تقرا كفي ولكنها لم تدركه بعد .

وقال بابلو - وهل صرت قائدا لكم دون سبب . انا اعرف ما اقول . اما انتم فلا تعرفون . فهذا العجوز يهرف . وهو لا يعدو ان يكون رجلا عجوزا يقوم بدور الرسول والدليل للاغراب . وقد جاء هذا الغريب الى هنا لينفذ عملا في مصلحة الغرباء . علينا ان نضحى بانفسنا من اجل فائدته . انني لا اروم للجميع الا الخير والسلامة .

وردت عليه زوجته تقول - سلامة ! ليست هناك اية سلامة . فهناك كثيرون يبحثون عن السلامة ، فيجدون الخطر ، وقد نفقد كل شيء في بحثنا عن السلامة .

ووقفت الان الى جانب المائدة ، وقد حملت الملعقة الكبيرة في يدها .

وقال بابلو - اجل هناك سلامة ، ففي الخطر ، تقوم السلامة في معرفة الغرض في العمل الذي يقدم عليه الانسان . وهناك مثل مصارع الثيران ، الذي يعرف ما يفعل ، فلا يركن الى الحظ ، ويعثر على السلامة .

وردت عليه زوجته تقول .. اجل مصارع الثيران ، الذي لا يعثر على السلامة ، الا بعد ان تبصر الثيران بطنه ، وكم مرة سمعت ابطلا من المصارعين يتحدثون بنفس اسلوبك قبل ان تبقر بطونهم . وكم مرة سمعت فينيتو يقول : ان الثور لا يبقر بطن الانسان ولكن الانسان هو الذي يبقر بطنه على قرن الثور ، هذه هي طريقة حديثهم الذي يفتح بالفور ، قبل

ان يلقوا حتفهم ومصيرهم ، ثم سرعان ما نهب الى عيادتهم في المستشفى .. ونقول .. هالو ايها العزيز .. هالو .. ماذا حل بك ، وكيف وقع الحادث ، كيف وقع هذا الحادث الفظيع يا فينيتو الحبيب . فيرد هو قائلاً .. انها مسألة بسيطة ، مسألة في غاية البساطة ، كان من الواجب ان لا تقع ، لقد قتلتها تماماً كما تعرفين ، ولم يكن في وسع انسان آخر ان يقتله خيراً مني ، وبعد ان قتلتها تماماً ، ومات ، واخذ يترنح على رجلبيه ، على استعداد للسقوط ، بمدت عنه ، وقد سيطر على الغرور ، وأذا به يفرز قرونيه في ظهري ، فتمتد الى كبدي .. وبدأت المرأة تضحك .. وعادت لتقول .. والآن تأتي انت لتحدثنا عن سلامتك ، او لم اعش سبع سنوات مع اسوأ مصارعي الثيران في العالم ، فأتعلم منهم شيئاً عن الخوف وعن السلامة ؟ حدثني عن اي شيء ، الا عن السلامة ، وانت ، كم علقت عليك من آمال ، اراها تنهار الآن . لقد تحولت في سنة واحدة من الحرب الى انسان كسول وسكير وجبان .

وقال بابلو - لا يجوز لك ان تتحدثي على هذا الشكل ، ولا سيما امام الناس وامام هذا القريب .
- لا سأحدث كما اشاء ، هل سمعت ؟ او تعتقد انك ما زلت القائدة هنا ؟
- اجل ، انني القائدة هنا .

- لا حتى ولا في المنام ، فانا القائدة هنا . او لم تسمع بنفسك ما قاله السادة ، انا القائدة الوحيدة هنا ، وفي وسعك ان تظل اذا رغبت ، وان تأكل الطعام وتشرب الخمر ، على ان لا تتجاوز الحد ، وان تشترك في العمل ان اردت . لكنني انا القائدة هنا .

وقال بابلو ، بلهجة تنم عن منتهى الجذ - يجب ان اقتلك انت وهذا القريب .

- ولماذا لا تحاول ، لتري ، ما يحدث لك .
وقال روبرت ، وهو لا يرفع بصره عن هذا الرجل ، المقطب الوجه ، وعن المرأة التي تقف امامه في منتهى الكبرياء والثقة والتحدي ، وقد

حملت ملعقتها الكبيرة في يدها ، وكانها صولجان السلطان .. ارجو ان
أخذ كأسا من الماء ..

وهتفت زوجة بابلو - ماريا ..! وعندما دخلت الفتاة ، قالت .. هات
قدحا من الماء للرفيق .

وتناول روبرت زجاجة الإبنست من جيبه ، وحل أثناء ذلك ، رباط
مسدسه فوضعه على فخذه ، ثم وضع قطرات من الشراب في الكأس الذي
جاءت به الفتاة . ووقفت الفتاة الى جانبه ترقبه .

وهتفت زوجة بابلو تقول .. وهي تشير بالملقعة .. اخرجني الى خارج
الكهف .

فقال الفتاة وقد اقتربت بوجنتيها من وجنة روبرت ، وهي تراقب ما
يدور في الكأس ، الذي يتحول لونه الى البياض ... ولكن الطقس بارد
في الخارج .

- قد يكون باردا هناك ، ولكنه شديد الحرارة هنا .. على كل حال
لن يطول بك المكوث خارجا .

وهزت الفتاة رأسها ، ومضت الى الخايج .

وخيل لروبرت ان الوضع لن يستمر على هذا الهدوء طويلا ، فأمسك
بالكأس في يده ، بينما وضع يده الاخرى على المسدس ، فرفع زناد الامان ،
واحس بشعور الطمانينة والزمالة يعاوده وهو يضع يده على مسدسه
العبيب ، ولم يكن بابلو يتطلع اليه الان ، وانما يتطلع الى زوجته التي
مضت تقول .. اسمع ايها السكير ، انفهم من القائد هنا ؟

- انا القائد .

- لا ، اصغ الي ، وافتح الذنيك جيدا .. انني القائدة .

وتطلع اليها بابلو ، ولم يكن في وسع انسان ان يقدر ما كان يفكر فيه
من تطلعه الى ملامحه . ونظر اليها باصرار وعناد ، ثم انتقل بصره ، عبر

المائدة الى روبرت جوردان . واشتدت نظرتة في اتجاهه وهو يفكر ثم عاد
ببصره الى المرأة ثانية . وقال - حسنا ، انت الامرة ، وفي وسعه ان يامر
هو ايضا . وفي وسعكما ان تذهبا معا الى الجحيم . . كان يتفرس في وجه
زوجته دون ان تطرف له عين ، ودون ان يبدي رهبة لها ، او خوفا منها .
ثم قال : وقد اكون كسولا ، وقد اكثر من الشراب . وقد تعتبريني
جباناً ، ولكنني لست بالجبان فانت مخطئة . ولست ايضا بالبيد . حسنا
ليكن لك الامر ، اذا كنت ترغيبين في القيادة . والان ، اذا كنت قائدة ،
وامرأة ، فيجب ان تعدي لنا شيئا نأكله .

وهتفت الزوجة تقول . . . مازيا .

واطلت الفتاة براسها من الباب ، فقالت لها . . ادخلي لنا ، وقدمي العشاء

ودلفت الفتاة ، واخذت تعد القدور والصحاف ، وتأتي بها الى المائدة . .
وقالت امرأة بابلو لروبرت . . هناك خمر يكفي للجميع ، ولا تكثرث ، بما
يقوله ذلك السكر . وعندما ينتهي ما عندنا من خمر ، سنأتي بخمر جديد
والآن افرغ كأسك من هذا الشراب الغريب وخذ قدحا من النبيذ .

واحتسى روبرت ما تبقى من الأيسنت ، واحس بالدفاء في اوصاله . .
ثم قدم كأسه ، ليملاوه له بالخمر . وملاته له الفتاة ، وهي تبتسم .

وقال النجري . . وهل رأيت الجسر ؟

وكان الآخرون الذين لم ينطقوا بحرف واحد ، اثناء معركة الولاء يصفون
الآن بجميع حواسهم ، لكل ما يدور .

- اجل ، والمهمة سهلة للغاية ، فهل تريدون مني ان اطلعكم على الموضوع؟

- اجل ايها الرجل . فكلنا شوق لذلك .

واخرج روبرت دفتره الصغير من جيبه وعرض عليهم الرسم الذي
صوره ، والمخططات الأخرى .

وقال بريميثيفو ، الرجل ذو الوجه المسطح - يا له من رسم دقيق ، انه تماما كالجسر .

وشرح روبرت بطرف قلمه ، كيف يمكن ان يتم تسف الجسر ، واسباب وضع الالغام هنا او هناك .

وقال احد الاخوين ، واسمه اندريه - يا لها من خطة بسيطة ، ولكن كيف تفجر الالغام ؟

واخذ يشرح لهم ، ايضا طريقة التفجير ، وفي غضون حديثه ، احس بذراع الفتاة وقد اتكا على كتفه . وكانت زوجة بابلو ترقبه ايضا . لكن بابلو كان الوحيد ، الذي لم يكثرث بكل ما يدور ، فقد جلس وكاسه في يده ، يتزعه بين حين وآخر ، بالخمير من الزق القريب منه .

وقالت الفتاة تساله - وهل قمت بعمليات مماثلة كثيرة من هذا النوع؟
- اجل .

- وهل في وسعنا ان نرى طريقة عملك ؟
- اجل ، ولم لا .

وقال بابلو ، من مكانه البعيد في طرف المائدة . . سترينها ، اعتقد انك سترينها .

وردت زوجته تقول . . اغلق فمك ثم تذكرت ما راته في كف الشاب بعد ظهر ذلك اليوم ، فثار غضبها الى حد الجنون واخذت تصرخ . . اغلق فمك ايها الجبان ، اغلق فمك يا غراب الشؤم . اغلق فمك يا قاتل .

فرد بابلو - جسنا ساغلق فمي . فانت الامرة هنا ، وفي وسعك ان تواصلني رؤية الصور الجميلة ، ولكن تذكري انني لست بالبيد .
واحست زوجة بابلو ، بغضبها يتحول الى الم ، والى شعور بالياس من كل

أمل ورجاء . انها تعرف هذا الشعور منذ حداثتها ، وكانت تعرف اسبابه
بالنسبة الى حياتها . وقد رآته يميزها فجأة ، ولكنها طردته عنها الان ،
فهي لا تريد ان يمسيها في هذه اللحظة . . ولا تريد ان يمسي الجمهورية . .
ثم قالت . . هلمي يا مارييا وقدمي العشاء . .



رفع روبرت جوردان ، الستارة المعلقة في مدخل الكهف ، وخرج الى العراء ، يعب الهواء في رئتيه ، مستنشقا نسيم الليل البارد العليل ، وكان الضباب قد اختفى وباتت النجوم في كبد السماء ، وهدات الريح العاصفة، فاحس بالراحة تغمر نفسه ، بعد أن خرج من جو الكهف الحار ، الذي انقله الاخان ، دخان اللغائف ودخان النار المشتعلة ، وانتشرت فيه رائحة الارز الطبوخ واللحم والزعفران والتوابل والبهارات والسمن ، وفاح فيه اريج الخمر ، الذي تضمه القربة الجلدية المدلاة في سقف الكهف ، والتي تنصب منها قطرات على الارض ، تختلط بالتراب ، فتنبعث منها رائحة خاصة ، تختلط بتلك ، المنتشرة من مختلف انواع الحشائش والاعشاب المدلاة في سماء الكهف الذي تتناقله الجبال ، حاملا معه رائحة الصنوبر ، ورذاذ الطل على الاعشاب المنتشرة في المروج ، وكان الندى قد تكاثف منذ توقف الرياح العاصفة ، ولكنه وهو في موقفه هناك ، خيل اليه ، ان الجليد سيتكاثف في الصباح .

وسمع وهو في وقتته الهادئة هذه ، صوت عيار ناري ينطلق من كان بعيد ، ثم سمع يوما ينعب على الشجرة القريبة من المكان الذي تقف فيه

الجياد ، واخذ يصفي الى صوت الفجري ، ينبعث من داخل الكهف وهو
ينشد ، عازفا على قيثارته ..

ترك لي والدي ارضا كبيرا ..

انه القمر والشمس .

وعلى الرغم من اتني ساطوف انحاء العالم .

فانني لن انفق هذا التراث .

وسمع روبرت جوردان ، الاكف تنهال بالتصفيق ، وآهات الاستحسان،
ثم سمع صوتا يقول .. اسمعنا اغنية الكاتالونية ايها الفجري ...

- لا . لا اريد .

- بلى . نريد الكاتالونية .

- حسنا .. وشرع الفجري ينشد بنغم حزين ..

انفي مسطح ..

ووجهي اسود ..

ولكني رجل .

وهتف احدهم .. آه .. استمر ايها الفجري ..

وارتفع صوت الفجري يقول ..

وشكرا لله ، انني زنجي .

ولست بالكاتالوني .

وسمع صوت بابلو يقول .. الضجة شديدة .. اغلق فمك ايها الفجري

- اجل .. الضجة شديدة .

وقال الفجري .. ولكنني اعرف شعرا آخر .. وارفع صوت القيثار

من جديد ..

فقال للمرأة .. دعه الى وقت آخر .

وتوقف القيثارة ، وقال الفجري .. يبدو لي ان صوتي رديء الليلة ، ولذا فلا ضمير في سكوتي .. ثم دلف الى الخارج .

ورآه روبرت . يتجه الى احدى الاشجار ، ثم عاد اليه .. قائلا بصوت ناعم .. روبرتو ..!

– نعم يارافائيل .. لقد ادرك روبرت ، ان الفجري ، قد تأثر من الخمر من اهتزاز صوته . وكان هو نفسه قد جرع كأسين من الإبنسنت ، وعددا من كؤوس النبيذ ، ولكن عقله ظل صافيا .. بعد ان هدا من العاصفة التي اثارها بابلو .

– لم لم تقتل بابلو ؟

– ولماذا اقتله ؟

– عليك ان تقتله ان عاجلا وان آجلا ، فلم لم تنتهز الفرصة ؟

– هل تتحدث جدا ؟

– وماذا ظننت ان الجميع كانوا ينتظرون منك ؟ ولماذا ابعدت المرأة الفتاة الى الخارج ؟ او تعتقد ان في الوسع الاستمرار في العمل ، بعد الذي حصل ؟

– هل كنتم تريدون جميعا ان اقتله ؟

فقال الفجري بهدوء – اجل ، على كل هذا شأنك . لقد انتظرنا ثلاث مرات او اربعا ان تقتله ، فليس لبابلو من صديق .

– كانت لدي فكرة بقتله ، ولكنني عدلت عنها .

– هذا ما رايناه جميعا . لقد راينا جميعا استعداداتك ، فلماذا اتقاعست ؟

– ظننت ان هذا يسوؤكم ، او يسوء المرأة .

– ها . ها . وكانت المرأة تنتظر ، كما تنتظر العاهر طيران طائر كبير .

لا ريب في انك اصفر سنا من ظاهرك .

- هذا ممكن .

- اقتله الان .

- هذا اغتيال .

- ومع ذلك ، فهو خير ، واقل خطرا . هيا اقتله الان .

- لا استطع على هذه الصورة . ونفسي تنفر منها ، كما ان هذه الطريقة لا تخدم القضية .

- لم لا تستفزه ؟ ولكن عليك ان تقتله ، فلا مناص من ذلك .

وطار البوم وهما يتحدثان ، بين الاشجار ، فسقط عندما مر بهما ، ثم ارتفع يصفق بجناحيه .. وقال العجري .. انظر اليه ، هكذا يجب ان يتحرك الرجل .

- نادرا ، ولكن عليك ان تقتله ، ولا تمقد الامور .

- لقد مرت اللحظة المواتية .

- اثرها من جديد . او اغتتم فرصة الهدوء .

وارتفعت الستارة من جديد ، ودلف رجل الى الخارج ، وانضم اليهما وهو يقول .. انها ليلة رائعة ، لا ريب في ان الطقس سيكون جميلا ..

كان الرجل بابلو ... وكان يدخن احدى لغائف التبغ ، فبان وجهه المدور في الضوء ، الذي بعثته اللغافة عند سحب الدخان منها . وكان في وسمهما ان يريا جسمه الضخم بلراعيه الطويلتين .

وقال موجها حديثه لروبرت - لا تكترث بما تقوله المرأة .. ورأيا على ضوء السيكرة يده وهي تنخفض .. واستطرد يقول .. انها صمبة احيانا ولكنها سيدة طيبة ، ومخلصة جدا للجمهورية .. وبدات اللغافة تهتز في فمه ، مما يشير الي انه كان يتحدث وهي في فمه .. ثم قال .. لن تكون

ثمة مصاعب . فنحن متفقون ، وأنا مسرور بمجيئك . ولا تكثرث بالنقاش .
.. فقد حلت اهلا وسهلا .. وارجو ان تسمحوا لي الآن ، لارى ما حل
بالجباد .

ومر بهما مجتازا المرج ، وسمعا صوت حصان يسهل .. وقال الفجري
.. ارايت ؟ لا شك انك رايت .. او لم تمر اللحظة المناسبة ؟

ولم يرد عليه روبرت .. وقال الفجري ... ساهبط اليه هناك .
- لماذا ؟

- لماذا ؟ لاحول دون ذهابه على الاقل .

- وهل يستطيع ان يمضي باحد الجباد من هناك ؟

- لا .

- اذن ، امض الى الجهة التي تستطيع ان تمنمه من الذهاب منها .

- ان اوغسطين هناك .

- اذن امض ، وقل لاوغسطين .. اجل ابلغه ما حدث .

- سيقتله اوغسطين بكل سرور .

- هذا اقل سوءا ، اذن اصعد ، وقل له ما حدث .

- ثم ماذا ؟

- سامضى انا الى المرج لارى .

- حسنا ايها الرجل .. شيء رائع .. ولم يكن لي وسع روبرت ان يرى

وجه رافائيل في الظلام ولكنه ادرك انه يتسم .. ومضى الفجري يقول ..

لي لهجة تنطق بالموافقة والتأييد .. يبدو انك قد حرمت امرك اخيرا .

- امض الى اوغسطين .

- حسنا يا روبرتو ، سامضى ،

ومضى روبرتو بين اشجار الصنوبر منتقلا من شجرة الى اخرى ، حتى وصل الى طرف المرج ، وتطلع ، نحو المرج ، يحاول استجلاء كنه الظلمة المدهمة ، فرأى مربط الجياد ، وعددها فوجدها خمسة . وجلس روبرت عند جذع شجرة ، واخذ يجول بنظره في انحاء المرج .

وطاف فكره بمختلف الاتجاهات . . فقال يحدث نفسه . . لا شك انني تعب ، وربما كان تفكيري على ضلال . ولكن واجبي ان اقوم بالمهمة في الجسر ، وعلى ان لا اقامر بأية فرصة قبل ان اتم هذه المهمة . وبالطبع . قد يكون من المفامرة ، ان لا يهتبل الانسان الفرص التي تنهيا له ولكنني حاولت حتى الان ، ان اترك الاوضاع تتبلور من نفسها . واذا صح ما يقوله الفجري ، انهم كانوا ينتظرون مني ان اقتل بابلو ، فقد كان من واجبي ان اقتله . ولكنني لم اعرف ذلك . وهناك ناحية اخرى سيئة ، وهي ان يقوم الغريب بالقتل في المكان الذي سيعمل فيه فيما بعد مع اهل البلاد . وقد يتم القتل في حالة عمل ، وقد يتم اذا كان مدعوما بنظام كاف . ولكن في هذه الحالة ، اعتقد ان اقدام على ذلك العمل كان في منتهى السوء ، ولو ان الاغراء كان قائما ، وكانت طريقة القتل سهلة ومختصرة . ولكنني لا اومن بسهولة اي شيء او اختصاره في هذه البلاد ، وعلى الرغم من انني اثق بالمرأة كل الثقة ، الا انه لا يسعني ان اقدر تماما موقفها في حالة عمل عنيف كهذا . فالمرتبة في مكان كهذا يكون بشعا وقذرا ، وداعيا للقرز . وليس في وسعك ان تقر ماذا سيكون عليه موقفها . فبدون المرأة لا مكان للنظام او التنظيم في هذا المكان . اما بوجودها ، فقد تسير الامور سيرا طيبا . وقد يكون من الخير ان تقتله هي ، او يقتله الفجري - ولكنه لا يقتله . او الحارس او غسطين وبالطبع فان انسيلمو سيقتله اذا طلبت اليه ذلك ، على الرغم من انه ضد كل عملية قتل ، وهو يكرهه - كما اعتقد ، ويشق بي كل الثقة ، ويعتقد انني احمل كل ما يعتقد به . ويبدو لي انه هو المرأة وحدهما اللذان يؤمنان بالجمهورية . . لكن من المتسرع الحكم منذ الان .

وهندما تعودت عيناه على ضوء النجوم ، رأى بابلو ، يقف بجانب احد الجياد . وكان الجواد قد رفع راسه عن العشب ، ثم عاد يرمى . اما بابلو ،

فهو واقف الى جانبه يربت على عنقه . وأحسن الجواد بالضجر من هذه الرقة ، وهو يتناول طعامه . ولم يكن في وسع روبرت أن يرى ما يفعله بابلو أو ان يسمع ما يقوله لجواده . . واخذ يرقبه بهدوء . .

وكان بابلو يقول لجواده الكبير الضخم . . « انت يا مهري العزيز الغالي . انت يا ذا الوجه الصبوح الجميل ، وذا العنق الكبير» . . وبدأ الجواد يتضجر من الرجل وحديثه . . بينما مضى بابلو يقول : وانت لست بالمرأة أو الاحمق . . آه يا مهري العزيز . . انك لست امرأة كالصخرة المحترقة ، ولا فتاة صغيرة كالطفلة اجث شعرها ، فأخذت تتحسرك كالمهرة الصغيرة التي انطلقت من امها . وانت لا تهين ولا تكذب ولا تتعاس عن الفهم . . آ ، يا لك من مهر عزيز غال .

وكان من المتع لروبرت لو استمع الى بابلو وهو يحدث جواده على هذا الشكل ، ولكنه لم يسمعه . واقتنع روبرت الان ، ان بابلو ، يقوم بمجرد زيارة لخيوله لتعدادها ، وان الفرصة غير مواتية لقتله في هذا الوقت ، فنهض من مقعده ومضى الى الكهف .

أما الجواد ، فكان قد مل من حديث الرجل الذي يلهيه عن طعامه . بعد جوع النهار الطويل ، وان كان هذا الحديث لا يخرج عن حدود التحبب والتودد ، فمضى غير آبه بما يقوله صاحبه ، يرعى الكلاً . . أما بابلو . . فقد توقف عن الحديث .



٦

جلس روبرت ، على أريكة داخل الكهف ، على مقربة من النار ، يصغي الى ما تقوله زوجة بابلو . وكانت هذه تفضل الاطباق ، بينما تقوم مارييا بتجفيفها وتنشيفها ، واعادتها الى مكانها في الحفرة المثقوبة في الجدار .

وقالت المرأة - من الضريب ان ايل سورددو لم يات . كان من الواجب ان ياتي قبل ساعة .

- وهل بمشت في طلبه ؟

كلا ، ولكنه ياتي كل ليلة .

- ربما كان يؤدي بعض الاعمال

- هذا ممكن . واذا لم يات ، فملينا ان نذهب للقيامه غدا .

- حتما . وهل هو بعيدعنا ؟

- لا ، ستكون رحلة ممتعة ، وانا في حاجة الى المشيء .

وقالت مارييا - وهل استطيع ان اذهب انا ايضا يا بيلار ؟

- اجل ابنتها الجميلة . . او ليست جميلة يا روبرتو . . كيف تراها ؟

نجيلة بعض الشيء ؟

- لا انها على ما يرام ..

وملات ماريا قدحه بالخمير وهي تقول .. اشرب هذا ، فقد ينفعك ،
فمن الضروري ان تكثر من الشراب حتى تراني جميلة .

- اذن يجب ان اتوقف عن الشراب . فانت تبدين لي جميلة واكثر
من جميلة ..

- هذه هي الطريقة في الحديث . انك تتحدث كالطبيين . وماذا يبدو
لك فيها ايضا ؛
- ذكيرة ...

وهزت المرأة راسها وقالت بلهجة تنطق بالاسى .. لقد بدأت بداية طيبة،
ولكنك انتهيته نهاية سيئة .. كلا يا دون روبرتو .
- لا تسميني دون روبرتو .

- انني امزح ، فنحن هنا نسمي بابلو بالدون ، ونقول السيورينا ماريا ..
- انا لا امزح على هذا الشكل ، فالرفاق ، رفاق ، ويجب ان نلقبهم
بذلك بكل جد ، ابان هذه الحرب ، فالمزاح يؤدي الى التبعث .
- لا ريب في انك متعصب لعقائدك . او لا تمزح قط ؟
- اجل انني احب المزاح ، ولكن لا في طريقة الخطاب . فالطريقة مثل
الراية التي نرفعها .

وضحكت المرأة وهي تقول .. ولكنني استطيع ان اهزأ بكل راية .
فالمزاح يجب ان يشمل كل شيء . وكنا نلقب الراية القديمة المؤلفة من
الاصفر والذهبي بالصديد والدم ، اما راية الجمهورية التي اضيف اليها
اللون الارجواني فنسميها بالصديد والدم المطهر . انها نكتة .
وقالت ماريا .. انه شيوعي . وهم اناس جادون لا هازلون .

وقالت المرأة - وهل انت شيوعي

- لا ، ولكنني مناويء للفاشية .

- امند امد طويل ؟

- منذ بدأت افهم الفاشية .

- متى كان ذلك ؟

- منذ عشر سنوات .

- هذا ليس بالامد الطويل ، لقد كنت جمهورية منذ عشرين عاما .

وقالت ماريا - كان والذي جمهوريا طيلة حياته ، وكذلك جدي .

- في اي بلاد ؟

- في الولايات المتحدة

- وهل قتلوه ؟

فقال ماريا - يا الله ! ان الولايات المتحدة بلاد جمهورية . وهم لا يقتلون الرجل لارائه الجمهورية هناك .

وقالت المرأة . . على كل حال ، من الخير ان يكون للمرء جسد من الجمهوريين ، فهذا دليل على عراقة الاصل .

وقال روبرت . . . كان جدي عضوا في اللجنة القومية الجمهورية .

وقالت بيلار متسائلة . . وهل لا يزال والدك نشيطا في الجمهورية ؟

- كلا ، لقد مات .

- هل في وسعي ان اسأل كيف مات ؟

- لقد انتحر .

- أنتحر ، ليتجنب العذاب ؟

- اجل ، ليتجنب العذاب .

وتطلعت اليه ماريا ، وقد اغرورقت عينها بالدموع ، وقالت . . لم يستطع والذي العثور على سلاح ينتحر به ، ويسرني ان والدك ، كان احسن حظا في العثور على السلاح .

- حقا . . لقد كان احسن حظا ، لم لا نتحدث عن شيء آخر .

وقالت ماريا . . اذن نحن متشابهان . . ووضعت يدها على ذراعه ، واخذت تتطلع الى وجهه ، فرفع بصره الى وجهها الاسمر ، والى عينيها ، اللتين رأى أنهما لم تعودا ، فتيتين كسائر اجزاء وجهها ، بل رأى فيها نجاة ، جوعا وفتوة ، ونداء .

وقالت المرأة . . في وسع من يراكما أن يقدر انكما اخوين ، ولكن من الخير انكما لستما اخوين .

وقالت ماريا . . عرفت الان سبب ذلك الشعور الذي احسست به ، لقد اتضح لي الان .

وقال روبرت ، وهو يضع يده على رأسها . . آه . . لقد اراد ان يفعل ذلك طيلة النهار ، اما وقد تجرا اخيرا ، فقد شعر باللهيب يحرق حلقة ، وحركت رأسها بنعومة تحت يده ، وابتسمت ، واحس بخشونة الشعر النامي ، تحز في اصابعه ، فرفع يده ووضعها على عنقها ، ثم هبط بها الى جانبه . .

وقالت ماريا . . اعد ، اعد . . كنت اريد منك ذلك طيلة النهار .

- فيما بعد . . ان الفصاة ما زالت في حلقة .

وقالت زوجة بابلو . . وانا . . هل ينتظر مني ان ارى كل هذا ، وان لا اتحرك او اتأثر ؛ لا استطيع ، ويجب ان يعود بابلو . . مهما كان النمن .

ولم تعد ماريا تكثرث بها . . او بالآخرين الذين يلعبون بالورق على المائدة وقالت تسال روبرت . . اتريد كاسا آخر .

- اجل ، ولم لا .

وقالت زوجة بابلو - سيكون لك رجل سكير كرجلي .. لقد شرب
ذلك الشراب الغريب .. اسمع ايها الانكليزي .

- لست بالانكليزي ، انا امريكي .

- اذن اسمع ايها الامريكي .. اين تريد ان تنام ؟

- سأنام في الخارج .. عندي سرير من الحبال .

- حسنا .. نالليل ، رائق ، والجو صاف .

- وفيه بعض البرودة .

- اذن نم في الخارج ، وفي وسع حاجاتك ان تنام معي .

- حسننا .

- وقال روبرت للفتاة وهو يضع يده على كتفها .. اتركينا لحظة .

- لماذا ؟

- اريد ان اتحدث الي بيلار .

- هل من الضروري ان اذهب ؟

- اجل .

ومضت الفتاة الى الطرف الآخر من الكهف ترقب اللامبين ، وقالت

بيلار .. ماذا هناك ؟

- لقد قال الفجري .. ان الواجب كان يدعوني ..

- لا ، انه مخطيء .

وقال روبرت بهدوء مشغوع ببعض الصعوبة .. اذا كان من الضروري

ان ..

نه اعتقد انك ستقوم بذلك ، ولكن لا ، ليس ضروريا ، لقد كنت

ارقبك ، ولكن حكمك كان صحيحا .

- ولكن اذا اقتضى الامر ..
- لا اقول لك ، لا حاجة ، فدماع الفجري عفن وتالف .
- ولكن الرجل في ضعفه ، قد يصبح مصدرا للخطر .
- لا ، انك لا تفهم ، اما وقد اجتزنا ، مرحلة الخطر ، فقد نجونا من كل خطر .
- انا لا افهم .
- انك ما زلت شابا ، ستفهم فيجا بعد .. تعالي يا ماريا ، فقد انتهينا .
- وعادت الفتاة ومد روبرت يده ، واخذ يربت على راسها ، وشرعت تهتز تحت يده ، كالفرخة الصغيرة .. واحس بانها تكاد تبكي .. ولكنها تمالكت نفسها وعادت تبتسم .
- وقال بيلار لروبرت .. من الخير ان تذهب الى فراشك الان ، لقد كانت رحلتك شاقة طويلة .
- حسنا ، ساعد حاجاتي .



V

كان لا يزال ينام في فراشه المصنوع من الحبال ، وقد خيل اليه ، انه قضى امدًا طويلًا ، يفظ في نومه ، وعندما تقلب في نومه من ناحية الى ناحية ، احس بمسدسه المشو ، الذي ثبته في يده ليكون على مقربة منه ، وعندما افاق ، كان لا يدري اين هو ، ولكنه سرعان ما تذكر ، فأعاد مسدسه الى موضعه وكان قد تحرك من موضعه ، وعاد يضم الوسادة الى صدره ، واحس بيدها على كتفه وسرعان ما تناول مسدسه ، ملتفتا اليها ، بومضة خاطفة وقد تناول المسدس في يمينه ، وما عثم ان قال .. آه .. هو انت .

ومد لها يديه ، فاخذها في احضانه ، وطوقها بذراعه ، فشعر بانها ترتجف ، وقال .. ادخلي في الفراش ، فالطقس بارد للغاية .

— لا ، يجب ان لا ادخل .

— ادخلي ، وستحدث عن الموضوع فيما بعد .

كانت ترتعد ، وامسك بيدها باحدى يديه ، بينما طوقها بذراعه الاخر . . . وكانت قد ادارت وجهها عنه .

فقال وهو يقبلها في عنقها .. ادخلي ابنتي الاربعة .

- انا خائفة .

- لا تخافي ادخلي .

- وكيف ؟

- كل ما عليك ان تنسلي في الفراش ، فهناك مكان نسيح ، اثريدين . ان
اساعدك ؟

- لا .. ودلقت الى فراشه واحست به يضمها الى صدره ، ويحاول ان
يمش على شفتيها بشفتيه ، ولكنها كانت تخفي وجهها عنه بالوسادة خائفة
عليها ، بينما احاطت عنقه بذراعيها ، وسرعان ما تراخت يداها ، وبدأت
ترتجف ثانية بين يديه .

وقال لها - لا .. لا تخافي ، هذا هو المسدس .

وتناوله ووضع خلفه فقالت .. انني خجلى .

- عليك ان لا تخجلي هنا ، وفي هذه الساعة .

- علي ان لا اخجل !! انني خجلة وخائفة .

- لا يا ارنيتي ، ارجوك !

- علي ان لا اخجل ولا اخاف اذا كنت حقا تحبني .

- انشي احبك .

انني احبك ! آه ، احبك . ضع يدك على رأسي .

ووضع يده على رأسها ، وأخذ يربت عليه بحنان ، وفجأة قدفت بنفسها
بين احضانها ، وأخذت تشد بنفسها عليه ، وتهصر جسدها بين يديه ،
واقترب وجهها من وجهه ، لقد كانت تبكي .

وأمسك بها بعصرها بين ذراعيه ، وهو يحس بهذا الجسد الفتى يكاد
يلتصق بجسده ، وربت على رأسها من جديد ، وأخذ يفرق عينيها
بقبلاته ، بينما يحس بصدرها الناهد ، المتفجر يكاد تقفز وماتاه ، مسن
القميص الذي تلبسه .

وقالت الفتاة . . لا أستطيع ان اقبلك ، فانا لا اعرف كيف اقبل .

- لا حاجة بك الى تقبيلي .

- لا ، يجب ان اقبلك ، يجب ان افعل كل شيء .

- لا حاجة بك الى ان تفعل شيئا ، فنحن على ما يرام ، ولكن خففي
من ملابسك .

- وماذا يجب علي ان افعله ؟

- سأساعدك .

- وهل هذا افضل ؟

- اجل ، افضل بكثير . الا تشعرين بالفرق ؟

- اجل . . احس انني في وضع احسن . وهل في وسعي ان اذهب معك
كما قالت بيلار ؟

- اجل .

- شريطة ان اذهب معك ، لا الى ملجأ .

- لا الى ملجأ ؟

- لا . لا . لا . معك ، لاكون امراتك .

وابعدا كل ما يفصل بينهما . فقد اختفت خشونة النسيج ، لتحل محله ،
نعومة ، وطلاوة ، نعومة الجسدين الفائرين ، وقد التصقا ، في كل جزء من
اجزائهما ، وسيطرت عليهما برودة دافئة ، برودة في الخارج ، ودفء في
الداخل ، وعناق طويل تتخلله فترات من الضغط واخرى من الانسياب ،
والسعادة تفرهما ، بكل ما فيها من شباب عارم ، وحب دافق ، وحرارة
صاحرة ، وتنهدات وآهات ، واحسن روبرت ، انه لا يستطيع الصمود اكثر
عما صمد فقال . . هل احببت آخريين ؟

ابدا . . ولكن مثل هذه الأمور ، مرت بي من قبل ، اذ فعلها الآخرون .

- من فعلها ؟

- عدد كبير مختلف .

وكانت قد استلقت مسترخية الآن ، وكان جسدها ، قدمات ، وادارت وجهها عنه الى الناحية الاخرى ثم قالت .. والان ، فانت لن تحبني ؟

- انا احبك .

ولكن شيئاً قد طرا عليه ، وقد احسنت بهذا الشيء وادركته ، وقالت ، وقد ضعف صوتها .. لا ، انك لن تحبني ، ولكنك قد تاخذني الى الملجأ . وسأذهب اليه . ولن اكون امراتك ، او شيئاً من هذا القبيل .

- ولكنني احبك يا ماريا .

- لا ، انك تكذب .. ولكنني لم اقبل رجلا قط في حياتي .

- اذن قبليني الآن .

- لقد اردت ان اقبلك . ولكنني لا اعرف . وعندما كانوا يمثلون ذلك الدوز معي ، كنت اقاوم ، حتى لا ارى . اجل كنت اقاوم حتى جلس احداهم على رأسي فعضضته ، ثم كمعوا فمي ، وربطوا يدي خلف رأسي . وبدأوا يتناوبون على العمل معي .

- اننى احبك يا ماريا . ولم يعمل احد معك شيئاً . فهم لا يستطيعون لمسك . لم يمسك احد ، ايتها الارنبه الصغيرة .

- او تصدق هذا ؟

- انا اعرفه .

. وهل في وسعك ان تحبني ؟

- استطيع ان احبك ، اكثر فأكثر .

- سأحاول ان اقبلك جيدا .

- قبليني قليلا .

- لا اعرف كيف ؟

- قبليني فقط ..

وقبلته على وجنتيه .. فقال لا ..

- ولكن اين يذهب الانغان ، لقد كنت اتساءل ، اين يذهب الانغان .

- اسمعي ، ادبري راسك .

والتصقت الشفاه ، في قبلة طويلة حارة ، واحس بها تكاد تعصر نفسها بين ذراعيه ، واخذ فمها ينفرج شيئاً فشيئاً .. وفجأة احس به يضمها اليه ، فشم بسعادة لم يسبق له ان احس بمثلها ، سعادة عارمة ، قوية ، عنيقة ، دافقة ، لا يساورها خوف ، او قلق ، او تعب ... واتما لذة ، ونشوة .. فانفجر يقول .. يا ارنبتي الصغيرة ، يا معبودتي ، يا جميلتي ، يا حبيبتي الوحيدة .

- ماذا تقول ؟ .. كانت وكأنها تعيش في حلم بعيد .

- يا حبيبتي الوحيدة ..

واستلقيا على الفراش من جديد ، واحس بدقات فؤادها ، تفرع على صدره ، واخذت قدمها ، تعزف لحن السعادة على قدمه .

- وهل جئت حافية القدمين ؟

اجل .

- اذن انك كنت تعرفين ، انك آتية الى الفراش .

- نعم .

- ولم تكوني خائفة .

- اجل ، ولكنني كنت اخشى من انتزاع حلائي .

- وكم الساعة الان ؟

- او ليس معك ساعة ؟

- أجل ، ولكنها وراء ظهرك .
- تناولها من هناك .
- لا .
- اذن ، انظر وراء كنفى .
- كانت الساعة قد بلغت الواحدة ، ولمع عقربها مضيئاً في هدأة الليل .
- ذقتك ، تخمش كنفى ..
- عفوك ، ولكن ليس معي اية ادوات للحلاقة .
- انا احبها . وهل ذقتك شقراء ؟
- اجل .
- وهل ستكون طويلة ؟
- لن تطول قبل الجسر . اسمعي يا ماريا ، هل .. ؟
- هل ماذا ؟
- هل تريدن ؟
- اجل ، كل شيء ، ارجوك . واذا عملنا كل شيء معا ، فان اي احتمال آخر لن يوجد .
- وهل فكرت في ذلك ؟
- لا ، لقد كنت افكر ، ولكن بيلار ، قالت لي .
- انها حكيمة للغاية .
- وهناك شيء آخر ، لقد طلبت مني ان اقول لك ، انني لست مريضة . انها تعرف مثل هذه الامور ، وقد طلبت مني ان اقول لك .
- وهل طلبت منك ان تقولي لي ذلك .
- اجل . لقد تحدثت اليها ، وافتها انني احبك . لقد احببتك عندما

رايتك اليوم . وربما كنت احبك دائما ، ولكنني لم ارك من قبل . وقد ابلضت بيلار ، وطلبت الي ، اذا حدثتكَ في اي موضوع ، عن اي شيء وقع لي ، ان اقول لك ، انني لست بالمريضة . اما الشيء الآخر ، فقد حدثتني به قبل امد طويل . . بعد حادث القطار مباشرة .

– وماذا قالت لك ؟

– قالت ، ان الانسان عندما يرغب على عمل شيء ، فكانه لم يعمل قط .
وانني اذا احببت انسانا ، فان ذلك الماضي سيختفي ، ويضيع . لقد كنت اوتر الموت . ولا شك انك رايت ذلك .

– ان ما قالته ، حق وصدق .

– اما الان ، فاني سعيدة لانني لم امت . انني سعيدة للغاية ، لانني لم امت فهل في وسعك ان تحبني ؟

– اجل انني احبك الان .

– وهل في وسعي ان اكون امراتك !

– لا استطيع ان اتزوج ، وانا اقوم ، بما اقوم به الان . ولكنك امراتي الان .

– اذا اصبحت امراتك مرة ، فساظل الي الابد . فهل انا امراتك الان ؟

– اجل يا ماريا . اجل يا ارنبتني الصغيرة .

ودنت منه ، فالتصقت به من جديد ، واخذت شفتاها تبجثان عسن شفتيه ، الي ان عثرنا عليهما ، فاجتمعا في قبلة طويلة ساخنة ، قبلة جديدة ، رقيقة وفتية ، واحس بالدفء يعاوده ، طاردا البرودة مسن جسده . . وسمعها تقول . . وهي خائفة . . والان ، لتسرع في عمل ما عملناه ، حتى يزول كل اثر للماضي البعيد .

– او تريدسن ؟

– نعم . نعم . نعم . . .



كان الليل شديد البرودة ، ونام روبرت جوردان ، توما عميقا ، وقد استيقظ ذات مرة ، فادرك أن الفتاة ما زالت هناك ، تغط في نومها في طرف الفراش ، وهي تتنفس تنفسا منتظما رتيبا ، وأخرج رأسه في ظلمة الليل ، فرأى السماء الصافية ، وقد امتلأت بالنجوم ، وأحس ببرودة الليل ، في خياشيمه ، فعاد يخفي رأسه من جديد في دفاء الفراش ، وقبل كتفها الرقيقة الناعمة ، ولم تستيقظ الفتاة ، فتدحرج بجسده من جديد الى الناحية الأخرى ، وأخرج رأسه ، الى العراء ثانية ، مستيقظا ، وقد أحس بالاجهاد ، بينما تدب احساس النشوة في جسمه ، كلما لمس جسدها الرقيق اناعم النائم الى جواره ، وعاد ليففو . . من جديد .

واستيقظ ، مع بزوغ الفجر ، فرأى ان الفتاة قد مضت ، لقد عرف ذلك عندما مد ذراعه ، فأحس بالفراش الدافئ ، حيث كانت تنام ، وتطلع الى مدخل الكهف ، فرأى الدخان ينبعث منه ، مما يشير الى ان نيران المطبخ قد بدأت في الانتقاد .

ورأى رجلا يخرج من الغابة ، وقد وضع « بطانية » فوق رأسه ، لقد كان بابلو ، وكان يدخن لفافة من التبغ ، وتصور روبرت ان الرجل كان مع

جياده . . ورفع بابلو الستارة ثم دلف الى الكهف دون ان يتطلع الى روبرت
وأحس روبرت بيده الصقيع الابيض المتجمع على الدثار الذي كان ينام
تحتة ، ثم ادار ظهره للناحية ، التي ستيزغ الشمس منها ، وخيل اليه
ان في وسعه ان يعود الى النوم .

ونام فعلا ، ولم توقظه الا اصوات هدير طائرة . . كانت دورية فاشية
مؤلفة من ثلاث طائرات من طراز فيات ، تعبر السماء بسرعة ، بهيكلها
الصغيرة اللامعة . . ومرت الطائرات الثلاث لتتبعتها تسع اخرى ، اكثر
ارتفاعا وهي تحلق في السماء في مجموعات ثلاثية .

وكان بابلو والفجري ، يقفان في مدخل الكهف ، في الظل ، يرقبان السماء ،
وبينما كان روبرت ، لا يزال نائما في فراشه ، امتلات السماء ، بهدير متعال
من محركات الطائرات ، ورأى ثلاث طائرات جديدة ، تكاد تكون على علو
الف قدم من الفرجة القائمة في الغابة ، انها طائرات من طراز هينكل ، من
القاذفات .

وادرك روبرت ، وقد اخفى راسه في ظلال الصخور ، ان الطائرات لن
تراه ، وانها اذا راته ، فلن تفعل شيئا ، وادرك انها قد ترى الجياد فسي
مربطها ، اذا كانت تبحث عن شيء في هذه الجبال . اما اذا كانت مجرد
طائرات عابرة ، فانها ستحسب الجياد ، تابعة لفصيل مسن فرسانها ،
وسرعان ما سمع هدير عنيف ، يصم الأذان ، وشوهدت ثلاث طائرات
اخرى من طراز هينكل ، وهي تطير ، على ارتفاع خفيض للغاية ، مارة فوق
الفرجة .

وشرع روبرت يرتدي ملابسه ، عندما سمع صوت هدير جديد ، ورأى
لثلاث طائرات اخرى ، تقترب من المكان ، ولم تكد تمضي حتى كان قد اتم
لباسه ، ووضع مسدسه الى جانبه ، وطوى فراشه ، وجلس الى جانب
الصخر يربط حذاءه ، واذا بالهدير يشتد ثانية بشكل مخيف ، لم يسبق
له مثيل ، وابصر بتسع طائرات اخرى من قاذفات القنابل من طراز هينكل
تملا السماء .

وزحف روبرت محاذيا الصخور ، الى مدخل الكهف ، حيث كان احد
الاخوين ، وبابلو ، والعجري ، وانسيلمو ، واوغسطين ، وزوجة بابلو ،
يقفون جميعا يتطلعون الى السماء .

وقال يسألهم – هل رأيتم من قبل مثل هذا العدد الكبير من الطائرات ؟
– ابدا ، ادخل ، انها ستراك .

ولم تكن الشمس قد اصابته باشعتها مدخل الكهف بعد ، كانت الشمس
لا تزال ترتفع تدريجيا فوق الافق ، ملقبة باشعتها على المرح ، وعرف
روبرت انها لن تستطيع ان تراه في هذا الظل الممتد ، الذي تلقيه الاشجار
والصخور ، ولكنه دلف الى الكهف ، ملييا نداء بابلو ، مخافة اثاره اعصابه .
وقالت المرأة – انها كثيرة العدد .

وقال روبرت – وسنرى طائرات اكثر عددا .

فقال بابلو – والشك يكاد يتضح في سؤاله – وكيف تعرف ؟

– ان هذه الطائرات التي مرت بنا من جديد ، الهدير المتعالي ، مسن
الطائرات وهي تمر على ارتفاع خمسة الاف قدم ، وعد روبرت خمس
عشرة طائرة من طراز فيات ، تطير في تشكيلات على رقم (٧) .

وبدت الخشية على جميع الوجوه ، وقال روبرت .. يبدو انكم لم تروا
مثل هذا العدد من الطائرات ؟

فقال بابلو – ابدا .

– او لم تكن هناك طائرات عدة في سيفوفيا ؟

– ابدا لم نر في حياتنا مثل هذا العدد . كنا نرى ثلاث طائرات معا ،
واحيانا ست طائرات ، ثلاثا من طراز يونكر الكبيرة ، ومعها ثلاث مطاردات ،
ولكننا لم نر قط مثل هذا العدد الكبير .

وخيل الى روبرت ان الوضع سيء ، بل وسيء للغاية ، فهذا الحشد من

الطائرات، يعني ان ثمة شيئاً سيئاً يعد ، وقال يحدث نفسه .. وعلى ان انتظر سماعها وهي تفرغ محمولها ، ولكن لا يعقل ان تكون جماعتنا قد اعدت بعد القوات اللازمة للهجوم ، اذ لا يمكن ان تتم هذه الاعدادات قبل هذه الليلة ، او ليلة غد ، ولا ريب من انهم لا ينقلون ايا من القوات في هذه اللحظة .

وكان في وسعه ان يسمع صوت الهدير المتباعد ، واخذ يتطلع الى ساعته . لا ريب في ان الطائرات قد وصلت طلائعها في هذه اللحظة الى خطوطنا ... لا ، ربما انها لم تصل بعد .. اما الان فلا ريب في انها قد وصلت . ان هذه الطائرات تقطع مائتين وخمسين ميلا في الساعة ، وبعد خمس دقائق ، ستكون هذه الطائرات هناك ، ولا شك في انها قد مرت الان فوق قشتالة ، التي تنتشر فيها الطرق والقرى الصغيرة .

واخذ ينصت الى صوت ساعته ، وهي تدق . ان القنابل لم تتساقط . لعلها تتجه الى كولمينار او ايسكوريال ، او الى مطار مانزاناريس ايل ريال ، حيث تقوم القلعة القديمة فوق البحيرة ، وقد انتشرت فيها طيور البط ، ووراءها يقوم المطار الكاذب وراء المطار وقد ظهرت فيه الطائرات الورقية الكاذبة تتحرك مع الريح . لا ريب في انها تتجه الى هناك ، اذ لا يعقل ان يكون العدو قد عرف بالهجوم .. ولكن لماذا استبعد ذلك ، وقد سبق للعدو ان عرف بما سبقه من هجمات .

وقال بابلو متسائلا - او تظن ان الطائرات رأت الجياد ؟

فرد روبرت - انها لم تكن تبحث عن جياد .

- ولكن هل رأتها ؟ - لا ، الا اذا كانت تعتمد البحث عنها .

- وهل كان في وسعها ان تراها ؟

- من المحتمل ان لا يكون في وسعها ان تراها ، الا اذا كانت الشمس تلقي باضوائها على الاشجار .

- انها تصل اليها . منذ الصباح الباكر .

- أعتقد ان ثمة ما يشغل الطيارين اكثر من جياذك .
وقد انقضت ثماني دقائق منذ حدد الساعة تماما . . وها هو لا يسمع
قصفا .

وقالت المرأة - ماذا تفعل بسامتك ؟
- اصفي الى المكان الذي اتجهت الطائرات اليه .
- آه .

وعندما تجاوزت الساعة الدقائق العشر ، وادرك ، انها اصبحت بعيدة،
بحيث اضحي من المتعذر عليه ان يسمع . . اتجه الى انسيلمو قائلا . .
اريد التحدث اليك .

وخرج انسيلمو من الكهف ، وسار الرجلان معا ، من المدخل ، الى ان
توقفا عند احدى اشجار الصنوبر . فقال روبرت . . كيف تسيير الامور ؟
- حسنا .

- وهل اكلت ؟

- كلا ، لم ياكل انسان بعد .

- اذن كل الان ، وخذ شيئا لتأكله عند الظهيرة . اريد منك ان تذهب
لمراقبة الطريق ، وعليك ان تلاحظ ، كل ما يمر عليها ، صاعدا او هابطا .
- انالا اعرف الكتابة .

- لا حاجة بك اليها . خذ هذه الورقة . واذا مرت بك دبابة فارسم
هذه الاشارة واذا اصبح الرقم اربع دبابات ، فضع هذه الاشارة لترمز
الى الخامسة .

- وهكذا نعد عدد الدبابات .

- اجل . وارسم صندوقا مع عجلتين للشاحنة . اذا كانت فارغة فضع
دائرة . واذا كانت مملأى بالجنود ، فضع خطا مستقيما . وهذه اشارة

للمدافع الكبيرة ، وتلك للمدافع الصغيرة ، وهذه للسيارات ، وتلك لعربات الاسعاف . وهذه لفئة من جنود المشاة ، دائرة واشارة الى جانبها ، اما الفرسان فهذه الاشارة ترمز اليهم ، انها كالحصان ، صندوق مع اربع ارجل . وجماعة من عشرين فارسا هذه هي اشارتها . هل فهمت ؟
- اجل انها اشارات رائعة .

- وهذه .. العجلات الضخمة والدوائر فوقها ، هي لعربات المدافع ، وهذه للمدافع المضادة للدبابات وتلك للمدافع المضادة للطائرات . هل فهمت ؟

- اجل ، لقد فهمت .. والصور واضحة .

- خذ الفجري معك ، ليساعدك في المراقبة . واختارا مكانا امينا ، لا يكون قريبا جدا ، ولكن في وسعكما ان ترقبا منه بهدوء . وحافظا على مركزكما حتى نبعث من يخلفكما فيه .
- فهمت .

- حسنا ، وعندما تعود ، يجب ان اعرف كل ما مر على تلك الطريق . واترك ورقة للوحدات الصاعدة واخرى الهابطة .

وسار الرجلان باتجاه الكهف ، وقال روبرت ، .. قل لرفائيل ، ان ياتي الي . وابصر بانسيلمو وهو يدلف الى الكهف ، ثم بالفجري وهو يخرج ، ماسحا فمه ، بكمه .. وقال للفجري - هل لهوت ليلة امس ؟
- لقد نمت .

- هذا اقل سوءا ، هل معك سيكارة ؟

- اسمع .. وناوله سيكارة ثم قال .. اريد منك ان تذهب مع انسيلمو الى مكان سيرقب الطريق منه . وستتركه هناك ، لتعود الي بعد ان تحدد المكان لتقودني او تقود اي شخص آخر ، ليحل حاء . عليكما ان تذهبا الى مكان تستطيعان مراقبة الطاحونة منه . عليك ان ترى اذا كان ثمة من جديد قد طرا على المركز العسكري فيها .

- اي جديد بطرا ؟
- كم رجلا هناك الآن ؟
- ثمانية هذا آخر ما اعرفه .
- اذن راقب كم عدد الرجال فيه الان . وانظر في اي وقت يتم استبدال الحارس عند الجسر .
- في اي وقت ؟
- اجل ، كم ساعة يقضي الحارس عند الجسر ، ومتى وفي اي ساعة يستبدل .
- ليست معي ساعة .
- خذ ساعتى .. واخذ يفك رباط ساعتى ..
- يا لها من ساعة رائعة ! انظر ما اروع التعقيدات فيها . ان مثل هذه الساعة تستطيع ان تقرا وان تكتب . ما اكثر ما فيها من تعقيدات الاحرف انها ساعة تختفي امامها الساعات .
- لا تضع عقلك فيها .. هل تستطيع معرفة الوقت ؟
- ولم لا ؟ ان الثانية عشرة ، هي منتصف النهار ، وهي ساعة الجوع ، والثانية عشرة هي منتصف الليل ، وهي ساعة النوم . وفي السادسة صباحا جوع ، وفي السادسة مساء ، شراب . وعندما تكون الفرصة مواتية ، فالعاشر مساء ..
- اغلق فمك ! لست في حاجة لان تكون مهرجا . كل ما اريده منك ، ان تراقب الحارس عند الجسر الكبير والمركز القائم على الطريق ، والمركز والحرس عند الطاحونة والجسر الصغير .
- انها مهمة كبيرة ، وهل انت واثق ان ليس ثمة من هو اصلح مني لها ؟
- لا يا رافائيل ! انها مهمة خطيرة . عليك ان تؤديها بحرص ، وان تكون حذرا فتظل بعيدا عن العيون .

- اعتقد ان بوسعي ان اختفي . لماذا تطلب الي ان اظل بعيدا عن
العيون ؟ هل تعتقد انهم سيقتلونني اذا راوني ؟

- خذ الامور على محمل الجد ، فالامر جدي .

- تطلب الي ان احمل الامور على محمل الجد ؟ بعد كل ما فعلت ليلة
امس ؟ عندما كنت في حاجة الي قتل رجل وبدلا من ان تقتله فعلت ما
فعلت ؟ كان المفروض فيك ان تخنق انسانا لا ان تنجب انسانا ! وكل ذلك
بعد ان راينا السماء ملاء بالطائرات الي الحد الذي يكفي ، لقتلنا وقتل
جميع جدودنا واحفادنا الذين لم يولدوا بعد ، ومعنا كل ما في العالم من
قطط ومامز ، وحشرات ، والطائرات تهدر هديرا بوقف الحليب في ضروع
أمك وتزار زئيرا كالاسود ، ثم تأتي الي لتطلب مني ان اكون جادا لا هازلا ،
لقد حملت الموضوع على محمل الجد منذ امد طويل .

- حسنا .. اذن دع الجد جانبا الان ، وامض فاكمل فطورك ، ثم
اذهب .

- وانت ؟ ما الذي ستعمله ؟

- سامضي لأرى ايل سورردو .

- قد لا تجد بعد هذه الطائرات احدا في الجبال كلها . ولا ريب في ان
العرق قد تصيب من جميع الاجساد في هذا الصباح ، عندما مرت بنا
الطائرات .

- ان هذه الطائرات مهام اخرى ، غير اصطياد رجال العصابات ،

- اجل .. ولكن اذا ارادت ان تهتم بهذا العمل ايضا .

- اسمع يا هذا ! ان هذه هي اجود انواع الطائرات الالمانية ، وهي ، لا
تقوم بمطاردة الفجر .

- ولكنها ترهيني .. اجل انني اخاف من مثل هذه الطائرات .

- انها ماضية لقصف احد المطارات .. وانا واثق من ذلك .

وفاه روبرت بجملته الاخيرة ، وهو يدلف مع العجري الى الكهف . .
فقالت زوجة بابلو . . ماذا تقول ؟ . . ثم صبت له قدحا من القهوة ، وناولته
علبة من الحليب المكثف .

– عندكم حليب ؟ يا لها من رفاهية !!

– عندنا كل شيء . ولكن منذ جاءت الطائرات فعندنا خوف شديد
ايضا . . اين قلت ان الطائرات قد مضت ؟

وصب روبرت شيئا من الحليب في قدحه ، ثم مزجه مع القهوة ، الى ان
تبدل لون القدح ، ثم قال . . لقد مضت لتقصف مطارا ، كما اعتقد ، ومن
المحتمل انها قد مضت الى ايسكوريال وكولينار ، او الى المواقع الثلاثة
معا .

وقال بابلو – ليذهبوا اين يشاءون ، وليظلوا بعيدا عنا هنا .

وقالت المرأة – ولكن لم جاءوا الى هنا الان ؟ ما الذي اتى بهم ؟ اننا لم
نر في حياتنا مثل هذا العدد من الطائرات ، هل يعدون لهجوم ؟

وقال روبرت متسائلا – وهل كانت تدة حركة على الطريق ليلة امس ؟ . .
فكانت ماريا قد التصقت به ، ولكنه لم يعرها ادنى انتباه .

وقالت المرأة – اسمع يا فيرناندو ، لقد كنت في لاغرانجا ليلة امس ،
فاي تحركات رايت ؟

وقال رجل قصير القامة ، عريض الوجه ، في الخامسة والثلاثين . وفي
عينه حول . ولم يكن روبرت قد رآه من قبل . . لا شيء ، رايت بعض
الشاحنات ليس الا . وهي كالمعتاد . وبعض السيارات . ولم ار ايسة
تحركات للجنسود .

وقال روبرت – هل تذهب الى لاغرانجا كل ليلة ؟

– اما انا او غيري . يجب ان يذهب واحد منا .

وقالت المرأة - يذهبون بحثا عن الاخبار ، او عن الطبايق ، او عن اشياء صغيرة اخرى ..

- وهل لنا رجال هناك ؟

- اجل ، ولم لا ؟ هناك عمال محطة التوليد وغيرهم .

- وماذا كانت الاخبار ، ؟

- لا شيء هام . فالوضع ما زال سيئا في الشمال . وهذا ليس بالجديد ، فقد كان الوضع سيئا هناك منذ البداية .

- وهل سمعت شيئا من سيفوفيا ؟

- لا ، ايها الرجل ، فلم اسأل .

- وهل تذهب الى سيفوفيا ؟

- احيانا ، ولكن نعمة خطرا في الذهاب . فهناك دوريات تسالك عن اوراقك .

- وهل تعرف المطار ؟

- لا ، يا رجل . اعرف اين يقع ، ولكني لم ادن منه قط . فهناك الكثير من السؤال عن الاوراق .

- او لم تسمع احدا يتحدث عن هذه الطائرات ليلة امس ؟

- لم اسمع شيئا في لاغرانجا . ولكنهم سيتحدثون عنها الليلة بكل تأكيد . كانوا يتحدثون عن اذاعة كيبو . ولا شيء غيره . اجل . كانوا يقولون ان الجمهورية تصد هجوما .

- ماذا تعد ؟

- ان الجمهورية تعد هجوما .

- اين ؟

- لا يعرفون . ربما هنا ، وربما في ناحية اخرى من الجبال ، فهسهل

سمعت بذلك ؟

- وهل يقولون هذا في لاغرانجا ؟

- نعم . لقد نسيت ذلك . ولكنهم يكثرون من الحديث دائما عن الهجمات .

- وابن مصدر هذا الحديث ؟

- ابن ؟ انه من عدة اشخاص . فالضباط يتحدثون في مقاهي سيفوفيا واقبلا ، والخدم يدونون ما يقولون . وسرعان ما تنتشر الشائعات . وقد بدأوا في الحديث منذ مدة عن هجوم تقوم به الجمهورية في هذه البقاع .

- تقوم به الجمهورية او يقوم به الفاشيون ؟

- لا - تقوم به الجمهورية . ولو كان الهجوم فاشيا لعرف به الجميع فوراً . لا - انه هجوم على درجة من الفخامة . ويقول البعض ان ثمة هجوميين . احدهما هنا والاخر في آلتوديل ليون قرب الاسكوريال . هل سمعت شيئاً عن هذا ؟

- وماذا سمعت ايضا ؟

- لا شيء يا رجل . آه . اجل . سمعت ان الجمهوريين قد يحاولون نسف الجسور ، اذا تقرر الهجوم . ولكن الحراسة شديدة على الجسور .

وقال روبرت وهو يرشف من قدح القهوة - هل تمزح يا رجل ؟

- لا

وقالت المرأة - هذا الرجل لا يعرف المزاح . ومن سوء الحظ انه لا يمزح

فرد روبرت قائلاً - اذن ، شكراً لك على كل هذه الانباء . فهل سمعت شيئاً آخر ؟

- لا ، انهم يتحدثون عن قوات سيرسلونها لتطهير هذه الجبال . وقد سمعت ان القوات في طريقها اليها قادمة من فالادوليد . ولكنهم يكثرون دائما من مثل هذه الاحاديث ولا يجدر بنا ان نعلق عليها كبير اهمية .

وقالت المرأة تحدث زوجها بابلو - وانت .. تأتي بعد ذلك ، فتتحدث
عن السلامة . وتطلع اليها بابلو ، وحك ذقنه ثم قال - انت وجسورك .
وقال فرناندو ضاحكا - اية جور ؟

وردت المرأة - يا لك من بليد . جامد الرأس . خذ قدحا آخر من القهوة
وحاول ان تتذكر انباء اخرى .

وقال فرناندو بهدوء .. وهو يتسهم .. لا تغضبي يا بيلار . يجب ان لا
يفزع الانسان من الشائعات . انني لم اعرفها قط اي انتباه .
- اذن كانت هناك شائعات اخرى ؟

- اجل . هذا ممكن . ولكنني لم اكثرث بها . لقد انقضى اكثر من عام
وانسا لا اسمع الا شائعات .

وسمع روبرت ، صوت ضحكة مباغتة تنبعث من الفتاة ماريا التي كانت
تقف وراءه . وقالت وهي تهز كتفيها .. اسرد لنا شائعة اخرى يسا
فرناندو .

- حتى ولو تذكرت ، فاني لن ارددها ، فما يعرض كرامة الانسان
للمهانة ، ان يعلق اهمية كبرى على الشائعات .

وقالت المرأة .. وهذه هي الطريقة المثلى لانقاذ الجمهورية .

فقال بابلو .. لا - ستنقذونها بنسف الجسور .

وتطلع روبرت الى انسيلمو ورافائيل ، وقال .. هيا اذهبا ، اذا كنتما
قد فرغتما من الفطور .

وقال الرجل العجوز ، وقد نهض على قدميه ، سنذهب الاز .

واحسن روبرت بيد توضع على كتفه كانت يد ماريا .. التي قالت ..
ليك ان تأكل شيئا .. حتى تستطيع معدتك احتمال كل هذه الشائعات .

- لقد اتحمت بالشائعات بدل الطعام .

- لا . عليك ان لا تسمح بهذا . على كل حال ، كل هذا . قبل ان تصلنا

شائعات جديدة .

وقدمت اليه صحيفة عليها بمضى الطعام . .

وقال فرناندو . . لا تهزئي بي يا ماريا . فانا صديقك الصدوق .

– كلا انا لا اهزا بك . ولكنني امزح معه وعليه ان ياكل . والا ظل
جائعا . وقال فرناندو – اجل يجب ان ناكل ، ماذا حدث يا بيلار . حتى
ان الطعام لا يقدم الي .

– لا شيء يا رجل . خذ وكل . هذا كل ما تستطيع ان تعمله الان . كل .

– انه طعام جيد يا بيلار .

– شكرا ، وشكرا لك ثانية .

– هل انت غاضبة مني ؟

– لا . ولكن كل . وامض في طعامك .

– حسينا ساكل . شكرا لك .

وتطلع روبرت الى ماريا ، فارتعدت اوصالها ، وشعرت برعشة في
كتفها ، فابتعدت بنظرها عنه . واخذ فيرناندو يتناول طعامه بهدوء وثبات
وقد علت وجهه سحابة من الجد والكبرياء . . رغم المعلقة الكبيرة التي
كان يستعملها في تناول حسائه ، ورغم انصباب الحساء على طرفي ذقنه .

وقالت زوجة بابلو تسأله – هل اعجبك الطعام ؟

– اجل يا بيلار ، انه شهى كالعادة .

واحس روبرت بيد ماريا على ذراعه ، وباصابعها تضغط عليه ، معبرة
عن الفرح .

وقالت المرأة تسال فيرناندو – ولهذا ، فقد اعجبك ؟ . . اجل كالعادة ،
فالحساء كالعادة ، والامور سيئة في الشمال كالعادة ، والهجوم متوقع
كالعادة ، والقوات تأتي لمطاردتنا كالعادة ، وفي وسعك ، ان تكون جامدا
كالتمثال دائما كالعادة .

- ولكن الشيشيين الاخيرين ، مجرد شائعات يا بيلار .
- وقالت المرأة - انها اسبانيا .. والتفتت الى روبرت جوردان وهي تقول .. وهل في البلاد الاخرى ، رجال من هذا الطراز ؟
- ليست هناك بلاد اخرى كاسبانيا ..
- فقال فيرناندو - انك على حق . فليس ثمة بلاد في العالم كاسبانيا .
- وهل رايت بلادا اخرى غير اسبانيا ؟
- لا . ولا اريد ان ارى بلادا غيرها .
- فقال زوجة بابلو موجهة حديثها الى روبرت - اسمعت .. ؟
- وقالت ماريا .. اسمع يا فيرناندو ، حدثنا عن المرة التي ذهبت فيها الى فالانسيا .
- لم احب فالانسيا .
- لم لم تحبها ؟
- ليس للناس فيها اخلاق . ولم استطع فهمهم . فكل ما يفعلونه ، هو ان يصرخ الواحد منهم ، على رفيقه .
- وهل استطاعوا ان يفهموك ؟
- تظاهروا بانهم لم يفهموني .
- وماذا فعلت هناك ؟
- وصرخت زوجة بابلو - اوه ، اذهب من هنا ايها العجوز ، اذهب ، قبل ان يلحق بي الغشيان من حديثك . فقد قضيت اروع ايامي في فالانسيا . لا تقل شيئا عن فالانسيا .
- وقالت ماريا متسائلة .. وماذا فعلت هناك ؟
- وجلست زوجة بابلو الى المائدة ، ويدها قدح من القهوة ، وقطعة من الخبز ، ووعاء مليء بالحساء .. ثم شرعت تقول .. آه ، ماذا عملت هناك؟

لقد كنت فيها عندما كان فينيتو مرتبطا بثلاثة عقود ، للمصارعة في فيريا .
لم ار في حياتي مثل هذا الحشد الضخم من الناس . ولم ار مقاهي تعج
بالناس كمقاهيها . فعليك ان تنتظر ساعات طويلة ، قبل ان تجد مقعدا
تجلس عليه ، ويستحيل عليك ان تجد مكانا في حافلة الترام . فالحركة
دائبة في فالانسيا ليلا نهارا .

وقالت ماريا . . . ولكن ماذا عملت فيها ؟

– عملت كل شيء . ذهبنا الى الشاطئ ، ونمنا في الماء ، وفي القوارب
التي تحمل الاشرعة والتي تجرها ، عند وصولها الى الساحل ، النيران .
اجل انهم يدفعون بالثيران الى الماء ، حتى يرغموها على السباحة ثم
يدفعون بها الى القوارب . وعندما تضع عليها اقدامها ، تأخذ في الترنج
فوق الرمال ، وترى عشرة رؤوس من الثيران ، تجر قاربا منطلق
الاشرعة ، وهو يخرج من البحر في ساعات الصباح الباكر ، مع خط من
الامواج الصغيرة التي تتكسر على الشاطئ . هذه هي فالانسيا .

– وماذا فعلت ايضا بالاضافة الى مراقبة الثيران ؟

– كنا ناكل في خيام منصوبة على الرمال . فطائر ، محشوة بالسماك التي
ازيلت منه الاشواك . والبهارات الخضراء والحمرات ، واللوز ، كحبات
الارز . انها فطائر لذيذة جديدة ، ولحم الاسماك فيها دسم ، وذو مذاق
و « القريدس » وقد اشبع بعصير الليمون . وهي زرقاء اللون طعمها في
منتهى الروعة . اجل كنا ناكل الكثير منها . وكنا ناكل اعشاب البحر ،
وما تضمه الاصداف من لحم لذيذ المذاق ، والمحار ، وجراد البحر ،
والرعاد (الحنكليس) . وكثيرا ما اكلنا بعض صفار الاسماك ، التي لا
تكاد تضعها في فمك حتى تذوب فيه . ونشرب مع ما ناكل ، نبيذا ابيض ،
شديد البرودة ، خفيف المذاق . . . ثم نقبل بعد ذلك على البطيخ . . انها
بلدة البطيخ .

وقال فيرناندو – ولكن بطيخ قشتالة ، خير من بطيخ فالانسيا .

– ان بطيخ قشتالة ، لا يصلح لشيء ، اما بطيخ فالانسيا ، فحلو
المذاق . وعندما اذكر تلك البطيخات ، وهي طويلة كذراع الانسان

وخضراء كالحجر ، وهشة للتقطيع ، وحلوة المذاق ، كالاصباح الباكسة في الصيف .. آه عندما اذكر كل ذلك ، واذكر تلك الاسماك الصغيرة التي كنا ناكلها ، واقذاح الجعة التي كنا نتناولها ، طيلة الامسيات ، فتطفئ لهيب ظمنا ببرودتها الثلجية ، وهي في تلك الجرار المصنوعة من الفخار ..

– وماذا كنت تعملين ، عندما لا تاكلين ولا تشرابين ..

– كنا نمارس الحب في تلك الغرفة التي صنعت ستائرنا من الخشب ، تنسدل عليها لتحول ، بين الداخل وبين نظرة متطفل من الشرفة . ويهب علينا نسيم عليل ، من الفرجة القائمة ، فوق الباب الذي يدور على نفسه . اجل كنا نمارس الحب هناك ، وقد تعتم الجو في وضع النهار ، من هذه الستائر ، وتنطلق الى انوفنا ، روائح الزهور العطرة منطلقة من الشارع ، او اريج البارود المحترق ، من الاسهم النارية التي تنفجر في كل ناحية اثناء الاعياد . انه حبل طويل من الاسهم والالاب النارية ، يمتد فوق المدينة بأسرها ، والانفجارات تتوالى منتقلة من عمود الى عمود ، ومن حافلة الى حافلة ..

وبعد ان تنتهي من الحب ، كنا نطلب دفعة ثانية من كؤوس الجعة ، وقد انتشر حبابها ، وامتدت برودتها ، الى السطح الخارجي للقدح ، وكنت اتناول الاقذاح من الفتاة ، من باب الغرفة ، واضع الكاس ، ببرودته ، وصقيعه على ظهر فينيئو ، الذي راح مستغرقا في سباته .. فيهتف بي قائلا .. لا يا بيلار ، لا ، يا امرأة ، دعيني انام .. فارد عليه قائلة .. لا ، افق ، واشرب هذا ، وهو بارد .. فيتناول القدح ، ويجرعه ، وهو مغمض العينين ، ثم يعود الى النوم ، بينما استلقي انا في ذيل السرير ، ارقبه وهو نائم ، واشرب الجعة كلها . واستمع الى اصوات الموسيقى ، تعزفها فرقة عابرة .. ثم تطلعت الى بابلو وقالت .. وانت ، اتعرف شيئا من هذا ؟

فقال بابلو .. كثيرا ما عملنا اشياء معا .

– اجل ، ولم لا ؟ لقد كنت في وقتك ، اكثر رجولة من فينيئو . ولكننا لم نذهب قط الى فالانسيا . ولم يحدث ان نمنا معا في الفراش ، ونحن نستمتع الى فرقة موسيقية عابرة .

فرد بأبلو - كان هذا مستحيلا . فلم تتح لنا الفرصة للذهاب السي
فالانسيا . ولا ريب انك تدركين ، انك اذا كنت معقولة فقط .. ولكنك
لم تنسفي قطارا مع فينيتو .

- لا . هذا ما بقي علينا . القطار . اجل . دائما القطار . وليس في وسع
انسان ان ينتقد هذا . فهذا كل ما بقي لنا من الكسل والتراخي والفشل .
وهو ما بقي من جبن هذه اللحظة .. لقد كانت نعمة أشياء أخرى أيضا .
انا لا اريد ان اجفو الانصاف . ولكن ليس في وسع انسان ان ينتقد
فالانسيا أيضا . هل سمعتني ؟

فقال فيرناندو بهدوء - ولكنني لم احبها . اجل انها لم تعجبني .

فردت المرأة - ثم يقولون عن البطل انه عنيد وحرون . هلمي يا ماريا ،
نظفي الاوعية ، ودعينا نذهب .

وعندما قالت هذا ، سمعوا اصوات الطائرات وهي تعود ..



وقفوا في مدخل الكهف ، واخذوا يرقبون الطائرات . كانت القاذفات تحلق الآن على ارتفاع سامق ، وهي تفلد السير مسرعة في طيرانها ، ومقدماتها البشعة التي تشبه السهام تضرب السماء ، بينما دوي هديرها يصم الاذان . ان تصميمها يشبه كلب البحر ، بانفه الدقيق الحاد ، وحراشفه العريضة . لكن هذه الطائرات الواسعة الاجنحة ، التي تهدر في السماء ، لا تتحرك كما تتحرك كلاب البحر . انها لا تتحرك ، كأي شيء آخر ، سبق له ان رآه ، وانما تتحرك ، كالقضاء الميكانيكي .

وتساءل لماذا لا يعود الى الكتابة ، انه سيعود اليها في يوم ما . واحس بماريا تمسك بيده وهي تتطلع الى السماء . . فقال موجهها حديثه اليها . .
« كيف تبدو لك هذه الطائرات ؟ »

– لا ادري . انها تبدو كالموت المحتوم .

وقالت زوجة بابلو – انها تبدو لي مجرد طائرات ليس الا ، ابن الطائرات الصغيرة ؟

فقال روبرت – قد تكون متجهة الى ناحية اخرى . فهذه القاذفات

شديدة السرعة . وليس من المعقول ، ان تتريث لتنتظر الاخريات . ونحن لا نلحق بها عبر خطوط القتال ، فليس لدينا عدد كاف للقيام بمثل هذه المغامرة .

وسرعان ما ظهرت ثلاث طائرات مقاتلة من طراز هينكل تطير على شكل رقم (٧) ، وهي تطير على ارتفاع خفيض حتى لتكاد تصطدم باعالي الاشجار ومرت كاللعب المخيفة التي تدمدم وتزمرجر . وكان انخفاضها كبيرا الى حد ان الجمع رأى طيارها ، وهم يرتدون الخوذ .

وقال بابلو - لا ريب في ان هذه الطائرات تستطيع ان ترى الجياد . فقالت المرأة - في وسعها ان ترى عقب سيكارتك فأسدل ستارة الكهف . ولم يسمعا بعد ذلك أي هدير ، ويبدو ان الطائرات الاخرى ، ذهبت في اتجاه آخر . وعندما سكت الهدير ، خرجوا جميعا الى العراء ، وكانت السماء خالية ، وسامقة وزرقاء وصافية .

وقالت ماريلا لروبرت - يبدو ، وكأننا كنا في حلم وافقنا منه . وقالت بيلار - انها ليست حلما ، عليك ان تعودى لتكلمي عمك .. ثم التفتت الى روبرت وهي تقول .. وماذا نعمل الآن ، هل نذهب مشاة او راكبين ؟

وتطلع اليها بابلو ، ولم ينبس ببنت شفة .. وقال روبرت - كما تشائين .
.. اذن دعنا نمشي فهذا انفع لكبدي .
- والركوب نافع للكبد .

- ولكنه مضر للعجز .. فسندهب مشاة ، اما انت .. والتفتت الى زوجها ففي وسعك ان تهبط الى جيادك ، وتتاكد من انها لم تطر مع الطائرات ..

وقال بابلو لروبرت - او تريد جوادا تركبه ؟

- لا شكرا .. وماذا تفعل بالفتاة .

- خير لها ان تمشي . فقد يكتنز لحمها في اكثر من موضع ، وتغدو غير نافعة لشيء .

واحمر وجه روبرت .. وقالت بيلار تساله .. وهل نمت طيبا ؟ .. حقا انها ليست مريضة ، مع انه كان من الممكن ان تصاب بشيء من ذلك . ولا ادري كيف نجت .. ولكن من المحتمل ان يكون ثمة اله ، على الرغم من اننا قد اسقطناه من حسابنا .. هلم بنا .. والتفتت الى بابلو .. وقالت .. حديثنا لا شأن لك به . فهو يخص انسانا اصغر منك سنا ، وقد صنعوا من مادة تخالف المادة التي جبلت منها .. وعادت تقول الى روبرت .. وسيتولى اوغسطين العناية بكيسيك ، فسئمضي عندما يصل .

كان النهار صافيا ورائقا والجو دافئا من حرارة الشمس . وتطلع روبرت الى المرأة الضخمة السمراء الوجه ، وقد تألمت فيه عينها الواسعتان ، فظهر فيهما شعور من المرح ، بينما سادت الوجه تغضنات الاسى . ونقل بصره بينها وبين الرجل الضخم البدن الذي ينتقل بين الاشجار ، في اتجاه الجباد ، ورأى ان المرأة ترنو اليه ايضا .. ثم قالت ..

- هل مارستما الحب ؟

- ماذا قالت لك هي ؟

- لم ترض ان تقول شيئا .

- وانما كذلك .

- اذن فقد مارستماه . ارجوك كن شديد الحذب عليها ، الى اقصى حد ..

- وماذا يحدث اذا حملت طفلا ؟

- هذا لن يضير ، بل قد يكون اقل ضررا .

- ولكن المكان لا يصلح لذلك .
- انها لن تظل هنا ، ستذهب معك .
- واين ساذهب انا ؟ ليس في وسعي ان آخذ امرأة حيث اذهب .
- من يدري ؟ ربما اخذت امرأتين حيث تذهب .
- لا يليق بك ان تقولي هذا .
- اسمع ، انني لست بالجبانة ، الرعديدة ، ولكنني ارى الامور واضحة في الصباح الباكر ، واعتقد ان الكثيرين من الذين نعرف انهم احياء الان ، لن يعيشوا حتى يوم الاحد القادم .
- في اي يوم نحن الان ؟
- يوم الاحد ؟
- اذن فالاحد القادم ، موعد بعيد ، اذا عشنا حتى الاربعة ، فهذا احسن ولكنني لا اريد منك ان تتحدثي بمثل هذا الحديث .
- كل انسان في حاجة الى الحديث الى اخر ، كنا نتعلق باهداب الدين وغيره من التفاهات ، اما الان ، فيجب ان يجد كل انسان من يستطيع الحديث اليه بصراحة ، اذ على الرغم مما قد يتصف به الانسان من شجاعة فقد يشعر احيانا بالوحدة .
- ولكننا لسنا وحيدين ، فنحن مجموع .
- ان منظر هذه الوحدات ترهب الانسان ، فنحن لا شيء امامها .
- ومع ذلك ، في وسعنا ان نتصر عليها .
- اسمع ، انني اعترف لك بيمض الاسى ، ولكن لا يخيل اليك اننسي فنقر الى التصميم ، اذ لم يطرا على تصميمي شيء
- ولكن الاسى سرهان ما يتبدد عندما تشرق الشمس ، انه كالضباب .
- واضح ، اذا اردته على هذا الشكل ، ومن المحتمل ، ان يكون هذا

الاسى قد نجم عن ذلك الحديث الاحمق عن فالانسيا ، وعن فشل ذلك
الانسان الذي مضى ليرى جياته ، فقد جرحته بتلك القصة ، وهو قد
يحتمل القتل ، والسباب ، ولكنه لا يحتمل ان يجرح .

— وكيف قدر لك ان تلتقي به ؟

— بل كيف يقدر لانسان ان يلتقي بآخر ، لقد كان شيئا في الايام الاولى
من الحركة وفي الايام التي سبقتها ، أجل لقد كان شيئا يحسب له حساب
اما الان فقد انتهى ، لقد رفعت السدادة ، وانصب الخمر من الزق كله .

— انني لا احبه .

— وهو لا يحبك ايضا ، وله عذره في ذلك ، فقد نمت معه ليلة امس ..
قالت هذا وهي تبسم ثم هزت راسها .. ومضت تقول .. وسألته ..
لماذا لم تقتل الفريب يا بابلو ؟ فرد قائلا .. ولكنه شاب طيب يا بيلار ..
اجل انه شاب طيب ، فقلت له .. أجل يا بابلو .. هذا ما قلته ، فهل
فهمت الان انني الزميمة ؟ .. فقال ، أجل ، يا بيلار أجل .. وسمعته في
ساعة متأخرة من الليل يبكي ، كان يبكي بكاء قصيرا وبشعا كما يبكي
انسان بداخله حيوان يهزه بعنف .. وقد أمسكت به .. ماذا دهاك يا
بابلو ؟ فقال .. لا شيء يا بيلار .. قلت .. ولكن شيئا قد حدث لك ..
قال .. الناس ، الطريقة التي تخلو فيها عني .. قلت ، ولكنهم وقفوا
معي ، وانا امرتك .. قال بيلار ! اذكركين حادث القطار .. أرجو ان
يساعدك الله .. قلت .. ماذا تتحدث عن الله ؟ .. اية طريقة من الحديث
هذه .. قال .. أجل ليكن الله والعدراء معك .. قلت .. الله والعدراء!! ..
وهل هذه طريقة الحديث ؟ قال .. انني أخشى الموت يا بيلار .. هل
تفهمين ؟ قلت له .. اذن اترك فراشي ، فليس فيه مجال لي ولسك ،
ولخوفك معا .. وخجل من نفسه ، وهدات نائوته ، ومضيت في سباتي ،
ولكن الرجل ، قد تهدم ..

ولم ينبس روبرت بينت شفة .

ومضت المرأة تقول .. لقد كنت اشعر بهذا الاسى في فترات طفلة حياتي

ولكنه ليس من نوع أسى بابلو ، انه لا يؤثر على عزيمتي .

– انني اصدقك .

– انه عادة طبيعية في المرأة ، ولكنه قد لا يكون شيئاً ، فانا اضح الكثير من الامل في الجمهورية ، انني اؤمن بها ، وعقيدتي فيها لا تتزعزع ، اجل انني اؤمن بها بحماس ، مثل اولئك الذين يؤمنون بالدين ويعتقدون بالقيبيات .

– اصدقك .

– وهل تؤمن نفس الأيمان ؟

– بالجمهورية ؟

– اجل .

– نعم .

– انني سعيدة . او لا تشعر بخوف ؟

– لا اشعر بخوف من الموت ؟

– او لا تخاف من شيء آخر ؟

– اخاف ان لا اؤدي واجبي كما يجب علي ان اؤديه .

– او لا تخاف من الاسر ، كالرجل الآخر ؟

– لا ، فمثل هذا الخوف ، يجعل الانسان منهمكا فيه بحيث يغدو تافها لا نفع فيه .

– انك شاب شديد البرودة .

– لا . لست اعتقد ذلك .

– كلا . انك بارد في تفكيرك .

– لا ، ولكنني اغرق في عملي .

– ولكنك لا تحب متع الحياة ؟

- بلى ، احبها ، على ان لا تتدخل في عملي .
- تحب الشراب هذا ما رأيته .
- اجل . احبه كثيرا ، على ان لا تتدخل في عملي .
- والنساء ؟
- احبهم جم الحب ، ولكنني لا اعيرهن كثير التفات .
- او لا تهتم بهن ؟
- نعم . ولكنني لم اعثر بعد على الفتاة التي تحركني كما يجب .
- اعتقد انك تكذب .
- ربما . قليلا .
- اجل . فجأة والى حد كبير .
- وانا اهتم بها كثيرا . كثيرا جدا .
- وانا ايضا ، اجل ، انني اهتم بها كثيرا .
- ساتركك وحيدا معها ، بعد ان تجتمع بايل سورودو .
- وسكت روبرت . ثم قال .. ولكن هذا ليس بالضروري .
- اجل يا رجل . انه ضروري ، فليس ثمة وقت كثير .
- وهل رايت ذلك في طالعي ، في كفي ؟
- لا ، لا تذكر تلك السخافة من الكف .
- لقد ابعدت ما راته ، مع الاشياء الاخرى التي تسيء الى الجمهورية .
- وكان روبرت صامتا وهو يتطلع الى ماريا ، تنقل الصحف الى الكهف .
- ومسحت يديها ثم التفتت اليه وابتسحت . ولم تكن تستطيع ان تسمع ما
- نقله بيلار ، ولكنها ابتسحت ، لانها تريد ان تبسّم له .
- وقالت المرأة .. ثم لا تنس النهار ايضا . حقا ان عندك الليل ، ولكن
- النهار متعة . وبالطبع لن تجد مكانا مرفها كفالانسيا . ولكن فسي

وسعدك ان تلتقط بعض حبات التوت البري ..
ووضع روبرت يده على كتفها العريض وقال .. وانا اهتم بك ايضا ،
اهتم بك كثيرا ..

وقالت وقد تلعثمت من الاضطراب - اناك دون جوان .. فقد بدأت
تهتم بكل انسان .. وها هو اوغسطين قادم .

ودلف روبرت الى الكهف ، وخطا نحو ماريانا .. كانت ترقبه وهو يتجه
اليها ، وقد اشرفت عينها ، وامتدت حمرة الخجل الى وجنتيها وعنقها .
وقال .. هالو .. ايتها الاربعة الصغيرة .. ثم قبلها في فمها .. وامسكت
به تضمه الى صدرها بقوة وقالت .. هالو ، آه ، هالو .

وهب فيرناندو ، من المكان الذي كان يجلس اليه ، بجوار المائدة ، يدخن
لفافته ، فهز رأسه ، وخرج ، بعد ان تناول غدارته من المكان الذي تركها
فيه .. وقال الرجل الى بيلار .. لقد ارتفعت الرسميات ، وانا لا احب
ذلك .. عليك ان تهتمي بالفتاة .

- انني اهتم بها . وهذا الرفيق حبيبها .
- آه ، ما دامنا خطيبين ، فالوضع طبيعي اذن .
- كم يسرني ذلك .
- وانا مسرور ايضا .. سلام عليك يا بيلار .
- الى اين تمضي ؟
- الى المركز العلوي ، لاجل محل بريمتفو .
- وقال اوغسطين ، وهو يقترب .. اين تذهب بحق الجحيم ؟
- الى واجبي ..
- الى واجبك ؟ لعنة الله على واجبك .. ثم التفت الى المرأة قائلة ..
وأين تلك القدرة التي يتحتم علي ان احرسها ؟

- انها في الكهف - في كيسين ، وقد مللت من قذارتك في تعبيريك .
- وقال اوغسطين - انني اسفه ملك .
- اذن اذهب ، واعمل بنفسك ما تشاء .
- بأملك ..
- لم تكن لك ام .. وهنا وصل الشاب حده .. وقال اوغسطين وماذا يفعلان في الكهف الآن ؟
- لا شيء يا رجل ، ثم لا تنس اننا في الربيع يا حيوان .
- حيوان ! حيوان ، وانت ! انك ابنة سيدة العاهرات .
- وضربته بيلار على كتفه ثم قالت وهي تضحك .. انك تفتقر الى التفسير في سبابك ومع ذلك فانت قوي ، هل رايت الطائرات ؟
- لعنة الله عليها وعلى آلتها .
- حسنا ، هذا شيء جديد ، جديد حقا ؛ ولكنه صعب على التحقيق .
- قد يصعب في الاعالي ، ولكن اليس من الافضل ان نهزل .
- اجل من الخير ان نهزل ، وانت رجل طيب ، وهزلك من النوع القوي .
- اسمعي يا بيلار ، لا شك ان شيئا في طريق الاعداد ، اليس كذلك ؟
- وكيف ترى انت ؟
- لا شيء اسوا مما اراه ، لقد كانت طائرات كثر يا امرأة ، طائرات اكثر !
- وقد خفت منها كالاخرين ؟
- وماذا يخيل اليك انهم يعدون ؟
- انهم من مجيء هذا الشاب القادم لموضوع الجسر ان الجمهورية تعد لهجوم وانهم من هذه الطائرات ، ان الفاشيين يستعدون لمواجهة ، ولكن لماذا يظهرون طائراتهم ؟
- في هذه الحرب ، يقع الكثير من الحماقات ، اجل حماقات لا حد لها ولا حصر .

- بالطبع ، والا لما كنا هنا .
- اجل فنحن نسيح في هذه الحمامات منذ عام ، ولكن بابلو رجل يفهم كثيرا ، وهو ماكر كثير الدهاء ..
- ماذا يحملك على هذا القول ؟
- مجرد قول .
- ولكن عليك ان تفهم ، فقد مضى وقت الانقاذ عن طريق الدهاء ، وقد فقد الان ميزة الفهم .
- آه فهمت ، اعرف ان علينا ان نمشي ، ولما كان يتحتم علينا ان نفوز لنعيش الى ما لا نهاية ، فمن الضروري ان تنسف الجسور ، ولكن بابلو ، على الرغم من جبنه الآن رجل شديد الصرامة .
- لا تنس انسي صارمة .
- لا يا بيلار ، انت لست صارمة ، اذك شجاعة ، وانت شديدة الولاء ، وقوية العزم والتصميم وحاضرة البديهة ، ولكنك لست صارمة .
- او تصدق ذلك ؟
- اجل يا بيلار .
- ان الشاب صارم ، انه صارم وبارد . بارد العقل .
- اجل ، لا ريب في انه يحسن عمله ، والا لما عهدوا اليه بمثل هذه المهام ، ولكنه ليس بالانسان الصارم . اما بابلو فانسان صارم .
- ولكنه غدا ولا خير فيه بسبب خوفه وعزوفه عن العمل .
- ومع ذلك فهو صارم .
- وماذا تقول ؟
- لا شيء ، احاول ان ادرس الموضوع بادرارك . فنحن في حاجة الى الادراك الآن .

بعد أن ننتهي من الجسر ، يتحتم علينا ان نذهب فوراً ، ويجب ان نستعد جميعاً وان نقرر منذ الآن الى أين سنمضي .

- طبعاً .

ولهذا .. فبابلو مهم .. اذ يجب أن يتم العمل بصرامة .

- ولكنني لا اتق بابلو .

- في وسعك ان تثقي به في هذا الصدد .

- لا ، انك لا تدري الى أي حد قد تحطم .

- ولكنه صارم . واذا لم ننفذ الأمر بصرامة ، ضمناً .

- سأفكر في الأمر . معي يوم كامل للتفكير .

- الشاب للجسر . هذا واجبه . وهو يدركه ، انظري كيف رتب الآخر

موضوع القطار .

- أجل . لقد كان هو الذي اعد كل شيء .

- وانت للحيوية والتصميم . وبابلو للحركة والتراجع . ارفعيه على

دراسة الموضوع .

- انك رجل ذكي .

- انني ذكي ، ولكن هذا الموضوع لبابلو .

- بكل ما هو عليه من خوف ؟ ومن عيوب ؟

- أجل بخوفه وعيوبه .

- وما رأيك في موضوع الجسر ؟

- لا ريب في انه ضروري . وهذا ما ادركه . يجب ان ننفذ الأمرين

معاً . يجب ان نترك المكان ، وان نفوز . والجسور ضرورة للفوز .

- واذا كان بابلو صارماً كما تقول ، فلم لا يرى ذلك ؟

- انه يريد ان يكيف الأمور وفقاً لهواه ، ونقاط ضعفه . انه يريد ان

يظل في دوامة ضعفه ولكن المد يعلو في النهر . واذا ما ارغم على تبديل وضعه ، فسيكون حازما في هذا التبديل .

- من الخير أن الشاب لم يقتله .

- أجل ، لقد اراد مني العجري أن أقتله ليلة أمس . ان العجري حيوان

- وانت حيوان أيضا ولكنك من النوع الذكي .

- كلانا ذكي ، ولكن بابلو ، هو الموهبة الفائقة .

- ومع ذلك فمن الصعب الافادة من مواهبه . فانت لا تدري الى اي حد قد تحطم .

- أجل . ولكنه ما زال موهبة خارقة . اسمعي يا بيلار . ان ما نحتاجين

اليه لتعلمي الحرب ، هو مجرد الذكاء . ولكن لكي تفوزي في الحرب ،

فانت في حاجة الى المواهب ، والمعدات .

- سأفكر في الموضوع .. على كل حال ، يجب ان نمضي الآن . فقد

تأخرنا .

ورفعت صوتها وهي تهتف .. يا انكليزي .. هلم بنا .. دعنا نمضي .



١٠

اتجهت بيلار الى روبرت تقول . . دعنا نستريح . اجلسي هنا يا ماريبا،
ولنسترح قليلا .

فقال روبرت - ولكن علينا ان نواصل السير ، وسنستريح بعد الوصول،
وبعد ان ارى الرجل .

- ستراه . فليس ثمة من داع للسرعة . اجلسي يا ماريبا .

- هلمي ، وسنستريح عند القمة .

- ولكنني سأستريح الآن . . وجلست المرأة عند الجدول ، وعلى مقربة
منها جلست الفتاة وقد انعكست اشعة الشمس على شعرها . وظل
روبرت واقفا وهو يتطلع عبر المرج الممتد على الجبل ، الى الجدول المنساب
فيه . كان نبات الخليج ينمو ، حيث وقف الرجل . وكانت صخور
الجرانيت تملو ، فوق الجانب الادنى من المرج ، ووراءها يقف صف طويل
من اشجار الصنوبر . . وقال روبرت متسائلا . . . وكم يبعد ايل
سوردو عننا ؟

فردت المرأة - ليس بعيدا ، سنمبر هذه الارض المنبسطة ، ثم نهبط الى
الوادي الثاني ، لنعود فنرتفع الى الاشجار التي تقوم في منبع النهر .

اجلس الآن وانس متاعبك .

- اريد ان اراه وافرح من الموضوع معه .

- ولكنني اريد ان اغسل قدمي .. ونزعت حذاءها وجوبها ووضعت قدمها في الماء ثم قالت .. بالله ، ما ابرد الماء .

- كان علينا ان نمتطي الجياد .

- لا ، هذا خير لي . فهذا ما كنت افتقده .. ماذا دهالك ؟

- لا شيء ، ولكنني على عجلة من امري ؟

- اذن هدىء من روعك . فمعنا وقت طويل . يا له من يوم رائع ، وكم يلد لي ان لا اكون بين اشجار الصنوبر . وقد لا تدرك ، كم يعمل الانسان احيانا من الصنوبر . او لم تلمي من اشجار الصنوبر يا غابا ؟

- انا احبها . اجابت الفتاة .

- ماذا يوسعك ان تحبي فيها ؟

- احب اريجها ، واحب وخز الاقدام تحتها . واحب الرياح وهي تعصف باعاليتها فتترنح متمائلة الواحدة منها على الاخرى

- وهل تحبين شيئا . انك عطية لكل انسان ، لو كنتي تجيدين الطهي بعض الشيء . لكن اشجار الصنوبر ، تخلق غابة من الملل والضجر . انك لم تعرفي في حياتك غابة من الزان او البلوط او الكستنله . تلك هي الغابات . ففيها تختلف كل شجرة عن رفيقتها . وفيها يتوافر الجمال . وتظهر الشخصية . اما غابة الصنوبر ، فلا شيء فيها الا الملل .

ماذا تقول يا انكليزي ؟

- احب الصنوبر ايضا .

- انكما تحبانه معا . وانا احب الصنوبر ايضا ، ولكنني مللت رفقته . وقد مللت الجبال ايضا . فليس فيها الا اتجاهان . اما الصعود واما

الهبوط ،والاخير ، لا يحملك الا الى الطرق ، والمدن التي تكتظ بالفاشيين .

– وهل تذهبن احيانا الى سيفونيا ؟

– ابهذا الوجه اذهب ؟ انه وجه يعرفه الجميع . او تحبين ان تصبحي قبيحة ابنتها الجميلة ؟ قالت لماريا .

– انك لست بالقبيحة .

– مخاتلة ! انا لست بالقبيحة !! لقد ولدت قبيحة ، وعشت حياتي بطولها قبيحة الشكل . وانت ابها الانكليزي ، لا تعرف شيئا عن النساء . او تدري شعور المرأة القبيحة ؟ او تدري كيف تشعر المرأة التي عاشت حياتها قبيحة الشكل ، مع شعورها في ذاتها انها جميلة ؟ انه شعور نادر . ووضعت المرأة قدمها الاخرى في الماء وقالت .. يا الله ما ابردها . انظر الى هذا الطائر .. انه لا يصلح لشيء .. انه لا يصلح للغناء ولا للاكل ، وانما ليهز ذيله ذاهبا آيبا .. اعطني سيكارة يا انكليزي .. وتناولت منه لفافة تبغ واشعلتها بزناد اخرجته من جيبها ثم اخذت تنفخ دخان لفافتها وهي تنطلع الى روبرت وماريا .. وعادت تقول .. يا للحياة ما اغربها . كان بوسعي ان اكون رجلا ممتازا ، ولكنني امرأة ، امرأة في كل شيء . اجمع بين الانوثة والقبح . ومع ذلك ، فقد احبني عدد كبير من الرجال ، واحببتهم . انه لامر غريب . اسمع يا انكليزي .. انه لامر في منتهى الروعة . انظر الي ، على الرغم من قبحي .. امعن النظر يا انكليزي .

– انك لست بالقبيحة .

– لا تكذبني .. اوه .. وضحكت ضحكة عالية ثم مضت تقول .. هل بدأت تفعل فعلها فيك ؟ لا ، انها نكتة ، لا انظر الى قبحي ، ومع ذلك فهناك شعور يعمي الانسان في داخله احيانا ، وهو يمارس الحب ، وبهذا الشعور يعمي الانسان نفسه ويعمي رفيقه ، ثم لا يلبث ان يحل يوم ، ودون أي سبب من الاسباب ، يرى القبح في رفيقه كما هو ، وتنتفح عيناه ، وسرعان

ما تنتقل العدوى الى الانسان نفسه ، فيرى قبحة ويعترف به ، فيخسر رفيقه كما يضيع شعوره ، افهمت يا جميلة ..

- لا لم افهم ، لانك لست بالقيحة . اجابت ماريا

- حاولي ان تستعملي عقلك لا قلبك ، واصفي الي ، انني احدثك عن اشياء مهمة جدا ، او لا تلذ لك يا انكليزي ؟

- بلى ، ولكن يجب ان نذهب .

- في وسعك ان تذهب ، اما انا فمريحة هنا .

ومضت تتجه بحدبها الى روبرت ، وكأنها استاذ يتحدث الى طلابه .. وبعد مدة ، عندما تفدين قبيحة ، كما تفدو النساء .. وأنداك يبدأ هذا الشعور ، الشعور الاحمق القبي ، بانك جميلة ، ينمو في نفسك بصورة تدريجية .. انه ينمو .. كما تنمو الكرب .. ويفدو هذا الشعور ناميا وقويا . فيراك رجل آخر ، ويعتقد انك جميلة ، وتعود القصة فتتكرر من جديد ، واعتقد انني قد جاوزت هذه المرحلة ، ولكنها قد تأتي من جديد ، ومن حظك انك لست بالقيحة فقالت ماريا ، ولكني قبيحة .

- اساليه ، ولا تضعي قدميك في الماء ، لئلا تجمدا .

- اذا قال روبرتو ان علينا ان نمضي ، فيجب ان نمضي .

- اسمعي يا فتاة ، ان اهتمامي لا يقل عن اهتمام روبرتو ، ومع ذلك ، فانا اقول ، اننا في وضع مريح هنا قرب الجدول ، وان معنا وقتا طويلا .. ثم اني احب ان احدث ، فالحديث هو المظهر الوحيد للمدنية الذي ظل لنا والا فما الذي سنشغل انفسنا به ؟ او لا تثير اهتمامك يا انكليزي ؟

- ان حديثك ممتع ، ولكن ثمة امورا اهم في نظري من الحديث عمن

الجمال ، والقيح .

- اذن دعنا نتحدث عن الامور التي تهتمك .

- اين كنت عندما بدأت الحركة ؟

- في بلدتي .

- افبلا ؛

- افبلا ؛

- قال بابلو انه من افبلا .

- انه يكذب ، لقد اراد ان يزعم مدينة كبيرة مسقطا لراسه .. هذه هي مدينته .. واسمت مدينة المدن .

- وماذا حدث ؟

- لقد حدث الكثير ، وكان كل ما حدث في منتهى القبح ، حتى الاشياء المجيدة .

- حدثيني بها !

- انها وحشية ، لا اريد ان اتحدث بها امام الفتاة .

- قولي ، حتى ولو كان لا يليق بها سماعها .

وقالت ماريا ، وقد وضعت يدها ، على يد روبرت .. في وسمى القول ان ليس ثمة من شيء ، لا استطيع سماعه .

- ليس الموضوع متعلقا بما اذا كنت تستطيعين السماع او لا ، وانما يتعلق بما اذا كنت اريد ان اتحدث به امامك .. واسبب لك احلاما مزعجة

- لن احلم احلاما مزعجة من مجرد الاستماع الى قصة ، وهل تظنين بعد كل ما حدث لنا ، انني ساحلم احلاما مزعجة من مجرد الاستماع الى قصة؟

- قد تسبب للانكليزي احلاما مزعجة ؟

- جريسي !

- لا يا انكليزي ، انا لا امزح ، هل رايت بداية الحركة في اية بلدة صغيرة؟

- لا .

- اذن فانت لم تر شيئا . لقد رايت ذلك الحطام الذي اسمه بابلو الان ،

وكان عليك ان ترى بابلو آنذاك .

- قولي .

- لا ، لا اريد .

- ارجو قولي :

- حسنا اذن سأقول . سأحدثك بالقصة كما وقعت . وانت يا صبية ، اذا وصلنا بها الى نقطة تزعجك ، فقولي .

- لن اصفي اليها ، اذا كانت تزعجني . انها لن تكون اسوا من اشياء كثيرة .

- اعتقد انها اسوا ، اعطني لفافة ثانية يا انكليزي !

واضطجعت الفتاة على الحشائش قرب الجدول ، بينما استلقى روبرت وقد اسند كتفيه الى الارض ، ووضع راسه ، في كومة من الاعشاب . ومد يده فأمسك بيد ماريا ، واخذ يفرك اليدين على الحشائش . . .

وبدأت بيلار قصتها تقول . . . كان الوقت مبكرا في ساعات الصباح ، عندما استسلم رجال الحرس في الثكنة .

وقال روبرت متسائلا . . . اذن هاجمتم الثكنة ؟

- اجل ، طوقها بابلو في الظلام ، وقطع اسلاكها الهانفية ، ووضع متفجرات تحت احد الاسوار ، ثم دعا رجال الحرس الى الاستسلام . ولكنهم رفضوا . وعندما طلع الفجر ، نسف السور ، ودار قتال عنيف قتل فيه رجلان من الحرس وجرح اربعة ، واستسلم اربعة .

وكنا جميعا ، قد اخذنا مواقعنا على الاسطحة . وعلى الارض ، وقرب الاسوار ، ولم يكن النقع الذي اثاره الانفجار ، قد هبط بعد ، وكنا نطلق النار على الجانب المتهدم من البناء ، والدخان المتصاعد ، يحول بيننا وبين الرؤية ، وفجأة سممنا صوتا من الداخل ، ثم خرج الرجال الاربعة وقد

رفعوا ايديهم . لقد سقط جانب من السقف ، وانهار السور وخرج
الرجال ليستسلموا .

- وهل ظل في الداخل غيرهم ؟

- اجل ، كان هناك الجرحى ... وهتف بابلو باربعة من رفاقه ...
اجرسوا هؤلاء . ثم اصدر امره لرجال الحرس بالوقوف الى الجدار .
فوقفوا ، قدرين يلفهم الغبار والدخان بينما وقف الرجال الاربعة يتولون
حراستهم . ودلف بابلو وعدد من رجاله الى الداخل ، ليصفي امر الجرحى
وعندما فرغ من مهمته ، ولم تعد نسمع انينهم او صراخهم ، او صوت
السيارات النارية تنطلق من الداخل ، خرج بابلو ورفاقه ، وكان قد وضع
بنديته على ظهره ، وحمل في يده مسدسا من طراز موزر . وقال لي
بابلو ... اسمعي يا بيلار ، لقد كان هذا المسدس في يد الضابط الذي
انحدر . انني لا اعرف استعمال المسدسات ... والتفت الى احد رجاله
وقال ... ارني كيف تستعمله ... لا لا ترني ولكن قل لي .

« وكان الحراس الاربعة لا يزالون يقفون في اماكنهم ووجههم الى السور ،
ولم ينبسوا ببنت شفة ، الى ان هذا اطلاق النار في الداخل . كانوا جميعا
طوال القامة ، من الطراز المعروف في رجال الحرس ... وقال بابلو لاقرب
واحد منهم .. انت قل لي كيف يستعمل المسدس . وقال الرجل بصوت
جاف ... انزل الصمام ، ثم اسحب الزناد واتركه فجأة يندفع الى
الامام . وقال بابلو متسائلا ... واين هو الزناد ؟ .. فقال الرجل انه
المكبس الواقع في الاسفل ... وسحب بابلو الزناد فلم ينطلق فقال ...
انه اخرس ... انك تكذبي . فقال الرجل : اسحبه بقوة الى الخلف ثم
اطلقه ... فانطلق ... وكان الرجال الاربعة يرقبون صامتين ، ثم قال
احدهم ... وماذا تنوي ان تعمل بنا ؟ فرد بابلو سأقتلكم ... متى ؟ -
الآن . - واين ؟ - هنا . هنا . الان . الديك اعتراض ؟ - لا ولكنه امر
قبيح ... - وانت رجل قبيح . انت من قاتلي الفلاحين ... انت يا من
تقتل امك ... ولكنني لم اقتل احدا ، ثم ... لا تتحدث عن امي ...

- والان أرني كيف نموت ، يا من كنت تقتل دائما ... - لا حاجة بك الى اهانتنا ، فنحن نعرف كيف نموت . - والان اركعوا أمام الجدار ... وتطلع الحرس الى بعضهم البعض ففتف بهم بابلو ... اركعوا ... اركعوا ... وقال احد الحراس لرفيقه وكان عريفا.. .. ما رايك يا باكو.. .. فقال هذا ... لا بأس من أن نركع ، فالامر لا يهم . فرد احدهم ... اجل هذا اقرب الى الارض ... فقال الاخر ... اذن فلنركع ... وركعوا جميعا ، ووقف بابلو وراءهم ، واخذ يطلق النار ، عليهم واحدا واحدا.. .. بعد ان يضع المسدس في مؤخرة رأسه .. آه ما زلت اذكر المسدس ، وكيف كان ينطلق فتهبط رأس الرجل آه لقد ضرب احدهم رأسه بالجدار ثم هوى ... وعاد الينا بابلو ، والمسدس في يده . ومد يده بالمسدس الي قائلا ... امسكي لي هذا يا بيلار .

لقد ربحتنا المعركة ، وسيطرنا على البلدة ، وكان النهار لا يزال في مطلعته ، ولم يكن احدنا قد تناول اي شيء من الطعام أو الشراب .. كان الغبار يعلونا ، وتقع الانفجارات يحيط بنا ووقفت أحمل المسدس ، وانا اتطلع اني الاربعة القتلى ، وقد ابتلت ملابسهم بدمائهم . واشرقت الشمس من وراء الجبال البعيدة ، فالقت باضوائها على الطريق التي تقف عليها .. وكان الى جانبي فلاح ، تطلع الى القتلى ثم الى الشمس ، وعاد ببصره الي يقول ... يا لها من بداية .. وقلت للجميع ، هلموا بنا لشرب القهوة .. فقال الرجل .. حسنا يا بيلار حسنا .. ومضينا جميعنا الى الميدان .. وكان هؤلاء الاربعة آخر من قتل بالرصاص في القرية .

وقال روبرت متسائلا .. وماذا حل بالآخرين ؟ أو لم يكن في القرية عدد آخر من الفاشيين .

- ماذا ، ألم يكن هناك فاشيون ؟ كان أكثر من عشرين ، ولكنهم لم يقتلوا بالرصاص .

- وماذا حل بهم ؟

- امر بابلو بضربهم حتى الموت بالمدقات ثم القى بجثثهم الى النهر :

- العشرون ؟

- ساخبرك . ليست القصة على هذا الشكل من البساطة . انني لأرجو ان لا ارى منظر الدق حتى الموت ثانية ثم القذف من الصخور الى النهر . . تقوم البلدة على ضفة عالية فوق النهر . وهناك ميدان ، يضم نافورة ماء ، وبعض المقاعد التي تظللها أشجار سامقة . وتطل شرفات البيوت على الميدان . وهناك ستة شوارع تصب في هذا الميدان ، كما ان ثمة اروقة مسقوفة ، تحيط بالميدان . يستطيع الانسان ان يفيء الى ظلها من وهج الشمس . ويمتد أحد الشوارع الى الصخرة العالية التي تطل على النهر ، والتي يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدم .

« وكان بابلو قد اعد لكل شيء عدته ، فاغلق مداخل الشوارع المؤدية الى الميدان قبل ان يبدأ هجومه على الثكنة . ثم حشد جميع الفاشيين في قاعة المدينة وهو أكبر بناء في البلدة .

- ولكن هل استسلموا دون قتال ؟

- قبض عليهم بابلو في الليل قبل ان يهاجم الثكنة ، وان كان قد طوقها ، وقد تم اعتقالهم جميعا في بيوتهم ، ساعة بدء الهجوم . . كانت خطة في منتهى الذكاء ، وبابلو يجيد التنظيم ، والا فانه سيتعرض لهجمات على اجنحته وفي مؤخرته ، عندما يهاجم الثكنة ، وبابلو انسان ذكي ، ولكنه متوحش ، فقد اجاد الخطة التي وضعها لاحتلال القرية ، وبعد ان نجح الهجوم ، واستسلم رجال الحرس الاربعة ، فقتلهم ، وبعد ان تناولنا القهوة في احد المقاهي ، انتقلنا الى الميدان . . ثم امر بابلو احد رجال الدين بان يسمع اعترافات الفاشيين ، ويقوم لهم بواجباتهم المقدسة الاخيرة .

وكان حشد كبير من الناس ، قد اجتمع في الخارج ، وسمعنا صراخا شديدا وسبابا ولكن معظم الناس ، قابلوا الحادث بشعور هو مزيج من الجدية والاحترام ، اما الدين بدأوا يهزلون ، فهم اولئك الذين تعلموا بمد

النصر الذي حققناه في احتلال الكنة ، ونظم بابلو الناس في صفيين وكانهم يشهدون مباراة في الملاكمة ، او نهاية سباق للدراجات .

« وكان الناس مسلحين بمدقات الحنطة ، وكانهم على وشك ان يعملوا في حنطتهم ، ومع ان هذه المدقات لم تتوفر للجميع ، الا ان عددا كبيرا منها كان قد حشد في ايدي الناس ، بعد ان حملوها ، من حانوت يملكه فاشي يبيع الادوات الزراعية ؛ وكان الآخرون يحملون هراوات ومساحي ومحاريت ومذاري ، وغيرها من الادوات الزراعية».

« وهذا المكان، وساد صمتٌ وكان على رؤوس الجميع الطير ، واخذ النهار يصفو ، بينما امتدت السحب في السماء ، كان في وسعك ان تسمع صوت خرير الماء ، وهو يسيل من فم الاسد الحجري في النافورة».

« وكان الصراخ الوحيد منبعثا من المكان الذي يقوم فيه رجل الدين بطقوسه مع الفاشيين ، اذ احتشد عدد من السكارى على النوافذ يسبون الفاشيين ويلعنونهم . . اما الرجال في الصفوف فكانوا واقفين بهسدوء ينتظرون اداء الواجب . . وسمعت احدهم يقول . . او يكون هناك نساء ؟

فرد آخر بقوله . . كم اتمنى ان لا يكون بينهم نساء ، وقال ثالث . . اسمعوا ها هي زوجة بابلو ، اسمي يا بيلار ، ابين الفاشيين نساء . . فقلت له لا ، يا جواكان ، اننا لا نقتل النساء ، فلماذا تقتل نساءهم ؟ فقال شكرا لله ، ولكن متى سنبدأ . . قلت عندما ينتهي الكاهن ، وقال . . والكاهن ؟ قلت لا ادري . . وقال لم اقتل في حياتي رجلا . . واذا بفلاح يقف الى جواره يقول . . اذن ستتعلم ، ولكنني لا اعتقد ان ضربة من هذه تقتل رجلا . . فرد زميله . . وهذا هو الجمال في الطريقة . . يجب ان تكون ثمة عدة ضربات ، وقال ثالث لقد احتلوا فالادوليد وافيلا . . لقد سمعت هذا قبل ان آتي الى هنا . . فرد رفيقه ، ولكنهم لن يحتلوا هذه البلدة ، فهي لنا ، وقد سبقناهم ، وبابلو ليس من النوع الذي ينتظر . . وقال الاول . . ان بابلو كفاء وقدير ، ولكنه كان انانيا في انفراده بقتل

الاربعة .. الا تعتقدن ذلك يا بيلار .. قلت .. اجل .. ولكنكم ستهمون جميعا الآن .. قال اجل . وقد رتب كل شيء ترتيبا رائعا . ولكن لم لا نسمع شيئا عن الحركة .. فقلت .. قطع بابلو جميع الخطوط الهاتفية قبل ان يبدأ الهجوم ، ولما تصلح بعد .. وقال رجل متسائلا ، ولكن لم يا بيلار ، لجا الى هذه الطريقة ؟ قلت .. لنوفر عبارات نارية ، وليشترك كل فرد في المسؤولية ، فقال وهو يبكي .. اذن لم تبدأ ، يجب ان تبدأ ، قلت ولم تبكي يا جوالين ؟ قال .. لانها المرة الاولى التي اقتل فيها انسانا .

« واذا كنت لم تر يوما ثورة في بلدة صغيرة ، حيث يعرف كل انسان ، جميع من في البلدة ، فانك لم تر شيئا في حياتك ، وكان معظم الرجال الواقفين في الصفين يرتدون في ذلك اليوم عين الملابس التي يرتدونها عند العمل في الحقول ، لا سيما وانهم دلفوا الى المدينة على عجلة من امرهم ، بينما ارتدى اخرون الملابس التي يتزينون بها في ايام الاحاد او الاعياد ، ظنا منهم ، بأن هذا ما يجب ان يلبسوه في اول يوم للثورة ، وهكذا وقف الجميع ينتظرون بدء الحفلة .

« وهنا أزت الريح وتعالى الغبار في الميدان ، واخذ الناس يتصايحون .. الماء . الماء . وجاء الرجل المسؤول ، عن سقاية حديقة الميدان عادة يحمل خرطومه وبدأ يوجهه الى الميدان ، وتراجعت الصفوف بغض الشيء لتمكن الرجل من اداء عمله ، وعندما انتهى من عمله ، وانتشرت الرطوبة في المكان عادت الصفوف الى مكانها .. واخذ الناس يهتفون .. « متى سنتسلم الفاشي الاول ؟ متى سيصل اول فاشي .. ورد بابلو بصوت جهوري .. حالا ، سيصل اليكم فوراً . وسأله احدهم .. وما سبب التأخير ؟ فرد بابلو .. انهم مشتغلون بالاعتراف بخطاياهم .. وقال أحد الرجال .. لا ريب في انهم عشرون ! فقال ثان .. لا ! اكثر . وعلق ثالث بقوله .. وخطايا المشريرين كثيرة . فرد عليه جاره .. اجل ولكنها حيلة لكسب الوقت ، اذ لا يستطيع الانسان في ظروف طارئة كبيرة ان يذكر الا الخطايا

الكبيرة .. وقال الاول .. اذن اصبر . فهناك خطايا كبيرة كثيرة ، ارتكبتها هؤلاء العشرون . ورد عليه زميله .. انني صابر ، ولكن من الخير لهم ولنا ، ان تنتهي من هذا الامر بسرعة . فنحن في تموز ولدينا عمل جم . لقد حصدنا ولكننا لم ندرس ما حصدناه بعد . ولم يحن زمن المعارض والاحتفالات . وقال زميله .. ولكنه عيد واحتفال .. انه عيد الحرية ، فمنذ اليوم ، وبعد ان نزيل هؤلاء من عالم الوجود ، ستغدو المدينة والارض كلها لنا .. واجابه رفيقه .. اجل سندرس الفاشيين اليوم ، وسنحصل من درسه على ثمرة حرية الشعب . وقال ثالث .. علينا ان نحسن ادارة شؤوننا لنستحق الحرية .. اسمعي يا بيلار .. متسى سنجتمع ، لنضع نظاما للبلدة .. فقلت فورا ، بمسد ان تنتهي من هذا العمل .

« وكنت ارتدي احدى قبعات رجال الحرس الجلدية هزءا وسخرية ، وكنت احمل المسدس في يميني .. وقال احد الرجال .. اسمعي يا بيلار، يا بنيتي ، ان ذوقك سيء في ارتداء هذه القبعة ، فقد انتهينا من الحرس . فقلت اذن ساخلمها ، وخلصتها بالفعل ، فقال ، اعطينها ، يجب ان نتخلص منها .

« وتناولها الرجل ، وكنا نقف في نهاية الصف على مقربة من الجرن ، فطرح بها في الهواء ، في اتجاه النهر . ورايناها ، تختفي عن نواظرنا شيئا فشيئا . وتطلعت الى الميدان ، فرأيت الناس يحتلون التوافد والشرفات والاسطحة ، بالاضافة الى ذلك الحشد الكبير الواقف في الصف .

« وسرعان ما سمعت احدهم يهتف قائلا ... ها هو الفاشي الاول ... كان الدون بنيتو غارسيا ، رئيس البلدية ، وقد خرج من الدار عاري الرأس ، واخذ يسير ببطء وهدوء ، بين الصفيين ، والرجال يحملون المدقات دون ان يعلموا شيئا . ومر برجلين ثم باربعة وثمانية وعشرة ، ولم يحدث شيء ... كان يسير بين الصفيين وقد رفع راسه ، وشحب وجهه البدين ، وعيناه تنظران الى الامام ، وهو يخطو بثبات عجيب .

« وارتفع صوت من إحدى الشرفات يقول . . . ماذا دهاكم ايها الجبناء!

ومع ذلك فقد ظل الدون بنيتو يخطو بين الصفيين ، دون ان يحدث له شيء .
ورأيت رجلا يمد عني بثلاثة رجال ، يعض شفته السفلى وقد أمسك
بمدقته في يده ، يتطلع الى وجه الدون بنيتو ، ومع ذلك فلم يحدث شيء .
. . . ووصل الدون أمام الرجل ، فرفع مدقته وضربه بها في رأسه وهو
يقول : هذه لك ايها الوغد ، ثم عاد فضربه بها من جديد . وبدأ الرجال
بنهالون عليه بمدقاتهم ، الى ان سقط أرضا ، ثم جاء ذلك الرجل ، يعاونه
آخرون فحملوه الى ان وصلوا به الى الجرف وقذفوا به في النهر . . .
ورقف الرجل يتطلع اليه وهو يهوي في الهواء . . . ويقول الوغد ! الوغد .
لقد كان هذا الرجل يعمل اجيرا في ارض الدون بنيتو ، ولم يكن في يوم
ما على وفاق معه . وكان هناك خلاف على قطعة ارض قرب النهر كان بينتو
قد اغتصبها من هذا الرجل واعطاها لغيره . وبدأت الكراهية منذ ذلك
اليوم . ولم يعد الرجل الى الصف ، وإنما ظل جالسا قرب الجرف يتطلع
الى المكان الذي هوى منه الدون بنيتو .

« ولم يخرج ثان بعد الدون بنيتو . وخيم الصمت على الميدان في انتظار
الرجل الجديد . . . وارتفع صوت مخمور يقول . . . اطلقوا الشوار ، فرد
عليه آخر يقف على النافذة متطلعا الى داخل القاعة . انهم لا يتحركون .
انهم يصلون . وانطلق الصوت المخمور ثانية يقول ، جروهم . ادفعوا بهم
الى الخارج . لقد انتهى وقت الصلاة .

« ثم رأيت رجلا يخرج كان الدون فيدريكو غونزاليس ، صاحب المطحنة
ومخزن الاطعمة ، واحد كبار الفاشيين . كان طويلا ونحيل البنية ، اصليح
الراس ، تغطي صلته شعيرات تمتد من هذا الجانب الى ذاك ، من رأسه .
كان جافني القدمين ، في ملابس النوم ، تماما كما اخذ من فراشه عندما
اعتقل ، وكان بابلو يسير ورائه ، وقد وضع فوهة بندقيته في خاصرته ،
الى ان وصل الى الصف ، وتركه بابلو هناك وعاد الى القاعة ، فوقف
الرجل في مكانه لا يستطيع حراكا ، وهو يتطلع الى السماء ، وقد رفيع

يديه اليها وكأنه يحاول التعلق بها . . .

« وهتف أحدهم ، انه عاجز عن السير . . فقال اخر ، ماذا دهالك يا دون فيديريكو ، لم لا تسير ؟ ولكن هذا جمد في مكانه ، وقد رفع يديه الى السماء وصاح به بابلو ، وقد توقف عند السلم . . هيا ، تحرك ، ولكن فيديريكو جامد لا يتحرك ، وضربه احدهم بمدقته في خاصرته ، فوثب من مكانه ، ولكنه لم يتحرك . . كانت عيناه لا تزالان تنظلمان الى السماء .

« وسمعت الفلاح الذي يقف الى جانبي يقول : هذا فخر ، فليس لي شيء ضد هذا الرجل ، علينا ان نوقف هذا المنظر . . وتركني ومضى حتى وصل الى فيديريكو ، وقال « اسمح لي » ثم ضربه ضربة هائلة بهراوته على رأسه وانزل فيديريكو يديه ووضعهما فوق رأسه واخذ يركض والضربات تنهال عليه من كل جانب على ظهره وكتفيه حتى سقط اخيرا ، ثم رفعه الواقفون في نهاية الصف ودفنوا به من الجرف الى النهر . . انه لم ينطق ببنت شفة ، ولكن قدميه خائناه .

« ورايت بعد الدون فيديريكو ، ان اغادر مكاني ، فذهبت الى الرواق حيث دفعت بمخمورين من مكانهما ، واخذت اتطلع من النافذة ، كانوا يركعون جميعا في نصف دائرة في القاعة الكبرى يصلون ، وقد ركع القس معهم يصلي ايضا ، وكان بابلو ، يقف منهم على مقربة ، ومعه ذو الاصابع الاربعة ، ورجلان اخران ، وتطلع بابلو الى القس وقال : « ولن السدور الان » ولكن القس منضى في صلاته دون ان يجيب .

« وقال بابلو للقس بصوته الأجهش . . اسمع يا هذا ، من دوره الان ؟ من على استعداد . . . ولكن القس لا يجيب ، وكأنه لم يسمع ما قاله بابلو ، ورايت الغضب يبدو في محياه . . وقال الدون ريكاردو مونتانغو ، من اصحاب الاملاك ، الى بابلو ، وقد رفع رأسه ، دعونا نذهب سويا . . . فرد بابلو . . . لا ، ستذهبون واحدا اثر اخر .

« وقال الدون ريكاردو .. اذن سأذهب انا .. وباركه القس ، ثم نهض هذا فقبل الصليب الذي قدمه القس .. ثم عاد يقول .. هيا ايها الوغد . دعنا نذهب . كان ريكاردو رجلا قصير القامة اشيب الشعر ، ذا عنق ضخم .. وقال لرفاقه الوداع ، لا تحزنوا ، فليس في الموت من ضير . وكل ما فيه من سوء اننا سنموت على ايدي هؤلاء الاوغاد .. والتفت لبابلو يقول .. لا تلمسني ! لا تلمسني ببندقيتك .

« ومضى خارجا فوصل الى الصف ، ثم بصق على الارض . وقال لتسقط الجمهورية وعليكم وعلى ابايكم اللعنة وانها لولا عليه ضربا : فمات بسرعة ، وقد اشترك الجميع في ضربه ، ثم حملوه الى الهاوية ليقدفوا به الى النهر ، وقد سالت دماؤه على ملابسهم ، وآمنوا ان هؤلاء الخارجين اعداء حقا ويجب ان يقتلوا .

« وكان كثيرون مترددين في الاشتراك في هذه العملية ، قبل ريكاردو ، ولو هتف احد الناس قائلا ، دعونا ننفو عن الباقين ، لتجاوب مع هتافه الكثيرون ، اما الآن ، وبعد ريكاردو ، فقد تفجر الغضب ، وانتقل الشعب من مرحلة اداء الواجب الى مرحلة الثورة والغضب .

« وهتف احدهم .. ليخرج القس ، فتسير العملية بشكل اسرع .. وتجاوب الجمع مع هتافه .. وانطلقوا صارخين .. لقد انتهينا من ثلاثة لصوص ، فهاتوا لنا القس .. وصاح فلاح قصير القامة .. لعان والرب . فرد عليه آخر .. انه ليس ربي ، حتى ولا على سبيل المزاح ، ومن الخير لك ان تضبط لسانك اذا كنت لا تريد ان يكون مصيرك كمصيرهم . فقال الفلاح .. انني جمهوري متحرر مثلك . وقد ضربت الدون ريكاردو على فمه . وضربت الدون فيدريكو على ظهره . اما الدون بينو ، فقد اخطاه وانني اقول الرب ، لان هذا مثل معروف مع اللصين .. فرد عليه رفيقه .. عليك اللعنة وعلى جمهوريتك ، انك تتحدث عن الدون كلما

والدون كذا .. فقال الفلاح ولكن هذا ما يطلقونه عليهم .. فرد صاحبه ..
انا لا اطلق عليهم هذا الاسم ، ولا أستعمل كلمة الرب .. ها هو قدام
جديد .

« رأينا منظرا مخزيا ، فقد خرج من الباب الدون فوستينو ريفيرو
الولد الاكبر للدون سيلستينو ريفيرو ، احد كبار اصحاب الاملاك . كان
رجلا طويلا ، ذا شعر اشقر ، وقد صفف بشكل انيق ، اذ انه يحمل مشطا
في جيبه دائما ، فهو مخنث بزعم الصبايا ، وجبان وقد رغب دائما في ان
يكون من مصارعي الثيران . وكان يكثر من رفقة العجر ومصارعي الثيران
والرعيان ، ويعيل الى ارتداء ملابسهم الاندلسية ، ولكنه كان بعيدا عن
الشجاعة ، وكثيرا ما اعتبر اضحوكة رفاقه ، ويقال انه ذات مرة ، اعلن انه
سيشارك في مصارعة للهواة ، تقرر ان يكون ريعها للمجا العجزة في افبلا ،
وانه سيقتل احد الثيران ، وهو على ظهر جواده ، طبقا للطريقة الاندلسية
التي قضى وقتا طويلا في المران عليها ، ولكنه عندما رأى الثور الكبير ،
الذي استبدل لمصارعته بالثور الصغير المقرر ، ادعى المرض ، ووضع
اصابعه في فمه ليرغم نفسه على التقبؤ .

« وعندما ظهر امام الناس بدأوا يهتفون .. هولا ، دون فوستينو ، احذر
من التقبؤ .. وقال احدهم .. اسمع يا دون فوستينو ، ثمة فتيسات
جميلات هناك تحت الهوة ، وقال رابع .. هل سمعت يا دون فوستينو
بالموت من قبل .

« ومع ذلك ، ظل فوستينو محتفظا بشجاعة ورباطة جأشه ، فقد اعلن
للاخرين انه سيخرج ، وما زال تحت تأثير تلك الشجاعة التي دعتة الى
هذا الاعلان ، وهي عين الشجاعة التي حملته في الماضي على اعلان عزمه
على مصارعة الثور ، وعلى ان يصدق نفسه بانه غدا من المصارعين الهواة ،
ووقف الآن وقد استلهم شجاعته من موقف الدون ريكارد ، متحديا ، وعلى
وجهه الجميل دلائل الاحتقار ، ولكنه عجز عن النطق ..

« وهتف به احدهم .. تقدم يا دون فوستينو ، تقدم .. هذا اكبر
صراع شهدته في حياتك ، ودقق فوستينو ينظر ذات اليمين وذات

الشمال ، فلم ير علامة اشفاق أو رثاء تبدو على اي انسان من الواقفين في الصف ، ولكنه ظل واقفا متحديا في جماله ، ولكن لا سبيل له ، الا المضي في الطريق ..

« وقال احد الواقفين .. ماذا تنتظر يا دون فوستينو .. فرد عليه آخر بقوله .. انه ينتظر ان يتقيا .. وصاح ثالث .. تقيا يا دون فوستينو اذا كان يلد لك ويريحك ، اما انا فسيان عندي تقيات او لم تتقيا ..

« وفجأة رأينا الدون فوستينو ، يتطلع الى صفوف الناس ، ثم يمر ببصره عبر الساحة الى الجرف ، وعند ا رأى الهاوية ، وما تحتها من خواء عاد مسرعا ، يحاول الدخول الى القاعة .. فدوى هدير صاحب سن الجموع ، وهتف احد الناس بصوت كالرعد .. الى اين تمضي يا دون فوستينو الى اين ؟

« ورأينا فوستينو يعود ثانية وقد سار بابلو خلفه ، وفوهة بندقيته في ظهره ، لقد ذابت شجاعته وتبخرت الآن .. وكان يرسم علامة الصليب على صدره ، ويصلي ثم وضع يديه على عينيه ، وهبط الدرجات ليصل الصف ..

« وقال احدهم .. اتركوه .. لا تلمسوه .. وفهم الناس ، ما عناه الرجل فتركوه وشانه ، ومضى الدون فوستينو في طريقه وقد وضع يديه المرتجتين على عينيه ، وتحركت شفاهه ، بعبارات غير مفهومة ، ثم اخذ يدب بين الصفين .

« ولم يلمسه احد ، كما لم يخاطبه احد ، ولكنه عندما قطع نصف الطريق تخاذلت ساقاه ، وعجز عن المسير ، فاقمى على ركبتيه .. لم يكن احد قد اصابه بشيء ، ورأيت فلاحا ينحني عليه و يرفمه من ذراعه وهو يقول .. انهض يا دون فوستينو وواصل السير ، فالثور لما يات .

« ولم يستطع فوستينو السير وحيدا ، فتناول الفلاح ذراعه ، كما تناوله فلاح آخر من ذراعه الثانية ، ومضى الدون فوستينو وقد اخفى عينيه ، وارتعدت شفاته يسير بين الفلاحين ، وقد انهالت عليه سخرياتهم .. ونكاتهم حتى وصل به الرجلان الى سفير الهاوية ، وهنا رأي فوستينو

المنظر المرعب من شقوق اصابعه ، فهوى على ركبتيه ، يمسك بالارض ،
ويقبض على الحشائش ويقول .. لا ، لا .. ارجوكم .. لا ، لا ، لا ، لا ..

« وسرعان ما اندفعت اليه الجموع ، فقدفت به من عل ليهوي الى
الهاوية . وادركت انذاك ان الجماهير قد سيطرت عليها الوحشية متأثرة
اولا باهانات الدون ريكاردو ، ومن ثم بجبن الدون فوستينو .

« وهتف فلاح ... ابئونا باخر .. يا له من دون فوستينو .. فرد
عليه ثان .. لقد رأى الثور الكبير اخيراً .. وقال ثالث .. قسما بحياتي
لم ار انسانا كالدون فوستينو ، فعاد الاول يقول .. هناك مرده واقزام ،
وهناك زئوج ووحوش نادرة من افريقيا .. ولكن فوستينو ، فريد فسي
طرازه ونوعه .. هاتوا لنا اخر .. هلموا ادفعوا لنا شخصا جديدا .

« وبدأ السكيريون يتناقلون زجاجات الياسون والكونياك التي نهبوا
من حانة النادي الفاشي ، واخذوا يشربون محتوياتها وكأنها نبيذ ، وبدأ
البعض منهم يشعل ، من الخمر ، ومن المناظر المثيرة التي راوها ، من الدون
بنيتو والدون فيديريكو والدون ريكاردو والدون فوستينو ، وكان البعض
الاخر يشرب من زقاق من الجلد ، مترعة بالنبيذ ، فناولني احدهم زقا
اخذت منه جرعة كبيرة .

« وقال احد الرجال ، ان القتل ، يقود الانسان الى الظما .. فقلت له ..
وهل قتلت ، قال متكبيرا ، لقد قتلنا اربعة ، هذا اذا تجاهلنا حساب
الحرب ، فهل صح ما يقال يا بيلار انك قتلت احد الحرس .. لم اقتل
احدا ، وانما اطلقت النار عبر الدخان ، عندما سقط الجدار ، مثل الآخرين
.. قال .. ومن اين اتيت بالمسدس يا بيلار ؟ .. قلت من بابلو ، لقد اعطانيه
بعد ان قتل الحرس .. قال وهل قتلتم بالمسدس ؟ .. قلت اجل ، ثم
اعطانيه لاتسلح به .. قال .. هل لي ان اراه ، واحمله بعض الوقت ..
قلت .. وام لا ؟ .

« وناولته المسدس . . وكنت قد دهشت ، لان احدا لم يخرج من القاعة ثم راينا الدون غويلرمو مارتين ، صاحب المستودع ، الذي جاء منه المزارعون بما يحملونه من مدقات وهرارات ومدار . وكان هذا الرجل فاشيا ، وهذه هي كل وصمته . . اجل كان لا يدفع الا القليل لمن يصنعون له المدقات ولكنه كان يبيعها باسعار رخيصة ايضا . . وكان شرسا في حديثه ، ويؤم دائما نادي الفاشيين ، فيجلس على ارائكه الوثيرة يقرأ صحيفتهم « النقاش » ويلمع حذاه ، ثم يحتسي الفيرفوت ، ويأكل اللوز المحمص ، والقريديسي « والانشوا » .

ولكن جميع هذه الامور لا تكون سببا لقتل انسان ، وكنت واثقة انه لولا اهانات الدون ريكاردو ، واضحوكة الدون فوستينو ، واقبال الجماهير على الخمر ، لارتفع صوت احدهم يقول . . « يجب ان نطلق سراح غويلرمو هذا ، فقد اخذنا ما في حانوته وهذا يكفي .

« فاهل هذه المدينة ، رقيقو القلب بقدر ما هم جفاة غلاظ ، ولهمم احساس شديد يدعوهم الى العدالة والى التمسك بكل ما هو حق . ولكن القسوة ، والخمر دخلا الان الى الصفوف . وانا لا اعرف ما يقع في البلاد الاخرى ، كما انني اعتقد ان ليس ثمة من يفوقني اهتماما بمتعة الشراب . ولكن السكر في اسبانيا ، عندما ينتج عن مشروبات اخرى غير النبيذ ، يكون قدرا وقييحا ، ويقدم الناس على اعمال لا يقبلون عليها عادة . او ليست هذه هي الحالة في بلادك يا انكليزي ؟

فقال روبرت - انها نفس الحالة ، واذكر انني كنت في السابعة من عمري ، وكنت ذاهبا مع امي لحضور حفلة زواج في ولاية اوهايو ، حيث كان من المفروض ان احمل مع عدد من الصبيان والفتيات الزهور . .

وقاطعته ماريا تقول . . وهل قمت بذلك ؟ ما اروعه .

- اجل لقد علقوا في تلك البلدة زنجيا الى عمود الكهرباء ثم احرقوه حيا . كان اللهب كالقوس ، وكان يتساقط من العمود الى الرصيف . وقد علقوه

اولا بآلة ، ثم انكسرت الالة ..

فعدت ماريا تقاطعه - زنجي ! يا لها من وحشية .

وقالت بيلار متسائلة - وهل كان الناس سكارى ليحرقوا زنجيا ؟

- لا ادري . فقد رايت المنظر من وراء الستائر من نافذة بيت كان يقع في زاوية الشارع . وكانت الطريق مكتظة بالناس . وعندما رفعوا الزنجي الى العمود ثانية ..

فقال بيلار - اذا كنت في السابعة من عمرك ، وكنت تنظر الى المنظر من نافذة احد المنازل ، فليس في وسعك ان تحكم عليهم اذا كانوا سكارى او لا .

- وعندما رفعوا الزنجي ثانية جذبني امي لتبعدني عن النافذة ، فلم اعد ارى شيئا . ولكن منذ ذلك اليوم مررت بتجارب تثبت ان حالات السكر مماثلة في بلادي . انها حالات قبيحة ووحشية .

وقالت ماريا - لقد كنت صغيرا في السابعة . كنت اصغر من ان احتمل رؤية مثل هذه المناظر . لم يسبق لي ان رايت زنجيا الا في سيرك او مدينة للملاهي الا اذا كنا نحسب المراكشيين من الزنوج .

فقال بيلار - ان بعضهم من الزنوج ، والبعض الاخر ليسوا منهم . وفي وسمي ان احدتك طويلا عن المراكشيين .

فقال بيلار - ليس بقدر ما استطيع ان احدثكم عنهم .

فقال بيلار - لا تتحدثي بمثل هذه الامور ، انها لا تناسبك .. ايسر وصلنا في قصتنا .

فرد روبرت - كنا نتحدث عن السكارى الواقفين في الصف .. اكملني .
وقالت بيلار - ليس من العدل ، ان نصلفهم بالسكارى ، فقد كانوا ابعد ما يكونون عن السكر . ولكنهم كانوا قد تبدلوا تمام التبدل . وعندما خرج

الدون غويلرمو ، من القاعة ، بقامته المنتصبة ، ونظرة القصير وشعره الاشيب وقامته المتوسطة ، يرسم شارة الصليب على صدره ، ويتطلع الى الامام دون ان يرى شيئاً لان نظارتيه لم تكونا معه ، وبدأ يسير الى الامام بهدوء ، ومنظره يستثير الاشفاق . فهتف به احدهم يقول .. تعال هنا يا دون غويلرمو ، تعال في هذا الاتجاه ، فعندنا جميع منتجاتك . وكان هزؤهم بالدون فوستينو قد نجح الى الحد الذي حملهم على ان لا يروا ان غويلرمو يختلف كل الاختلاف عن سابقه ، وانه اذا كان من الواجب ان يقتل هذا الرجل ، فيجب ان يقتل بسرعة ، وبكرامة .

« وهتف أحد الناس قائلاً .. دون غويلرمو .. هل ناتي لك بنظارتيك من المنزل .. ولم يكن منزل غويلرمو قصراً كالآخرين ، وانما كان بيتاً عادياً يطل على الساحة ، اذ انه كان رجلاً عادياً ، في كل شيء ، وان كان فاشياً . وعندما شرع في هبوط السلم ليصل الى الصف انبعث صوت من المشرفة البعيدة ، يصرخ . كان صوت زوجته وهي تقول .. غويلرمو .. انتظر ، سأكون معك . والتفت غويلرمو الى المكان الذي سمع صوتها منه ، فلم يستطع ان يراه . واراد ان يقول شيئاً فلم يتمكن . ثم لوح لها بيده ومضى يسير بين الصفيين .. فصرخت ، غويلرمو .. آه .. يا غويلرمو ..

« وعاد غويلرمو يلوح لها بيده ثم سار بين الصفيين وقد رفع رأسه ، دون ان يساوره شعور من اي نوع كان .. وهتف صوت مخمور .. مقلدا صوت المرأة .. غويلرمو .. فهجم عليه هذا بحسبه امراته ، واذا بالرجل ينهال عليه بمدقته بضربة صاعقة ، اجبرته على الاقواء على الارض . وهو يبكي لا من الخوف ، بينما واصل السكير ضربه .. وامتنى لئلا يملأه كرفيه ، واخذ يضربه بزجاجة الخمر على ام رأسه . وسرعان ما تخلى عدد من الناس ، عن اماكنهم في الصف ، ليحل محلهم ، عدد من السكيرين .

« وكنت قد شعرت ببعض الامتعاض من الطريقة التي قتل فيها بابلو العراسر الاربعة ، ولكنها على كل حال طريقة تخلو من الوحشية والغلظة في استلاب الانسان حياته .. وكنت في بادئ الامر مؤبداً لطريقة اشراك

جميع الناس في قتل الفاشيين ، وكنت اود ان اشترك فعلا في عملية القتل . . ولكنني بعد ما رايت الطريقة التي عومل بها الدون غويلرمو احسست بشعور من الخجل والسخط . وعندما رايت السكارى ينتقلون الى الصف ، ليحلوا محل أولئك الذين انسحبوا احتجاجا ، وددت لو انتزعت نفسي من هذا المنظر ، فمشيت بعيدا عبر الميدان ، الى مقعد يقوم تحت شجرة كبيرة ، حيث جلست .

« ورايت فلاحين يتركان الصف ، يتحدثان ، وهتف بي احدهما يقول . . ماذا حدث لك يا بيلار . . قلت : لا شيء . . فرد . . قولي ، ماذا دهاك ؟ . . قلت يبدو لي انني اكرت من الاكل واتخمت . فرد قائلا . . ونحن كذلك . . ثم جلسا الى جانبي على المقعد الخشبي . وكان احدهما يحمل زقا جلديا مليئا بالنبيذ ، فقدمه الي قائلا ، اطفئي طمأك . . واستأنف الرجل حديثه السابق فقال : ليس في وسع انسان ان يقول ان الطريقة التي استعملت مع الدون غويلرمو . . لن تجلب لنا سوء الطالع . ورد عليه رفيقه يقول . . اذا كانت ثمرة حاجة لقتلهم جميعا ، وانا لست قانعا بوجود هذه الحاجة ، فمن الواجب ان يقتلوا بطريقة كريمة ، تخلو من الهزء والسخرية . . وقال الاول . . قد تجوز السخرية في حادث الدون فوستينو ، لانه كان دائما غرا ومدعيا وبعيدا عن الجد ، اما الهزء برجل وقور كالدون غويلرمو ، فامر لا يحتمل .

« وقلت للرفيقين . . يبدو انني متخمة ، فعلا ، فقد شعرت بالرغبة في التقيؤ ، وبالم شديد في المفاصل . . ورد احدهما . . لن نشارك بعد في هذه الحوادث ولا ادري ما يقع في المدن الاخرى . . فقلت . . ان خطوط الهاتف لم تصلح بعد ، وهو نقص يجب ان يسد فورا . . فرد الرجل . . أجل من يدري ، فقد نكون في حاجة الى اعداد وسائل الدفاع عن المدينة بدلا من هذه المذبحة البطيئة التي تقوم بها .

« وقلت لهما ، انني سامضي الى بابلو ، للتحدث اليه . . فعلا قمت من مقعدي ومضيت في طريقي الى مدخل القاعة ، التي يمتد منها الصفان الطويلان . كان هذان الصفان قد فقدوا كل نظام وسيطر عليهما السكر ،

ورأيت رجلين يسقطان على الأرض وهما يتنازعان زجاجة خمر ، وازدرد
أحدهما جرفة كبيرة وقال : لتحيا الفوضى .. وكان يتدحرج على الأرض
كالمجنون وقد وضع منديلا احمر على عنقه .. وهتف الآخر .. لتحيا
الحرية ، واخذ يضرب بقدمه في الهواء .. وكان يحمل منديلا يجتمع فيه
السواد والحمرة ، في يده .. وهتف فردي ، كان قد ابتعد عن الصف ، بعد
ان تسميها بنظرة من الزرابة والاحتقار .. كان عليهما ان يهتفا لتحيا
الخمرة .. فهي كل ما يؤمنان به .. فرد عليه زميل له .. انهما لا يؤمنان
حتى بالخمير ، انهما لا يؤمنان بأي شيء ، ولا يفهمان شيئا .

« وهب احد السكيرين واقفا على قدميه ورفع ذراعيه ، وقد ضم
قبضته فوق راسه واخذ يهتف .. لتحيا الفوضى ، ولتحيا الحرية ..
ولعن الله الجمهورية .. وامسك به زميله الذي كان لا يزال مستلقيا على
الأرض على قدمه ، وجذبه نحوه، فأسقطه على الأرض ، واخذ يتدحرجان
معا ، ثم وضع أحدهما يده على عنق الآخر ، وقبل منديله ، ووضع زجاجة
الخمير في فمه .

« وانفجر دوي هائل في هذه اللحظة ، وادركت أن رجلا جديدا قد
خرج الى صفوف المخمورين ، ولكنني لم استطع رؤيته ، لان راسه لم يرتفع
فوق اكتاف المكتظين امام باب القاعة . وكل ما رأيت ان بابلو ورفيقه كاترو
ديدوس كانا يدفعان امامهما برجل الى الصف .

« وكان الرجل الذي خرج الى الميدان الآن هو الدون اناستازيو ريفاس .
وهو فاشي معروف وأكثر رجل بدانة في المدينة . كان تاجر حنطة ، ووكيل
عدد من شركات التأمين ، ويقوم باقراض المال بفوائد كبيرة . ووقفت
على احد المقاعد اتطلع ، فرأيت يهبط السلم ، متجها الى الصف ، وقد
انتفخت رقبته وتهدلت فوق قميصه ، واخذ راسه الاصلع يمسك اشعة
الشمس المتساقطة عليه ، وانفجر هدير داو من كل مكان . كان صوتا
قبيحا صراخ السكارى وهم يتدافعون اليه . ورايته يرتفع بيديه فوق
رأسه ويتهادى ، ولم اعد ارى منه شيئا ، فقد انهالوا جميعا عليه ، وعندما
عادوا الى امكانهم ، كان الدون انستازيو ، قد انتهى .

« وقال احدهم .. سندخل اليهم .. سندخل لتسلمهم .. وقال آخر ، انه ائتمل من ان يحمل فلنتركه في مكانه .. وصاح ثالث .. سندخل وتقضي عليهم هناك .. سندخل سندخل .. فلم تنتظر طيلة النهار في الشمس .. هلموا بنا لندخل .

« وبدأ الرعاع يزحفون ، كانوا يصرخون ، ويزارون ، كالحوانات .. وهم يهتفون .. افتحوا ، افتحوا ، افتحوا .. ذلك لان الحرس كانوا قد اغلقوا ابواب القاعة .

« وتطلعت من النافذة الى داخل القاعة فرأيت الوضع كما كان عليه . فالقس واقف ، وحوله يركع جميع من تبقى من الفاشيين وهم يصلون في نصف دائرة حوله . وكان بابلو يجلس الى المائدة الكبيرة ، امام مقعد رئيس البلدية ، حاملا بندقيته . وقد تدلى ساقاه ، ووضع لفاة في يده . اما كاترو ديدوس ، فقد جلس الى مقعد رئيس البلدية ووضع قدميه على المائدة يدخن لفاة اخرى . وكان رجال الحرس يجلسون في مقاعد مختلفة يحملون بنادقهم . اما مفتاح الباب الكبير فعلى المائدة ، امام مقعد بابلو .

« وبدأ الرعاع يصرخون .. افتحوا ، افتحوا ، افتحوا ، وكانهم ينشدون نشيدا . اما بابلو ، فجالس وكأنه لا يسمع صراخهم .. وقال بضع كلمات للقس ولكنني لم استطع سماع ما قاله بسبب ضجة الرعاع .

« ولم يرد عليه القس ، بل واصل الصلاة ، واخذ الناس يحاولون الاندفاع الي والوقوف على نفس المقعد الذي اقف عليه ، وصرخت بالرجل .. سيتحطم المقعد ، فقال .. لا باس ، لا باس ، انظري اليهم ، وهم يطون

« وشمعت رائحته القدرة على عنقي ، فشعرت بالرغبة في التقيؤ .. ومد راسه من القضبان الحديدية واخذ يصرخ .. افتحوا الباب ، افتحوا الباب .

« واخذ الرعاع يشددون ضغطهم على الباب . حتى ان الواقفين في الصفوف الامامية كادوا يتهاوون تحت وطأة الضغط من الجماهير التي

تقف خلفهم ، وهرع رجل ثمل ، وقد احاط عنقه بمندبل احمر ، يندفع بنفسه على ظهر الجماهير الضاغطة وهو يهتف ويصرخ « لاعش انا ، ولتحيا القوضى » .

« واخذت ارقب الرجل ، ورايته يعود من مكانه ويجلس الى مقعد ، ويحتسي الخمر من زجاجة يحملها ، ثم رأى جثة الدون انستازيو ، وهو ملقى على وجهه ، فهب من مكانه ومضى الى الجثة يصب من زجاجة الخمر على راسها وعلى ملابس انستازيو ثم يتناول علبة الثقاب محاولا اشعال النار بالجثة . ولكن الريح المتعالية اخذت تطفئ عيدان الثقاب واحدة اثر اخرى حتى نفذت ، فجلس الثمل الى جانب الجثة ، يحتسي الخمر من الزجاجة ويهز الجثة من كتفها بين فينة وفينة .

« وواصل الرعاع الصراخ والهتاف مطالبين بفتح الباب ، وكان الرجل الواقف الى جانبي على المقعد يمد رأسه بين القضبان ويصرخ داعيا الى فتح الباب . واصم صراخه اذني ، واخذت اتطلع الى القاعة من جديد ، كانوا لا يزالون يصلون ، والرجال راكعون ، ورؤوسهم خاشعة ، يرفعون النظر بين الفينة والفينة ، ليتطلعوا الى الصليب والى القس ، بينما يوالي هذا صلواته بسرعة ، وبابلو جالس في مكانه على المائدة يدخن لفافته دون انقطاع ، ويلعب بالمفتاح في يده .

« ورايت بابلو يحدث القس من جديد ، ولم استطع سماع ما قاله ، بسبب الصراخ ، ولكن القس لم يجب ومضى في صلواته . وفجأة رايت رجلا من الراكعين يثب على قدمه ، ويتحرك وكأنه يريد الخروج ، كان الدون جوزيه كاسترو الذي يلقيه الجميع الدون بيبي ، وهو فاشي معروف ، ويتاجر بالجياد ، وبعد ان قبل كاسترو الصليب وباركه القس مضى متجها الى الباب .

« وهز بابلو رأسه ومضى يدخن لفافته ، ورايت الدون بيبي يقول شيئا لبابلو ولكنني لم اسمع ما قاله ، ولم يرد بابلو وانما هز رأسه وأشار الى الباب

ثانية ، ورأيت الدون يبيي ، يتطلع الى الباب ، ليدرك لأول مرة ان الباب مفلق وعرض عليه بابلو المفتاح ، فعاد الرجل وركع ثانية مع المصلين . ورأيت القس يلتفت الى بابلو ، فيشير اليه هذا بالمفتاح ، فيفهم ان الباب مفلق ، ويهز راسه ثم يعود الى استئناف صلاته .

« ولا ادري كيف لم يستطيعوا ان يفهموا منذ البداية ان الباب مفلق ، الا اذا كان استفراقهم في صلاتهم ، وافكارهم قد عزلهم عن كل ما حولهم . اما الآن فقد فهموا كل شيء ، وادركوا ما يعنيه الأنتاف ، وتبدل كسل شيء . ولكنهم ظلوا على الحالة التي كانوا عليها .

« وبلغ الصراخ الآن حدا لا يطاق ، والسكير الواقف الى جانبي يزار . افتحوا الباب ، حتى يبح صوته . . ورأيت بابلو يحدث القس من جديد ، وهذا لا يجيبه ، ثم ابصرت بابلو ، وهو يرفع بندقيته ، ويتقدم من القس فيقرع بمؤخرتها على كتفه ، ولم يكثرث به القس بل مضى في صلاته ، وهز بابلو راسه ، ورأيته بعد ذلك يحدث كاسترو ديدوس ، فيصدر هذا امره الى الحرس ويشراجعون الى نهاية القاعة حيث يرفعون بنادقهم .

« ورأيت بابلو يقول شيئا لكاترو فيدفع هذا منضدتين وبعض المقاعد ، ويقف وراءها الحرس بينادقهم ، وكأنها حاجز عسكري ، وانحنى بابلو ، ليدق باصبعه على ظهر القس ، فلم يكثرث هذا به ، بل مضى في صلاته . وهز بابلو راسه ، وابصر بالدون يتطلع إليه ، فأشار براسه اليه ، واوما الى المفتاح الذي كان يمسكه بيده ، وفهم بابلو ، فخفض راسه ، ومضى يسرع في صلاته .

« ونزل بابلو من مكانه ، ومضى الى مقعد رئيس البلدية الكبير فوق المنصة حيث جلس عليه ، واخذ لفافة تبغ جديدة شرع يدخنها ، وهو يرقب الفاشيين يصلون مع القس ، ولم يبد على وجهه اي تعبير ، اما المفتاح ، فعلى المائدة امامه ، واستدعى بابلو احد الحرس ، فمضى هذا الى الباب ، ورأيت الفاشيين يصلون جميعا ، وبسرعة ، وادركت انهم فهموا الموقف الآن .

« وقال بابلو شيئا للقس ، فلم يرد عليه هذا ، ثم التقط المفتاح ودفع به الى الحارس الواقف عند الباب ، والتقطه هذا ، فوضعه في الباب واداره ، ثم سحب الباب اليه مختفيا وراءه ، بينما اندفع الرعاع الى الداخل .

« اجل رايتهم يدخلون ، وابصرت بالمخمور الواقف الى جانبي يمد راسه الى الامام فيحجب عني المنظر ويصرخ .. اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات ، اقتلوهم ، ثم دفعني بيديه جانبا ، فلم اعد ابصر شيئا ، وضربته بكوعي في بطنه وقتت .. ايها السكير ، لمن المقعد ؟ دعني ارى .

« ولكنه ظل يهز يديه وذراعيه امام القضبان الحديدية وهو يصرخ ، اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات ، اقتلوهم ، اضربوهم بالهراوات ، واصبته في بطنه من جديد .. وقتت ايها السكير القذر ، دعني ارى ... وسرعان ما وضع يديه على راسي ليدفعني عن المقعد .. واخذ يواصل صراخه .. اقتلوهم .. اجل ، هكذا ..! اقتلوهم .

« وضربته في المكان الحساس الذي يتألم منه ، فانزل يديه عن راسي .. واخذ يصرخ : ايتها المرأة ، لاحق لك في هذا ، وتطلعت من النافذة ، فرايت حشد الرعاع ينهالون بمدقاتهم وهراواتهم ، ومداريهم ، على الفاشيين الذين سالت دماؤهم ، بينما جلس بابلو في مقعده ، يحمل بندقيته على ركبتيه ، وهو يرقب المشهد ، والصراخ ، والعيويل يتعاليان في كل مكان ، ورايت القس يجلس على مقعد ، وقد انهالت عليه الضربات .. وهنسا تهاوى المقعد تحتنا ، وسقطت انا والسكير متدحرجين على الرصيف الذي فاحت منه روائح الخمر والقيء ، والناس يقفزون فوقنا ليصلوا السى القاعة ، وكان كل ما اراه ، المخمور ، وقد جلس امامي يمسك الان بالمكان الذي اصبنه فيه .

« وكانت هذه نهاية قتل الفاشيين في بلدتنا ، وكم كنت فرحة ، لانني لم ارا اكثر من ذلك ، اذ لولا ذلك السكير لرايت كل شيء . وهكذا قدم لي

هذا السكير حدمه من حيث لا يدري ، اذ ان المشهد داخل القاعة ، كان
اشد الما من ان يستطيع انسان ان يراه او يصفه .

« ورايت السكير الثاني لا يزال يسكب من زجاجة الخمر على انستازيو ،
ويحاول اشعال النار بجثته ، فمضيت اليه ، وقلت .. ماذا تفعل ايها
الوقح ؟ .. فقال .. لا يهملك دعيني وحدي .. ويبدو ان وقوفي امامه
قد ساعده ، اذ اشتعلت عود الثقاب بكتفي الجثة ، وسرعان ما ارتفع
لهيب ازرق يمتد الى عنقه .. وشرع السكير يصرخ .. انهم يحرقون
الموتى ؟ .. فقال احدهم .. من يحرقهم .. وقال آخر .. واين يحرقونهم
.. فقال السكير .. هنا .

« وسرعان ما تلقى السكير ضربة من احد الناس اسقطته ارضا ، وحمات
جثة الدون انستازيو ، مع الجثث الاخرى في عربة ، نقلتها الى الهاوية .
وكان من الخير لو قذفوا بعشرين او ثلاثين ايضا من هؤلاء السكارى من
ذوي المناذيل الحمراء . ولو وقعت الثورة من جديد ، فان من الواجب
التخلص من هؤلاء الناس منذ بدايتها . اما انذاك فلم تكن نعرف شيئا ،
ولكن سرعان ما فهمنا الحقيقة بعد ايام .

« ولم نعرف تلك الليلة ، ما سيأتينا به الغد . فبعد المذبحة ، لم نستطع
ان نعقد اجتماعا الليلة بسبب وفرة عدد السكارى ، اذ تعذر حفظ
النظام وتقرر ارجاء الاجتماع الى اليوم التالي .

« ونمت تلك الليلة مع بابلو ، وليس لي من حاجة في ان اقول لك هذا
ايها العزيز ، ولكن من الخير ان تعرف كل شيء ، لتدرك ان كل ما اقوله
صحيح . فاسمع يا انكليزي فان ما سأقوله ، شيء غريب .

« اجل لقد اكلنا ، وكانت تلك الليلة غريبة . كنا جميعا كمن يخرج من
عاصفة او طوفان او معركة ، فقد انهكنا الجهد ، وليست لدينا اية رغبة في
الكلام كثيرا . وكنت اشعر بفراغ وخواء ، وضعف عام وبكثير من الخجل
والاحساس بالخطيئة ، وشعرت بشيء من الظلم ومن الشر الذي تخفيه

لنا الايام ، وهو عين الشعور الذي احسست به هذا الصباح عندما رايت الطائرات وبالفعل فقد صدق تطيري ووقع الشر بعد ثلاثة ايام فقط .. ولم يتحدث بابلو .. الا بالقليل ، اذ سألني قائلاً .. هل اعجبك المنظر يا بيلار .. كنا في الخان نتناول طعامنا وكان المكان مكتظا بالناس ، يهزجون ويفغنون ...

« قلت .. لا ، يا بابلو ، باستثناء الدون فوستينو .. قال اما انا فقد احببت العمل .. قلت متسائلة : كله ؟ قال اجل . كله ، باستثناء القس . قلت مستغربة فقد كنت اعرف كراهيته للقسس .. او لم يعجبك ما وقع للقس ؟ قال .. لا .. فقد انهارت احلامي .. قلت وانا اكاد اصرخ لاسمعه صوتي في هذا الخضم من الضجيج والغناء والهدير .. ولم .. قال .. لانه كان جباناً في موته ، وكان من الواجب ان يكون كريماً .. قلت وكيف تريد ان يموت كريماً ؟ .. وهو يرى الرعاع يطاردونه . خيل الي انه احتفظ بكرامته طيلة الوقت .. قال .. اجل ولكنه جبن في اللحظة الاخيرة .. قلت ومن لا يجبن ، او لم ترهم يطاردونه وهم يحملون المذاري .. قال .. اجل لقد رايتهم ، ولكنني اعتقد انه مات ميتة سيئة .. قلت كل انسان يموت ميتة سيئة في مثل هذه الظروف .. لقد كان كل شيء على اسوأ ما يرام .. قال اجل ، لقد كان النظام مفقوداً ، ولكن من واجب القس ان يموت ميتة اكرم وان يكون مثلاً للآخرين .. قلت .. ظننت انك تكره القسس .. قال اجل ، ولكن القسس الاسباني يجب ان يموت كريماً .. قلت .. لقد مات اكرم ميتة ، فقد حرم من كل طقس ديني . فقال بابلو .. لا .. لقد طاش حلمي ، فقد كنت طيلة اليوم انتظر دور القس . كنت اظن انه سيكون الاخير الذي يصل الى الصف .. وكنت انتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر .. كنت انتظر شيئاً رائعاً ، اذ لم ار في حياتي قساً يموت .. قلت هازئة .. ما زال الوقت طويلاً امامك ، اذ لم تبدأ الحركة الا اليوم فحسب . قال : لا فقد طاشت احلامي .. قلت .. اذن فستفقد ايمانك الآن .. قال انك لا تفهمين يا بيلار ، لقد كان قساً اسبانياً .. قلت وماذا يعني انه اسباني !! .. بالكم من شعب متعجرف !! »

وقاطعها روبرت جوردان بقوله .. يجب ان نمضي .. لقد حلت الظهيرة

– أجل ، سنمضي . ولكن دعني احدثك عن بابلو . لقد قال لي تلك الليلة .. اسمعي يا بيلار لن نعمل شيئا الليلة .. قلت حسنا .. هذا يسرني . قال .. انها قلة ذوق ، بعد قتل هؤلاء الناس .. قلت له : يا لك من قديس . او تظن انني عشت هذا العهد الطويل مع مصارعي الثيران ولا ادري كيف يشعرون بعد المعركة .. قال .. احقا يا بيلار .. قلت .. وهل كذبت عليك قط ؟ قال .. من الحق يا بيلار ، انني رجل متعب هذه الليلة ، لا تعتبي علي .. قلت .. لا ، يا رجل ، ولكن لا تقتل الناس كل يوم يا بابلو .

« ونام تلك الليلة كما ينام الطفل ، وايقظته في الصباح ، عند الفجر ، فقد عجزت عن النوم تلك الليلة ، وقد استيقظت وجلست على مقعد اطلع من النافذة . الى الميدان وعبره الى الاشجار البعيدة في ضوء القمر ، وقد امتدت تحتها المقاعد ، تم انتقل بصري الى الجرف الذي تهاوى من فوقه الفاشيون . ولم اسمع نغمة انسان الا خرير الماء في الحوض . واخذت افكر . لقد كانت بدايتنا سيئة .

« كانت النافذة مفتوحة . وسمعت في الميدان صوت امرأة تبكي .. وخرجت الى الشرفة حافية القدمين ، اخطوبهما على الحديد البارد . كان القمر ساطعا يبعث بنوره على الابنية الممتدة على جوانب الميدان ، وادركت ان البكاء آت من ناحية شرفة مسكن الدون غويلرمو . كانت لا تزال على الشرفة راكعة تبكي .

« وعدت الى الغرفة ، فجلست على المقعد من جديد ، ولم ارغب في جديد . ولم ارغب في التفكير ، فقد كان ذلك اليوم اسوأ ايام حياتي ، حتى جاء يوم ثان كسفه .

وقالت ماربا تسالها – واي يوم كان الثاني ؟

– بعد ثلاثة ايام ، عندما احتل الفاشيون البلدة .

– ارجوك ، لا تقولي شيئاً عن ذلك اليوم ، فاننا لا اريد ان اسمع ،
ويكفي ما سمعناه ، بل انه اكثر من الكفاية .

– لقد حذرتك في البداية من ان تصفي لما اقول . اجل انني لم ارغب في
ان تسمعي . فستعاودك الآن الاحلام السيئة .

– لا ولكنني لا اريد ان اسمع اكثر مما سمعت .

وقال روبرت – اود لو حدثتني عن ذلك اليوم مرة اخرى .

فقالت بيلار – سأحدثك ، ولكن هذه الاحاديث من السوء بمكان عظيم
بالنسبة لماريا .

وقالت ماريا وهي تكاد تبكي . . لا اريد ان اسمع ، ارجوك يا بيلار ،
ولا تروي له القصة اذا كنت موجودة . فقد استمع اليها على الرغم مني .

كانت شفتاها ترتعدان ، وخيل لروبرت انها ستبكي . . فقال . . ارجوك
يا بيلار اجلي الحديث الى فرصة اخرى .

– اجل ، لا تنزعجي يا صغيرتي ، ولكنني سأروي القصة للانكليزي في
يوم آخر .

– ولكنني اريد ان اكون معه دائما ، ارجوك يا بيلار ان تتركي هذا
الموضوع .

– سأحدثه بها عندما تكونين مشغولة .

– لا . لا . ارجوك ، لنكف عن هذا الحديث ابدا .

– ان من العدل ، ان اصف ما عملوه ، بعد ان وصفت ما عملناه .
ولكنك لن تسمعي ما سأقوله .

– اليس هناك ، مواضع ممتعة نتحدث بها ؟ امقضي علينا ان نتحدث
عن المغازع دائما ؟

- في وسعك انت والانكليزي ، بعد ظهر اليوم ، ان نتحدثنا بما تشاءان .
- ليت بعد الظهر ياتي ! ليت له اجنحة طائرة .
- انه سيأتي .. انه سيأتي طائرا ، ثم سيمضي طائرا كذلك .. وسيطير
الغسد ايضا .
- بعد ظهر اليوم ..! ليت ياتي !!



١١

أخذوا يصعدون من جديد ، في ظلال الصنوبر ، بعد ان هبطوا من المرج المرتفع الى الوادي الذي تغطيه الاشجار ، وكان ارتقاؤهم هذه المرة في طريق ضيقة ، تسير في محاذاة الجدول ، ثم تخلوا عنها ثانية ، عندما وصلوا الى مجموعة من الصخور الشاهقة . وراوا رجلا يخرج من وراء احدى الاشجار ، وبندقيته في يده .

وهتف الرجل .. قفوا .. آه .. اهلا بيلار .. من معك ؟ ..

- انكليزي ، يحمل اسما مسيحيا ، هو روبرتو .. يا له من مكان سحيق!

وقال الرجل لروبرت وهو يمد يده اليه .. تحية ايها الرفيق ، هل انت بخير ؟

- اجل ، وانت ؟

- تماما ..

كان الحارس شابا ضئيل الجسم ، رقيقه ، ذا انف معقوف ، ووجنت بارزة وعينين رماديتين . وكان هاري الرأس ، فبان شعره الاسود .. اما هزة يده عندما صافحه فكانت قوية وودودة ، وقد تجلى الود في هينيه .

وقال الشاب - هالو ماريا !! لهم تنعبي ؟

فردت الفتاة تقول .. لا يا جواكين ، فقد جلسنا ، وتحدثنا اكثر مما مشينا .

وقال الشاب - هل انت رجل الالغام ؟ لقد سمعنا انك هنا .

- اجل ، وقد قضيت الليل عند بابلو . اجل . انا رجل الالغام

يسرنا ان نراك ، هل جئت لنسف قطار ؟

- هل كنت في حادث القطار الاخير ؟

- اولم اكن هناك ؟ لقد عثرنا عليها هناك .. لقد اصبحت جميلة يا

ماريا ، فهل ابلغوك كم انت جميلة ؟

- اغلق فمك يا جواكين وشكرا لك . يجدر بك ان تقصي شعرك .

-- لقد حملتك ، حملتك فوق كتفي هذا .

فقالت بيلار - لكنك لم تكن الوحيد ، فقد حملها كثيرون . اين الرجل

المعجوز ؟

- في المسكر .

- واين كان ليلة امس ؟

- في سيفونيا .

- هل سمعت اية انباء ؟

- اجل . هناك بعض الانباء .

- حسنة ام سيئة ؟

- اعتقد انها سيئة .

- وهل رايت الطائرات ؟

- اجل . لا تحدثني منها . ايتها الرفيق الديناميتي ، أي نوع من

الطائرات كانت ؟

- هينكل ١١١ من قاذفات القنابل ، مع مطلونات من طراز هينكل

وفيات .

- وما نوع تلك الطائرات الكبيرة ذات الاجنحة الخفيضة ؟

- هينكل ١١١ .

- مهما كان اسمها ، فهي سيئة .. ولكن لماذا اعيقكم .. ساصل معكم
الى القائد .

فقلت بيلار - القائد ؟

- اجل ، افضل التسمية على الزعيم . انها اكثر عسكرية .

- يبدو انك تكيف نفسك عسكريا .

- لا ، ولكنني احب التعابير العسكرية ، لانها تجعل الاوامر اوضح ،
وتعطي معنى اصح للنظام .

فقلت بيلار - هذا رجل يتفق مع ذوقك يا انكليزي .. انه ولد جاد .

ووضع جواكين يده على كتف الفتاة ، وابتسم لها وقال ، هل احملك ؟

- يكفي انك حملتني مرة . ومع ذلك ، فانا شاكرة لك .

- وهل لا زلت تذكرينها ؟

- اذكر انني حملت . اما من حملتني فلا اذكر . ولكنني اذكر الفجري
لانه اسقطني على الارض اكثر من مرة . ولكنني شاكرة لك يا جواكين ،
وساحملك ذات يوم لارد لك دينك .

- ما زلت اذكر ذلك اليوم جيدا . فقد وضعت بطنك وساقيك على
كتفي بينما كان رأسك على ظهري ، وذراعاك مدليتين على ظهري .

- لا ريب في انك قوي الذاكرة . انني لا اذكر شيئا من هذا . فلا اذكر
شيئا من هذا . فلا اذكر ذراعيك ولا كتفيك ولا ظهرك .

وقال جواكين يسالها .. او تودين ان تعرفي شيئا ؟

- ماذا ؟

- كنت فرحا بانك على ظهري والعيارات النارية تنهال علينا من الخلف .
- يا لك من خنزير ! وهل هذا هو السبب الذي دفع العجري الى ان
يحملني اطول مدة ممكنة ؟

- لهذا السبب ، وليمسك بساقيك ايضا .
- يا لكم من ابطال ، ومنقذين .

وقالت بيلار .. اسمعي يا جيبية . لقد حملك هذا الشاب طويلا ، ولم
تكن ساقاك في تلك اللحظة تعنيان شيئا لاي انسان . ففي تلك اللحظة ،
كانت العيارات النارية هي وحدها التي تتكلم بوضوح . ولو اسقطك ،
لاصبح بمنجاة من الرصاص في أسرع وقت ممكن .

فقال ماريانا .. لقد شكرته ، وسأحمله ذات يوم . اسمحي لنا ان نمزح
قليلا ، اذ يجب ان لا ابكي ، لانه حملني .

ومضى جواكين يقول .. وكنت اريد ان اذف بك ، لولا انني كنت
اخاف من بيلار ان تقتلني .
فقال بيلار - انا لا اقتل احدا .

- لست في حاجة الى قتل انسان ، فانت ترعيبين الرجل بسلاطة لسانك .
- يا لك من لعين ! ولقد كنت ذلك الولد المهذب . ماذا كنت تعمل قبل
الحركة ايها اشباب ؟

- لم اكن اعمل شيئا ، كنت في السادسة عشرة من عمري .
- ولكن ، ماذا كنت تمتهن ؟

- بضعة ازواج من الاحدية من اونة الى اخرى .
- تصنع احدية ؟

- لا ، المهيا ،

- لا ريب في ان ثمة اكثر من هذا ، ولكن قبل لي لماذا فشلت ؟

- فشلت في ماذا ؟

- ماذا ، انت تعرف فيم فشلت .. اناك تزرع ذنب الخنزير الان .

- اعتقد انه الخوف .

- ان لك قواما رائعا ، اما الوجه فليس بالجميل جدا . اذن كان الخوف ؟
لقد كنت على ما يرام عند القطار .

- انا لا اخافهم الان . وقد راينا ما هو اسوأ واكثر خطرا من الثيران .
فالثور ليس خطرا بقدر المدفع الرشاش . اما اذا عدت الى الحلبة مسن
جديد ، فلا ادري اذا كنت تستطيع الوقوف امام الثيران .

وقالت بيلار لروبرت .. لقد اراد ان يصبح مصارعا للثيران ، ولكنه
خاف .

وقال جواكين لروبرت .. وهل تحب الثيران ايها الرفيق الديناميتي ؟

- اجل ، انني احبها كثيرا ، وكثيرا جدا .

- وهل رايت المصارعة في فالادوليد ؟

- اجل في ايلول ، في فيريا .

- هذه بلدتي . يا لها من بلدة رائعة . ولكن كم قاسى اهل تلك المدينة
الطيبون من هذه الحرب .. هناك قتلوا ابي . وقتلوا امي .. وقتلوا
صهري .. ثم اختي ..

وقال روبرت .. يا لهم من قساة ، غلاظ القلوب !

كم مرة سمع هذا الوصف ؟ وكم من مرة رأى الناس لا يكادون ينطقون
هذه الكلمة الا بصعوبة ! وكم من مرة رأى عيون الناس وهي تفوررق
بالدمع ، وحناجرهم وهي تحسرج ، وهم يقولون .. ابي .. اخي ، امي ،
اختي ! انه لا يذكر كم من مرة سمعهم يتحدثون عن موتاهم على هذا الشكل

ولكن حديثهم لم يكن ليختلف ابدا عن حديث هذا الغلام .. انها نفس القصة تتكرر .

ولكنك تسمع القصة فقط دون ان تراها . ان احدا لم يحدثك عن القصة كما وقعت تماما ، كما حدثتك بيلار ، عن قصة الفاشيين الذين قتلوا في تلك البلدة . فكل ما تعرفه ان الاب قد قتل في احدى الباحات ، او على مقربة من جدار ، او في حقل ، او حديقة ، او في الليل ، على اضاء سيارة شاحنة تمر بالطريق . وقد رأيت بنفسك ، ضوء السيارة من الجبال ، ثم سمعت اطلاق النار ، وعندما هبطت الى الطريق ، وجدت الجثث . ولكنك لم تر اما لك تقتل ، او اختا او اخا . وانما سمعت هذه القصص ، وسمعت الطلقات ، ولكنك رأيت الجثث .

ولكن بيلار ، جعلتك ترى كل شيء في تلك البلدة ، وكأنتك تشهد الرواية آه لو اسنطاعت تلك المرأة ان تكتب ، سيحاول هو كتابتها ، اذا قدر له ان يعيش وان يتذكر : يالله ، ما اروعها من رواية للقصة ، انها اروع من كوينيدو ، انه لم يصف موت الدون فوستينو كما وصفته هي ، بودي لو كنت اجيد الكتابة لأروي تلك القصة كما روتها هي ، اريد ان اكتب ما عملناه ، لا ما عمله الآخرون لنا ، فنحن نعرف الكثير عن هذا، اجل لقد عرف الكثير عما يجري وراء الخطوط .. ولكن كان عليه ان يعرف الناس كما كانوا سابقا وكما كانوا يعيشون في قراهم .

وخيل اليه ، ان حركتهم المستمرة ، وانتقالهم من مكان الى آخر ، لم تمكنهم من رؤية العقاب والنهاية .. وقال يحدث نفسه ، لقد عشت مع فلاح واسرته فقد نزلت عليهم مع الليل ، وتناولت طعامك معهم ، واخفوك في النهار ، ثم عندما حل الظلام مضيت عنهم ، وقد اديت، واجبك ، ونجوت وعندما مررت ثانية بنفس المكان ، قيل لك انهم قتلوا الفلاح واسرته .. انها مجرد قصة بسيطة .

ولكنك كنت دائما بعيداً ، عندما يقع أي شيء من هذا ، فالمقاومون
نفلدوا خطتهم والحقوا الاضرار التي ارادوها ثم انسحبوا ، وظل الفلاحون
يليقوا العقاب ، اجل لقد كنت تعرف ما يحل بالآخرين ، وكنت تعرف ما
تعملونه في البداية ، وتكرهه ، ثم نسمع من يذكره دون حياء او خجل ،
ومن يتفاخر به وبزهو ، ويدافع عنه ويجد له المبررات والاعذار ، ولكن
تلك المرأة اللعينة جملته يرى كل شيء ، وكأنه يمشي فيه .

ومضى روبرت في تصوراته . . فهو يرى ان هذه التجارب جزء من تعليم
الانسان ، ولا ريب في انه سيكون متعلما احسن التعليم عندما ينتهي كل
شيء فهذه الحرب ملأى بالدروس والعبر ، واخذ يحدث نفسه . . اجل
لقد تعلمت يا هذا ، وكان من حسن حظك انك عشت شطرا من عمرك في
اسبانيا قبل الحرب ، فهم يثقون بك لانك تتقن لغتهم على الاقل ، انك
تفهمها اجود الفهم وتحدث بها حديثا صحيحا ينطبق على القواعد ، وانت
تعرف معظم الاماكن في البلاد ، فولاء الاسباني في النهاية الى قريته ، فهو
اولا يمجد اسبانيا بالطبع ، ثم يمجد قبيلته ، فمقاطعته فقريته ، فاسرته ،
فممله ، فاذا كنت تعرف اللغة الاسبانية احبك الاسباني ، اما اذا كنت
تعرف مقاطعته ، فقد ازداد حبك في قلبه ، لكنك اذا عرفت قريته ومهنته ،
فقد غدوت جزءا من فؤاده ، ولذا فانت لا تشعر بنفسك غريبا في اسبانيا ،
وهم تبعاً لذلك لا يعاملونك كما يعاملون الغرباء ، الا اذا تقموا عليك . .

وهم قد ينقمون عليك ، وقد تقموا عليك كثيرا ، اذ انهم ينقمون على
كل انسان ، انهم قد ينقمون على انفسهم ايضا ، ولو كنتم ثلاثة ، اتحد
اثنان ضدك ، ثم سرعان ما ينقلب احدهما على الآخر . . وهذه ليست
بالحالة العامة ولكنها شائعة ، وفي وسعك ان تجعل منها قاعدة توصلك
الى بعض النتائج .

ولم يكن يجدر به ان يفكر على هذا النحو ولكن من يرقب عليه افكاره ؟
ليس هناك من يرقبها الآن ، انه لن يستطرد في افكاره لتصل به حدود
الانهازمية فالشيء الاول والاهم هو كسب هذه الحرب ، فاذا لم نكسبها

اضعنا كل شيء ، ولكنه يرى كل شيء ويصفي لكل شيء ويتذكر كل شيء ، انه يخدم قضية في حرب ، يحضنها كل ما لديه من ولاء ، ويخدمها ما وسعه الجهد ، طالما انه في الميدان ، ولكنه انسان لا يستطيع ان يسيطر على عقله او يملكه ، ولا على حواسه التي يرى بها ويسمع ، اما اتخاذ القرارات فسيتهاكها الى مومعد اخر ، ولديه الكثير من المواد لاستخلاص هذه القرارات منها . ان لديه الكثير منها الان ، وقد يكون لديه اكثر من الكثير احيانا .

ومضى في تصوراته يحدث نفسه ... انظر الى بيلار ، هذه المرأة . . انني سأرغمها ان تسرد علي بقية القصة ، مهما حدث . انظر اليها تسير مع هذين الفرين . ليس نمة انتاج لاسبانيا افضل من هؤلاء الثلاثة . فهي كالطرد ، بينما الشاب والفتاة . . كالشجرتين الصغيرتين . انهما ما زالتا تمنوان كاروع ما يكون . وعلى الرغم من كل ما حدث لهما من شقاء في الماضي ، فهما يبدوان بالعين ، رائعين وجديدين ، وكأنهما لم يمسهما ضرر او يلحق بهما اذى . لكن ماريما ، قد عادت الى وعيها ، قبل قليل . . فهذه رواية بيلار ، وهي لا شك صادقة في روايتها . لا ريب في ان الفتاة كانت في وضع يائس .

انه لا يزال يذكر ذلك الغلام البلجيكي الذي تطوع في الكتيبة الحادية عشرة ، مع خمسة غلمان من قريته ، انها قرية لا تضم اكثر من مائتي انسان ، ولم يسبق للغلام ، ان خرج من قريته من قبل . وعندما رأى الغلام لأول مرة في مقر قيادة الكتيبة ، كان رفاقه الخمسة قد قتلوا جميعا وكان الغلام في اسوأ حالة . . وقد غدا خادما في مطعم الضباط . كان يحمل وجها فلمنكيا احمر كبيرا ، ويدين ضخمتين كأيدي الفلاحين . . ولكنه كان يبكي طيلة الوقت . . اجل كان يبكي بكاء صامتا .

انك تنظر اليه فتراه يبكي ، واذا سألته ان ياتيك ببعض النبيذ بكى ، واذا ما اعطيته صحنا فارغا بكى ، وادار وجهه . وقد يتوقف عن البكاء ، ولكنك اذا عدت تنظر اليه ، عاد الى بكائه . وهو يبكي دائما في المطبخ . والكل يرفقون به ، ولكن رفقهم لم يجده شيئا . ان عليه ان يبحث عنه ،

ويرى اذا كان قد عاد الى وعيه ، وغدا صالحا من جديد للخدمة العسكرية.

ولا ريب في ان ماريا ، قد عادت الى وعيها الان . انها تبدو كذلك على الاقل ، ولكنه ليس طبيبا نفسانيا . اما بيلار ، فهي طبيبة نفسانية . ويبدو ان من الخير لها انها كانت معه ليلة امس . اجل ، شريطة ان لا يتوقف العلاج . وبالطبع ، كانت الليلة رائعة بالنسبة له ، فهو يشعر على خير ما يرام اليوم من صحة وعافية وسعادة وطمانينة .. لقد كانت ليلة رائعة ، وكانت ماريا ممتعة ...

وقال يحدث نفسه .. أنظر اليها ، انظر اليها ...

وابصر بها تخطو سعيدة ، في الشمس وقد انفتح قميصها الخاكي عند عنقها . وخيل اليه انها تقفز كما يقفز المهر .. وليس من السهل ان يعثر الانسان على فتاة كهذه ، فمثلها نادر الوجود ، وقد لا يعثر على مثيلة لها ابدا . وقد يضع الانسان خطة يحكم وضعها فلا تتحقق ، وقد يحلم بشيء في النوم فلا يراه في دنيا الواقع . لقد كان اشبه بالحلم الذي يراه الانسان بعد ان يشهد شريطا سينمائيا ، فيرى بطة الفلم تدنو من فراشه في الليل ، رائعة ، جميلة ، لطيفة .. وكثيرا ما نام مع بطلات من هذا النوع وعلى هذه الصورة من الاحلام . انه لا يزال يذكر غريتا غاربو وجين هارلو .. اجل لقد زارته هارلو في احلامه اكثر من مرة . لعل ما حدث ليلة امس لم يكن الاحلام من هذه الاحلام .

ولكنه لا يزال يذكر ، عندما زارته غريتا غاربو في الليلة التي سبقت الهجوم على بوزو بلانكو ، وكانت ترتدي بلوزة من الحرير المزوج بالصوف الناعم ووضع يده حول خصرها يطوقه فانحنى عليه ، وتساقط شعرها الفزير يغطي وجهه ، وسالته ، لماذا لم يبيح لها بحبه من قبل ، مع انها كانت تحبه طيلة الوقت .. انها لم تكن خجلى ، ولا جامدة ، ولا نائية ، بل كانت رائعة في ضمها وحنانها ، تماما كايامها الخاليات مع جاك جيلبرت .. وقد

احبها كثيراً ، اكثر من جين هارلو ، مع انها لم تزره الا مرة واحدة ، بينما زارته تلك مرات ومرات . . فهل كان ما وقع ليلة امس حلما من هذه الاحلام .

وقال يحدث نفسه . . انه قد لا يكون حلما . ففي وسمك ، في هذه اللحظة بالذات ان تمد يدك ، وان تمسك بماريا . . ولكنك تخشى ان تقوم بذلك ، مخافة ان لا تعثر عليها ، وان يكون كل ما رأيته منها حلما في حلم ، كاحلامك عن كواكب السينما ، او عن صديقاتك القديمات عند ما يعدن اليك في الحلم ، لينمن الى جانبك على الارض العارية ، او على القش في العنابر والاسطبلات ، او في القابات والمرائب والسيارات الشاحنة والجبال انهن يأتين جميعا اليه في فراشه ، فيراهن امتع والذمما عرفهن في عالم الواقع والحقيقة . . اذن لم تخش ان تمسك بها ؟ الألك لا تريد ان تفيق من الحلم الذي عشت فيه :

ووجد اخيرا الجراحة في نفسه ، فخطا بسرعة خلفها ووضع يده على ذراعها ، فأحس تحت أصابعه بنعومة هذا الذراع تحت قماش القميص . ونظرت اليه فابتسمت . .

وقال . . هالو ! ماريا !

– هالو يا انكليزي . . وراى وجهها الأسمر الرائع وعينيها الرماديتين ، وشفتيها المكتنزتين وقد انفرجتا عن ابتسامة ساحرة ، وشعرها المقصوص الذي احرقته الشمس ، ورفعت رأسها اليه وابتسمت من جديد . . كلا انه ليس في حلم . انه يعيش في الحقيقة .

وغدوا الآن على مرأى من معسكر ايل سوردو ، الذي يقبع وراء الضويز . . انه صف طويل من الكهوف المتقاربة . ولكن هناك كهفين متقاربين ، تخفيهما الاشجار عن الانظار ، ان المعسكر ، يفضل مكان بابلو .

وكانت بيلار تسأل جواكين – وكيف قتلوا اسرتك ؟

– المسألة بسيطة يا امرأة ، لقد كانت اسرتي من اليساريين كغيرهم من اهل فالادوليد . وعندما شرع الفاشيون في تطهير المدينة ، قتلوا اولاً ابي باطلاق النار عليه ، اذ اقترع الى جانب الاشتراكيين . ثم اطلقوا النار على امي ايضا فقتلوا ، لانها اقترعت مع الاشتراكيين ، وكانت المرة الاولى التي تقترع فيها . ثم قتلوا زوج احدى الاختين ، فقد كان عضواً في نقابة سائقي الترام ، وكان من الواضح انه لا يستطيع ان يصبح سائقاً للترام الا اذا اصبح عضواً في النقابة ، ولكنه لم يكن يعمل في السياسة ، فقد عرفته خيراً معرفة . واني لا اعتقد انه كان قليل الحياء ، ولم يكن رفيقاً طبياً . ثم ارتحل زوج الاخت الاخرى ، الذي كان يعمل في الترام ايضا ، الى الجبال كما رحلت انا فخيّل اليهم انها تعرف مكانه ، ولكنها لم تكن تعرف ، فقتلوا لانها لم تخبرهم بمكانه .

وقالت بيلار . . يا لهم من برابرة غلاظ القلوب ، اين ايل سوودو ؟ اني لا اراه .

– انه هنا ، قد يكون في الداخل . . اسمعي يا بيلار . . وانت يا ماريا ، اغفرا لي انني كدرتكما بالحديث عن الاسرة ، فانا اعرف ان لكل منا متاعبه وان من الخير ، عدم الحديث فيها . .

فردت عليه بيلار . . ولكن كان عليك ان تتحدث ، فقد خلقنا لتتعاون ومجرد الاصغاء دون عمل اي شيء ، سلبية في العون .
– ولكن حديثي قد اساء لماريا ، فلها مشاكلها الخاصة .

– فقالت ماريا – ان دلوي كبير بحيث يتسع الى ماسيك ايضا . . آسف يا جوالين وارجو ان تكون اختك بخير .

– لا زلت بخير ، ويبدو انهم لا يكثرون من الاساءة في معاملتها .

وقال روبرت – وهل ثمة اخرون في اسرتك ؟

– لا هذه هي اسرتي ، لم يبق منها الا انا وهي ، وذلك الصهر الذي

مضى الى الجبال واعتقد انه مات .

فقلت ماريا .. قد يكون بخير ، وقد يكون مع احدى العصابات فسي
جبال اخرى .

– لقد مات بالنسبة الي ، فهو لم يكن يحسن تصريف شؤونه ، وكان
يمتحن قيادة حافلات الترام ، وهي ليست بالمهنة التي تؤهله لحياة الجبال
واشك في انه يستطيع البقاء اكثر من عام لا سيما وقد كان مريضا في صدره
والقت ماريا بيدها على كتفه وهي تقول .. ولكن قد يكون ما زال
على قيد الحياة .

– بالتاكيد يا فتاة ولم لا ؟

وبينما كان الغلام واقفا ، تقدمت منه ماريا وطوقت عنقه بذراعيها
وقبلته ، وادار جواكين راسه ، فقد سالت عبراته .

وقالت ماريا – انني اقبلك كاخ لي .

وهز الغلام راسه وهو يبكي دون ان ينبس ببنت شفة .

ومضت ماريا تقول .. انني اختك ، وانني احبك ، وان لك اسرة ،
فكلنا اسرتك .

وقالت بيلار .. حتى الانكليزي .. اليس كذلك يا انكليزي ؟

فرد روبرت – اجل ، كلنا اسرتك يا جواكين .

وقالت بيلار – انه اخوك .. اليس كذلك يا انكليزي ؟

ووضع روبرت يده على كتف الغلام وقال .. كلنا اخوة .. وهز الغلام
راسه ثم قال .. لقد خجلت لانني تحدثت ، ان الحديث عن مثل هذه
الامور يشق على الجميع ، وانه ليخجلني ، انني ابمت في نفوسكم الكتابة .

وقالت بيلار بصوتها العميق الجميل .. لعنة الله على خجلك . ولو
عادت ماريا الى تقبيلك ، لشرعت انا في تقبيلك ايضا ، فقد اتقضت سنوات
عدة منذ قبلت احد المصارعين ، حتى ولو كان فاشلا من طرازك ، اجل اني

احب ان اقبل مصارها فاشلا اقلب الى شيومي ، أمسكه يا انكليزي ، حتى
استخلص قبلة رائحة منه .

فقال الفلام ، وقد ادار رأسه بسرعة .. اتركني .. انني على ما يرام ،
وانا خجل من نفسي .

ووقف الفلام يحاول السيطرة على مشاعره . ووضعت ماريا يدها في يد
روبرت . ووقفت بيلار - وقد وضعت يدها ، على خاصرتيها ، تتطلع الى
الفلام بعين ساخرة الان .. وقالت .. وعندما اقبلك ، لن تكون قبلة اخت
لاخيها ، فانا لا اؤمن بخرافة قبلة الاخت .

- لا حاجة بك الى السخرية مني ، قلت لك انني على ما يرام ، وآسف
لانني قد تحدثت .

فقال بيلار .. اذن دعنا نمضي لرؤية الرجل المعجوز . فقد اتعبتني
هذه العواطف . ونظر اليها الفلام فجأة ، وفي نظرتة ، صورة الانسان
الجريح ..

فقال بيلار .. لم اعن عواطفك ، بل عواطفي انا . يا لك من انسان
رقيق لا تصلح لان تكون مصارها .

- كنت فاشلا . ولا حاجة بك الى الاصرار على ذلك .

- ولكنك ستعود اليها في يوم ما .

- اجل ، ولم لا ؟ فالقتال ، يكسب الانسان ذخيرة يوفرها .. والحرب
تهيء فرص العمل للكثيرين ، والدولة هي التي تشرف عليها . ومسئ
المحتمل انني لن اعود الى الشهور بالخوف .

- قد لا تخاف ، قد لا تخاف !!

وقالت ماريا - لماذا تتحدثين اليه يا بيلار ، بهذا الشكل الوحشي . انني
احبك كثيرا ولكن تصرفك ينطوي على قسوة .

قد اكون قاسية .. ولكن اسمع يا الكليزي ، اندري ما ستقوله لايسل
سوردو ؟

- اجل .

- انه رجل قليل الكلام ، خلافا لي ولك ولهذه الفتاة الجريئة العاطفية .

وقالت ماريا غاضبة - لم تتحدثين على هذا النحو ؟

- لا ادري .. ماذا تظنين انه السبب .

- لا ادري .

- احيانا ، قد اشعر بالتمب من امور عدة . افهمت ؟ ولعل من هذه الامور ان يبلغ الانسان الثامنة والاربعين .. هل سمعت ؟ نمائية واربعون عاما ووجه قبيح . ثم ياتي هذا المصارع الفاشل ذو الميول الشيوعية ، فيبدو على وجهه الامتعاض والفرع ، عندما احده ساخرة بانني قد اقبله

فقال الغلام - انك تكذبين يا بيلار ، اذ لم تري فرعا في وجهي .

- من يقول اني اكذب .. لعنة الله عليكم جميعا .. آه ها هو .. هولاء

سانتياغو كيف حالك ؟

كان الرجل الذي تحدثت اليه بيلار قصيرا وبدينا ، ذا بشرة سمراء داكنة وشعر اشيب ، وعينين رماديتين واسعتين ، وانف معقوف ، وشفة عليا غليظة وفم كبير . كان حليق الذقن ، وقد خطا نحوهم ، قادما من الكهف ، وعلى الرغم من حرارة الطقس ، فقد كان يرتدي ملابس ثقيلة . ومد يده الضخمة الى بيلار .. وهو يقول .. « هولاء .. يا امرأة .. » ثم حيا روبرت وصانحه ، متطلعا الى وجهه بدقة وامعان . ورأى روبرت ان عينيه تشبهان عيني القطعة في سفارهما والشعبان في استطالتهما .. ثم حيا ماريا وقد ربت على كتفها .

وقال يسأل بيلار .. هل اكلت ؟ فهزت رأسها نفيا .

ثم اتجه الى روبرت يسأله .. هل اكلت ؟ او تود ان تشرب ؟

- اجل شكرا .

وقال ايل سورودو - حسنا .. وبسكي ؟

- الديك ويسكي ؟
- انكليزي ؟ لا روسي ؟
- اميركاني .
- عندنا بعض الامريكان هنا .
- كثر عددهم الآن .
- هذا اقل سوءا . امن الشمال ام الجنوب ؟
- من الشمال .
- مثل الانكليز .. متى ستنسف الجسر ؟
- او تعرف عن الجسر ؟
فطاطا ايل سورددو راسه مؤيدا .
وقال ايل سورددو .. وبابلو ؟
فهزت بيلار راسها .. وقطب ايل سورددو جبينه .
وقال ايل سورددو .. وقد قطب ثانياة ، موجها حديثه الى ماريا ، وقد
اخرج من جيبه ساعة في بيت من الجلد .. الذهبي .. وعودي بعد نصف
ساعة .
واشار لهما ان يجلسا على جذع شجرة اعد كمقعد ، ثم تطلع الى جواكين
مشيرا الى الطريق التي جاؤوا منها .. فقالت ماريا .. ساهبط مع
جواكين ثم اعود .
ودلف ايل سورددو الى الكهف ، ليعود منه حاملا زجاجة من الويسكي
وثلاثة كؤوس ، وجرة ماء . فوضع الزجاجة والكؤوس على جذع الشجرة ،
وجرة الماء على الارض .
وقال وهو يقدم الزجاجة الى روبرت .. ليس عندنا ثلج ..
فقالت بيلار - ليست بي حاجة الى الثلج .
وقال ايل سورددو وقد قطب جبينه من جديد . **كان فتح** ليلة امس

على الارض ، ثم ذاب ، وصل الثلج الى هنا ، وما زال موجودا هناك . .
واشار الى قمة الجبل البعيد .

واخذ روبرت يعد كاسا كبيرا له ، سرعان ما اترعه بالماء البارد ، وصب
ايل سورودو لنفسه كاسا اخرى ثم قال موجها حديثه الى بيلار . . .
اتريدين نبذا ؟

- لا ، ماء .

- خلدي . انه ليس جيدا ، لقد عرفت عددا من الانكليز ، لا يشربون
الا الويسكي .

- واين عرفتهم ؟

- من المزرعة ، كانوا اصدقاء لصاحبها .

- من اين اتيت بالويسكي ؟

فقال ولم يستطع سماع السؤال . . ماذا ؟

وقالت بيلار . . عليك ان ترفع صوتك ، في الاذن الثانية .

واشار ايل سورودو الى الاذن الصالحة . . وقطب جبينه .

وصرخ روبرت . . من اين اتيت بالويسكي ؟

- صنعته . . كلا ، انني امزح ، ياتينا من لاغرانجا ، سمعت ليلة امس
ان خبيرا انكليزيا بالالفام قد وصل ، حسنا ، هل انت سعيد ، او تريد
ويسكي . من اجلك ، اتجه ؟

- احبه كثيرا ، انه من نوع جيد .

انا راض ، لقد جاء في ليلة امس مع الاخبار .

- اية اخبار ؟

- حركات واسعة للجنود .

- اين ؟

- في سيفوفيا ، هل رأيت الطائرات ؟
- اجل .
- اليسمت دلانل سبنة ؟
- طبعا .
- وحركات الجنود ؟
- حركات كبيرة بين فيلا كاستين وسيفوفيا ، على طريق فلادوليد ،
وبين فيلا كاستين وسان رافائيل ، حركات واسعة
- ماذا تعتقد ؟
- هل نحن في طريق اعداد شيء ؟
- ربما .
- انهم يعرفون ، ويستمدون كذلك .
- هذا ممكن .
- لم لا تنسف الجسر الليلة ؟
- الاوامر .
- اوامر من ؟
- القيادة العامة .
- هكذا .
- وقالت بيلار . . وهل توقيت النسف هام ؟
- كل الاهمية .
- ولكن اذا كانوا ياتون بالقوات ؟
- سأبعث انسيلمو بتقرير عن الحركات وحشد الجنود ، انه يرقب
الطريق .
- فقال سوردو متسائلا . . الديك انسان على الطريق ؟
- م. پدر روبرت چوردان ان كان قد سمع ، فمن الصعب ان تعرف دائما

- الحقيقة مع رجل اسم .. وقال .. اجل .
- ولي رجل يرقب الطريق ايضا ، لم لا تنسف الجسر الان ؟
- لا تعجبني ، لا تعجبني هذه الاوامر .
- ولا انا .
- وهز ابل سوردو رأسه ورشف جرعة من الويسكي وقال .. وماذا تريد مني ؟
- كم رجلا عندك ؟
- ثمانية .
- تقطع اسلاك الهاتف ، والهجوم على المركز القائم عند بيت مصلي الطريق واحتلاله ثم الاندفاع نحو الجسر .
- هذا سهل .
- ساكتب لك الخطة .
- لا تزعج نفسك . وبابلو ؟
- سيقطع اسلاك الهاتف في اسفل الجبل ، ثم يهاجم المركز عند الطاحونة ويحتلها ويندفع الى الجسر .
- وقال بيلار .. وماذا بعد ذلك بصدد الانسحاب ؟ نحن سبعة رجال وامرأتان وخمسة جياذ . وانتم ؟ .. وصوخت الكلمة الاخيرة في اذن سوردو
- ثمانية رجال واربعة جياذ . تنقصنا الخيل .
- فقال بيلار .. سبعة عشر رجلا وتسعة جياذ . ولا اعتبار لوسائط النقل .
- ولم يعلق سوردو بكلمة .
- وقال روبرت وهو يصرخ في اذن سوردو - اليس ثمة مسن سبيل للحصول على جياذ ؟

- لقد حصلنا في سنة عى. اربعه . وست برید ثمانية غدا .
- فقال دوبرت - اجل . هذا اذا عرفت انك ستفادر هذه الاماكن ، وانه لم تعد بك حاجة للحذر فيها . اجل لم تعد حاجة الى الحرص . اوليس في وسعك ان تشن هجوما وتسرق ثمانية جياذ ؟
- ربما ، قد نوفق بعدد اكبر ، او لا نوفق بجواد واحد .
- او معك بنديه اوتوماتيكية ؟
- فهز سوردو راسه مؤيدا .
- اين هي ؟
- في اعلى الجبل .
- ما نوعها ؟
- لا اعرف الاسم . لها خزانة للعبارات .
- وكم عيارا عندك لها ؟
- خمسة صناديق .
- ايعرف احد رجالك استعمالها ؟
- انا ، بعض الشيء ، ولكنني لا استعمالها كثيرا ، اذ لا اريد ان احدث ضجة في هذه الاماكن ، ولا اريد ان استنفذ العتاد دون سبب .
- ساراها فيما بعد ، الديك قنابل يدوية ؟
- لدي الكثير منها .
- وكم عيارا لديك لكل بندقية ؟
- لدي الكثير .
- كم ؟
- مائة وخمسون ، بل واكثر .
- وما الموقف بالنسبة للآخرين ؟

- لاي شيء ؟
- لتكون لديهم القوة الكافية لاحتلال المواقع ، وحماية الجسر بينما اتولى نفسه ، يجب ان يكون لدينا ضعف العدد .
- لا تقلق من احتلال المراكز ، في اي ساعة من النهار ؟
- عند الفجر .
- لا تقلق .
- فقال روبرت .. في وسعي ان استخدم عشرين آخرين ، لتأكد من النتيجة .
- ليس لدينا عدد طيب . اتريد اناسا لا يمكن الاعتماد عليهم ؟
- لا . كم رجلا يمكن الركون اليهم ؟
- ربما اربعة .
- لماذا عددهم قليل ؟
- الافتقار الى الثقة .
- للامساك بالجياد ؟
- اجل يجب ان تتوافر الثقة للامساك بالجياد .
- يودي ان نحصل على عشرة آخرين .
- اربعمة .
- قال لي انسيلمو ان ثمة مائة رجل في هذه الجبال .
- انهم ليسوا بصالحين لشيء ...
- وقال روبرت يحدث بيلار .. وقد ذكرت انت ان ثمة ثلاثين رجلا يمكن الركون اليهم .
- فقال بيلار وهي تصرخ في اذن سورودو .. وما رايتك في رجال ايلياس ؟
- فهز راسه وقال .. لا يصلحون .

وسال روبرت ، ، اوليس في وسعك ان تحصل على عشرة . .
فهز راسه وقال . . اربعة فقط .

وقال روبرت يساله . . ورجالك ؟ هل هم صالحون ؟
فهز سوردو راسه موافقا . وقال . . في حدود الخطر . . هل هذا سيء ؟
- ربما كان سيئا .

- سيان عندي . فاربعة بركن اليهم ، خير من عدد كبير لا نفع فيه .
وفي هذه الحرب يكثر الطالحون ، ويقل الصالحون . . وفي كل يوم يقل عدد
هؤلاء . . وكيف بابلو ؟
فقالت بيلار . . انه يسوء يوما بعد آخر .

وهز سوردو كتفيه . . ثم قال . . اشرب ، ساتي برجالي ، واربعة
آخرين فيكون المجموع اثني عشر . وسنبعث الليلة في الموضوع كاملا . .
وعندي ستون قضيبا من المتفجرات ، هل تريدها ؟
- اية نسبة ؟

- لا ادري . من النوع العادي . ساريكها .

- سننسف الجسر الصغير بها . هذا رائع . اذن ستاتي الينا الليلة ؟
هاتها معك .

وعلى الرغم من عدم وجود اوامر لدي بصدد الجسر الصغير ، فيجب
ان ننسفه .

- ساتي الليلة ، ثم نذهب لاصطياد الخيول .
- وما نسبة املك في الجياد ؟
- مديضا . والان كل . . .

وسامل روبرت نفسه ، ترى هل هذه هي طريقته في الحديث الى الجميع
او انه يستخدمها مع الاجانب فقط في محاولة لفهامهم .

وقالت بيلار وهي تصرخ في اذن ايل سوردو . . واين سنمضي بعد ان

ننجز هذا العمل ؟

فهز الرجل كتفيه .

وقالت المرأة .. يجب ان نرتب هذا ايضا .

فقال سوردو - طبعاً ، ولم لا ؟

- لا ريب ان هذا في منتهى السوء ، وطنينا ان نحسن الاعداد .

- اجل ، يا امرأة ، ما الذي يقلقك ؟

- كل شيء .

- لقد اختلفت مع بابلو ..

وقالت بيلار - واين تمتد اننا يجب ان نمضي ؟

- اين ؟

- اجل اين ؟

- هناك اماكن عدة ، اماكن عدة . اتعرفين غريدوس ؟

- هناك عدد كبير من الناس فيها . ولا ريب انهم سيظهرون جميع هذه

الاماكن عندما يتوفر لهم الوقت .

- اجل ولكنها بلاد كبيرة ، ومتوحشة .

وقالت بيلار .. سيكون من الشاق علينا الوصول اليها .

- كل شيء صعب . في وسعنا ان نصل الى غريدوس كما نصل الى

اي مكان آخر . نرحل في الليل . فقد غدا المكان هنا خطراً . لا ريب في

انها معجزة ، ان نظل هنا طيلة هذا الوقت . وغريدوس بلاد اكثر أمناً

من هنا .

- او تعرف اين اريد ان اذهب ؟

- اين ؟ الى براميرا ؟ انها لا تصلح .

- لا ، ليس الى براميرا . اريد ان اذهب الى الجمهورية .

- هذا ممكن .

– اويذهب رجالك الى هناك ؟

– اجل ، اذا طلبت اليهم ذلك .

وقالت بيلار – اما بصدد رجالنا ، فلا ادري ، وقد لا يرغب بابلو فسي الذهب على الرغم من انه قد يكون هناك ، اكثر امنا . انه اكبر سنا من ان يطلبوه الى الجندية الا اذا احتاجوا طبقات جديدة . وبالطبع لن يرغب العجزي في الذهب . اما الآخرون فلا اعرف عنهم .

– لقد مضى عليهم وقت طويل هنا ، حتى انهم لم يعودوا يدركون الخطر

فقال روبرت – اما بعد الطائرات اليوم نسيرون الخطر اكثر فاكثر . وانا اعتقد انكم ستستطيعون تحقيق اعمال اكبر في غريدوس .

وقال ايل سوردو ، وقد خلت لهجته من الود . . . ماذا ؟

– في وسعكم ان تشنوا غارات اكثر من هناك .

– اذن فانت تعرف غريدوس ؟

– اجل ، في وسعكم مهاجمة القطارات من هناك . وان تقطعوا الخط الحديدي كما تقطعه نحن الى الجنوب من السيترامادورا . ان العمل هناك خير من العودة الى الجمهورية واجدى .

وكان سوردو وبيلار ، قد قطبا جبينيهما وهو يتحدث ، واخذ الواحد منهما يتطلع الى الآخر .

وقال سوردو يسأله – اوتعرف غريدوس حقا ؟

– طبعا ، بكل تأكيد .

– واين ذهبت ؟

– الى ما فوق باركودي افيللا . ان الاماكن هناك خير منها هنا . والغارات ممكنة على الطريق الرئيسي وعلى السكة الحديدية بين بيجار وبلازينسيا .

ولكنها شاقفة .

- لقد عملنا في ظروف اكثر صعوبة ضد السكة في ايسترا مادورا

- من انتم ؟

- جماعات الانصار في السيترامادورا .

- وهل انتم كثر ؟

- نحو من اربعين .

وقالت بيلار تساله - وهل كان ذلك الرجل ذو الاعصاب المنهارة والاسم

الغريب من هناك ؟

- اجل .

- واين هو الان ؟

- لقد قلت لك انه مات .

- وهل انت من هناك ايضا ؟

- اجل .

وقالت بيلار تساله - او فهمت ما اعنيه ؟

واخذ روبرت جوردان يسائل نفسه .. هل اخطأ في حديثه . لقد
تحدث للاسبانيين ان في وسعهم ، كافر اب ، ان يفعلوا احسن مما يفعلونه
هم ، مع ان القاعدة تقضي بان لا يتحدث الغريب عن مغامراته وكفاءاته ..
ومضى يقول .. كان علي ان اتملق لهم ، وان اصانهم ، وبدلا من ذلك .
فانا ارشدهم الى ما يجب عليهم ان يفعلوه .. وهذا ما اغضبهم .. وقد
يتغلبون على سورة غضبهم او لا يتغلبون . حقا انهم اجدى وانفسع في
غريدوس منهم هنا .. والدليل على ذلك انهم منذ حادث القطار الذي نظمته
كاشكين لم يقوموا باي عمل . ولم يكن الحادث كبيرا .. حقا لقد كلف
الفاشين قاطرة وعددا من الجنود القتلى ، ولكنهم يتحدثون عنه وكأنه اكبر
انتصار في الحرب . انهم قد يخجلون من الذهاب الى غريدوس . اجل ،
وقد يطرودوني من هنا ايضا .. ان المنظر لا يبدو مشرقا بالنسبة الي .

وقالت بيلار .. اسمع يا انكليزي ! كيف حالة اعصابك ؟

- حسنة للغاية .

- كان الخبير الاخير الذي ارسلوه الينا على الرغم من مهارته وتفوقه في عمله نائر الاعصاب .

- لدينا بعض نائري الاعصاب .

- انا لا اقول انه كان جباناً ، فقد كان يتصرف تصرفاً ممتازاً . ولكنه كان يتكلم بطريقة غريبة سريعة .. او ليس صحيحاً يا سانتياغو ، ان الديناميتي الاخير الذي كان معنا في القطار ، كان انساناً غريباً ..

فقال الرجل الاصم .. اجل لقد كان غريباً .

نصرخ روبرت .. لقد مات .

وقال الاصم يسأله - وكيف وقع ذلك ؟

- لقد قتلته . كان مشغولاً بالجراح ، لا يستطيع السير ، فاطلقت النار عليه .

وقالت بيلار - لقد كان دائم الحديث من هذه الضرورة . كانت اللعنة التي ركبته دائماً .

فقال روبرت .. اجل كان دائم الحديث عن هذه النهاية .. وكانت اللعنة التي لازمته .

وقال سورودو يسأله .. اكنتما في حادث قطار ؟

- اجل كنا نعود من حادث قطار . لقد نجحنا فيه . وفي طريق الاوبة ، التقينا دورية فاشية ، فهربنا ، واطلقوا النار علينا فاصابوه في ظهره . وقد واصل السير مسافة طويلة ، ولكنه لم يستطع المضي في السير بسبب الجرح . وكان خائفاً من ان اخطفه وحيداً فيقع في ايديهم ، فقتلته .

فقال ايل سوردو - هذا ليس بالامر السيء .

وقالت بيلار تساله - وهل انت واثق من اعصابك ؟

- اجل . انا واثق من ان اعصابي على ما يرام . واعتقد اننا عندما ننتهي من حادث الجسر ، فمن الخير ان تمضوا الى غريديوس .

وما كاد ينطق بهذه العبارة ، حتى بدأت المرأة تشتتم وتسب ، وقد انهالت عليه بسيل من اللعنات والسباب . وضحك ايل سوردو من المنظر ، وظل يرقب بيلار وهو فرح مبتهج بينما واصلت المرأة شتائمها . وادرك روبرت انه كسب الجوازة . وتوقفت بيلار عن السباب . ودنت من جرة الماء ، واخذت بمض الماء بهدوء .. وقالت .. آذن اغلق فمك يا انكليزي مما يجب ان نفعله فيما بعد . ففي وسمك ان تمود انت الى الجمهورية ، وان تاخذ معك فتاتك ، وتتركنا نحن هنا نقرر في اي جزء من الجبال سنموت .

فقال ايل سوردو .. في أي جزء سنميش يا بيلار ، لا نموت ، هدئي من روعك .

- نميش فيه ، ونموت فيه . ففي استطاعتي ان اري النهاية تماما . انني احبك يا انكليزي ، ولكن اغلق فمك ، ولا تتحدث عما يجب ان نفعله بعد ان تنتهي من مهمتك .

- هذا شأنكم ، ولا علاقة لي به ، ولن اتدخل فيه .

- ولكنك تدخلت . خذ هاهرتك الصغيرة المجزوة الشعر ، وامض الى الجمهورية ولكن لا تفلق بابها في وجوه الاخرين الذين هم ليسوا اغراباعنها ، والذين كانوا يحبونها ، عندما كنت انت ترضع من ثدي امك .

وكانت ماريا ، قد عادت في تلك اللحظة وسمعت الجملة الاخيرة التي قالتها بيلار بصوت مرتفع موجهة كلامها الى روبرت جوردان . وهزت ماريا راسها بعنف وهي تشير الى روبرت محذرة اياه . ورات بيلار ، روبرت ينظر الى الفتاة ، ويتسم لها . فالتفتت اليها تقول .. اجل لقد قلت انك عاهرة ، وانا اعني ما اقول . وافترض انكما ستذهبان معا الى

فالانسيا ، بينما نجتز نحن كالماعز في جبال غريديوس .

وقالت ماريا - انني عاهر ، اذا شئت ذلك يا بيلار . وانني اوافقك على كل ما تقولينه لي ، ولكن هدئي روعك ، فماذا دهالك ؟

وجلست بيلار على المقعد ، وقالت بصوت هادىء خلا من كل غضب . .
لا شيء . وانا لا ادعوك عاهرة ، ولكن لي رغبة عارمة في الذهاب الى الجمهورية .

فقالت ماريا . . في وسعنا ان نذهب اليها جميعا .

وقال روبرت . . ولم لا ، ما دمت لا تحبين غريديوس .

وقطب سورددو جبينه وهو ينظر اليه . . ثم قالت بيلار . . حسنا سنرى . اعطني كأسا من اي شراب نادر . لقد جف حلقي من الغضب .
سنرى . سنرى ما يحدث .

وقال ايل سورددو شارحا . . ارايت ايها الرفيق . . انه الصباح ، الذي ياتي بالمتاعب . . قال هذا في لهجة اسبانية سليمة ، وكان يتطلع في عيني روبرت بهدوء ، لا ينطوي على أي شك أو ريبة . . ثم مضى يقول . . انا افهم ما تريد ، واعرف ان المراكز يجب ان تزال من الوجود ، وان الجسر يجب ان يفتى تفتية كاملة وانت تقوم بعملك ، انني افهم هذا اصدف الفهم ، في وسعنا ان نفعل هذا عند الفجر او قبيله .

وقال روبرت . . اجل . . ثم تطلع الى ماريا يقول . . ابعدني قليلا ارجوك ؟ ومضت الفتاة بعيدة عن مدى السماع وجلست وقد شبكت يديها فوق كاحليها ، وقال سورددو ارايت ؟ ليس في هذا اية مشكلة ؟ ولكن الرحيل بعد ذلك ، والخروج من هذه المنطقة في وضح النهار ، يؤلفسان مشكلة مستمصة .

لرد روبرت - واضح ، لقد فكرت في الموضوع ، والنهار هو النهار

بالنسبة الي ايضا ، ولكنك واحد ، ونحن كثيرون .

فقاتل بيلار - ثمة احتمال ، بان تعود الي معسكراتنا ، وان نرحل عند حلول الظلام .

فرد ايل سورودو بقوله . . ولكن هذا خطر ايضا ، بل لعله اكثر خطورة.

وقال روبرت - في وسعي ان ارى ما سيحدث .

فقال ايل سورودو - ان الانتهاء من عملية الجسر في الليل امر سهيل للغاية . ولكنك تشتراط ان تتم عند الفجر ، وهذا الاشتراط ، هو الذي يسبب نتائج خطيرة .

- اعرف ذلك .

- الا تستطيع انجاز المهمة في الليل ؟

- سأقتل اذا عملت ذلك .

- ولكن قد نقتل جميعنا اذا عملتها في النهار .

- هذا ليس بالامر المهم لدي اذا نسف الجسر ، ولكنني ارى وجهة نظرك او ليس في وسعك ان تؤمن التراجع في وضع النهار ؟

- حتما ، سنضع خطة لمثل هذا التراجع ، ولكنني اريد ان اشرح لك لماذا يفرق انسان في عمله ، فيثور اخر ، انك تتحدث عن الذهاب الي غريدوس وكأنه مناورة عسكرية ، ان الوصول الي غريدوس معجزة من المعجزات .

ولم يفه روبرت بينت شفة . . ومضى الرجل الاصم في حديثه . . اسمع ، لقد تحدثت كثيرا ، ولكن هذا هو السبيل ليفهم احدنا رفيقه ، اتنا نعيش هنا بمعجزة ، ان المعجزة تقوم في كسل الفاشيين وبلادتهم ، وهو ما قد يتخلصون منه في الوقت المناسب ، وبالطبع ، نحن حذرون كل الحذر ، ولا

نشير اية متاعب او مشاكل في الجبال .

- انا اعرف هذا .

- اما الآن ، وبعد عملية الجسر ، فعلينا ان نمضي ، فعلينا ان نفكر كثيرا في طريقة ذهابنا .

- هذا واضح .

- اذن دعنا ناكل الآن ، لقد تحدثت كثيرا .

- وقالت بيلار - لم اسمعك في حياتي تكثر من الحديث كما اكثرث اليوم فهل هذا هو السبب ؟ واشارت بيدها الى الكأس .

- لا . انه ليس الويسكي هو الذي يتحدث . فهو لا يحملني ابدا على الاغراق في الحديث .

فقال روبرت - انني اقدر كل التقدير . عونك واخلاصك ، كما اقدر الصعوبة التي سيثيرها توقيت نصف الجسر .

- لا تقل هذا . فنحن هنا لنفعل ما نستطيع ان نفعله . ولكن هذا الموضوع معقد .

- وهو سهل كل السهولة على الورق . فعلى الورق ، يجب ان ينسف الجسر في اللحظة التي يبدأ فيها الهجوم ، حتى لا تمر وحدات جديدة على الطريق . اليس الموضوع على درجة كبيرة من السهولة ؟

- انهم يمهدون الينا بتنفيذ اشياء على الورق . انهم يريدون ان نعمل وان ننفذ على الورق .

- ولكن الورق لا ينزف الدماء .

فقال بيلار - ولكنه نافع ومجد . ان ما اريده هو ان استخدم اوامرك

لهذا الغرض .

فرد روبرت - وانا كذلك . ولكن ليس في وسعك ان تفوزي بحرب
على هذا الشكل .

- لا ، حتما لا . ولكن اتعرف ما اريد .

فقال ايل سورديو - تريدان ان تذهبي الى الجمهورية . . اذن علينا ان
نربح هذه المعركة ، وستفقدو المنطقة كلها جزءا من الجمهورية .

- حسنا . والآن ، بالله عليكم ، دعونا ناكل .



١٢

تركوا مصكر ايل سورردو ، ومضوا في طريق العودة . وقد رافقهم ايل سورردو الى المركز السفلي في حدود مصكره .. ثم قال .. وداعا . والى اللقاء في المساء .

فقال روبرت .. وداعا .. وبدا الثلاثة يهبطون الطريق . والرجل الاصم ، يقف على المرتفع ، يرقبهم ، وهم يهبطون . وادارت ماريا وجهها اليه ، تلوح له بيدها ، فرد لها ايل سورردو التحية على طريقة رفع الذراع ، التي يتبعها الاسبانيون في التحيات التي لا تمت الى العمل بصلة . وكان طيلة وجبة الغداء ، كثير التهذيب معهم ، وكثير العناية بالاصفاء اليهم ، وكان يتحدث الى روبرت سائلا اياه عن الاحوال في الجمهورية . ولكن كان مسن الواضح ، انه يريد الخلاص منهم .

وعندما فارقه .. قالت بيلار ، حسنا يا سانتياغو .

فقال الرجل الاصم .. ليس ثمة من داع لكلمة حسنا يا امراة . فالامر على ما يرام ولكنني كنت افكر .

وقالت بيلار .. وانا كنت افكر ايضا ...

وهكذا بدأوا يهبطون الجبل ، عبر اشجار الصنوبر ، وظلست بيلار ، متمسكة باهداب الصمت . وسكت روبرت كما سكتت ماريا عن الحديث ، وظلوا يغدون السير حتى انتهت الطرّيق من الهبوط في الوادي المدغل ، لتعود الى الارتفاع ، وتصل الى المرج السامق .

وكان الطقس شديد الحرارة ، في ذلك اليوم القانظ من ايام ايار ، وعندما وصلوا في ارتفاعهم نصف المسافة ، توقفت بيلار ، فوقف روبرت ونظر اليها فرأى العرق يتصبب منها . وخيل اليه ان وجهها الاسمر يبدو شاجبا وان بشرتها ، فقدت نقاءها ، وان هاليتين سوداوين قد اطلتا تحت عينيها . . فقال . . لنسترح هنيهة . . اننا نسرع السير كثيرا .

فقلت - لا ، لنواصل السير .

وقالت ماريا - استريح يا بيلار ، فانت تبدين تعب .
- اغلقي فمك . فلم يطلب احد نصيحتك .

وواصلت الارتفاع ، ولكنها ما كادت تصل الى القمة ، حتى اضحت تنفسن تنفسا ثقيلا ، وغطى العرق المتصبب وجهها ، ولم يعد ثمة شك في شحوبها .

وقالت ماريا . . اجلسي يا بيلار ، ارجوك اجلسي قليلا .

- حسنا سأجلس ، وجلس الثلاثة تحت شجرة صنوبر ، واخذوا يتطلعون عبر المرج الى قمم الجبال ، المتعالية في السماء ، وقد تكلمت هاماتها بالثلوج ، تنعكس عليها الان شمس الظهيرة .

وقالت بيلار - يا للثلوج من قذارة ومع ذلك ، فهي تبدو جميلة رائعة . . اجل انها حلم جميل . . والتفتت الى ماريا تقول . . آسف يا حلوة ، انني كنت قاسية معك ، ولا ادري ماذا جثم على نفسي اليوم ، يسيطر على شعور شرير .

وردت ماريا تقول . . انا لا اهتم بما تقولينه وانت غاضبة ، وكثيرا ما تفضيين .

- ولكن ما أحس به اسوأ من الغضب .

- هل انت مريضة ؟

- لا تعالى يا حبيبتي ، وضعى راسك في حضني .

ودنت ماريا منها ووسدت رأسها على ذراعيها في حضنها ، ورفعت وجهها الى بيلار تبتسم ، ولكن هذه ظلت تنظر الى قمم الجبال البعيدة ، وربتت على راس الفتاة دون ان تنظر اليها ، ثم مرت باصبعها على جبهتها ، وحول اذنها الى منبت الشعر في عنقها ، وقالت . . في وسعك ان تمتلكها بعد قليل يا اتكليزي . . وكان هذا يجلس وراءها .

ف قالت ماريا . . لا تتحدثني على هذا الشكل .
فردت بيلار ، وهي لا تنظر الى اي منهما . . اجل في وسعه ان يمتلكك . . لم ارجب قط فيك ، ولكنني غيورة .

ف قالت ماريا - بالله عليك ، لا تتحدثني على هذا النحو يا بيلار .

- اجل في وسعه ان يمتلكك ، ولكنني غيورة جدا .

- ولكنك يا بيلار ، اوضحت لي ، ان ليس بيننا اي شيء .

- ثمة دائما امور من هذا النوع ، اجل ثمة امور من هذا النوع يجب ان لا تكون ، ولكن معي لا بأس ، فكل ما ارجوه هو سعادتك ولا شيء غيرها .

ولم تنبس ماريا بحرف واحد ، ولكنها ظلت مستلقية برأسها ، محاولة ، ان تستريح في موضعه .

ومضت بيلار تقول . . وهي تمر باصابعها على وجنة الفتاة دون وعي اسمعي يا حبيبة . . اني احبك ، ولكن في وسعه ان يمتلكك . فاننا لست بالسحاقية ، وانما امرأة خلقت للرجال . وهذا حق وصدق . ولكن يلد لي الان ، وفي وضع النهار ، ان ابوح لك بحبي .

- وانا احبك ايضا يا بيلار .

- لا تقولي هراء . فانت لا تفهمين حتى ما اقوله .

- اعرف .

- ماذا تعرفين . انك للانكليزي . وهذا ما اراه . وما يجب ان يكون .
هذا اقبله . اما اي شيء آخر فلا اقبله . وانا لا اقوم باية انحرافات ، ولكن
ما اقوله لك هو الحقيقة . ولن يحدثك بالحقيقة الا القليلون ، وكلهم من
غير النساء . فانا غيرى ولكنني اقول الحقيقة . اجل انني اقولها .

- لا ، لا نقولها يا بيلار ، لا نقولها .

- لم لا اقولها ؟ سامضي في قولها ، حتى اشعر بالضجر من قولها .. وقد
حان الوقت الان ، حتى لا اقولها ، افهمت .

- لا تتحدثي على هذا النحو يا بيلار .

- انك ارنبة صغيرة ممتعة . وارفعي رأسك الان ، فقد مرت هذه
اللحظة السمجة .

كلا لم تكن سمجة ، وان رأسي يشعر بالراحة حيث هو .

- لا ، ارفعيه .. ومدت يديها فرفعت بهما رأس الفتاة .. وقالت ،
وانت يا انكليزي ؟ اية قطعة اكلت لسانك ؟

- لم تاكل لساني اية قطعة .

- اذن أي حيوان ؟

- ولا حيوان ايضا .

- اذن ابتلعته انت .

- يخيل الي ذلك .

- وهل أعجبك مذاقه ؟

- لا ليس كثيرا .

- هذا ما لم يخيل الي ، ولكنني اعيد اليك ارنبتك ، ولم احاول ان
أخذها منك ، هذا اسم جميل لها ، لقد سمعتك تطلقه عليها هذا الصباح .

وشعر روبرت بحمرة الخجل في وجهه .

فقال بيلار - لا ، ولكنني على الرغم من ان بساطتي معقدة كل التعقيد ،
فهل انت معقد يا انكليزي ؟

لا ولكنني لست بسيطا للغاية .

- انك تسرني يا انكليزي .. وابتسمت ثم انحنت وهزت رأسها ومضت
تقول .. واذا استطعت ان اخلص الارنبه منك ، وان اخلصك من الارنبه ؟

- لن تستطيعي .

- اعرف ذلك ، ولا احب ان افرق بينكما ، ولكنني عندما كنت فتية كان
في وسعي ان افعل ذلك .

- انا واثق من هذا .

- انت واثق ؟

- بكل تأكيد ، ولكن مثل هذا الحديث هراء .

- وقالت ماريا - انه لا يليق بك .

- انني تغيرت اليوم ، انني لا اشبه نفسي الا قليلا ، فلقد سببت لي
قصة الجسر صداها ايها الانكليزي .

- في وسعنا ان نسميه جسر الصداع . ولكنني ساقذف به في تلك
الهاوية كقفص محطم .

- حسنا ، واصل الحديث على هذا النحو .

- سأحطمه كما تحطمين حبة الموز بعد ان ترغمي القشرة عنها .

- في وسعي ان اكل حبة من الموز الآن ، واصل الحديث يا انكليزي ،
تحدث على هذا النحو الرائع .

- لا حاجة بنا ، دعينا نعود الى المسكر .

- الواجب .. سيحين وقته عاجلا ، قلت انني سأترككما وحيدين .

- لا فلدي الكثير لأعمله .

- وهذا عمل ايضا ، ولن يأخذ منك وقتا طويلا .

فقلت ماريا - اغلقي فمك يا بيلار . انك تتحدثين بغلظة .

- انني غليظة ، ولكنني رقيقة جدا ايضا . ساترككما معا . اما الحديث عن الفيرة فهراء . لقد غضبت من جواكين ، لانني رايت في نظرتة الي مدى قبحي . وكل ما اغاره منك انك في التاسعة عشرة الان . والان انا ذاهبة .

ونهدت على قدميها ، ووضعت يدها على خاصرتها ، وتطلعت الي روبرت الواقف ايضا . وجلست ماريا ، تحت الشجرة وقد خفضت راسها

وقال روبرت .. دعينا نعود الي المسكر معا . هذا خير وابقى .. ثم ان لدينا الكثير لنعمله .

واشارت بيلار براسها الي ماريا . الجالسة بعيدا هناك وقد ادارت راسها عنهما معا دون ان تنبس ببنت شفة .

وابتسمت بيلار ، وهزت كتفيها وقالت .. انك تعرفين الطريق ؟

فقلت ماريا دون ان ترفع راسها .. اجل اعرفها .

- اذن فانا ذاهبة . سنعد لك شيئا دسما لتأكله يا انكليزي .

ومضت تعبر المرح باتجاه الجدول الذي ينساب هابطا نحو المسكر .

وصرح روبرت .. قفي .. من الخير ان نذهب معا .

وظلت ماريا جالسة هناك لا تقول شيئا .

ولم تعد بيلار ، بل قالت .. ما معنى نذهب معا . سارك في المسكر .

ووقف روبرت ، وقال .. هل هي على ما يرام ؟ كانت تبدو مريضة .

- دعهما تذهب .

- اعتقد ان علي ان اذهب معها .

فقلت ماريا - دعهما تذهب . دعهما تذهب !!

مشى روبرت وفتاته ، فوق اعشاب المرج ، واحس باحتكاك الاعشاب ، مع ساقه ، كما شعر بعبء مسدسه ، في قرابه على فخذه ، وبحرارة الشمس على راسه ، وبالنسيم البارد العليل يهب من القمم الثلجية على ظهره ، بينما لمس في يده ، يد ماريا ، وقد ضغطت عليها بقوة وعزم .

واحس روبرت ، تيارا يسري في هذه الكف الموضوعة في يده ، ومن هذه الاصابع المتشابكة مع اصابعه ، وفي هذا التيار من الجدة ، ما يشبه ، النسيم العليل ، وهو يهب متجها من البحر ، ليداعب شفتي الانسان ، او الورقة التي تسقط ، مع الريح خفيفة ناعمة لا تكاد الارض التي سقطت عليها تحس بها . ولكن في هذه اللمسة من اصابعها ، قوة تشد ، ملحمة ، ومحرقة وعنيفة ، حتى تصل حد الضغط ، على كفه ورسغه ، فيرتفع التيار ساريا في ذراعه ، ليملا جسده ، بشعور من الخواء والاشتهاء . وفجأة امسك براسها ، وضمها الى صدره وقد انعكست اضواء الشمس على شعرها المحروق ، وعلى وجهها الجميل الناعم ، وعلى عنقها المشرب ، وقبلها ، وشعر بها تترمد بين ذراعيه وهو يقبلها ، كما احس ، بشديها الناهدين يلتصقان بصدره وكأنهما يريدان الانجذاب اليه ، فمد يده يفسك ازرار قميصها ، ليقبلها قبلة ناعمة ، تلتهب بالدفء والحرارة فازدادت رعدتها ،

وهي مستسلمة بين ذراعيه .. ثم انطلقت تطوقه بيديها ، بعنف وقوة ،
وتنتقل بشفتيها اللاهبتين على عنقه .. وهتف من اعماقه .. ماريا ..
آه يا ماريا .. اين سنذهب ؟

ولم تنبس الفتاة ببنت شفة بل دست اصابعها عبر ازرار قميصه ،
تجوس في صدره وهي تقول .. وانا اريد ان اقبلك كما قبلتني .

- لا يا ارنيتي الصغيرة .

- بلى ، سأقبلك كما قبلتني ، تماما .

- لا ، هذا مستحيل .

- اذن ، آه ، اذن آه ، اذن ، اه !

وتهشم المشب تحت راسها ، الذي استلقى عليه ، وقد اغمضت عينيها
وانطلقت شفاهها ، تقبل كل ما تقع عليه منه ، بينما تحول كل شيء امامه ،
الى لهب احمر ، ساطع كالنار ، وهو ينظر الى اشعة الشمس ، تنعكس
على عينيها المغلقتين ، ويستمتع الى آهاتها المتلاحقة ، نشوى من الامتلاك
واللذة .. وسرعان ، ما تحول ، هذا الشعور من الخواء الذي كان يطفى
عليه ، والذي لا يعرف له سبيلا او اتجاهها ، ويحمله في شتى التيارات
ومختلف الاعاصير ، الى احساس من الامتلاك ، وقد توقف الزمن .. عن
الدوران ، بينما اخذت الارض التي ينمان فوقها ، تنأى عنهما ، بكل ما
فيها من خشونة وقسوة ..

واستلقى بعد قليل ، على ذراعه ، وقد غاص رأسه في الحشائش يشمها ،
واندس في ارجحها ، بكل ما في الارض من نعومة ، وفي الشمس من دفء ،
والى جانبه فتاته وهي لا تزال مغمضة العينين ، وعندما فتحتها ، ابتسمت
اليه .. وسمعته يقول لها بصوت ودود متعب .. هالو .. يا ارنية ، فترد
عليه .. قريبة منه كل القرب .. هالو .. يا انكليزي .

فقال بتكاسل .. لست انكليزيا .

فمدت يديها تمسك باذنيه وتقبله في جبينه وهي تقول ، بلى انك انكليزي

.. كيف ابدات احسن التثبيل ؟

وسرعان ما عادا يسيران على ضفاف الجدول ، وقال لها .. ماأريا أنني احبك .. فأنت جميلة ، ورائعة ، وعذبة ، واني لاشعر بكل ما في العالم من سعادة ، عندما أكون معك .. حتى أنني لأود ان اموت ، ونحن نمارس الحب .

- انني اموت كل مرة ، اولا تموت انت ؟

- لا ، ولكنني اصبح قريبا من الموت ، او لم تشعري بالارض تتحرك ؟

- اجل ، شعرت بها عندما مت ، ضع يدك حولي ، ارجوك .

- لا اننى امسك بيدك ، ويدك تكفيني .

ونظر اليها ، ثم انتقل ببصره عبر المرج ، فرأى صقرا يصيد طعامه ، ورأى السحب الكبيرة تتكاثف فوق الجبال .

وقالت له ويدها في يده .. او لا تحس بنفس الشعور مع الاخريات ؟

- لا ، ابدا .

- وهل عرفت الكثيرات من النساء ؟

- عرفت بعضهن ، ولكنهن لا يضاھيتك .

- او لم يكن شعورك معهن عين الشعور حقا ؟

- كنت اشعر بلذة ، وليس على هذا النحو .

- او لم تحس بالارض تتحرك في المرات السابقة ؟

- لا ، اصدقك القول ، ابدا .

- اجل ، وربما وقع هذا لنا مرة واحدة .

- ولم يرد عليها ، فقالت .. ولكنه وقع على الاقل ، او لا تهبني ؟ او لا

تشعر بلذة معي ؟ قد ابدو احسن في المستقبل .

- انك رائعة الان .

- لا ، ولكن ضع يدك على رأسي .

ووضع يده على راسها ، وأحس بشعرها المقصوص ، وقد أصبح ناعما
وطريا بين يديه ، ثم أمسك بها يقبلها من شعرها .

وقالت .. انا احب ان أقبلك دائما ، ولكنني لا احسن التقبيل .

- لا حاجة لك الى التقبيل .

- كلا انني احتاج اليه ، فاذا قدر لي ان اكون امرأتك ، فلي ان اخلق
لك المتعة في كل سبيل وطريق .

- انك تسعديني ، وتخلقين لي المتعة كل المتعة ، ولن يكون في امكانك
ان تسعديني اكثر ، وليس في وسعي ان اعلم اكثر مما اعمله ، لو تمكنت
حتى من ذلك .

- ولكنك ستري ، فشعري يسليك الان لانه غريب في شكله ، لكنه آخذ
في النمو يوما بعد يوم ، وسيصبح طويلا ، وأنداك لسن ابدو قبيحة ،
وستحبني كثيرا .

- ان لك جسما رائعا ، بل اجمل جسم في العالم .

- انه مجرد جسم فتى ورقيق .

- لا ، في الجسم الرائع شيء من السحر ، ولا ادري ما العلة في وجود
هذا السحر في بعض الاجسام دون البعض الاخر ، ولكنه متوافر فيك .

- انه بالنسبة اليك فقط .

- لا .

- اجل ، انه لك وحدك دون غيرك دائما وابدا ، وسأتعلم كيف اعنى بك،
ولكن قل لي حقا ، الم تتحرك الارض تحتك من قبل .

- ابدا .

- اذن فانا سعيدة ، اجل انني سعيدة الان .

ورانه يفكر فراحت تسأله .. انك تفكر بشيء اخر الان ..

- اجل افكر بعلمي .

- كم وددت لو كانت لدينا جياذ نركبها . . وفي سعادتني الحالية ، اود لو كان لدي جواد طيب امتطيه ، واغذ به السير ، وانت الى جانبي تسرع بجوادك ، فتمضي قدما ، نهول خبيا ، فلا نلحق بما اشعر به من سعادة .

- في وسعنا ان نحمل سعادتك في طائرة .

- ونظير بها في السماء ، كتلك الطائرات المطاردة الصغيرة التي تلمع تحت اشعة الشمس ، نهبط بها المطبات ونصعد . . فلا تقاس سعادتني بها

فقال وهو لا يكاد يسمع ما تقوله . . ان سعادتك تهضم كل شيء .

انه لم يكن معها الان ، اجل انه يسير بجانبها ، ولكن عقله يشتغل في مشكلة الجسر ، فقد اتضحت ، واصبحت قوية وظاهرة تماما كما يظهر اي شيء تحت عدسة المجهر ، عندما تضبط ابعادها ، ها هو يرى المركزين العسكريين امامه ، وانسيلمو والعجري يرقبان الطريق ، وهو يرى هذه الطريق خالية ، ولكن الحركة تسودها ، وهو يرى ابن سيضع البندقيتين الاوتوماتيكتين اللتين يملكهما ، حتى تحققا احسن ما يمكن من نتائج على صعيد اطلاق النار ، واخذ يفكر في من سيتولى ذلك في النهاية ، ولكن من في البداية ؟ وراى انه قد وضع التفجرات واعدتها ، ومد اشراطه السى المكان الذي سيتولى التفجير منه ، واخذ يفكر في كل الاحتمالات التي يمكن لها ان تقع والتي قد تؤدي الى اخطاء . . وفجأة قال لنفسه . . لماذا هذا التفكير . . لقد مارست الحب مع هذه الفتاة ، وصفا ففكر الى حد كبير ، وسرعان ما عاودك القلق ، فهناك فرق بين التفكير بما يجب ان تفعله ، وبين القلق ، عليك ان لا تقلق ، اجل يجب ان لا تقلق فانت تعرف ما يتحتم عليك عمله ، وما قد يحدث . . اجل ما قد يحدث .

لقد اقحمت نفسك فيه ، لانك تعرف ما تقابل في سبيله ، فانت تقابل تماما ضد ما تعمله الان ، وضد ما ترغب على عمله ، لكي يكون ثمة امل في النصر ، وعليك الان ان تستخدم هؤلاء الناس الذين تحبهم ، كما تستخدم اية قوات تحت امرتك لا تشمر نحوها باي شعور لتضمن النصر . لقد كان بابلو

اذكى واحد في المجموعة كلها ، فقد ادرك لتوه . ما تنطوي عليه المغامرة من شرور . وقد ابدتك المرأة وما زالت تؤيدك ، ولكن ادراكها حقيقة ما تنطوي عليه ، اخذ يتغلب عليها بصورة تدريجية ، وقد سبب لها الكثير من الالم . وسوردو ، يدرك الخطورة ايضا ، وقد ادركها بالفعل فورا ، ولكنه يرغم نفسه على القيام بها تماما كما ترغم انت نفسك .

وانت لا تفكر بما قد يحدث لك . ولكنك تفكر بما قد يحدث للمرأة وللفتاة ، والاخرين . حسنا . فماذا كان يحدث لهم ، لو لم تات اليهم ؟ وماذا حدث لهم ، قبل ان تحل بين ظهرانيهم ؟ عليك ان لا تفكر بهذه الطريقة . فانت لا تشعر بمسؤولية تجاههم ، الا مسؤولية العمل . والوامر ليست اوامرك ، انها اوامر غولز . ولكن من هو غولز هذا ؟ انه قائد ممتاز ، انه خير من عملت تحت امرته من قادة . ولكن امن واجب المرء ان ينفذ اوامر مستحيلة . وهو يدرك ما قد تؤدي اليه حتى ولو صدرت هذه الاوامر عن غولز الذي يمثل الحزب والجيش معا ؟ اجل . عليه ان ينفذها ، لان تنفيذها هو السبيل الوحيد للبرهنة على استحالتها ، وكيف يمكنك ان تدرك استحالتها ، اذا لم تحاول تنفيذها ؟ ولو جاز لكل انسان ان يقول ان هذه الاوامر مستحيلة ، حال تلقيه لها ، فاین تكون قد وصلت ؟ اجل این تقف الامور ، لو تمكن كل من يتلقى الاوامر من القول بانها مستحيلة .

وقد رأى عددا كبيرا من القادة الذين تكون اوامرهم دائما مستحيلة . فذلك الخنزير غوميز مثلا في ايسترا مادورا . وقد رأى هجمات كافية لم تتقدم فيها الاجنحة لان تقدمها كان مستحيلا . اذن فمليك ان تنفذ الاوامر ومن سوء حظك انك تحب الناس الذين تتعلق بهم الاوامر هذه المرة .

وفي جميع المغامرات التي يقوم بها هؤلاء الانصار ، يسببون للناس الذين ياورونهم ويعملون معهم الكثير من المتاعب ، وسوء الحظ . فلم كل هذا ؟ ان الغاية هي زوال الخطر بصورة نهائية ، لكي تصبح البلاد مكانا امينا للعيش

فيه . هذا قول حق ، على الرغم مما فيه من رثاءة .

فاذا خسرت الجمهورية الحرب ، فسيصبح من المتعذر على أولئك الذين يؤمنون بها ، ان يعيشوا في اسبانيا . ولكن هل يمكن لها ان تخسر الحرب؟ أجل من الممكن ، ان تخسرها اذا حكم على الامور وفقا لسير الحوادث في الاجزاء التي احتلها الفاشيون .

وبابلو ، خنزير ، وليس في هذا شك . ولكن الآخرين في منتهى الروعة ، اوليس من الخيانة لهم ارغامهم على ان يعملوا ما يريده منهم . أجل ، قد يكون هذا من الخيانة . ولكنهم اذا لم يقوموا بهذا العمل ، فان سريتين في الخيالة ستصلان الى هذه الجبال لاصطيادهم في غضون اسبوع .

لا . ليس ثمة من جدوى ، في العدول عن الموضوع ، وتركهم وحدهم . الا اذا كان الواجب ان يترك جميع الناس وشأنهم ، وان لا تتدخل مع اي انسان . اذن هو يؤمن بهذا ، فهل يؤمن حقا ؟ أجل انه يؤمن . اذن ماذا يحدث للمجتمع الموجه وما شاكل ذلك من نظريات ؟ . هذا شأن الآخرين ، وعليهم ان ينفذوه . فامامه واجبات كثيرة يجب ان يعملها بعد الانتهاء من هذه الحرب . انه يخوض غمارها الان لانها نشبت في بلاد يحبها ، ولانه يؤمن بالجمهورية ، ويؤمن انها اذا لحق بها الدمار والخراب ، فستضحى الحياة شاقة على كل من يؤمن بها . وهو يخضع طيلة هذه الحرب للنظام الشيوعي . والشيوعيون في اسبانيا يقدمون احسن انواع التنظيم ، واصحها شكلا ، واسلمها واقعا للمضي في الحرب . وقد قبل بهذا النظام مدة الحرب ، لان الشيوعيين ، في تسيير دفتها هم الحزب الوحيد ، الذي في وسعه ان يحترم برنامجه ونظامه .

اذن ما هي اراؤه السياسية ؟ ليست له آراء الان ، ولكنه لا يريد ان يجهر بهذه الحقيقة لاي انسان . أجل انه لا يريد ان يعترف بها . ولكن ما حساه يعمل بعد انتهاء هذه الحرب ؟ انه سيعود ليكسب قوته من تعليم الاسبانية ، كما كان يفعل في الماضي ؟ وبالطبع سيقبل على وضع كتاب عقائقي صادق . ولا ريب في ان هذا العمل سيكون سهلا عليه ،

وشعر بان الواجب يقتضيه الحديث الى بابلو ، في شؤون السياسة .
ومن المتع ، ان يرى كيف تطور هذا الانسان سياسيا وعقليا . هل هو
الانتقال التقليدي من اليسار الى اليمين ، كما فعل، ليرو العجوز من قبل .
لكن بابلو يختلف كل الاختلاف عن ليرو . اما برييتو فيضاهيه في السوء .
ويثق بابلو وبرييتو ، ثقة متعادلة في النصر النهائي . وهما يعتنقان معا
سياسات لصوص الجياد . فهو يؤمن بالجمهورية كشكل من اشكال الحكم
ولكن على الجمهورية ، ان تتخلص من جميع افراد هذه الزمرة من سارقي
الجياد ، الذين عادوا بها الى الموقف الذي كانت عليه ، عندما بدأت الثورة
فهل هناك شعب ، يقوده اعداؤه ، كهذا الشعب ؟

اعداء الشعب . هذا تعبير في وسعه الاستغناء عنه . انه تعبير استهلاكي
في وسعه ان يتجاوز عنه . ولعل هذا من الامور التي اوصلته اليها ، علاقته
الجنسية بماريا . لقد كان انسانا متطرفا في سياساته ، كالانسان المعمداني
المتصلب في عقيدته . وكانت مثل هذه التعابير ، ترد الى فكره ، دون ان
يحاول نقدها او التحقيق فيها . انها مجرد تعابير او كليشيهات ثورية
او وطنية . وقد افكره استخدامها دون تدقيق او تمحيص . وبالطبع ،
هي تعابير صادقة ، ولكنها على درجة كبيرة من الرشاقة وسرعة البديهة .
ولكنه منذ ليلة امس ، وبعد ظهر اليوم ، اخذ فكره يصفو ، ويخلص من
الشوائب المتعلقة بهذا الموضوع . فالتعصب والمغالاة في التطرف ، امران
غريبان . ولكي تكون متفصبا ، عليك ان تكون واثقا من انك تقف الى
جانب الحق . ولا شيء ادعى الى ذلك . من العفة ، والعفة هي عدو
الهرطقة والكفر .

ولو قام بدراسة هذه المقدمة ، فالى اين ستصل به دراسته . وهل
ستصمد هذه المقدمة للدرس . ولعل هذا هو السبب الذي يحمل
الشيوعيين دائما على مهاجمة البوهيمية ، فعندما تشمل او تقرف الزنا
والفجور ، فانك تعترف بخطيئتك الشخصية ، في تقبل هذا البديل
المتقلب ، مستعصيا به عن انجيلك العقائدي ، وهو المخطط الحزبي . ولذا
فهم يهتفون دائما بسقوط البوهيمية ، خطيئة ماياكوفسكي .

ولكن ماياكوفسكي ، ما عثم أن اصبح قديسا من جديد ، ولربما كان السبب في ذلك انه قدم مات . وستموت انت ، وتصبح في منجاة ايضا ، فعليك ان تتوقف بتفكيرك عن مثل هذه المواضيع ، وان تفكر بماريا ، الموجودة الى جانبك .

ولقد كانت ماريًا شديدة على تعصبه . حقا أنها حتى هذه اللحظة لم تؤثر في تصميمه وعزمه ، ولكنه بدأ يفضل ان لا يموت . فهو لا يريد ان يقدو شهيدا أو بطلا ، وان يلقى نهايتهما بسرور . انه لا يريد ان يجعل من نفسه ثيرموبيلي أو هوراشيوس الواقف على الجسر ، ولا ذلك الولد الهولندي الذي وضع اصبعه في السد . انه يريد ان يقضي وقتا سعيدا اطول مع ماريًا ، ولعل هذا هو ايسر تعبير بالنسبة اليه . انه يريد ان يقضي اطول وقت معها .

انه لا يؤمن بأن الوقت قد يطول ، ولكنه ان طال ، فانه يريد ان يقضيه معها . وفي وسعه ان يذهب الى احد الفنادق ، ويسجل نفسه كاللكتور ليفينغستون وزوجته .

اذن لم لا تتزوجها ؟ حقا لم لا يتزوجها ؟ سيتزوجها ، وسيصبحان السيد والسيدة روبرت جوردان من بلدة وادي الشمس (سن فالي) في ايداهو ، او من كوربوس كريستي في تكساس أو بوتني في مونتانا .

والفتيات الاسبانيات زوجات رائعات . انه لم يعاشر قط فتاة مثلها . وعندما يعود الى عمله في الجامعة . ستصبح زوجة الاستاذ ، ولما يأتي الطلاب في الامسيات لزيارته ، والتحدث اليه عن ادباء اسبانيا عن امثال كويفيدو ولوبي دي فيفا وغيرهما ، في وسع ماريًا ان تحدثهم ، عما مر بها من تجربة ، عندما قام ذوو القمصان الزرقاء ، بتكبير يديها ولي ذراعيهما ، ورفع ملابسها ، ليعتدوا عليها ، دفاعا عن عقيدتهم .

وأخذ يسائل نفسه ، هل سيحبون ماريًا في ميسولا ، في مونتانا ، هذا

إذا حصل على عمل فيها . انه يشك في انه سيعود اليها ، لانه اصبح موصوما بالوصمة الحمراء ، وادرج اسمه في القائمة السوداء . ومع ذلك فمن يدري لا احد يدري . فليس لديهم من دليل . وكان تاريخ ذهابه الى اسبانيا : سابقا لاصدار الاوامر بحظر الذهاب اليها .

ولن تتيسر له العودة قبل خريف عام ١٩٣٧ . فقد غادر في صيف عام ١٩٣٦ ولن تنتهي اجازة السنة التي نالها الا في خريف ٣٧ . وما زال ثمة وقت بينه وبين الخريف . اجل ما زال ثمة وقت طويل بين اليوم وبعد غد لا ، اذن فلا حاجة الى القلق ، بصدد تلك الجامعة ، وعليه ان يعود اليها في الخريف ، ويسير كل شيء ، على ما يرام . اذن فعليه ان يحاول .

ولكن ها قد مضى عليه عهد طويل يعيش حياة غريبة . اجل انها غريبة ، فاسبانيا هي مجال عمله ، ومحط مهنته ، ومن الطبيعي والمعقول ان يمضي اليها ، وقد قضى فصول الصيف في اعمال الهندسة وفي شق الطرق في الغابات ، وقد تعلم كيف يستخدم المتفجرات . اذن فقد غدت اعمال التخريب شيئا طبيعيا بالنسبة اليه . قد يكون فيها بعض السرعة ، ولكن فيها كل السلامة والصحة .

وعندما يرتضي الانسان الفكرة القائلة بان عملية النسف مشكلة ، تصبح حقا من المشاكل . ولكن اشياء كثيرة تسير معها جنبا الى جنب ، وتصبح سهلة بالنسبة اليه . فهناك المحاولات الدائمة لتحديد اوضاع عمليات الاغتيال الناجحة التي ترافق عادة اعمال التخريب ، فهل تجعل الكلمات الفخمة من هذه العملية ، امرا يصلح الدفاع عنه ، وتحيل عملية القتل الى شيء مستساغ ؟ واذا ما انتهت خدمتك للجمهورية - وهذا ما حدث نفسه به - فلا ادري ، اذا كنت ستصلح لاي عمل ، ولكنك ستغلب حتما على كل شيء وتنتخلص من عقدك ، بمجرد الكتابة عنها ، اجل . فانك اذا كتبت ، انتهى كل شيء ، ولا ريب في ان الكتاب الذي تضعه ، ان استطعت وضعه ، سيكون عظيما ، بل اعظم من كتابك السابق .

أما حياتك الآن . فلا تعدو أن تكون اليوم واللييلة وغدا ، على أن يتكرر اليوم واللييلة ، إذا شاء لك حظك أن تعيش . وعليك والحالة هذه ، أن تقنع بما أنت فيه الآن وأن تشكر ليومك هذا ما أنت فيه . ولكن ماذا يحدث ، إذا لم تسر قضية الجسر على ما يرام ، لا سيما وأن الظواهر ليست مشجعة الآن .

ولكن ماريا ، كانت الخير كل الخير . أو لم تكن ؟ ربما كان هذا هو ما ستحصل عليه الآن من حياته . ولربما تقلصت حياتك من سبعين عاما ، إلى ثمان وأربعين ساعة . . أو سبعين ساعة . . وفي وسعك أن تعيش في سبعين ساعة ، ما تحياه في سبعين عاما ، شريطة أن تكون حياتك ملىء عندما بدأت السبعون ساعة . وأن تكون قد وصلت إلى سن معين .

وخيل إليه ، أن ما يفكر فيه هراء في هراء . فما هي هذه التفاهات التي دأبت على التفكير فيها . حقا انها لسخافات . ومع ذلك ، فقد يكون فيها شيء ما . فالأفضل لك أن تنتظر وأن تعود بفكرك إلى الماضي . . كانت المرة الاخيرة ، التي نمت فيها مع فتاة في سرير واحد في مدريد . لا لم تكن في مدريد بل في ايسكوريال . وقد استيقظت في الليل ، وخيل اليك أن من تنام معها ، فتاة أخرى ، ولكنك سرعان ما عرفت ما عرفت ، وعرفت أنك لم تضع وقتك عبثا معها . فقد منحتك وقتا فيه امتاع . وكانت المرة التي سبقتها في مدريد ، وقد مررت بنفس التجربة ، إلا انها كانت أقل امتاعا من لاحقتها . . ومن هذا يتبين لك أنك لست بالانسان الخيالي ، الذي تمجد الفرام ، كما أنك لست بالانسان الذي يقدر المرأة الاسبانية لمجرد انها اسبانية ، ولم تكن ترى في المرأة التي تمر في حياتك ، أكثر من مجرد عابرة سبيل . أما مع ماريا فشيء آخر ، فانت تحس وانت في ذروة عواطفك وكانك على عتبة الموت ، مع أنك لم تكن قط لتصدق في إمكان وقوع هذا في الماضي .

ولذا ، فإن كانت حياتك قد قايضت احوامها السبعين بمجرد سبعين ساعة ، فقد ربحت الثمن ، وحصلت على القيمة . وإذا لم يكن ثمة من غد ، أو أمد طويل ، أو بقية حياة ، أو ما شابه ذلك من تعابير ، وإنما هناك شيء

واحد ، وهو الآن ، والساعة ، فعليك ان تشكر قدرك على ساعتك ، وان تسعد بها .. ان الان كلمة مضحكة ، تعني عالما كاملا بل حياة بأسرها .. اجل الان ، وهذه الليلة ، والحياة والمرأة ، والموت ، والحرب ، والحب ، والعبودة ... كلها الفاظ ، سيتخلى عنها في سبيل ماريبا .. واسمها المحبب الى نفسه .

حسنا ، سيقومون جميعا بتنفيذ العمل ، وقد حان وقته ، ولم يعد بعيدا انه كلما اقترب ، كلما ساء منظره وبدا كالحا . انه عمل لا تستطيع ان تنفذه في الصباح . ففي وضع يائس ، من الخير الانتظار حتى المساء ، لتتمكن مع رفاقك من النجاة . او ليس في وسعك ان تتأخر حتى المساء لتنجو . اجل فالنجاة ممكنة ، اذا تأخرت حتى هبوط الظلام . اما اذا اصررت على القيام به عند الفجر ، فماذا سيحدث ؟ وها هو سورودو المسكين يحاول ان يشرح لك باسبانيته التي يتعمد « تكسيها » لفهامك ولكنك لم تنقطع عن التفكير في هذا الموضوع منذ صدرت اليك اوامر غولز اجل لقد كانت اوامره ، طعاما لم تستسغه معدتك ، فظل فيها دون هضم منذ تلك الليلة .

يا له من عمل . فانت تقضي حياتك كلها ، مدركا انهم قد يعنون شيئا ثم يتبين لك في النهاية انهم لا يعنون اي شيء . فليس ثمة ما تتوقعه ، بل ليس ثمة ما يمكن لك ان تتأمل فيه . ثم فجأة .. وانت تقوم بمثل هذا العمل القدر ، من حشد قوى جماعتين من الانصار لمساعدتك في نسف جسر في اوضاع مستحيلة ، لمنع هجوم مضاد ، قد يكون في طور البداية عندما تقبل على عملك ، تلتقي صدفة بفتاة كماريا .. اجل لقد لقيتها عرضا وجاء لقاؤك متاخرا عن اوانه . وهذا كل شيء .

وبيلار ، هذه المرأة ، هي التي دفعت بالفتاة الى احضاتك . ثم ماذا حدث ؟ اجل ماذا حدث ؟ قل ، ماذا حدث .. هذا هو ما حدث .

وعليك ان لا تخدع نفسك بصدد بيلار ، التي دفعت بالفتاة الى احضاتك لقد وقعت في غرامها منذ اللحظة الاولى التي رايتها فيها . فعندما حدثتك

اول مرة ، كنت قد اضحيت مولعا بها . وما دامت الحالة كهذه فلماذا نحاول الان ان تكذب نفسك ، وان تدفع عنها ، حقيقة ما شعرت به منذ رأيتها .

اجل لقد احببتها ، فلا تخادع نفسك . وكنت تحس بشعور غريب كلما تطلعت اليها . اذن فلم لا تعترف . حسنا ، يجب ان تعترف . اما بيلار ، فقد سلكت في دفعها الى احضانك ، كما تسلك اية امرأة ذكية عاقلة . كانت تعطف على الفتاة وتمنى بها ، وقد ادركت ما حدث تماما ، منذ اللحظة الاولى التي عادت فيها الفتاة الى الكهف بعد ان رأتك .

اذن فكل ما عملته بيلار ، هو انها سهلت الامور عليك . وقد ادى تسهيلها الى ما حدث ليلة امس ، وبعد ظهر اليوم . انما اكثر حضارة ومدنية منك ، وتعرف طبيعة العصر وحقيقته . وهي تدرك ايضا ، اهمية الوقت وعامل الزمن . لقد طواها الزمن ، ولم ترغب في ان ترى غيرها يخسر ما خسرتة هي ، وفجأة كبرت عليها فكرة الاعتراف بما خسرتة . فلم تستطع ابتلاعها . وهذا ما سبب لها الالم ، عندما كانت معكما على الجبل .

هذا كل ما حدث ، وعليك ان تعترف بانك لن ترى ليلتين اخريين معها . اجل لن تعيش معها حياتك ، ولن تكون لكما المتع التي يشمر بها الناس عادة . لقد مرت ليلة ، ومر بعد ظهر ، وقد تمر ليلة اخرى .. هذا كل ما هنالك ، ربما .. ولكن لا . لا .

لن تشعر بسعادة الزمن ، ومتع الحياة ، لن تلهو معها ، ولن يكون لكما اطفال وبيت وحمام ، ولن ترتدي بيجامة نظيفة او تقرا صحيفة الصباح ، عندما تستيقظ ، وانت واثق من انها الى جانبك ، وانك لست وحيدا . اجل .. لقد انتهى كل هذا . ولكن لم كل هذا الياس ؟ انك عندما تنتهي من مهمتى ، ستكون لك الحياة التي تريدها ، عندما تعثر عليها . فلسم لا تقضي ليلة ثانية معها .

انك تطلب المستحيل . اجل انك ترجو المحال . فاذا كنت تحب الفتاة

حقا كما تقول ، فعليك ان تقسو على نفسك في حبك ، وان تستمض بالوفرة والقوة ، عما تفتقر اليه العلاقة من امد واستمرار . هل سمعت ما اقول ؟ كان الناس في الماضي يكرسون حياتهم كلها لهذه الغاية . والان بعد ان عثرت عليها ، فانك تستكثر على نفسك الحصول على ليلتين . اجل ليلتان . ليلتان من الحب ، والعبادة والقداسة ، ليلتان مهما كانت الظروف حتى ولو انطوت على المرض او الموت . لا ! لا تذكر الموت وقل حتى ولو انطوت على الصحة والمرض . . الى ان يشاء الموت التفريق بينكما . فقد يفرق بينكما بعد ليلتين . والان ، دع عنك هذا التفتكير ، ففي وسعك ان تتوقف عنه الان . اذ لا خير لك فيه . انه لا يأتي لك بخير . وهذا ما يجب ان تتأكده .

هذا كان مدار حديث غولز . ولقد خيل اليك ان طيلة اقامة هذا الرجل هنا ، قد جعلت منه انسانا صارما . وهذا كل ما يطلبه الان . التمويض من خدمة غير نظامية . فهل كان هذا ما اراده غولز ، وما خلقه الزمن والظروف . وهل يقع بالنسبة لكل انسان يعيش في ظروف مماثلة . ولكن لا يجوز ان يكون قد ظن كل هذه الظنون لانها وقعت بالنسبة اليه ليس الا وهل كان غولز ، ينام على عجلة من امره عندما كان يقود ، كتيبة غير نظامية من فرسان الجيش الاحمر ، وهل كان تجمع الظروف والايضاح يجعل من الفتيات جميعا يظهرن بمظهر ماريا .

من المحتمل ان يكون غولز ، قد عرف كل هذا ، وان يكون قد اُزاد تأكيد هذه النقطة التي تريد ان تعيش بها حياتك كلها في ليلتين ، وان تحشد فيهما كل ما كنت تتوق اليه من عيش طويل .

انه نظام طيب للعقيدة . ولكن الظروف لم تكن وحدها هي التي خلقت ماريا ، الا اذا كانت ترجيعا لظروفها هي ، ولظروفه هو . اما ظرفها الخاص وحده ، فلم يكن طيبا .

واذا لم ترد ما يكون ، فليكن ما يكون . ولكن ليس ثمة من قانون يفرض

عليك ادعاء حب ما لا تحبه . فانت لا تعرف ، انك كنت ستشعر يوما ما ، بما تحس به الان . او انه سيمر بك ، ما يمر في هذه اللحظة . انك تريد ان يدوم طيلة حياتك . وسيدوم ، هذا ما يقوله لك عقلك الباطن . انك تملكه الان ، وحياتك كلها ، لا تعدو كلمة الان . فليس نعمة من شيء آخر ، الا الحاضر . فليس نعمة من امس ، ولا من غد . وكم يجب ان يكون عمرك حتى تدرك هذا وتعرفه ؟ هناك حاضر ، لا يعدو يومين ، فحياتك اذن يومان ، وسيكون كل شيء فيها والحالة هذه نسبيا . هذه هي الطريقة المثلى للعيش يومين . واذا توقفت عن الشكوى ، وعن السؤال عما لا تستطيع الحصول عليه ، فستكون حياتك سعيدة . ولا تقاس الحياة السعيدة ، بما تنطوي عليه الاناجيل والتوراة .

اذن فلا تقلق ، وخذ ما بيدك ، وقم بواجبك ، وستعيش طويلا ، وتنعم بحياة سعيدة . او لم تكن سعيدة حقا في الايام القليلة الماضية . وهل نعمة مجال لشكواك منها . هذه هي الحقيقة التي تتصل بهذا النوع من العمل .. وليس ما تتعلمه من الامور بمثل الاهمية التي تراها في من تجتمع اليهم من الناس ..

وشعر بارتياح .. فعاد بفكاره الى الفتاة التي غاب عنها طويلا وقال ..
احبك يا ارنيتي ، ماذا كنت تقولين ؟

– كنت اقول ، ان عليك ان لا تقلق على عمك ، لانني لن اضايقك ولن ادخل فيه ، واذا كان بوسعي ، ان اقوم باي عون ، فأرجو ان لا تتأخر فسي ابلاغي .

– لا داعي لذلك ، فالمهمة بسيطة للغاية .

– سأتعلم من بيلار ، طريقة العناية بالرجل ، وما يجب علي ان اعمله ، وعندما اتعلم ، سأكتشف الامور بنفسني ، وعليك ان لا تتأخر بدورك عن ارشادي .

– ليس نعمة ما يجب ان تعلمه .

- ماذا تعني ليس ثمة ما عمله ؟ ففراشك مثلا هذا الصباح . كان علي ان انظفه وان اعرضه للشمس ، ثم اعود به الى ملجأ أمين ، قبل هطول الندى
- استمري يا ارنه !

- وجواربك يجب ان تفسل وتجفف . وسأعمل على اعداد زوجين لك .
- وماذا ايضا ؟

- واذا علمتني نظفت مسدسك ، وزيته .
- قبليني .

- لا . انني جادة ، الاتعلمني على مسدسك ؟ عند بيلار زيت ، وقطع للتنظيف .
- طبعا سأعلمك .

- واذا علمتني كيف استعمله ، كان في وسع الواحد منا ان يقتل نفسه او رفيقه ، اذا ما اصيب بجراح ، وكان من الضروري ، القيام بمثل هذا العمل لتجنب الوقوع في الاسر .

- فكرة ممتعة . الديك افكار كثيرة كهذه ؟

- لا ، ليست كثيرة ، ولكنها فكرة طيبة . وقد اعطتني بيلار هذا ، وعلمتني على استعماله . . وقالت هذا واخرجت من جيب صدرها ، مطواة ، في غمد من الجلد . . ثم استطردت تقول . . وانني احتفظ بهذه المطواة معي دائما . وتقول بيلار ان علي ان اجرح نفسي هنا تحت الاذن ثم أسحبه الى الاسفل . ففي هذه الجهة شريان كبير ، وليس في وسع المطواة ان تخطئه . وقد اكدت لي ان الانسان لا يشعر بالأم ، وان كل ما يجب عمله ، هو ان يكون الجرح عميقا . وازافت ان ليس في وسعهم وقف التزييف للحيلولة دون الموت مهما فعلوا .

- هذا حق ، فهذا هو الشريان السباتي .

وأخذ يفكر بان الفتاة دأبة التفكير في هذا الموضوع طيلة الوقت على اعتبار انه احتمال ممكن وواقعي .

ومضت الفتاة تقول .. ولكني اوتر ان تقتلني انت برصاصة من مسدك فهل تعدني بانك ستطلق الرصاص علي وتقتلني ، فيما اذا وقع هذا الاحتمال .

- حتما ، اعدك .

- اشكرك كل الشكر . وانا اعلم ان ليس من السهل عليك ذلك .

- طبعاً ، فما تقولين حق .

وتصور انه قد نسي كل هذا ، ونسي كل شيء عن الجيملات في الحرب الالهية عندما ظل عقله مشغولاً بعمله وواجبه . أجل لقد نسي هذا . ومن الممكن ان ينساه ، اما كاشكين فلم يستطع نسيانه وهذا ما اضاع عليه عمله . وهل كان ذلك الشاب يتلقى وحياً والهاما ؟ كان من الغريب انه لم يعان من اية عاطفة معينة ، عندما قرر اطلاق النار على كاشكين . وقد توقع ان يحل له نفس الشيء في يوم ما ، ولكن مثل هذه التجربة لم يعانها بمد .

ومضت ماريما تقول .. وفي وسمي ان اقوم لك باشياء اخرى ..

- بلاضافة الى اطلاق النار علي .

- أجل ، في وسمي ان الف لك السكاثر ، عندما تنفذ منك لفاقتك هذه . وقد علمتني بيلار كيف الفها جيداً ، بشكل دقيق متقن .

- حسناً . وهل تلغينها بلسانك ؟

- نعم . وعندما تصاب بجراح ، ساهني بك واضمد جراحك ، والمسلك واطعمك ...

- قد لا اصاب بجراح ..

- اذن عندما تمرض ، فساهني بك ، واطبخ لك الحساء ، وانظفك واقوم لك بكل شيء . واقراً لك .

- ولكن قد لا امراض .
- اذن ساتي لك بالقهوة عندما تستيقظ في الصباح .
- وقد لا احب القهوة .
- ولكنك تحبها . فقد شربت اليوم قدحين منها .
- وقد اشعر بالضجر من القهوة ، وقد لا احتاج لكي تطلقني علي النار ، وقد لا اصاب بمرض أو جراح ، واتوقف عن التدخين واكتفي بزواج واحد من الجوارب ، واعلق فراشي بنفسي . فماذا تصنعين ايتها الارنية ؟ ماذا تصنعين ؟
- اذن استعير مقص بيلار ، واقص لك شعرك .
- ولكني لا احب قص الشعر .
- ولا انا . احب شعري ان يكون كما هو . اما اذا لم يكن لي ما اعمله ، فسأجلس بجانبك ، ارقبك ، وفي الليل ، امارس الحب معك .
- حسنا ، هذا هو المشروع المقول .
- اما بالنسبة الي ، فالوضع واحد يا انكليزي .
- ان اسمي روبرتو .
- لا . ولكني ساسميك بالانكليزي ، كما تفعل بيلار .
- ولكنه روبرتو .
- لا انه انكليزي ، انا الليل اطراف النهار . والان هل في وسمي ان امهتك فسي عمك يا انكليزي ؟
- لا ، فما اقوم به الان ، اقوم به وحدي ، وبكل برود ، في ذهني .
- حسنا ، ومتى ينتهي ؟
- هذه الليلة ، اذا حالفنا الحظ .
- حسنا .

واشرقا على الاجمة الاخيرة التي تصل الى المعسكر .

وقال روبرت مشيرا الى شبح لاح امامهما .. من ذاك ؟

– انها بيلار .. لا ريب في انها بيلار .

كانت المرأة تجلس وحيدة ، في طرف المرج ، وقد اسندت رأسها على ذراعها . وكانت تبدو ككومة من السواد ، امام جذوع الاشجار السوداء .

وهرع روبرت نحوها وهو يقول .. هلمي ، اسرعي . وكان من الصعب ان يجري في هذه الارض القاسية ، واخيرا وصل اليها ، وكان رأسها متكئا على ذراعها فقال بحدة .. بيلار ..

ورفعت المرأة بصرها ، ونظرت اليه . ثم قالت آه .. هل انتهيتما بسرعة ؟ وقال وهو ينحني عليها .. هل انت مريضة ؟
– لا ، لقد كنت نائمة .

وقالت ماريا ، وقد وصلت اليها وركعت الى جانبها .. بيلار ! كيف انت ؟ هل انت بخير ؟

– على احسن ما يرام .. اذن كنت تقوم بالعباب الرجال يا انكليزي .

وقال روبرت متسائلا .. هل انت بخير ؟

– ولم لا ؟ لقد نمت . هل نمتما ؟

– لا .

– حسنا ، يبدو ان عملية الحب توافقتك ؟

واحمر وجه الفتاة ولم تحر جوابا .. وقال روبرت .. دعيتها وشأنها .

وردت بيلار تقول .. لم يكن احد يحدثك .. اسمعي يا ماريا .

ولم ترفع الفتاة رأسها ، ومضت بيلار تقول .. ماريا ، يبدو ان عملية الحب توافقتك .

وقال روبرت ثانية .. دعيتها وشأنها .

- اغلق فمك انت .. قولي يا مارييا ..

فقلت الفتاة .. لا .

ومضت بيلار ، تقول وقد تصلب صوتها كوجهها .. تحدثني الي بشيء
بمحض اختيارك .

وهزت الفتاة رأسها .

وخيل لروبرت انه سيهم بضرب هذه المرأة على وجهها . ولكنه في حاجة
الى العمل معها ، ومع زوجها .

ومضت بيلار تلحف على الفتاة بالقول .. هيا واخبريني ..

- لا . لا .

وقال روبرت ، وقد عزم على ضربها ، وليكن ما يكون .. دعيها وشأنها .

ولم ترد عليه بيلار ، وانما واصلت حديثها الي الفتاة ، وكأنها ثعبان
يداعب طائراً ، او قطة تراود عصفورا عن نفسه . لم يكن هناك في الموضوع
اي سلب او نهب . كما لم يكن اي التواء ، وانما كان تمدد ، كما يتمدد
ثعبان الكوبرا تماما . وقد احس روبرت بذلك تمام الاحساس ، وشعر
بخطورته . لكن الامتداد لم يكن بقصد الاذى بقدر ما كان يستهدف البحث
وود لو انه لم ير هذا الامتداد الذي لا يصلح للضرب مطلقا ولا يستحقه .

وقالت بيلار - لن المسك يا مارييا ، ولكن تحدثني الي بمحض اختيارك .

وهزت الفتاة رأسها .

ومضت بيلار تقول .. مارييا ، الان وبمحض اختيارك ، الا تسميعيني ..

قولي اي شيء .

وردت الفتاة بنعومة .. لا . لا .

- ولكنك ستقولين .. اي شيء . اجل اي شيء . ستقولين ، وسترين

كيف تقولين .

وقالت مارييا .. دون ان تنظر الي المرأة .. لقد تحركت الارض .. وكان

حقاً شيئاً لا يستطيع ان اصنعه ،

وساد الى بيلار صوتها الدافئ الودود ، الخالي من الضغط وقالت ..
هكذا . اذن . ولاحظ روبرت قطرات من العرق تتصبب على جبينها
وعلى شفيتها وهي تقول .. اذن كان ثمة شيء من هذا . شيء مثل هذا .

وقالت ماريا وهي تمض شفيتها .. حقاً ..

وقالت بيلار برقة .. طبعا انك صادقة ، ولكن لا تروي القصة لانسان ،
فلن يصدقك احد .. افيك دم زنجي يا انكليزي ؟

ونهضت على قدميها ، واخذ روبرت بيدها يساعدها .
- لا . لا اعرف في دما من هذا النوع .

- ولا اعرف ان في ماريا دما من هذا النوع . وهنا موضع الغرابة .

وردت ماريا تقول .. ولكن هذا ما حدث فعلاً . يا بيلار ..

- ولم لا يا ابنتي ، عندما كنت فتية كانت الارض تتحرك في الفضاء ،
وكنت أخشى ان تطير ، كان هذا يحدث في كل ليلة .

- ولكنك تكديبن .

- اجل ، انني اكذب ، فهي لا تتحرك اكثر من ثلاث مرات طيلة الحياة ،
فهل تحركت فعلاً ؟

- اجل . وهذا حق وصدق .

س وانت ايها الانكليزي ، انك لا تكذب .

- اجل ، لقد تحركت حقاً .

- حسناً ، هذا يعني شيئاً هاماً ؟

وقالت ماريا .. ماذا هنيت بثلاث مرات ؟ لماذا قلت ذلك .

- ثلاث مرات ، وقد مرت بك واحدة الان .

- ثلاث مسرات فقط ؟

- قد لا تحدث لمعظم الناس ولا مرة واحدة .. اتنما واتقان ؟
- لقد كدت اسقط .
- اذن فقد تحركت .. هلموا بنا نعود الى المسكر .
- وقال روبرت جوردان ، وهم يمشون بين اشجار الصنوبر .. ما هذا الهراء عن المرات الثلاث ؟
- هراء ، لا تصف حديثي بهذا الوصف ايها الانكليزي الصغير .
- هل هو نوع من السحر ، كقراءة الكف ؟
- كلا ، بل معلومات موثوقة ، قام عليها الدليل والبرهان عند الفجر .
- ولكننا لسنا من الفجر .
- كلا ، ولكنك سميد الطالع ، وقليل ما يلقى غير الفجر ، مثل هذا الطالع الحسن .
- اذن فهل تعنين حقا المرات الثلاث ؟
- فقالت وهي تنظر اليه نظرة غريبة .. اتركني يا انكليزي ، لا تتحرش بي ، فانت اصغر سنا من ان تتحدث الي .
- وقالت ماريسا .. ولكن يا بيلار .
- اغلقي فمك . لقد حصلت لك مرة ، وما زالت امامك مرتان .
- وقال روبرت متسائلا .. وانت ؟
- لقد وقعت لي مرتين ، ولن تحدث الثالثة .
- فسألته ماريسا - ولكن لم لا . ؟
- اغلقي فمك . اغلقه ، فصفار السن من امثالك يزعجنني .
- وقال روبرت - ولم لن تحدث الثالثة ؟
- اغلق فمك ، انت ايضا ، اغلقه !!
- وقال روبرت لنفسه .. حسنا سأغلقه . ولكن انا ماذا دهاني ، لقد

عرفت الكثير من الفجر وهو عجيبون حقا ، ولكننا عجيبون أيضا . والفرق بيننا وبينهم ان علينا ان نعمل لنكسب قوتنا بطريقة شريفة . وليس ثمة من يعرف القبائل التي ننتمي اليها ، ولا تراثنا القبلي ، ولا الخفايا التي كانت تعيش فيها في الادغال ، هذه القبائل التي جئنا من صلبها . وكل ما نعرفه اننا لا نعرف . ونحن لا نعرف شيئا عما يقع لنا في الليالي . اما ما يقع في النهار ، فهذا شيء آخر . وما وقع قد وقع ، ولكن هذه المرأة ، تجيء فتصير على الفتاة ، لتحدثها بما وقع رغم رفضها ، ثم تسمع القصة منها وتتيناها ، وتجعل منها اسطورة عجزية . ظننت انها قد تأملت ، ونحن على الجبل ، ولكنها تعود الان الى سطوتها . ولو كان ما تقوله سرا لتحتم علي ان اقتلها ، ولكنه ليس بالشر ، وانما كل ما تريده هو ان تواصل سيطرتها على الحياة ، عن طريق ماريما .

وخيل اليه ان عليه ان يدرس النساء بعد انتهاء الحرب . وان في وسعه ان يبدأ ببيلاز . فقد عرضت عليه يوما معقدا للغاية . ولم يحدث قط ان اوردت مواضيع الفجر من قبل ، باستثناء حادث الكف . انها لم تكن تهزل آنذاك ، اذ رفضت ان تحدثه بما رأت . وهي تصدق حتما ما تراه ، ولكن هذا لا يقيم الدليل على أي شيء .

وقال لها .. اسمعي يا بيلار ..

وتطلعت اليه وهي تبسّم وقالت .. ماذا دهاك ؟

- لا تكوني غامضة ، فالغموض يزعجني جدا .

- انا لا اؤمن بالعرافة ، والكهانة والرجم بالفيب وقراءة الطوالع وسحر العجسر .

- حقا ؟

- لا ، وارجو ان تتركي الفتاة وشانها .

- سأتترك الفتاة وشانها .

- وان تتركي الغموض ايضا . فامامنا عمل كثير يجب ان تؤديه . دون

ان نشغل أنفسنا بهذه الخزعبلات . وارجو ان تقلل من الغموض وتكثر من العمل .

وقالت بيلار وهي تهز رأسها مؤيدة . . واسمع يا انكليزي ، هل تحركت الارض ؟

– اجل ، عليك اللعنة . لقد تحركت .

وضحكت بيلار ، ضحكت ، وهي تتطلع الى روبرت جوردان . . ثم قالت . . حقا انك لمضحك ، يا انكليزي . فعليك ان تكثر من العمل الان لتستعيد كرامتك .

وقال روبرت يحدث نفسه . . لنذهب هذه المرة الى الجحيم . . ولكنه لم يفه بينت شفة . وكانت السحب قد انتشرت في هذه الآونة في كبد السماء .

وقالت بيلار – لا ريب ان السماء ستمطر ثلجا .

– ثلج في حزيران ؟

– اجل . فهذه الجبال ، لا تعرف اسماء الاشهر . ونحن في قمر شهر ايسار .

– ولكنها لن تثلج ، لا يمكن ان تثلج .

– ولكنها ستثلج يا انكليزي .

ورفع روبرت نظره الى السماء ، فرأى ان السماء قد اختفت باهتة وراء السحن ، ورأى ان لون هذه السحب الذي كان رماديا قبل قليل ، قد اغبر واشتدت كثافته ، لا سيما عند اصطدام هذه السحب بالجبال . .

وقال . . اجل اعتقد انك على حق .

١٤

وعندما وصلوا الى المعسكر ، كان الثلج يهطل بغزارة ، وكانت قطراته تتساقط على الارض ، عبر اشجار الصنوبر . بهدوء ونعومة في البداية . سرعان ما تحولت الى عنف ، عندما اخذت الرياح الشديدة . تهبط من اعالي الجبال . مدومة في السماء . ووقف روبرت في مدخل الكهف وهو يرقب هذا التطور الذي لم يكن ينتظره . وقد بان الغضب في وجهه .

وقال بابلو ، وقد أجش صوته ، واحمرت عيناه .. سيهطل الثلج بغزارة

وسأله روبرت .. هل عاد العجري ؟

- كلا . كما لم يعد المجوز ايضا .

- الا تأتي معي الى المركز العلوي على الطريق ؟

- لا ، لن اشترك في العمل .

- اذن سأعثر عليه بنفسي .

- ستضل طريقك في هذا الثلج الغزير ، ولو كنت مكانك لما ذهبت الان .

- انني سأهبط التل الى الطريق ، ثم اسير معها .

- قد تعثر عليها . ولكن حارسيك ، قد يكونان في طريق العودة الان بعد

ان سقط الثلج . ولن تهدي اليهما في الطريق .

- ان العجوز ينتظرنني هناك .

- لا انه سيمود الان مع تساقط الثلج .

وتطلع بابلو الى العاصفة الثلجية التي كانت قد بلغت الان الذروة فسي
العنف والشدة .. وقال .. اولا تحب الثلج يا انكليزي ؟

وانطلقت اللعنات منهالة من فم روبرت ، ووقف بابلو يتطلع اليه بعينين
تضمهرما الدهشة ، ثم اخذ يضحك .

- سيمدل عن الهجوم في هذا الثلج ، تعال ادخل الى الكهف ، وسياتي
رجلاك بمد قليل .

ودلف الى الكهف فوجد ماريا تشعل النار ، وبيلاز تعد الطعام . وكان
اللهيب قد انطلق متصاعدا من النار التي اشعلتها الفتاة .

وقال روبرت .. وهذا الثلج ؟ او تظن ان هطوله سيطول ؟

- اجل .. ثم صاح محدثا بيلاز .. وانت يا امرأة ، طبعا ، سايك هبوط
الثلج ، بعد ان اصبحت القائدة ؟

فردت عليه تقول .. ما دام قد سقط فليستقط .

وقال بابلو .. اتشرب قليلا من النبيذ يا انكليزي ؟ لقد كنت اشرب
طيلة النهار ، منتظرا هطول الثلج .

- اعطني قدحا .

- لنشرب نخب الثلج .. وقرع قدحه بقدح روبرت .

وكظم روبرت غيظه . وقال يحدث نفسه .. علي ان احتمل ، وان اخمل
الامور محمل البساطة .

وقال بابلو - ان الثلج رائع وجميل ، وليست بك من حاجة الى النوم في
الخارج وهو يتساقط بمثل هذه الفزارة .

وادرك روبرت لتوه ما يعنيه بابلو ، وان هذه القضية ايضا ، تشغل
خاطره وقال له .. يبدو ان هناك الكثير من المشاكل التي تقلقك يا بابلو ؟

فرد هذا بقوله - لا . ولكن الطقس كثير البرودة والرطوبة ايضا .

- اذن يجب ان انام هنا ، في داخل الكهف .

- اجل .

- شكرا ، ولكنني سانام في الخارج .

- اتنام في الثلج ؟

- اجل ، في الثلج ومضى يقول لنفسه .. ولعنة الله على وجهك الذي
يشبه وجه الخنزير .. اجل سانام في هذا الثلج الملمون ، المخرب ، الموحى
بالحزيمة ...

ومضى الى حيث تقف ماريا ، وهي تغذي النار بقطعة جديدة من الخشب
وقال لها .. لا ريب في ان الثلج رائع ..

- ولكنه قد يؤخر عمك . اليس كذلك ؟ او لا تشمر بقلق ؟

- ما العمل ، ان القلق لا يجدي . متى يكون العشاء جاهزا ؟

فقالت بيلار - خيل الي انك جائع . او تريد قطعة من الجبن الان ؟

- شكرا .

واقطعت له قطعة من الجبن . من اللوح المعلق في سقف الكهف . وشرع
يأكل .

وهتف بابلو ، من المكان الذي كان يجلس اليه على المائدة .. ماريا ؟

- ماذا تريد ؟

- نظفي المائدة يا ماريا .

فقالت بيلار - نظف اولا قاذوراتك ، ثم اطلب تنظيف المائدة . نظف
ذئتك وقميصك اولا .

وهتف بابلو - ماريا !

فقالت بيلار - لا تكثرني به . انه ثمل .

وعاد بابلو يهتف - ماريا . ان الثلج لا يزال يتساقط ، وهو شيء رائع .

واخذ روبرت يفكر ، ان هذا الرجل ، لا يعرف شيئا عن فراشي الدافئ
الوثير وملحفته الجلدية ، ودثاره ، ولا يعرف أنني دفعت خمسة وستين
دولارا ثمنا له . . آه كم وددت لو عاد العجزي . على اي حال ، عندما
يعود ، سأمضي الى الرجل المعجوز . قد اذهب الآن ، ولكنني قد اضعهما
لا سيما وانا اجهل اين يقفان .

وقال لبابلو - او تريد ان نلعب بكرات الثلج ؟

- ماذا ؟ ماذا تقترح ؟

- لا شيء . ولكن هل احسنت تغطية جياذك ؟

- اجلس .

وقال روبرت بالانكليزية . وهل ستؤمن الطعام لجياذك ، او انك ستطلق
سراحها وتتركها تبحث عما تاكله ؟

- ماذا ؟

- لا شيء ، انها مشكلتك . سأمضي على قدمي .

- ولكن لم تتحدث بالانكليزية ؟

لا ادري ، عندما اشعر بالتعب احيانا ، ابدأ التحدث بالانكليزية ، او
عندما احس ببعض القرف . او عندما ارى الصعاب تقوم في طريقي ، اشرع
في التحدث الى نفسي بالانكليزية لاسمع صوتها . فاحسن ببعض الطمانينة
فلم لا تحاول ذلك احيانا .

وقالت بيلار . . ماذا تقول يا انكليزي ، يبدو ان حديثك ممتع ، ولكنني
لا افهمه .

- لم اقل شيئاً بالانكليزية .

فقالت بيلار - اذن تحدث بالاسبانية . فالحديث بها ، اقصر واسهل .

- تماما ..

ومضى روبرت يفكر ، لقد مل نفسه ، ومل بابلو وبيلار وماريا ، وهذين الاخوين اللذين يجلسان في الزاوية واللذين لا يذكر اسميهما .. لقد مل كل شيء ، ومل هذه الحرب . فلماذا قدر للثلج ان يتساقط الآن ، وان يهطل بمثل هذه الغزارة . كلا انه ليس بالعزيز . وليس ثمة من شيء ، يمكن ان يعتبر غزيراً .. والآن عليك يا هذا ان تتوقف عن التفكير على هذا النحو ، وان تأخذ الامور كما هي ، فالثلج يتساقط ، وعليك الان ، ان ترن هذا العجري ، وان تمضي الى الرجل العجوز .. ولكن الثلج !! وفي مثل هذا الشهر .. على كل دع التفكير ، ولا تحاول تذكر ذلك القول المأثور ، او تلك الابيات من الشعر .. عليك ان تصلح من ذاكرتك ، او تتوقف عن محاولة تذكر الاقوال المأثورة ، لانها تظل ، اذا نسيتهما ، مسيطرة على فكري ، وكأنها اسم نسيته ، ولا تستطيع الخلاص منه ..

واخيراً قال بالاسبانية .. اعطني قدحا من النبيذ من فضلك ثم مضى يقول .. الثلج كثير .. اليس كذلك ؟

فتطلع اليه الرجل الثمل وقطب جبينه ، ثم قال .. لا هجـوم ، ولا طائرات ولا جسر الآن .

- وهل تتوقع ، ان يستمر الثلج طويلاً .. او تظن يا بابلو العجوز ان الثلج سيتساقط طيلة الصيف ؟

- طيلة الصيف ، لا . اما اليوم وغدا ، فأجل .

- وما يحملك على هذا الظن ؟

- هناك شكلان من اشكال العواصف احدهما يأتي من جبال البيرينيز ويأتي معه بالكثير من البرد والثلج ، ولكن هذه العواصف لا تأتي عادة في

مثل هذا الوقت المتأخر من السنة .

فقال روبرت - حسنا ! هذا شيء هام .

- اما هذه العاصفة ، وهي من النوع الثاني فتاتي من كانتا بريكو . انها قادمة من البحر . وهي عادة تكون مصحوبة بريح شديدة . وثلج كثير .
- واين تعلمت كل هذا ايها المعجوز ؟

اما وقد انتهت سورة غضبه الآن ، فقد بدأ يتأثر بهذه العاصفة شأنه في ذلك دائما . اذ يتأثر بالعواصف . وسواء اكانت العاصفة ، رملية او ثلجية ، بحرية او صحراوية ، استوائية ، او قطبية ، فهو يشعر ببالغ التأثر والانفعال منها . انه اشبه ما يكون بحمى القتال التي تلازم الانسان في المعارك ، ولكنه اصفى منها وانقى . فالرياح تهب في المعارك ، ولكنها تكور عادة حارة ساخنة ، اجل انها حارة وجافة كحلق الانسان تماما . وهي تهب ، ثقينة وقذرة ، فترتفع وتهبط ، تبعا ، لسعد ذلك اليوم ونحسه . انه يعرف تلك الريح تمام المعرفة .

اما العاصفة الثلجية ، فهي على النقيض من كل هذا . ففيها تدنس الحيوانات المتوحشة الشرسة منك ، دون ان تخشاك . وهي ترتحل من مكان الى اخر في البلاد ، دون ان تعرف مكانها ، وكثيرا ، ما تعثر على غزال بري يقف امام دارك . وكثيرا ، ما تلتقي في عاصفة ثلجية ، وانت على ظهر جوادك ، وعلا من الوعول البرية ، فيسارع اليك ، وقد ظن ان جوادك وعلم مثله . وكثيرا ما تبدو العداوات وقد زالت في العواصف الثلجية . وقد يصحب العاصفة زوبعة عنيفة ، ولكنها لا تحمل الثلج الابيض ، وعندما تتوقف الزوبعة ، يعم الهدوء كل مكان . ولا ريب في ان عاصفة اليوم ، من النوع الضخم ، وفي وسعه ان يتمتع بها . انها قد تحطم له جميع خططه ، ولكن عليه ان يتمتع بها .

وقال بابلو ، لقد كنت عابرا سنوات طويلة ، اجل كنت مكاريا نحمل

الشحنات الضخمة عبر الجبال ، على عرباتنا ، قبل ان تظهر الشاحنات والسيارات . وقد تعلمنا في عملنا ذاك احوال الطقس .

– وكيف اشتركت في الحركة ؟

– لقد كنت دائما الى جانب اليسار . وكانت لنا اتصالات وثيقة باهل استوريا وهم من المتطورين سياسيا كل التطور . وكنت دائما من مؤيدي الجمهورية .

– ولكن ماذا كنت تعمل قبيل الحركة تماما ؟

– كنت اعمل مع تاجر خيول في سراقوسة . كان يزود الجيش وحلقات المصارعة باحتياجاتهما الى الجياد . وقد قابلت آنذاك بيلار ، التي كانت تعيش انذاك كما قالت لك ، مع المصارع فينيتو دي بالينسيا .

وانطلقت العبارة الاخيرة منه معبرة عن الكثير من الاعتزاز والكبرياء وقال احد الاخوين ، وكان يجلس الى المائدة ، وهو يتطلع الى ظهر بيلار الواقفة امام الموقد .. لم يكن بطلا كبيرا من ابطال المصارعة .

وادارت بيلار راسها وانفتحت الى الرجل قائلة .. لا ؟ او لم يكن من ابطال المصارعة ؟

وظافت بها الذكريات ، وهي واقفة امام الموقد ، فراته امامها ، قصير القامة ، اسمر الوجه ، وقد لاحت امامها عيناه الحزبتان ، ووجنتاه الفائرتان ، وشعره المجدد الاسود تملوه قبعة ابطال المصارعة ، التي تركت اثرا احمر على جبينه ، من كثرة ما ارتداها . اجل راته ، يقف وقد واجه الثور الذي بلغ الخامسة من عمره ، يقابل القرنين اللذين رفعا الحصان عاليا ، وقد حمل العنق الضخم . جواده وهو يملوه ، ليقذف به بعنف على الحاجز الخشبي ، وجاءت ساقا الثور ، تكملان على ما بقي فيه من حياة . اجل رات فينيتو ، هذا المصارع ، الذي يصفونه الان بانه لم يكن بطلا كبيرا ، يقف الان امام الثور ، وقد ادار له جانبه ، يحمل في يده ، تلك القطعسة

الحمراء من القماش ، وقد لفها حول عصاته . يديرها امام الثور وقد تلطخت بالدماء التي سالت من عنق الثور ، وينتضي سيفه من غمده ، ويرفعه الى ان حاذى كتفه ، ثم يريد ان يغمده ، في نقطة بين عيني الثور ، فلا يستطيع ، لان راس الثورما زال عاليا . ثم راته يحاول ان يخفض رأس الثور بالقماش الاحمر الذي يحمله في يسراه ، ثم راته يلتفت الى الجماهير حول الحلقة ، ويصرخ عاليا ، دعونا نرى اذا كنا سنستطيع قتله على هذا الشكل .

اجل انها تسمع صوته الآن ، وتراه وقد احنى ركبته ، لاول مرة ، ثم اخذ يتقدم بهدوء نحو قرني الثور ، الذي اخذ يخفض رأسه الان ، مع حركة القماش الاحمر ، ثم راته يدفع سيفه بقبضته القوية ، شيئاً فشيئاً في رأس الثور الذي سيطر عليه تمام السيطرة ، واخذ يترنح تحت قبضته القوية ، ليموت بالتدريج .

ها هو يقف امامها ، يرقب الثور الذي يحاول الصمود على قدميه ، وها هو الثور يترنح كالشجرة قبل سقوطها . انه يحاول البقاء على الارض ، ولكن يد الرجل القصير ترتفع لتعلن رسمياً ، الانتصار . ورات علائم الارتياح تملو وجهه فقد كسب المعركة ، ونجاً من اخطارها ومخاوفها ، ثم بدا الثور يتهادى ، وسرعان ما انقلب ميتاً ، وقد ارتفعت اقدامه الاربعة في الهواء . . ومضى الرجل القصير الاسمر ، يخطو ، غير مبتسم نحو سياج الحلبة .

وادركت انه لا يستطيع ان يركض عبر الحلبة ، حتى ولو كانت حياته مهددة ، وراته ، يسير الهويناً الى السياج ، فيمسح فمه بمنشفة ، ويتطلع اليها ثم يهز رأسه ، ويعود فيمسح جبينه ووجهه ، ثم يبدأ طوافه المنتصر حول الحلبة .

وراته يخطو ببطء وهو يجز قدميه ، يحني هامته ، ويبتسم ، وقد سار مساعده خلفه ، ينحنون ، فيلتقطون ما يقذف اليهم من لفائف السيكار والقبعات ثم ينتهي من طوافه امامها . ثم راته يجلس على السلم الخشبي

وقد اخفى فمه بمنشفة .

استعرضت بيلار ، كل هذه الرؤى في خاطرها ، وهي تقف امام النار ثم قالت . . اذن لم يكن بطلا كبيرا ؟ مع أي نوع من الناس اقضي حياتي الان .

فقال بابلو - لقد كان بطلا عظيما ، ولكن عيبه الوحيد قصر قامته .

وقال بريميتفو - وكان من الواضح ، انه مصاب بالتدرن .

فنهفت بيلار - التدرن الرئوي ؟ ومن لا يصاب بالتدرن اذا لقي العقاب الذي تمرض له ؟ في هذه البلاد حيث لا يطعم الفقير بان يجمع مالا الا اذا اصبح مجرما كجوان مارش ، او مصارعا للثيران ، او مغنيا في الاوبرا ؟ اذن لم لا يصاب بالتدرن الرئوي ؟ في هذه البلاد حيث يتخم البورجوازيون انفسهم ومعدهم ، بالطعام فيستعملون المهضمت (كربونات الصودا) . بعد كل وجبة . بينما يعيش الفقراء جياعا ، منذ اليوم الذي يولدون فيه الى اليوم الذي يموتون فيه ، لم لا يصاب مثله بالتدرن الرئوي ؟ واذا كنت قد تنقلت تحت المقاعد في عربات الدرجة الثالثة ، لتخلص من الاجر ، وانت تلحق بالمعارض لتتلم المصارعة في صباك ، فتجلس في الوحول والاقذار ، مع البصاق ، الا تصاب بالتدرن الرئوي ، اذا كانت قرون الثور ، قد مزقت رئتيك .

فقال بريميتفو - طبعاً . ما قصدت قوله ، هو انه كان مصابا بالتدرن الرئوي .

فردت بيلار وقد حملت المعلقة الخشبية الكبيرة في يدها تقول - طبعاً ، كان مصابا بالدرن . لقد كان قصير القامة ، رقيق الصوت ، ويخشى الثيران كثيرا . ولم ارُ في حياتي رجلا ، نجا منها قبل الصراع مثله ، ثم يتخلى عنه خوفا اثناء صراعها . . . وادارت وجهها الى بابلو تقول . . فانت تخشى الموت الان ، وتعتقد ان هذا امر على جانب كبير من الاهمية والخطورة . اما فينيتو ، فقد كان دائم الخوف من الموت ، ولكنه في الحلبة أسد هصور .

وقال الاخ الثاني - كان مشهورا بشجاعته .

فقالت بيلار - لم ار في حياتي رجلا يخاف مثله . انه يكره ان يرى رأس ثور في البيت . وفي ذات يوم ، قتل في معرض فالادوليد ثورا لبابلو روميرو . . فقال الاخ الاول - اذكر ذلك . ست بين النظارة . كان ثورا صابوني اللون ذا قرون مرتفعة . واعتقد انه كان الثور الاخير الذي قتله في فالادوليد

تماما . وبعد قليل ، اجتمع فريق الانصار في مقهى كولون . وقرروا ان يحمل ناديم اسمهم . كما اخذوا رأس الثور ، وقدموه اليه ، في مادبة اقاموها تكريما له في المقهى . وثناء الطعام ، كان رأس الثور موضوعا على الحائط ، وقد غطوه بقطعة من القماش . وكنت في المادبة مع اخريات ، بينهن باستورا وهي اكثر بشاعة مني ونيينا دي لوسي بيبن ، وعدد من العجريات والعاهرات من كل صنف ولون . وعلى الرغم من صغر الولىمة ، الا انها كانت ملاي بالحيوية والعنف ، اذ وقع خلاف بين باستورا ، وبين احدى العاهرات البارزات حول موضوع يتعلق بالاستحواذ والسيطرة . وكنت اجلس الى جانب فينيتو اكثر من سعيدة ، ولاحظت انه لا يتطلع الى رأس الثور الذي غطته قطعة من المخمل الارجواني ، كما تغطي صور القديسين في الكنائس ، في اسبوع الام ربنا السابق .

« ولم يكثر فينيتو من الطعام ، اذ كان قد اصيب قبل نحو من عام بضربة من قرن ثور كان قد اشرف على قتله في سراقوسه . مما جعله طريح الفراش مدة طويلة ، ولم يكن في وسع معدته ، ان تحمل الطعام الان . وكان يضع منديله على فمه ليمسح به الدم الذي يتفجر من صدره بين اونة واخرى .. آه ماذا كنت اريد ان اقول ؟
فقال بريمتيفو . . كنت تتحدثين عن رأس الثور .

- اجل . اجل . ولكنني اسهب في الحديث ، لتفهموا الموضوع تماما . ولم يكن فينيتو قط بالانسان المرح . اذ كان دائما ميالا الى الكتابة ، حتى في ساعات وحدتنا وصفونا . وكان لا يضحك لاي شيء حتى ولو كان هذا الشيء مضحكا . فهو يتناول جميع الامور عادة بصورة جدية . اجل كان

جديا كفيرنادو . ولكن هذه المادبة قد اقيمت تكريما له ، وكان عليه أن يتظاهر بالمرح والود والسزور . وهكذا ظل طيلة وقت الطعام يتتسم ، ويبيدي ملاحظات ودوده ، وكنت الوحيدة التي ارى ما يضعه بمنديله . وكان يحمل ثلاثة مناديل ، امتلات كلها بالدم ، ثم قال لي بصوت خفيض . . اشعر انني لا استطيع الاحتمال اكثر مما احتملت يا بيلار ، وان علي ان اغادر المكان .

« فقلت له . . اذن دعنا نذهب . . لقد رايتك تعاني الاما لا تطاق . وكان الضجيج قد عم المادبة الان ، وسادها جو من المرح . . ولكنه رد قائلا . . لا . لا استطيع ان امضي ، فهذا النادي يحمل اسمي ، وعلي التزام ، تجاههم . فقلت له . . ولكنك مريض ، وعلينا ان نذهب . . فقال . . لا ، سأبقى ، اعطني قليلا من ذلك الشراب .

« وخيل الي ان الشراب سيؤذيه ، لا سيما وأنه لم يكن قد اكل شيئا ، وانه يعاني الاما عنيفة في معدته . ولكن يبدو انه لم يستطع احتمال هذا الجو من المرح والصخب والضجيج دون ان يحتسي شيئا من الخمر . ورايته يشرب بسرعة ، زجاجة من الشراب . واخذ يستعيض الان . . بفوطة الطعام عن المناديل .

« وبلغت الحفلة الان مرحلة شديدة من الحماس والعنف ، واخذ بعض اعضاء النادي ، يطوفون حول المائدة ، وقد حملوا العاهرات على اكتافهم . وشرع ايل نينو يعزف على القيثارة ، بينما اخذت باستورا تغني ، وساد المكان جو من المرح ، والود الشمل . . ومع ذلك لم تكن بعد ، قد وصلنا الى مرحلة ازاحة الغطاء ، عن رأس الثور ، وهو المظهر الأساسي في الاحتفال

« وبدأت اتمتع بالحفلة ، واخذت اصفق مع العازفين ، واغني مع المغنين ولم الاحظ ان فينيتو قد ملأ « فوطته » بالدم ، وتناول « فوطتي » . وكان لا يزال يواصل الشراب ، وقد ابرقت عيناه ، وبدأ في وجهه مرح شديد ، فاخذ يحني راسه لكل انسان . وعلى الرغم من قلة حديثه الا أنه بدأ عليه ، تمتعه بالحفلة حتى الذروة القصوى .

« ومضت الحفلة في سعادتها ، ورونقها ، وكان الرجل الجالس الى جانبي يحدثني عن انه كان مديرا لمسرح رافائيل ايل غالو . . وفي ذات يوم جاءه رافائيل يقول . . « انك اعز صديق لي في العالم ، وانبلهم . وانني لاجبك كما احب اخي ، واود ان اقدم لك هدية » ثم قدم له رافائيل ، دبوسا جميلا من الماس ونبله في وجنتيه ، ومضى ، فقال الرجل لصديق له يجلس الى جانبه ، اسمع ان العجزي القدر ، قد عقد اتفاقا مع مدير جديد فقال الصديق متسائلا ، ماذا تعني . قال : « لقد ادرت له مسرحه عشر سنوات ولم يعطني في غضون اية هدية . فهديته اليوم ، لا تعني الا هذا » ، وبالفعل كانت هذه الحادثة نهاية عمله مع ايل غالو .

« وتدخلت باستورا في هذه اللحظة في الحديث ، لا للدفاع عن رافائيل . فقد كانت من اشد المتحاملين عليه ، ولكن دفاعا عن العجر ، الذين وصفهم المدير بالقدرين . وكان تدخلها عنيفا قويا ، مما حمل المدير على الصمت والسكوت . وتدخلت لاهدىء من نائرة باستورا ، وتدخلت غيتانا ، لتهدىء من نائرتي ، وبلغ الضجيج حدا لم يعد يسمع الانسان فيه شيئا الا كلمة عاهر ، تنطلق من هنا وهناك ، حتى هدانا ، واخذنا ثلاثتنا نرقب كؤوسنا ، وفجأة رايت فينيتو يتطلع الى رأس الثور الذي ما زال تحت الغطاء . وفي عينيه نظرة فزع شديدة .

« وبدا رئيس النادي في هذه اللحظة يلقي كلمته التي تسبق رفع الغطاء عن رأس الثور ، وكنت طيلة الخطاب الذي قوطع كثيرا بالهتافات والقرع على المائدة ، ارقب فينيتو ، الذي كان آنذاك ، يستعمل « فوطتي » في مسح الدماء من فمه . بينما اخذ يتراجع في مقعده ، ناظرا بعزع الى رأس الثور القائم قبالتة .

« وعندما اشرف الخطاب على النهاية ، كان فينيتو يهز رأسه . وقد تراجع كثيرا بمقعده . . فقلت له . كيف انت با صغيري . ولكنه عندما تطلع الي لم يعرفني واكتفى بان يهز رأسه وهو يقول . . لا . لا . لا .

« ووصل رئيس النادي الى النهاية ، ثم وقف بين هتافات الحاضرين على احد المقاعد ، واخذ يفك الرباط ، عن قطعة المخمل الارجواني التي تغطي الراس . ثم رفعها ببطء ، فبدت قرون ذلك الثور الاصفر الضخم ، وكان صاحبها ما زال على قيد الحياة ... يتطلع الى فينيتو .

وصرخ كل فرد منا وصفق البعض ، بينما كان فينيتو ، يتراجع في مقعده وهو يقول : .. لا . لا . لا .. دون ان يرفع بصره عن الثور ، وفجأة تدفق الدم من فمه على ذقنه وقميصه ، واخذ يصرخ .. طيلة الفصل لا بأس ، ولجمع المال لا بأس وللاكل لا بأس . ولكن لا استطيع ان اكل . اتفهمونني؟ انني مريض في معدتي . لهما الان وقد انتهى الفصل .. لا . لا ! ان معدتي مريضة .. وقد انتهى الفصل .. لا . لا . لا . وعاد يجلس الى مقعده ، وقد وضع المنديل على فمه يمنع تدفق الدم منه .. بينما ساد الحفلة وجوم عابس .

وعاد بريميتيفو يسألها .. وكم انقضى عليه بعد هذه الحفلة ، قبل ان يموت ؟

- ذلك الشتاء ليس الا . انه لم يشف قط من تلك الضربة القاتلة التي اصيب بها في سراقوسه . كانت اصابة داخلية ، ولم يشف منها قط . وكانت تعاوده كلما مضى ليقتل ثورا من جديد . ولعل هذا هو السبب في فشله . وكان من الصعب ان يقفز فوق القرون نظرا لقصر قامته . وهذا ما يجعله يترفض دائما للاصابة بطرف القرن .

وقال بريميتيفو .. ما دام قصيرا ، لم يكن يجدر به ان يزاول رياضة المصارعة .

وتطلعت بيلار الى روبرت ، ولم تقل شيئا ، ثم انحنيت على قدرهسا الحديددي الكبير القائم فوق النار ، واخذت تهز رأسها .. وهي تفكر .. يا لهؤلاء الناس . ما اشد غرابتهم . اي نوع من الناس هؤلاء الاسبان . اذا كان قصيرا ، يجب ان لا يزاول المصارعة . وهي تسمع هذا القول ، ولا ترد عليه . ما أسهل الامور على من يجهلها . فهؤلاء يجهلون وها هو احدهم

يقول ، انه لم يكن بطلا ، وها هو الثاني يقول ، انه كان مصابا بالتدرن الرئوي . وها هو الثالث يقول .. كان عليه نظرا لقصر قامته ان لا يزاول المصارعة .

وانحنى على نارها ، ورات على الفراش ، ذلك الجسد الاسمر العاري . وقد بان فيه الندوب وآثار الجراح التي اصيب بها في فخذه و صدره وكل جزء من اجزاء جسده . ورات عينيه المغمضتين ، والوجه الاسمر الكئيب ، والشعر الاسود المجعد ، وهي تجلس الى جانبه على الفراش ، تدلك له ساقيه ، وتحرك عضلاته .. ثم تربت عليه وتقول .. كيف تشعر الآن ؟ وكيف تحس بسايقك ؟ وتسمعه يقول لها دون ان يفتح عينيه .. على ما يرام يا بيلار .. فتقول .. اوتريد مني ان ادلك لك صدرك ؟ .. فيرد عليها .. لا . لا تلمسية .. وتعود فتقول .. وفخذاك .. فيقول .. لا ايضا ، انهما يؤلمانني . وتقول .. ولكنني اذا دلكتهما ، دبت فيهما الحياة واحسا بالدفء ، وحسنت حالك ، فيقول .. لا يا بيلار ، شكرا ، افضل ان لا تلمسيهما . فقالت .. اذن سأغسلك بالكحول .. فقال اجل .. ولكن ترفقي بي ، فقالت .. لقد كنت رائعا في صراحك مسع الشور .. فقال .. اجل لقد احسنت قتله .

« وبعد ان اتمت غسله ، غطته ، واستلقت الى جانبه على السرير ، فمد يده اليها وقال .. انك امرأة يا بيلار .. وكان بعد كل مصارعة ، يمضي الى النوم ، فتستلقي الى جانبه ، وقد وضعت يده بين يديها .

« وكان دائم الخوف في نومه ، وكثيرا ما احست بيده ترتعد ، وبالعرق يتصبب منه ، واذا ما افاق ، قالت له ، ليس نعمة من شيء ، فيعود الى النوم . وقد قضت معه خمس سنوات لم تخنه فيها مرة واحدة .. وبعد ان وارته التراب .. عاشت مع بابلو الذي كان يعمل في تجارة الخيل ، وكان يشبه الثيران التي كان فينيتو يقضي حياته في قتلها .. لكن قوة الشور قد انتهت ، وشجاعته قد مضت ، وهذا ما تعرفه الآن ، فماذا بقي منه .. لقد بقيت هي ليس الا .. اجل لقد بقيت ، ولكن دون غاية او هدف .

وقالت تخاطب ماريا .. انتبهى يا ماريا الى النار التي توقدينها . انها نار للطبخ لا لاحراق مدينة .

ودلف الفجري في تلك اللحظة الى الكهف ، كانت الثلوج تغطيه ، وقد وقف بحمل غدارته ، وبهز الثلج عن ملابسه وعن قدميه .

وهب روبرت على قدميه ومضى الى الباب يقول للفجري .. حسنا ؟
- الخفارة لمدة ست ساعات . رجلان على الجسر الكبير دائما ، وهناك ثمانية رجال وعريف في الكوخ . خذ هذه ساعتك .

- ومركز الطاحونة ؟

- ان المعجوز هناك . في وسعه ان يرقب المركز والطريق معا .
-والطريق ؟

- نفس الحركة كالمعتاد . لا شيء غير المألوف . بضع سيارات فقط .

وبدا الفجري ، يكاد يتجمد من الثلج . وقد احمرت يده . ونسزع « جاكيتته » واخذ يهزها ، ليعمد الثلج عنها . ثم قال .. ظلت في مكاني حتى غيروا الخفارة . كان التغيير عند الظهر وفي السادسة مساء . انها خفارة كبيرة . يسرني اني لست في جيشهم .

وقال روبرت وهو يرتدي معطفه الجلدي .. لنمض الى الرجل المعجوز .
- لست بماض معك ، وانما سامضي الى النار والحساء الساخن . في اوسمي ان اخبر احد هذين . اين يوجد المعجوز ، وان ياخذك اليه .. ثم هتف .. هي .. ايها الكسولان ، من منكما ، يريد ان يرشد الانكليزي الى المكان الذي يزقب فيه المعجوز الطريق ؟

وقال فيرناندو - سامضي انا . قل لي اين هو المعجوز ؟
- اسمع . انه هنا ..

وارشد فيرناندو ، الى المكان الذي يقف فيه اتسيلمو .

كان انسيلمو يقمي في جذع شجرة كبيرة والثلوج تحيط به من جانبه . وكان يكاد يلتصق بجسمه بالشجرة من شدة البرد ، وقد وضع يديه في كمي « جاكينه » ، وقد اغرق رأسه الى ابعد حد ممكن في « يافتها » . وخيل اليه ، انه اذا ظل في مكانه مدة اطول ، فسيتجمد من شدة البرد ، ولكن هذا لن يهم كثيرا . فقد طلب اليه الانكليزي ان يظل في مكانه ، حتى يأتي من يخلفه ، وعندما صدر هذا الامر لم تكن العاصفة الثلجية قد هبت بعد او عرف بأمرها انسان . واكد لنفسه انه لم ير حركات عسكرية غير عادية في هذه الناحية التي يعرفها ادق معرفة ، ويعرف ما يحيط بها من حركات وعادات . وقال يحدث نفسه : يحسن بي ان اعود الان الى المعسكر ، فكل من يملك عقلا أو ذرة من منطق ، لا يتوقع مني البقاء في هذا المكان . ولكن من الخير ، ان ابقى فترة اطول ثم اعود . فهي خطيئة الاوامر على كل حال والاوامر صارمة متزمتة ، وغير مرنة . اذ انها لا تسمح بأي تبدل او تحول وفقا لتبدل الطوارئ والاحوال . وحك قدميه ببعضهما ثم اخرج يديه من الاكمام ، وأخذ يدلك بهما ساقيه ، ويضرب على قدميه ، حتى تسيّر الدورة الدموية فيهما على ما يرام . وبالطبع كان المكان اكثر دفئا من العراء ، فجدع الشجرة يقيه من الريح القارصة ، ولكنه سيضطر الى

السير والعودة عما قريب .

وعندما اتقى من جديد في مكانه ، سمع صوت سيارة على الطريق . كانت لها سلاسل من الحديد ، وكانت السلاسل تحدث هديرا عنيفا . وعندما رمقها ببصره ، رآها تصعد الطريق التي غطتها الثلوج ، وقد طليت باللونين الاخضر والبني ، وطلّي زجاج نوافذها باللون الازرق ، ليحول بين المتطفلين وبين رؤية ما بداخل السيارة . وبالطبع كانت سيارة مدنية من سيارات الرولترز ايس ، وقد اتخذت هذا الشكل المتخفي ليستخدمها اركان القيادة العامة . ولكن انسيلمو ، لم يكن يعرف هذا بالطبع . ولم يستطع ان يرى الضباط الثلاثة وهم جالسون في داخل السيارة وقد التفوا بمعاطفهم وكان اثنان منهم يجلسان في المقعد الخلفي . والثالث في المقعد الامامي الذي يطوى . وكان هذا الاخير يتطلع الى الخارج . من خصاصة صغيرة تركت بلا طلاء خصيصا لعمال المراقبة . ولكن انسيلمو ، لم يدرك بهذا طبعاً . فكلا الرجلين لم ير احدهما الاخر .

ومضت السيارة تقطع الثلوج المتركمة على الطريق تحته ، وراى انسيلمو السائق ، بوجهه الاحمر ، وخوذته الفولاذية ، وقد ظهرا من وراء المعطف الذي يرتديه ، كما راى فوهة البندقية الاوتوماتيكية ، التي يحملها الجندي الجالس الى جواره . وعندما اختفت السيارة عن نظريه صعدا مع الطريق مد انسيلمو يديه في جيوبه ، واخرج من احدهما الورقتين اللتين اعطاهما اياه ، روبرت من دفتر ملاحظاته . ورسم علامة السيارة . لقد كانت العاشرة في ذلك اليوم . وقد عادت ست منها فهبطت الطريق ، اما الاربع الباقية فلم تعد . ولم يكن هذا الرقم غير عادي بالنسبة الى السيارات التي تصعد وتهبط ولكن انسيلمو لا يميز بين سيارات الفورد والفيات والاولبل والرينو وبين والسيتروان التي يستخدمها ضباط الفرقة الموكول اليها حماية الممرات وطريق الجبال ، وبين سيارات الرولترز ايس واللانسيا والمرسيدس والايسوتا التي يستعملها رجال القيادة العامة . وكان في وسع روبرت جوردان ، ان يدرك مثل هذا التمييز . ولو كان هو هناك ، بدلا من المعجوز ، لقلر اهمية صعود هذه السيارات . ولكنه لم يكن هناك ،

وقد اكتفى العجوز بان يرسم صورة السيارة الصاعدة على الورق .

واحس انسيلمو بالبرد بقرصه ، حتى انه قرر العودة الى المعسكر قبل ان يخيم الظلام . ولم يكن يخشى ان يضل الطريق ، ولكنه رأى ان مسن العبث ان يظل في مكانه بينما يشتد عصف الريح الباردة ، ولم يبد على الثلج اي ميل لتخفيف حدة الهطول . وعندما قرر ان يمضي ، واخذ ينفض قدميه مما تراكم عليهما من الثلوج ، لم يلبث ان عاد الى متكئه في الشجرة .

وشرع يحدث نفسه .. لقد امرني الانكليزي بالبقاء ، وقد يكون الآن في طريقه الي ، فاذا تركت موضعي هنا ، فربما ضل طريقه وهو يبحث عني . لقد كانت مشكلتنا الرئيسية طيلة الحرب ، في الافتقار الى النظام ، وعدم اطاعة الاوامر ، اذن فعلي ان انتظر فترة اطول .. فلعله يأتي . ولكنه اذا تأخر في المجيء ، مضيت على الرغم من جميع الاوامر اذ لدي تقرير يتحتم علي ان اقدمه الان ، وامامي مهام كثيرة في هذه الايام . والسماح لنفسني بالبقاء هنا ، والموت متجمدا ، مبالغة لا جدوى منها .

ورأى الدخان يتصاعد من الطاحونة عبر الطريق ، وتدفتت رائحته الى انفه وقد حملتها الرياح . وقال يحدث نفسه . ان الفاشيين يشعرون بالدفء والراحة وستقتلهم ليلة غد . ان هذا امر غريب ، ولا اريد ان اطيل التفكير فيا . لقد قضيت النهار في مراقبتهم فرأيت انهم رجال لا يختلفون عنا في شيء ابدأ . واعتقد ان في وسعي ، ان امضي الى الطاحونة واقرع بابها فيرجبون بي ، سوى ان لديهم اوامر ، باعتراض جميع المسافرين ، وطلب ابراز اوراقهم . انها الاوامر وحدها التي تفصل بيننا وبينهم . فهؤلاء الرجال ليسوا من الفاشيين على الرغم من انني القبهم بهذا الاسم . انهم من الفقراء امثالنا . وكان حريا بهم ان لا يحاربوننا ، ثم انني اكره مجرد فكرة القتل .

وهؤلاء الواقفون عند هذا المركز من الغاليين ، انني اعرف ذلك مسن حديثهم ، فقد سمعتهم يتحدثون بعد ظهر اليوم . وليس في وسعهم ، ان

يتركوا مراكزهم ، لانهم ان فعلوا ذلك . قتلوا افراد اسرهم ، والغاليون ،
اما ان يكونوا من الاذكياء جدا ، او من البلداء والمتوحشين . وقد خبرت
منهم النوعين . فليست من الغاليين ومن نفس مدينة فرانكو . ويدهشني
ما يفكر به هؤلاء الناس ، وقد راوا الثلج يتساقط في مثل هذا الوقت من
العام . فليست في بلادهم جبال عالية كهذه ، ولكن الامطار عندهم غزيرة ،
وبلادهم دائمة الخضرة .

وراي نورا يبنم من نافذة الطاحونة ، فارتعد انسيلمو ، وفكر بهذا
الانكليزي الملعون . فهناك الغاليون ينعمون بالدفء ، داخل المنزل ، في صميم
بلادنا ، وانا اتجمد وراء شجرة ، ونعيش في ثقب من الصخور كما تعيش
الوحوش في الجبال . ولكن الوحوش ستنتقل من عقالها في الغد ، وسيموت
هؤلاء الناعمون الآن بالدفء والراحة وهم في فرأشهم ، كما مات ، رفاقهم
في اوتيرو ، عندما هاجمناها تلك الليلة . كم ود لو لم يتذكر اوتيرو .

لقد قتل في اوتيرو للمرة الاولى في حياته ، وكم ود لو انه لا يشترك في
القتل في مدهامة هذه المراكز . ففي اوتيرو ، طقن بابلو الحارس بموساه ،
عندما وضع انسيلمو « البطانية » على راسه ، فامسك الحارس بقدم
انسيلمو ، واخذ يصرخ ، مما ارغم انسيلمو على ان يطعنه من جديد
بمطواته ، ليرغمه على التخلي عن قدمه . . وانتهى الرجل . وكان قد وضع
ركبته على عنق الرجل لارغامه على السكوت وهو ينهال عليه بموساه ،
بينما كان بابلو يقذف بقنبلته اليدوية من النافذة الى الغرفة التي ينام فيها
رجال المركز . وعندما لمع الانفجار ، كانت قنبلتان اخريان ، قد سقطتا في
قلب الغرفة . فقد قذف بهما بابلو بعد ان رفع صماميهما بسرعة ، حتى
يموت الناجون من القنبلة الاولى . لقد كانت تلك الايام الرائعة في حياة
بابلو ، عندما كان يجول ويصول في البلاد ، كقائد من المغول ، ولا يصمد
امامه اي مركز من مراكز الفاشيين في الليل .

اما الآن فقد انتهى هذا الانسان ، كما ينتهي الخنزير البري الذي طرا عليه التحول والتغير ، وعندما تم تحوله ، وانتهى تحويله ، يقذف الانسان بحجرين ، فيجري وراءهما ، الخنزير البري ، الذي لم يعد برياً لالتقاطهما . . . لا ، ان بابلو لم يصل بعد الى هذه الدرجة من السوء ، ولكنه تغير كثيراً .

وخيل اليه ، ان البرد قد اشتد اكثر فاكثر . . وقال لنفسه ، كان على الانكليزي ان يصل . . وعلي ان لا اشترك في عملية القتل في هذه المراكز . وسيكون هؤلاء الغاليون الاربعة وعريفهم ، من نصيب المتعطين السى القتل . لقد قال الانكليزي ذلك ، وبالطبع سأقتل ، اذا لم يكن ثمة مناص من القتل ، ولكنني كما قال الانكليزي ، سأكون معه عند الجسر ، ونترك الهجوم على المراكز للاخرين . وبالطبع ستنشعب معركة عند الجسر ، واذا قدر لي ان اعيش بعد المعركة ، فاني اكون قد عملت كل ما يسع رجلاً عجوزاً مثلي ، ان يعمل في هذه الحرب . ولكن على الانكليزي ان يأتي الان ، فقد تصلبت أعضائي من البرد ، ومجرد رؤيتي للنور ينبعث من نافذة الطاحونة ، حيث ينعم الغاليون بالدفاء ، تجعل احساسي بالبرد يشتد ، ويتضخم . كما وددت لو عدت الى بيتي وانتهت هذه الحرب . ولكنني لا املك بيتاً لان . وعلينا ان نفوز بالحرب ، قبل ان اتمكن من العودة الى البيت .

وكان احد الجنود يجلس في الطاحونة ، على عجزه ، وهو ينظف حذاءه بينما كان جندي آخر ينام على سريره . اما الثالث فكان يمد الطعام ، والعريف يقرأ صحيفة في يده . وكانت الخوذ معلقة على مسامير على الحائط ، بينما ارتكزت البنادق على الجدار .

وقال الجندي المستلقي على سريره . . اية بلاد هذه ، يهطل فيها الثلج في شهر حزيران ؟

فقال العريف . . انها ظاهرة طبيعية غريبة .

وقال الجندي الذي يتولى الطبخ . . نحن في شهر ايار القمري . فلم

ينته هذا الشهر بعد .

فعاد الاول يقول .. ولكن اية بلاد هذه التي تتساقط الثلوج فيها
نسي ايار ؟

فقال العريف - ان سقوط الثلج في ايار ليس غربيا في هذه الجبال .
وقد شعرت بالبرودة في مدريد في شهر ايار أكثر من اي شهر آخر .

فقال الطباخ - ولا ريب في انك تشعر بالحرارة فيها ايضا ، اكثر من اي
مكان آخر .

ورد العريف - ان ايار هو شهر المتناقضات في الطقس . وهنا في قشتالة،
قد يكون شهر ايار من اشهر الحرارة القانطة ، ولكنه قد يكون ايضا من
اشهر البرد القارص . وقال الجندي المستلقي .. وهو شهر امطار ايضا،
فقد امطرت السماء كثيرا في ايار الماضي ، حتى ان المطر ، كاد لا ينقطع اي
يوم .

وقال الطباخ - اجل انه لم ينقطع . على كل حال ، كان ايار هو شهر
نيسان القمري .

فرد العريف - ان الانسان يكاد يصاب بالجنون من الاصفاء الى حديثك
عن هذه الاشهر القمرية . دع الاشهر القمرية للاعمار نفسها .

- كل من يعيش في البحار او في المزارع ، يدرك ان الشهور القمرية هي
الامر الهم . وها نحن قد بدأنا شهر ايار القمري ، في خضم شهر حزيران
- اذن لم لا تتاخر الفصول .. ان كل هذا الموضوع يسبب لي صاداعا .

- انك من اهل المدن . اجل انك من لوغو . فماذا تعرف عن البحار
والزراعة ؟

- ولكن الانسان يتعلم في المدن اكثر بكثير مما تتعلم في بحارك او في
زراعتك .

- في مثل هذا الشهر ، تتوافر اسماك « السردين » الصغيرة ، ويخرج
الصيادون الى البحار ، بينما يتجه سمك « الكويل » الى الشمال .

- ولم لا تلتحق بالبحرية اذا كنت من نوبيا ؟

– ذلك لانني لم اتطوع في نوبيا بل نغريريا حيث ولدت ، ومن نغريريا ،
لا يذهب المجدد الى البحرية ، وانما الى الجيش .
– وهذا حظ اسوا .

وقال الجندي المستلقي : لا تظن ان البحرية ، اقل مخاطر من الجيش .
حتى ولو افترضنا عدم وجود المعارك ، فالشاطئ شديد الخطر في الشتاء .

فرد العريف بقوله – ليس هناك ما هو اكثر خطورة وسوءا من الجيش

وقال الطباخ – انت العريف ، تقول هذا القول ؟ يا لها من طريقة .

– اجل لقد عنيت المخاطر ، من ناحية احتمال القصف الجوي ، والحاجة
الى حياة الحواجز والاسلاك الشائكة .

فقال الجندي المستلقي – ولكن ليس لدينا هنا الا القليل مما تذكره .

فرد العريف – بحق الاله ، من يدري متى سنتعرض لها ثانية ؟ بالطبع
ان تكون حياتنا كلها على هذا النحو من السهولة والبساطة .

– ولكن انتظن ان حياتنا على هذا الشكل ستطول ؟

– لا ادري . وكل ما ارجوه ان تطول مدة ما تبقى من الحرب .

وقال الطباخ – ولكن الخفارة ست ساعات ، امر شاق وطويل .

– سنختصرها الى ثلاث طالما ان العاصفة مستمرة . وهذا شيء طبيعي
ومألوف .

وقال المستلقي – وما رايك في سيارات ضباط الاركاب هذه ؟ لم يعجبني
منظرها وهي تمر بنا .

– ولا انا . فهذا المنظر يدل على شيء مشؤوم .

وقال الطباخ – وهذه الطائرات . اليست علامة سيئة ايضا ؟

فرد العريف – ولكن سلاحنا الجوي قوي لا يغلب . وليس لدى الحمر ،

سلاح يكفي لمواجهةنا . ولا ريب في ان منظر الطائرات اليوم ، يبعث في نفس كل انسان السعادة .

وقال المستلقي - لقد رايت طائرات الحمر ، وهي تجد في عملها ، اجل لقد رايت هذه القاذفات من ذوات المحركين ، وكان احتمالها امرا مربعا - اجل ، ولكنها لا تضاهي في قوتها ، قوة سلاحنا الجوي . ان طائراتنا لا تقهر .

★★

هذا ما كانوا يتحدثون به في الطاحونة ، عندما كان انسيلمو يرقب وسط الثلج ، الطريق ، والضوء المنبعث من نافذة الطاحونة .

وعاد انسيلمو يخاطب نفسه . . آمل ان لا يكون نصيبي القتل . واني لامل بعد انتهاء الحرب ، ان يكون ثمة تفكير عظيم . عن اعمال القتل التي ارتكبتها الانسان . واذا اختفت الديانة من بلادنا بعد الحرب ، فيجب ان يكون ثمة تكفير مدني ، ينظم على اي شكل ، ليظهر الانسان من اعماله ، والا لما نوفر لنا اساس انساني صادق للحياة ، وقد يكون القتل ضروريا ، وهذا ما ادركه . ولكن الاقدام عليه امر سيء على اي حال ، بالنسبة الى الانسان ، ولذا يتحتم ايجاد نظام صحيح بعد ان تنتهي هذه الحرب ونفوز فيها للتكفير ، وراحة ضميرنا .

كان انسيلمو رجلا طيبا ، وكانت هذه المشكلة التي تتعلق بالقتل تعاوده كلما كان وحيدا ، وكثيرا ما كان وحيد .

وعاد يفكر . . وهذا الانكليزي ، انه يبدو انسانا رقيقا وشديدا الاحساس ، ومع ذلك فقد ذكر لي ، انه لا يكثرث بأن يقتل . ويبدو ان الشبان لا يكثرثون كثيرا بهذا الموضوع . ومن المحتمل ، ان لا يحمل الاغراب ، ولا سيما اولئك الذين يختلفون عنا في الدين نفس العواطف التي نحملها . ولكن كل من يقترب القتل يعتبر وحشا ، فهو خطيئة كبرى ، وعلينا ان نقوم بعمل ضخم وقوي في المستقبل للتكفير عنه .

وكان الظلام قد خيم تماما على المكان الآن ، ونظر عبر الطريق الى الضوء المنبعث من هناك . ثم اخذ يحرك يديه ليمتص فيهما الدفء والحرارة . وتصور ان عليه الان حتما ان يعود الى المسكر . ولكن شيئا ما ، ظل يمسك به ويحمله على الوقوف الى جانب الشجرة فوق الطريق . وكان هطول الثلج قد اشتد ، وخيل لانسيلمو ان من الخير لو نسفوا الطريق الليلية . ففي مثل هذا الطقس من السهل اداء مثل هذا الواجب واحتلال المركزين . اجل ففي مثل هذه الليلة ، يستطيع الانسان ان يفعل كل شيء .

وعاد الى الوقوف الى جانب الشجرة ، يضرب الارض بقدمه ، ولم يعد يفكر في الجسر او موضوعه . كان دائما يحس بالوحدة عندما يهبط الظلام ، اما الليلية ، فقد شعر بخواء في داخله يشبه الجوع . وكان في تلك الايام الخوالي يتغلب على هذا الاحساس بالوحدة بتلاوة الصلوات ، التي يتلوها عادة بعد عودته الى البيت من رحلات صيده ، فيشعر بالراحة والطمأنينة ولكنه توقف عن الصلاة منذ بدء الحركة . وقد افتقد هذه الصلوات ، ولكنه وجد ان من غير اللائق بل ومن النفاق ان يعود الى تلاوتها ، ولم يكن يود ان يطلب اي احسان ، او أية معاملة خاصة متميزة عن تلك التي يلقاها سواه .

ومضى يخاطب نفسه . . اني رجل وحيد ، ولكن هذا شأن جميع الجنود وزوجات الجنود ، وكل من فقد أسرته او ابويه . . وليست لي زوجة ، ولكني سميد لانها توفيت قبل الحركة . . اذ لو عاشت لما استطاعت ان تفهمها . وليس لي اطفال ، ولن ارزق قط باطفال . وقد اشعر بالوحدة في النهار ، عندما افتقر الى العمل ، اما الليل ، فهو وقت الوحدة القاتلة . ولكنني امك شيئا ، لا يستطيع اي انسان او اله ان ينتزعه مني ، وهو انني خدمت الجمهورية خير خدمة . اجل لقد عملت في سبيل الخير الذي سنتقاسمه كلنا فيما بعد . وكان عملي رائعا منذ بدأت الحركة ، ولم اعمل قط شيئا اخجل منه .

وكل ما يؤلني هو ان اقتل . ولكن الفرصة ستتوفر للتكفير . . اذ ان

مثل هذه الخطيئة الكبرى التي يحملها الكثيرون ،تتطلب إيجاد حل او نوع من العزاء . واني لاشعر بالميل الى التحدث الى الانكليزي في هذا الصدد ، ولكن بالنظر الى صغر سنه فقد لا يفهمني . . حقا لقد ذكر موضوع القتل ذات مرة ، ولكن . . الم اكن انا الذي اثرت الموضوع ؟ لا ريب في انه قتل كثيرين ولكنه لا يبدي اية رغبة في القتل . فالذين يحبون القتل ، يدون دائما وقد تغلبت عليهم طبيعتهم العفنة .

ولا ريب في ان القتل خطيئة كبرى ، بل لعلها الخطيئة الوحيدة التي يجدر بنا ان لا نقترفها ، حتى ولو اقتضتها الضرورة . اما في اسبانيا ، فالقتل شيء سهل ، وكثيرا ما يقدمون عليه ، دون حاجة الى اقترافه ، وهنا يقع العنب الهائل الذي لا يمكن اصلاحه فيما بعد . وكم كان بودي لو انني لم افكر فيه كل هذا التفكير ، وكم وددت لو توفرت الندامة والتكفير منذ هذه اللحظة ، لان هذه هي الخطيئة الوحيدة التي اجترمتها في حياتي والتي تعذب ضميري كثيرا ، عندما اكون وحيدا . اما الجرائر الاخرى ، ففي الامكان الصفح عنها ، او التكفير ، عن طريق العطف واللطف . اما القتل ففي رأيي جريمة كبيرة ، ويجب ان تعالج فورا . وقد تظهر فيما بعد ايام تتطلب من الانسان ان يعمل في سبيل الدولة ، او اشياء قد يعملها لازالة جرائمه . فهي من الامور التي يجب على الانسان ان يقدم تماما الثمن للتكفير عنها كما كان يفعل في ايام انتمائه الى الكنيسة ، حقا ان الكنيسة نظمت شؤون الخطايا ادق تنظيم . . وسرته هذه الفكرة ، فابتسم في جنح الظلام ، عندما رأى روبرت جوردان امامه . لقد جاء بهدوء ولم يشعر به المعجوز الا وهو يقف امامه .

وهمس روبرت في اذنه وهو يربت على ظهره . . كيف حال المعجوز ؟

- قتله البرد . . . ورأى فيرناندو يقف على مقربة .

فقال روبرت هلم الى المسكر ، لتندفا ، لقد كانت جريمة مني ان ابيك هنا مثل هذا الوقت الطويل .

اشار انسيلمو - هذا ضوؤهم .

- واين الحرس ؟

- أنك لا تراه من هذا المكان . انه وراء المنعطف .

- عليهم اللعنة .. ستخبرني في المعسكر ، هلم بنا ولنذهب .

- دعني اريك .

- سأرى كل شيء في الصباح ، خذ جرعة من هذا .

ومد يده بزجاجة الابسنت الى الرجل العجوز ، فتناول هذا منها جرعة كبيرة . ثم قال وهو يمسح شفثيه بيده متلمظا .. آه ، انه كالنار .

وقال روبرت .. هيا بنا ، فلنذهب .

وكان الظلام قد اشتد تماما ، والعاصفة الثلجية ، قد وصلت ذروتها . وكان فيرناندو يقف على مبعدة منهما .. فقال روبرت ، وهو يمد يده اليه بالزجاجة .. هي ، يا فيرناندو ! اليك في جرعة .. ؟

- لا شكرا .

وقال روبرت يحدث نفسه ، ان من حسن حظه ان روبرت رفض ان يشرب ، اذ لم يبق في الزجاجة الا القليل .. وقد سعدت بقاء هذا العجوز .. ثم اخذ يربت على ظهره ، وهما يصعدان الجبل .. وقال .. يسعدني ان اراك . فعندما اكون حزينا ، يعاودني السرور بروبتك .. هيا لنعد الى مكان هابلو .

وقابل انسيلمو .. الى قصر الخوف

- لا الى كهف البيضات الضائعات .

فتساءل فيرناندو - اية بيضات ؟

- انها مجرد نكتة عابرة . مجرد نكتة ..

- ولكن لماذا ضاعت البيوض ؟

- لا ادري . وعليك ان تبحث عنها في كتاب ، او عند بيلار . . ثم وضع روبرت يده على كتف انسيلمو وقال وهو يهزه . . اسمع انني سعيد برؤيتك اتسمع ؟ انك لا تدري ما يعنيه ان بجد الانسان رفيقه في هذه البلاد في نفس المكان الذي تركه فيه .

- يسمعني ان اراك ، ولكنني كنت على وشك ان اغادر مكاني .

- كان من الافضل ان تغادر مكانك والا تجمعت فيه .

- وكيف الوضع ، في المكان البعيد ؟

- على احسن ما يرام ، كل شيء رائع .

كان يشعر بالسعادة تفره ، وهو عين الاحساس النادر من السعادة الذي يحس به من يتولى مركز القيادة في اي جيش ثوري ، عندما يرى ان احد اجنحته قد صمد في موضعه . وخيل اليه ، ان سعادته ، ستزداد وتتضخم لو صمد الجناحان معا . ولكنه لا يدري ، من سيصمد في الجناح الثاني ، فمن المحتمل ، اذا مد هذا الجناح ، او اي جناح ، ان لا يتمخض الا عن رجل واحد . اجل رجل واحد ، وبالطبع ليس هذا بالمحور الذي يريده . ولكنه رجل طيب وطيب جدا . وخيل اليه ، ان هذا العجوز سيكون بمفرده الجناح الايسر عندما تنشب المعركة ، ولكنه لا يريد ان يبوح له بهذا السر منذ الان حقا انه رجل طيب ، وستكون المعركة ممتازة . وم ود دائما لو خاض معركة يقودها هو . وكانت له فكرة دائما عن كل ما ارتكب من اخطاء في كل المعارك السابقة . اذن يجب ان تكون المعركة المقبلة رائعة للغاية . انها ستكون صغيرة ولكنها منتقاة ومختارة . . ومضى يقول لنفسه . . اذا كنت سأنفذ ما اراه ، فانها ستكون معركة مختارة .

وقال يخاطب انسيلمو . . يسرني جدا ان اراك .

- وانا كذلك .

وشعر انسيلمو وهما يرتقيان الجبل في ظلمة الليل ، والرياح تعصف بظهورهم ، والزوبعة الثلجية ، تمر فوق رؤوسهم ، ان احساس الوحدة الذي سيطر عليه قبلا قد فارقه الان . فهو لم يعد وحيدا منذ ربت الانكليزي على كتفه . ولقد كان الانكليزي فرحا وسعيدا ، واخذا يتبادلان النكات . وقد ذكر الانكليزي ان الامور تسير على ما يرام ، وهو لهذا لا يشعر بأي قلق . واحس بالدفء من جرعة الخمر التي نالها ، تسري من معدته الى قدميه ، وقد اخذا في ارتقاء الجبل . . وقال يحدث الانكليزي . . لم ار الكثير على الطريق .

فقال الانكليزي - حسنا . . ستريني ما رسمت ، عندما نصل هناك .

وغمر شعور من الفرح ، انسيلمو ، لانه ظل في مركز المراقبة ولم يفادره

وخيل لروبرت جوردان ، ان انسيلمو لو عاد الى المعسكر ، لكان عين الصواب ، ولكن العمل الذي يجب عليه ان يقوم به في مثل هذه الظروف . ولكنه ظل في مركزه . وهذا شيء نادر في اسبانيا . ومجرد البقاء في هذه العاصفة يرمز الى الكثير . ولعل للامان بعض الحق ، في تسمية الهجوم بالعاصفة . وقد اعثر على رجلين اخرين يمكن ان يظلا في مكانيهما . اجل في وسمي ان اعثر على آخرين . ولا ادري ، هل فيرناندو من هذا النوع او لا . من المحتمل ان يكونه ، فهو الذي اقترح ان ياتي معي قبل قليل . وهل في وسمي ان افترض انه سيبقى . او ليس هذا بالامر الحسن . انه من النوع العنيد . وعلي ان اقوم ببعض التحريات . . ترى ما الذي يدور في خلد هذا الانسان ؟

وقال روبرت يسأله - بماذا تفكر يا فيرناندو ؟

- لماذا تسألني ؟

- بدافع الفضول ، فانا رجل كثير الفضول .

- كنت افكر بالمشاء .

- اوتحب الاكلن ؟

- أجل كل الحب .

- ما رأيك في طهو بيلار ؟

- معتدل .

وسيطرت على روبرت جوردان حاسة غريبة ، بأن هذا الرجل من النوع
الذي يثبت في مركزه .

وانطلق الرجال الثلاثة صمدا في طريق الجبل يخوضون في الثلج .



قالت بيلار لروبرت عندما وصل . . كان ايل سورددو هنا . وكان روبرت ورفيقاه ، قد أندفعا من العاصفة الثلجية الى دفة الكهف ودخانه، فأشارت المرأة براسها اليه . . فاتجه نحوها وهمست تقول . . لقد مضى يبحث عمن الجياد .

– حسنا ، وهل ترك لي اية رسالة ؟

– لا شيء سوى انه يمضي بحثا عن الجياد .

– ونحن ؟

– لا شيء . . انظر اليه .

وكان روبرت قد رأى بابلو عندما دلف الى الكهف ، فقطب هذا جبينه وكان لا يزال يرقبه بعينيه ، من وراء المائدة الكبيرة ، ويحرك يديه ، ثم سمعه يقول . . لا زالت السماء تهطل ثلجا يا انكليزي .

وأحنى روبرت جوردان راسه دون ان ينبس ببنت شفة .

وقالت له ماريا – انزع حذاءيك ، ودعني آخذهما لاجفهما . سأعلقهما فوق النار .

– كوني حذرة ، بحيث لا تحرقيهما ، فانا لا ارغب في السير هنا عاري

القدمين .. ثم التفت الى بيلار وقال .. ما المشكلة ؟ اهذا اجتماع ؟ اليس
ثمة في الخارج أي حراس ؟

- في مثل هذه العاصفة ؟

كانوا ستة رجال يجلسون الى المائدة وقد ركنوا بظهورهم الى الحائط .
وكان انسيلمو وفيرناندو ، لا يزالان ينظمان ملابسهما من الثلج ، وبضربان
بحذاءيهما الحائط ..

وقالت ماريا .. اعطني جاكيتك ، ولا تدع الثلج يذوب عليها .

ونزع روبرت سترته ، وحل رباط حذائه ..

وقالت بيلار .. سيتبلل كل شيء هنا .

- انت التي استدعيتني اليك هنا .

- ومع ذلك ، فليس ثمة ما يبعثك عن العودة الى الباب لتنظيف نفسك

- عفوا .. ووقف على الارض القذرة بقدميه العاريتين وقال .. دبيري
لي يا ماريا زوجا من الجوارب .

- فهتفت بيلار ، وهي تضع حطبة جديدة في النار .. يا الله ، يارب .

وقال روبرت - على الانسان ان يستغل وقته دائما .

وقالت ماريا - ان كيسك مفلق .

- هاك مفتاحه .

- انه لا يناسب هذا الكيس .

- انه مفتاح الكيس الاخر . والجوارب في الجزء العلوي منه .

وعثرت الفتاة على زوج من الجوارب ، واغلقت الكيس ، ثم اعطته
الجوارب مع المفتاح . وقالت - اجلس ، والبس الجوزيين ، ثم ادلك

قدميك جيدا .

وتطلع اليها روبرت مقطبا ، وقال .. اليس في وسعك ، ان تجففتيهما
بشعرك ..

وسمعه بيلار فقالت .. يا لك من خنزير .. ظهرت اولا بمظهر الرب ،
وها انت تظهر الآن بمظهر الهنا السابق . اضربه بقطعة من الخشب يا
ماريا .

فقال روبرت - لا ، اني امزح ، لانني سعيد

- اسعيد انت ؟

- كل السعادة . فكل شيء يسير على ما يرام .

وقالت ماريا .. اذهب يا روبرتو واجلس ثم جفف قدميك ، ودعني
آتيك بشيء دافئ تشربه .

وقالت بيلار .. اوتظنين ان هذا الرجل لم يبلى قدمه من قبل ، او انه
لم يسر في حياته تلجا بهطل .

وجاءته ماريا بجلد خروف فوضعت تحت قدميه على الارض القذرة
وقالت .. دع هذا تحت قدميك حتى يجف حداؤك .

وكان الجلد ، حديث التجفيف ، ولم يكن مذبوغا ، وعندما وضع روبرت
قدميه عليه احس بخشونته .

واستمرت النار في الاشتعال ، وهتفت بيلار بماريا تقول .. انفخي على
النار ايتها الفتاة التي لا نفع فيها . فقد امتلا الكهف بالدخان .

وردت ماريا تقول .. انفخي انت ، انني ابحت عن الزجاجاة التي تركها
ايل سورودو .

- انها وراء الكيسين ، هل يجب ان تعني به كالطفل .

- لا انني اعني به كرجل ، ابتل بالماء وشعر بالبرودة . انني اعني به
كرجل عاد لتوه الى بيته . خذها هي الزجاجاة . انها زجاجاة الظهر ، وفي

وسع الانسان ان يعمل مصباحا جميلا من هذه الزجاجة . وعندما يتاح لنا ان نعود الى رؤية الكهرباء من جديد ، فان هذه الزجاجة ستصبح مصباحا جميلا . كيف تتناول ما فيها يا روبرتو ؟

— طننت انني انكليزي ؟

— انني ادعوك روبرتو امام الآخرين . . كيف تريد ان تشرب يا روبرتو .

وقال بابلو وهو يهز راسه الثقيل . . روبرتو . . كيف تريده يا دون روبرتو ؟

فقال روبرت — اتريد قليلا منه ؟

وهز بابلو راسه . . انني اسكر نفسي بالنبيذ .

— اذن انت تعبد باخوس .

— ومن هو باخوس ؟

— انه احد رفاقك .

— لم اسمع باسمه من قبل في هذه انجبال .

وقال روبرت لماريا . . اعط انسيلمو قدحا منه . انه هو الذي يحس بالبرد حقا . وكان قد بدأ يرتدي جوربيه الجافين ، واحس بالدفع من قدح الويسكي الذي مزجه بالماء . وخيل اليه ان الويسكي لا يتنقل دافئا في الجسد كما يتنقل الابسنث . اذ لا شيء يضاهي الابسنث .

وبدا يفكر . من يمكن له ان يصدق ، انهم يملكون الويسكي هنا . ولكن لاغرانجا ، هي اكثر مدينة في اسبانيا يمكن ان يعثر على الويسكي فيها . . بالله ما ادوع ايل سورودو هذا ، لقد قدم شيئا من زجاجته لزانره الديناميتي ثم ما عتم ان تذكر انه يجب عليه ان يحملها اليه في المساء . . ان هذا اكثر من مجرد دمانة وكياسة . فالكياسة تقضي باخراج الزجاجة ، ودعوة الزائر الى كأس . وهذا ما كان عمله الفرنسيون في حالة كهذه ، اذ يوفرون ما تبقى الى مناسبة ثانية . اما التفكير ، بأن الزائر قد احبها ، وانه قد يحتاج اليها ، في الوقت الذي يكون فيه هذا الانسان الذي فكر ،

مشغولا ، بامور اكثر اهمية وخطورة ، تتعلق به نفسه ، فهذا مما لا يمكن ان يجده الانسان الا عند الاسبانيين . انه طراز اسباني حتما . ولعل مثل هذا العمل ، هو من الاسباب التي تدعوه هو - اي روبرت - الى حب هذا الشعب ، ولكن لماذا الاغراق في الخيال حول هذا الموضوع . فهناك فصائل مختلفة من الناس عند الاسبان ، تماما مثل الاميركيين . ومع ذلك فان لفنة ايل سوردو ، ومجيئه بزجاجة الويسكي ، عمل رائع .

وقال يسأل انسيلمو - كيف وجدته ؟

وكان العجوز يجلس الى جانب النار وقد ضاءت الابتسامة على وجهه ، وحمل القدح في يديه ، فهز رأسه .

وقال روبرت يسأله - ماذا ؟ الا تحبه ؟

فرد انسيلمو - لقد مزجته الطفلة بالماء .

فقالت ماريا - تماما كما يفعل روبرتو . هل تختلف عنه ؟

- لا ، انا لا اختلف عنه ، ولكنني اود ان اشعر به وهو يحرق حلقي عندما يتسلل الى جوفي .

وقال روبرت للفتاة - اعطني هذا القدح . وصبي له قدحا آخر من النوع الذي يحرق .

وافرغ ما في الكأس في قدحه واعاده الى ماريا ، فارغا ، فصبت فيه من الزجاجاة بهدوء وعناية .

وقال انسيلمو وقد تناول الكأس وافرغ ما فيه في جوفه . . آه . ثم تطلع الى ماريا الواقفة امامه والزجاجة في يدها ، فأوما اليها ، والدموع تترقق في عينيه . . آه ، هذا هو الشراب الذي يقتل ما فينا من حشرات

وقالت ماريا وهي تدنو من روبرت ، والزجاجة ما زالت في يديها . . روبرتو هل انت على استعداد لتأكل ؟

- وهل الطعام جاهز ؟
- انه جاهز في اللحظة التي تعينها .
- وهل اكل الآخرون ؟
- كلهم ما عداك . وانسيلمو وفيرناندو .
- اذن دعينا ناكل . وهل اكلت انت ؟
- سأكل فيما بعد مع بيلار .
- تعاليا وكلا معنا .
- لا ، لا يجوز لنا .
- تعاليا وكلا . ففي بلادنا لا يأكل الرجل قبل امرائه .
- تلك بلادك ، اما هنا فمن الخير ان تأكل المرأة بعد رجلها .
- وقال بابلو وهو يهتف من مكانه عند المائدة .. كلي معه ، واشربي معه ، ونامي معه ، وموتي معه ، واعلمي وفق عادات بلاده .
- وقال روبرت ، وقد وقف امام بابلو .. هل أنت ثمل ؟ .. وتطلع اليه الرجل سعيدا ، بوجهه القذر .
- فقال بابلو اجل .. واين بلادك يا انكليزي حيث تأكل النساء مع الرجال
- في الولايات المتحدة . في ولاية مونتانا .
- وهل يلبس الرجال هناك « تنورات » مثل النساء ؟
- لا ، ذاك في اسكوتلندا .
- ولكن قل لي ، متى ترتدون مثل هذه التنورات ؟
- انا لا ارتديها .
- وعندما ترتدي « التنورة » ، ماذا تلبس تحتها ؟
- لا ادري ما يلبسه الاسكوتلنديون . وكثيرا ما ساءلت نفسي

هذا السؤال .

- ليس الاسكوتلنديين ، فمن يهتم بالاسكوتلنديين ، ومن يهتم بأناس يحملون مثل هذا الاسم الغريب ، انا لا اهتم بهم . انا اخاطبك يا انكليزي انت . ماذا تلبس تحت تنورتك في بلادكم ؟

- قلت لك مرتين اننا لا نلبس « التنورات » ، ولم اكن ثملا ولا هازلا .
- ولكن تحت تنورتك . فهذا امر معروف انكم تلبسون التنورات . حتى الجنود منكم . وقد رايت صوراً عدة ، كما رايتهم في « السيرك » . ماذا تلبس تحت تنورتك يا انكليزي .

فقال روبرت - نضع مظاهر رجولتنا . .

وضحك انسيلمو ، كما ضحك الآخرون باستثناء فيرناندو . فقد كان النطق بتلك الكلمة الضخمة امام النساء ، امرأ اساءه .

وقال بابلو - هذا شيء طبيعي ، ولكن لو كان لديكم الكفاية منها لما ارتديتم التنورات .

وقال بريمتيفو . . لا تدعه يبدأ من جديد يا انكليزي ، فهو ثمل ، . قل لي ، ماذا تربيون في بلادكم ؟

- الاغنام والابقار ، ونزرع الحنطة والفولاذ . والقصب لصناعة السكر .

وكان الثلاثة يجلسون على المائدة ، بينما يجلس الآخرون قريبا منهم ، باستثناء بابلو ، الذي كان يجلس وحيدا امام جفنة ملاي بالنبيذ . واخذ روبرت يلتهم طعامه بشهية .

وقال بريمتيفو بلهجة مهذبة . . لا ريب أن في بلادكم جبلا . .

- طبعاً جبال كثيرة ، وبالغة الارتفاع .

- رهل عندكم مراعى عظيمة ؟

- من اجود المراعى . ففي الصيف المراعى العالية التي تملكها الحكومة .

وفي الخريف تهبط الماشية الى المراعي الخفيضة .

– وهل يملك الفلاحون الارض عندكم ؟

– معظم الاراضي ملك لمن يفلحونها . وكانت في السابق ملكا للدولة .
ولكن اذا ما عاش فيها انسان واعلن عزمه على استصلاحها ، اصبح في امكانه
ان يمتلك نحواً من مائة وخمسين هكتاراً .

وقال اوغسطين – قل لي كيف يتم ذلك . هذا اصلاح زراعي يعني
اشياء كثيرة .

واخذ روبرت يشرح لهم عملية استصلاح الاراضي واملاكها . ولم يكن
قد فكر في يوم من الايام بانها اصلاح زراعي .

وقال بريمتيفو – هذا رائع . اذن فالشيوعية موجودة في بلادكم .
– . ولكن هذا الاجراء يتم في ظل الجمهورية .

وقال اوغسطين – اعتقد ان في وسع الجمهورية ان تنفذ كل شيء ، فلا
حاجة هناك الى أي نوع آخر من انواع الحكم .

وقال اندريه متسائلاً . . او ليس عندكم عدد من كبار الملاك ؟
– عندنا الكثير منهم .

– اذن فلا ريب من وجود مساويء كثيرة .

– اجل . عندنا مساويء كثيرة .

– ولكن الا يسعكم القضاء عليها ؟

– اننا نحاول ذلك شيئاً فشيئاً . ولكن مع ذلك هناك مساويء كثيرة .

– او ليست عندكم اقطاعات كبيرة يجب تجزئتها؟

– اجل . ولكن كثيرين يعتقدون ان في وسع الضرائب ان تتولى هي
عملية التجزئة .

– وكيف ؟

واخذ روبرت يشرح لهم طريقة تنفيذ ضريبة الدخل وضريبة الارث .
ثم قال . . ومع ذلك ، فهناك اقطاعات كبيرة ، لا تزال قائمة . وهناك
ايضا ضرائب على الارض .

وقال بريمتيفو - ولكن كبار الملاكين والاغنياء سيثورون حتما على هذه
الضرائب . فهذه الضرائب في نظري من النوع الثوري . وبالطبع سيثورون
على الحكومة ، عندما يرون ان مصالحهم مهددة تماما كما فعل الفاشيون هنا
- هذا ممكن .

- وسيتحتم عليكم ان تحاربوا في بلادكم كما نحارب نحن هنا .

- طبعا سنحارب .

- ولكن اليس في بلادكم الكثير من الفاشيين ؟

- لا ريب في ان عندنا الكثيرين الذين لا يعرفون انهم فاشيون ، ولكنهم
سيعرفون ذلك حتما في الوقت المناسب .

ولكن اليس في وسمكم القضاء عليهم قبل ان يثوروا ؟

- لا . . ليس في وسعنا ان نقضي عليهم . ولكن في وسعنا ان نشقف
الشعب ونن نحمله على الخوف من الفاشية ، وعلى تمييزها حال ظهورها
لناهضتها .

وقال اندريه - اتعرف بلاداً لا فاشيين فيها ؟

- اين ؟

- في بلدة بابلو .

وقال بريمتيفو - او تدري ما وقع في تلك القرية ؟

- اجل . لقد سمعت القصة .

- من بيلار ؟

- نعم .

وقال بابلو - ليس في وسعك ان تسمع القصة كلها من المرأة ، لانها لم
ترنهايتها ، اذ سقطت عن المقعد الذي كانت تطل بواسطته من النافذة .

وقالت بيلار . . اذن قل له ما حدث . ما دمت لا اعرف القصة .

فقال بابلو - لا . لم يسبق لي ان تحدثت بما وقع .

فقالت بيلار - لا ! . . ثم انت لا تريد ان تتحدث بها . . وانت تسود
الآن لو انها لم تقع .

فرد بابلو - لا . هذا كذب ومعيب . ولو قتل جميع الفاشيين كما فعلت
انا ، لما وقعت هذه الحرب . ولكني كنت اؤثر ان تقع في شكل آخر غير
السذي وقعت فيه .

فقال بريمتيفو - لم تقول هذا ؟ هل غيرت آراءك السياسية ؟

- كلا ، ولكنها كانت وحشية . لقد كنت في تلك الايام وحشا .

وقالت بيلار - اما الآن ، فأنت سكير .

- اجل ، اذا سمحت لي .

- ولكنني كنت احبك اكثر عندما كنت وحشا . فالسكير هو اقدر
الرجال . فاللص عندما لا يسرق ، لا يختلف عن اي انسان آخر . والمبتز
لا يقتصب اموال اهله وذويه . وفي وسع القاتل عندما يكون في بيته ان
يفسل يديه . اما السكير ، فيتقيأ في فراشه ، وتفوح رائحته العفنة ، ثم
تذوب اوصاله في الكحول .

فقال بابلو - ولكنك امرأة ، ولا تستطيعين ان تفهمي . اني اتمل
بالنيذ . وقد اشعر بالسعادة لولا الناس الذين قتلتم . فكلهم ، يوحون
لسي بالحزن .

وقالت بيلار . . اعطه قليلاً من الخمر التي جاء بها سورودو . اعطه شيئاً
ينعشه ، فقد غدا كثير الحزن ، لا يطاق .

وقال بابلو - لو استطعت ان اعيدهم الى الحياة لفعلت .

وقال اوغسطين - اذهب ، عليك اللعنة ، اي مكان هذا ؟
- اجل كنت اعيدهم جميعا الى الحياة ، كلهم دون استثناء .
وقال اوغسطين - وامك . اترك هذا الحديث او اخرج . لقد كان من
قتلتهم من الفاشيين .

ورد بابلو - اسمعتم .. كنت اعيدهم جميعا الى الحياة .
وقالت بيلار - ثم تسير على الماء كالانبياء . انني لم ار في حياتي رجلاً
كهذا . كانت لك حتى الامس بقية من رجولة . اما اليوم ، فلم يبق لديك
شيء منها .. ومع ذلك فانت سعيد في ان تسلق كالفرخة الصغيرة .
ورد بابلو - كان علينا ، اما ان نقتلهم جميعا ، او لا نقتل احدا منهم .
وقال اوغسطين - اسمع يا انكليزي ! وكيف جئت الى اسبانيا ؟ لا
تكثرث بما يقوله بابلو فهو ثمل .
- لقد جئت قبل اثني عشر عاما لدراسة البلاد واللغة . فانا ادرس
الاسبانية في جامعة .

وقال بريمتيفو - انك تبدو كاستاذ .
وقال بابلو - ولكنه لا يملك ذقنا . انظروا اليه ، فهو لا ذقن له .
وقال بريمتيفو - وهل انت استاذ حقا ؟
- انا معيد في الجامعة .
- ولكنك تعلم ؟
- اجل .

وقال اندريه متسائلا .. ولكن لم تعلم الاسبانية ؟ او لم يكن اسهل عليك
لو علمت الانكليزية ، لا سيما وانت انكليزي .
فرد انسيلمو - انه يتحدث الاسبانية مثلنا . فلم لا يعلم الاسبانية ؟
وقال فيرناندو - اجل ، ولكن من الضرور ان يقوم اجنبي بتعليم
الاسبانية . انا لم اعن شيئا خاصا بالنسبة اليك يا دون روبرتو .

فقال بابلو .. انه استاذ مزور . ليست له لجة
وقال فيرناندو - لا ريب في انك تجيد الانكليزية احسن . او لم يكن من
الاسهل عليك ، والافضل والواضح ، او علمت الانكليزية .
وشرعت بيلار تتدخل .. انه لا يعلمها للاسبانيين .
وقال فيرناندو - هذا ما اتمناه .
فرد عليه بيلار - دعني اكمل حديثي ايها البغل . انه يعلم الاسبانية
للأمريكيين - الأمريكيين الشماليين .
وقال فيرناندو - او ليس في وسعهم ان يتكلموا بالاسبانية . ان
الأمريكيين الجنوبيين يتكلمونها .
فقلت بيلار - انه يعلم الاسبانية ايها البغل الى الأمريكيين الشماليين
الذين يتكلمون الانكليزية .
ومضى فيرناندو يقول .. ومع ذلك ، اظن ان من الأسهل عليه لو علم
الانكليزية طالما انها اللغة التي يتحدث بها .
وقالت بيلار - وهي تهز رأسها بقنوط الى روبرت جوردان - او لا ترى
انه يتكلم الاسبانية ؟
- اجل انه يتكلمها ولكن بلهجة غريبة .
- لهجة اية مقاطعة ؟
فقال فيرناندو - ايسترايمادورا .
وقالت بيلار - بحق امي .. يا له من شعب !!
ورد روبرت - قد يصح ما تقول ، فقد جئت الى هنا من هناك .
وقالت بيلار - انه يعرف ذلك .. ثم التفتت الى فيرناندو وقالت ..
هل اكلت ما فيه الكفاية ؟
- في وسعي ان اكل اكثر مما اكلت ، لو وجدت كمية كافية . ولا تصور
يا دون روبرتو انني اود ان اقول شيئا ضدك .

وقال اوغسطين . . يا لها من رقة !! هل تظن اننا قمنا بشورتنا ، لنقول
« يا دون روبرتو » الى احد الرفاق ؟

فرد فيرناندو . . ان الثورة تعني بالنسبة الي ، ان يستخدم كل انسان
كلمة الدون عندما يخاطب انسانا آخر . . وهذا ما يجب تحقيقه في ظل
الجمهورية .

فقال اوغسطين . . رقيق . . رقيق جدا !!

وقال فيرناندو - ومع ذلك ما زلت اعتقد ان من الخبير لدون روبرتو
والاسهل له لو علم الانكليزية .

فقال بابلو - ليس للدون روبرتو ذقن ، ولذا فهو استاذ مزور .

وقال روبرت . . ماذا تعني ان ليس لي ذقن ؟ ما هذا اذن ؟ . . واشار
بيده الى ذقنه التي مضت عليها ايام ثلاثة دون حلاقة .

فرد بابلو وهو يهز رأسه . . هذه ليست ذقنا ، انها ليست ذقنا . . وهو
استاذ مزور .

وقال اوغسطين . . لعنة الله عليكم جميعا ، اذا لم يكن هذا المكان اشبه
بمستشفى مجاذيب .

فقال بابلو - عليك ان تشرب . فكل شيء يبدو لي طبيعيا ، سوى ان
ليست للدون روبرتو ذقن . .

ومدت ماريا يدها تلمس وجنة روبرتو وقالت . . ان له ذقنا .

فقال بابلو . . يجب ان تعرفي انت ذلك .

وتطلع اليه روبرت ، وفكر ان الرجل ليس نملا . اجل انه ليس بالشمل
الى هذا الحد ، وخيل لروبرت ان عليه ان يحذر منه . . وقال يخاطب
بابلو . . او تظن يا هذا ان الثلج سيستمر ؟

- ماذا تظن ؟

- انا اسالك .

- اسأل غيري ، انا لست بدائرة استعلاماتك . ولديك تعليماتك من

دائرة استعلامات رسمية . ثم اسأل المرأة فهي الامرة هنا .

– ولكنني اسالك انت .

– اذهب عليك اللعنة وعلى المرأة والفتاة .

وقال بريمتيفو – انه ثمل ، لا تهتم به يا انكليزي .

– لا اعتقد انه على هذه الدرجة من السكر .

وكانت ماريا تقف خلفه ، ورأى روبرت ان بابلو يتطلع اليها .. وابصر بعينيهِ الصغيرتين كميني الخنزير ، يرقبان الفتاة ، واخذ روبرت يحدث نفسه قائلا لها . لقد رأيت في حياتي عددا من القتلة ولا سيما في هذه الحرب وقبلها ، وكانوا مختلفين ومتباينين فليس ثمة من مزية تجمعهم ، كما ليس هناك من طراز خاص هو طراز القتلة ، ولكن لا ريب في ان بابلو ليس من النوع الجميل الشكل .

وقال روبرت لبابلو – انا لا اصدق ان باستطاعتك ان تشرب ، كما لا اصدق بانك ثمل الآن .

فقال بابلو معتزلا .. ولكنني ثمل ، والشراب ليس بالامر المهم ، ولكن المهم هو ان يشمل الانسان .

فرد عليه روبرت .. ولكني اشك في ذلك يا جبان .

وكان الهدوء يخيم على الكهف ، كله ، فجأة ، حتى انه استطاع ان يسمع اشتعال الحطب في النار ، حيث تواصل بيلار الطهو . وسمع صوت الحديد يصر تحت قدميه . وخيل اليه ايضا ان في وسمه ان يسمع صوت الريح في الخارج وصوت سقوط الثلج .

وفكر روبرت ان من الخير لو قتله وانتهى من الموضوع . فهو لا يدري ما سيفعله هذا الرجل ، ولكنه واثق من ان ما سيفعله لن يكون امرا حسنا . فبعد غد ستتم عملية الجسر ، وهذا الرجل على هذا النحو من السوء ، وقد يؤلف خطرا على نجاح المشروع كله . وحزم امره على ان ينتهي منه .

وقطب بابلو جبينه ، ثم مد اصبعه في حلقه يمسحه . واخذ بهز راسه فوق عنقه الغليظ يمنة ويسرة ثم قال .. لا يا انكليزي لا تستفزي ، فليست هذه بالطريقة المثلى للخلاص مني .

وقال روبرت .. وقد حزم امره .. ولكنك جبان .

– قد اكون جباناً ولكنك لن تستفزي . خذ شيئاً واشربه يا انكليزي واشر الى المرأة انك لم تنجح في استفزاي .

– اغلق فمك . فانا استفزك لمصلحتي وحدها .

– ولكن لا جدوى من ازعاج نفسك ، فلن استفز .

– انك حيوان غريب ..

اراد روبرت ان لا يدع الفرصة تفوت للمرة الثانية ، لا سيما وقد ادرك انه قد مر بهذه المشكلة كلها من قبل . وخيل اليه ، انه يمثل دوراً سبق له ان حفظه ووعاه ، وانه يردد الكلمات التي قراها او حلم بها .. وشعر بانه يحسوم في دوامة .

فقال بابلو – انني غريب وثمان . فلاشرب نخبك يا انكليزي .

وادرك روبرت ، انه غريب ، ولكنه ذكي ومعقد .. وتناول قدحه ، وملاه بالخمير ، ثم شربه وقال .. نخبك .

وقال بابلو .. دون روبرتو .

وقال روبرت .. دون بابلو .

فقال بابلو – انك لست باستاذ ، لان لا ذقن لك ، ولتخلص مني عليك ان تغتالني ، وقد لا تكون لديك الجرأة لذلك .

وكان بابلو يتطلع الى روبرت ، وقد اغلق فمه وانطبقت شفاهه على بعضهما . وخيل لروبرت انه يشبه بذلك الراس الذي يحمله سمك الشيم ، الذي يتلع الهواء ، بعد صيده . فينتفخ .. وقال له وهو يرفع كاسه ..

نخبك يا بابلو .. فانا اتعلم الكثير منك .

ورد بابلو وهو يحني رأسه .. انا اعلم الاستاذ ، تعال يا دون روبرتو .
سنصبح اصدقاء .

فقال روبرتو - لقد غدونا اصدقاء منذ امد .

- ولكننا سنغدو الآن صديقين حميمين .

- ولكننا غدونا صديقين حميمين منذ امد .

وقال اوغسطين - سأخرج من هذا المكان .

وقال بابلو - ماذا دهالك يا زنجي ، الا تريد ان ترى صداقة تقوم بيني
وبين الدون روبرتو ؟

فقال اوغسطين وهو يدنو منه ، ويقف امامه .. انتبه الى ما تقول ، ولا
تسمني زنجييا .

- ولكن هذا ما يطلقونه عليك .

- لكنني لا اسمع لك به .

- اذن ايها الابيض ..

- ولا هذا اللقب ايضا ..

- اذن ما انت ؟ احمر ؟

- اجل . احمر . احمل شارة الجيش الحمراء واؤيد الجمهورية واسمي
اوغسطين .

- يا لك من مواطن صادق... انظر اليه يا انكليزي ، انه مواطن مثالي .

وضربه اوغسطين بيده اليسرى على فمه . فجلس بابلو . وكانت الخمر
قد لطخت شفثيه .. ولم يطرأ على وجهه اي تبدل ، ولكن روبرت رأى
عينيه تضيقان كعيني القط .. عندما بسطع عليهما ضوء قوي .

وقال بابلو - ولا هذا ايضا ، فلا تركني الى هذا يا امرأة . انني
لن استغفر .

وعاد اوغسطين فضربه ثانية ، على فمه بجماع يده . وكان روبرت
يمسك بمسدسه بيده تحت المائدة . وكان قد ابعث ماريا عنه . ثم رفع
صمام الامان ، وقد ابتعدت ماريا قليلا ولكنها ظلت على مقربة ، فدفعها في
خاصرتها بيده اليسرى ليعمدها فعلا . وابتعدت هذه المرة حقا . وراها
بزاوية عينيه ، تقترب من النار ، بينما كان روبرت يرقب وجه بابلو .

وظل الرجل ذو الراس المدور جالسا ، يتطلع الى اوغسطين بعينيه
المسطحتين . وقد ضاقت عيناه الآن ، واخذ يلحق شفثيه ، ثم مسح فمه
بمؤخرة يده ، ورأى الدم وقد صبغ يده . وممر بلسانه على شفثيه ثم
بصق . وقال .. ولا هذه الضربة ايضا ، فانا لست بالاحمق ، ولن
تستغفرتني .

وقال اوغسطين .. امسراه .

فرد بابلو .. انك تعرف .. وتعرف من المرأة .

وضربه اوغسطين للمرة الثالثة على فمه ، وضحك بابلو ، وقد انكسر
احد اسنانه الصفراء النخرة .. فقال .. وهو يمد يده ليتناول قدحا ..
ليس مع احدكم سلاح ليقتلني اما الضرب ، بالايدي فأمر سخيف .

وقال اوغسطين .. جبان .

ورد بابلو .. وهو يبصق على الارض .. والكلمات لا تقتل ايضا ، فقد
اجتزت مرحلة التأثير من الكلمات .

ووقف اوغسطين امامه ، وهو يشتمه . يتكلم بهدوء ووضوح ، وازدراء
والم ، والسباب يتدفق من فمه .. فقال بابلو .. ولا هذا السباب ..
ايضا ، دعك منه يا اوغسطين ، ولا تضربني من جديد .. فستؤذي يدك

وادار اوغسطين وجهه ثم مضى نحو الباب .

- انني احبها . ومنظرها من الخلف ، اكثر جمالا ، وعقلا من هؤلاء الناس . والآن .. خذوا راحتكم ، وحدثهم يا انكليزي عن الجسر ، وعن واجباتهم عند الهجوم .. اخبرهم ، كيف سيتم التراجع .. واين ستأخذهم بعد ان ينتهي موضوع الجسر . اجل .. اين ستأخذ هؤلاء المواطنين الصادقين ؟ لقد كنت دائم التفكير بالموضوع طيلة اليوم ، وانا اتناول الخمر .

وقال اوغسطين يسأله .. وماذا فكرت ؟

- ماذا فكرت ؟ ايهكم ما فكرت فيه ؟

- قل ماذا فكرت ؟

- لقد فكرت كثيرا .. واغرق راسه داخل معطفه وهو يقول .. لقد فكرت كثيرا .

وقال اوغسطين .. ماذا ؟ ماذا ؟

- فكرت بانكم جماعة من المخدوعين ، تقودكم امراة تضع عقلها بين فخذيهما ، واجنبي جاء اليكم ليقضي عليكم .

وصرخت به بيلار - اخرج ، اخرج من هنا يا قدر ، فلعل الثلوج تفعلك اخرج بقدارتك من هنا ، يا خدن الخيل .

وقال اوغسطين وقد اعجب بسبابها ، ولكن مع فكر تائه ، اذ ظل ما يشغله .. هكذا يكون الحديث ، والا ، فلا لا ..

فقال بابلو - اجل سامضي ، ولكنني سأعود بعد قليل .. ورفع الستارة عن باب الكهف ومضى خارجا .. ثم التفت براسه يقول .. ما زال الثلج متساقطا يا انكليزي .

١٧

خيم على جميع من في الكهف صمت ثقيل ، لا يقطعه ، الا صوت هطول الثلج من الكوة القائمة في السقف .. وقال فيرناندو .. بيلار .. الديك كمية اخرى من الطعام ؟

فصرخت بيلار .. اغلق فمك . ولكن ماريا ، حملت صحن فيرناندو الى القدر الكبير الموضوع على النار ، فملأته له ، وعادت تضعه امامه . وربت بيدها على كتفه ، ثم وقفت بجانبه فترة ، وقد وضعت يدها على كتفه ، ولم يرفع فيرناندو راسه اليها ، وانما واصل ازدراد طعامه .

ووقف اوغسطين بجانب النار . بينما ظل الآخرون جالسين . واقتعدت بيلار مكانا على المائدة امام روبرث جوردان .. ثم قالت .. والان ، يا انكليزي .. ارايته على حقيقته .

فقال روبرت متسائلا .. وماذا سيعمى الان ؟

– قد يعمل اي شيء . انه قادر على ان يعمل كل شيء .

وقال روبرت .. واين البندقية الاوتوماتيكية ؟

فقال بريمتيفو – انها في الزاوية ، ملفوفة في « بطانية » . اتريدها ؟

- فيما بعد . اردت أن اعرف فقط اين هي .
- انها هناك ، وقد عدت بها ولفقتها لاحفظها جافة . اما امشاطها
فموجودة في ذلك الكيس .
وقالت بيلار .. انه لن يفعل ذلك . انه لن يفعل اي شيء بالبندقية .
فقال روبرت - ظننت انك قلت ، بانه قد يفعل كل شيء .
- قد يفعل ولكنه غير متمرن عليها . في وسعه ان يقذف قنبلة فهذا
اسلوبه .
وقال العقري - كان من الحمق والضعف ان لا يقتل ... كان على
روبرت ان يقتله ليلة أمس .
وقالت بيلار ، وقد اسود وجهها وبان عليه الاعياء .. اقتله . انني اؤيد
ذلك الآن .
وقال اوغسطين ، وهو واقف امام النار وقد تدلى ذراعه الى جانبه .
وسطعت النار على وجنتيه .. لقد كنت ضد قتله .. اما الآن فانا موافق
فقد غدا انسانا ساما . وكم يسره ان يرانا جميعنا ، وقد ابدنا ولحق بنا
الدمار .
وقالت بيلار .. وقد ظهر الاجهاد في صوتها .. ليقل كل منكم رايه .
ما رايك يا اندريه ؟
- موافق .
- وانت يا ايلاديو ؟
- موافق ، يبدو لي انه غدا خطرا كبيرا ، ولم يعد يصلح لشيء .
- وانت يا بريميتفو ؟
- موافق .
- وانت يا فيرناندو ؟
- الان نستطيع الاحتفاظ به سجيناً ؟
وقال بريميتفو .. ومن سيعني بالسجين ؟ ان العناية به تحتاج الى

رجلين ، ثم ماذا نفعل به في النهاية ؟
وقال الفجري - في وسعنا ان نشي به الى الفاشيين .
فقال اوغسطين .. لا ، لا شيء من هذه القذارة .
فقال الفجري .. كانت مجرد فكرة . ويبدو لي ان الفاشيين سيفرحون
اذا حصلوا عليه .
فقال اوغسطين .. دع هذه الفكرة .. انها قدرة .
فقال الفجري مدافعا عن نفسه .. ولكنها ليست اقدر من بابلو .
فرد اوغسطين .. ان القذارة لا تبررها قذارة . هذا كل شيء ..
باستثناء الرجل المجوز والانكليزي .
فقالت بيلار .. لا شان لهما في الموضوع ، اذا لم يكن قط قائدا لهما .
وقال فيرناندو .. دقيقة واحدة .. لم اكمل كلامي .
فقالت بيلار .. اكمل كلامك .. قل كل ما تريد حتى يعود .. قل ما
تشاء حتى يقذفنا بقنبلة يدوية من وراء الستارة . فينفجر المكان بنا بكل
ما فيه من متفجرات .
فقال فيرناندو .. اعتقد انك تبالغين يا بيلار .. ولا اظن انه يحمل مثل
هذه الفكرة .
وقال اوغسطين .. وانا لا اظن ذلك ايضا .. اذ ان عمله ، سيدمر
النيبيذ ايضا .. وسيعود بعد قليل ، ليشرب اقداحا اخرى منه .
وقال رافائيل الفجري .. لماذا لا نسلمه الى ايل سورودو فيتولى هو
تسليمه الى الفاشيين . في وسعنا ان نضع عصاة على عينيه ، وان
نتصرف به بسهولة .
وقالت بيلار .. اغلق فمك .. فانا اشمر بالضيق عندما تتحدث .
وقال بريمتيفو .. على كل حال لن يدفع الفاشيون فيه شيئا ، وقد
حاول غيرنا مثل هذا السبيل . انهم سيقتلون من يوصله اليهم ايضا .

ورد رافائيل - - وقع ذلك ، اذًا عصبتنا عينيه ففي وسعنا ان نبيعه
مقابل ثمن .

فصرخت بيلار - األق فمك ، اذا تحدثت عن عصب العينين ثانية كان
مصيرك مثل مصيره .

واصر رافائيل على رايه فمضى يقول . . ولكنه عصب عيون رجال
الحرس الجرحي ثم قتلهم . انسيت ذلك ؟

فصرخت بيلار من جديد . . اغلق فمك يا هذا . . لقد ضقت ذرعا
بكثرة حديثه عن العصابات .

وقال فيرناندو . . لم يسمح لي باكمال حديثي .

فقالت بيلار - اكمل حديثك . . هيا ، اكمله .

لما كان اعتقالا جليوا غير عملي ، ولما كان من المستنكر تسليمه .

فقالت بيلار تقاطعه . . اكمل ، بحق الاله ، اكمل .

فمضى فيرناندو يقول بهدوء . . غائبي اوافق ، انه قد يكون من الافضل
ازالة من الوجود . حتى تسيء العنيفة المقترحة ، في اكثر ما يمكن من
التجراح .

وتطلعت ، بيلار الى الرجل الضئيل ، وعضت شفتها ، وهزت راسها .
ولكنها لم تنبس بيتا شفتها .

ومضى فيرناندو يقول . . هذا رايي ، واعتقد ان لنا الحق في ان نعتقد
بانه يولف خطرا على الجمهورية . .

وقالت بيلار . . يا ام يسوع . . حتى في هذا المكان يستطيع انسان ان
يخلق بيروقراطية باقواله .

ومضى فيرناندو يقول . . وهذا جزاء يستحقه بالنسبة لاقواله واعماله
الاخيرة . . وبينما يستحق شكرنا وتقديرنا على اعماله في الايام الاولى من
الحركة ، وحتى الزمن الاخير . .

وسارعت بيلار الى النار ثم عادت الى المائدة وهي تقدم صفحة ملاء

بالطعام .. خذ يا فيرناندو ، هذا الطعام ، واحش به فمك بكل وقار ،
وكف عن الحديث فقد عرفنا رايبك .

وقال بريميتفو .. ولكن كيف .. او لم يكمل جملته ، بل توقف .
فقال روبرت .. انا على استعداد للتنفيذ ، ما دمتم قد اتخذتم قراركم
جميعا ، بوجوب القيام بهذا العمل .

وقال يحدث نفسه .. ماذا دهاني ، لقد بدأت اتحدث كفيرناندو ، من
مجرد الاستماع اليه . لا ريب في ان هذه اللغة سارية العدوى . فالفرنسية
هي لغة الدبلوماسية اما الاسبانية فلغة البيروقراطية .
وقالت ماريا .. لا . لا .

فصاحت بها بيلار - هذا ليس شانك . اغلقي فمك .
فقال روبرت - اذن سأقتله الليلة .

ورأى بيلار تنظر اليه وقد وضعت اصبعها على شفيتها ، واتجهت
عينها الى الباب .

وارتفعت الستارة ، واطل بابلو براسه منها . وقطب حاجبيه امامهم
جميعا ، ثم جذب الستارة ودلف الى الكهف . واخذ يلتفت يمنا ويسرة ،
ورفع معطفه فوق راسه وشرع يقذف بالثلج عنه . ثم قال .. كنتم
تتحدثون عني ؟ فهل قطعت عليكم حديثكم ؟

ولم يرد عليه احدهم ، فملق معطفه ثم مضى الى المائدة . ورفع كأسه
الفارغة واراد ان يملأها بالخمير ، ثم قال لماريا .. لم يبق خمر ، املئيه
من الزق .

وحملت ماريا الوعاء ومضت به الى الزق ، ففتحت طرفه ، وانصب
التبيذ الاحمر في الوعاء .. وقال بابلو .. احذري . يكاد الوعاء يطفح
من الخمر .

ولم يتكلم اي من الموجودين .. ومضى بابلو يقول .. لقد شربت كثيرا
اليوم . ماذا دهاكم ؟ هل فقدتم السنتم ؟
ولم ينبس احد ببنت شفة .

وصاح بابلو - توفعي يا ماريا .. فالنبيذ يتدفق الى الارض .
وقال اوغسطين - ستجد الكثير من الخمر ، وسيكون في وسعك ان
تشم .

وقال بابلو .. لقد عثر واحد اخيرا على لسانه . تهاني يا اوغسطين .
لقد ظننت انك قد غدوت ابكم .

وقال اوغسطين .. وماذا بيكمني ؟
- دخولي .

- او تعتقد ان دخولك ينطوي على اية اهمية ؟

وخيل لروبرت جوردان ، ان اوغسطين ، بدأ في اثاره الوضع المناسب .
وربما اقدم هذا على قتله ، فهو يكرهه كل الكراهية . اما انا فلا اكرهه .
على الرغم من ان موضوع تعصيب العينين يضعه في طبقة خاصة من الناس
ومع ذلك ، فهذه هي حريهم . ولكن يجب ان لا يكون هنا في غضون اليومين
القادمين .. ربما اتيح لي ان اظل بعيدا عن الموضوع . فلقد اصبحت موضع
الجزء والسخرية مرة في هذه الليلة ، وكم كنت اود لو خلصت منه . ولكنني
لن امزح معه الآن . ولن اسمح بمباريات في اطلاق النار او اي شيء من هذا
النوع هنا ، مع وجود هذه المتفجرات . ولا ريب ان بابلو قد فكر في ذلك
طبعاً ، فهل فكرت فيه انا ؟ لا . ولا اوغسطين .. ولا ريب في انسي
استحق كل ما يحدث .

وقال روبرت .. اوغسطين .

فقال هذا .. نعم .

فقال روبرت .. اود ان اتحدث اليك .

- فيما بعد ..

- لا . الآن .

ومضى روبرت الى باب الكهف ، وبابلو يلاحقه بنظره . ومضى اوغسطين
بقامته الفارعة يسير وراءه .. انه يسير مترددا وعلى وجهه علامات
الازدراء .

وقال روبرت في صوت يشبه الهمس .. انسييت ما في الكيسين ..

فقال اوغسطين .. اللعنة .. ان الانسان لينسى .

- وانا نسييت ايضا .

- اللعنة .. يا لنا من اغبياء .. وعاد الى المائدة . وقال .. اشرب

قدحا يا بابلو ، كيف حال الجياد ؟

- في احسن حال . وقد بدأ تساقط الثلج يخف تدريجيا .

- او تظن انه سيتوقف ؟

- اجل .. لقد بدأ يخف .. ان الريح ستستمر ، ولكن الثلج سيتوقف .

وقد تبدل اتجاه الرياح .

وقال روبرت يسأله .. او تظن ان السماء ستكون صافية في الغد .

- اجل .. سيكون الطقس باردا .. والسماء صافية . فقد تغير

اتجاه الريح .

واخذ روبرت يفكر .. انظر اليه ، انه انسان ودود الان . لقد تغير كما

تغيرت الريح . ان له وجه خنزير وجسمه ، وانا اعرف انه قاتل من

الطراز الاول ، ولكنه شديد الحساسية كقياس المعادن . ولا ريب في ان

الخنزير حيوان ذكي ايضا . وبابلو يكرهنا ، او يكره مشاريعنا على الأقل ،

ويندفع مع كراهيته هذه مشفوعة بالاهانات ، الى الحد الذي يحمّل

الانسان على التفكير بالخلاص منه ، وعندما يرى انه قد وصل الى تلك

النقطة ، سرعان ما يتراجع ، ويمود من جديد .

وقال بابلو .. سيكون الطقس حسنا لنا يا انكليزي .

فقالت بيلار .. لنا ! لنا ؟

فرد بابلو - اجل لنا .. ولم لا ؟ لقد فكرت في الموضوع ونحن في الخارج

فلم لا نتفق ؟

وقالت المرأة تسأله .. نتفق على ماذا ؟ على ماذا ؟

- على كل شيء .. حول موضوع الجسر . فانا معكم الآن .

وقال اوغسطين - انت معنا الان ؟ بعد كل ما قلت ؟

- اجل مع تغير الطقس ، تغيرت ، واصبحت معكم .

وهز اوغسطين راسه . وقال .. الطقس .. وبعد ان ضربتك في وجهك؟

فقال بابلو مقطبا . وقد رفع اصابعه الى شفتيه .. اجل وبعد ذلك .

وكان روبرت يراقب بيلار الآن وهي تتطلع الى بابلو ، وكأنها تتطلع الى حيوان غريب . وما زالت على ملامحها بعض التعبيرات التي اثارها عبارات عصابة العينين . ثم هزت راسها وكأنها تريد ان تخلص افكارها ، وقالت لبابلو .. اسمع ..

- اجل ، يا امرأة .

- ماذا دهالك ؟

- لا شيء ، لقد بدلت رأبي ، هذا كل ما هناك .

- هل كنت تصفي لما نقول عند الباب ؟

- اجل ، ولكنني لم استطع ان اسمع شيئا .

- اذن فانت خائف من ان نقتلك .

- لا ، انا لا اخاف ذلك ، وانت خير من يعرف هذا .

فقال اوغسطين - اذن ماذا دهالك ؟ فقبل قليل كنت ثملا ، وكنت تتجه بالاهانات المتدفقة من فمك الينا جميعا ، معلنا عزمك على عدم الارتباط بعملنا ومتحدثا عن موتنا بطريقة قذرة ، ومزدريا النساء ، ومعترضا على ما يجب ان يعمل ..

- كنت ثملا .

والآن ..

- لست ثملا . وقد غيرت رأبي .

فقال اوغسطين - دع الآخرين يثقون بك ، اما انا فلا اثق .
- سواء وثقت او لم تثق ، ولكن ليس فيكم من يستطيع ان ينقلكم الى
غريدوس كما انقلكم .

- غريدوس ؟

- انه المكان الوحيد الذي يجب ان نذهب اليه بعد الجسر .

وكان روبرت ، لا يزال يتطلع الى بيلار ، محاولا استطلاع رايها . فأحنت
المرأة رأسها ، ثم عادت تعنيه ثانية ، ثم همست في اذن ماريا التي جاءت
الى جانب روبرت . وهمست في اذنه .. تقول .. انه لا ريب قد سمع
حديثهم .

وقال فيرناندو بلهجة القاضي - اذن فانت معنا الان يا بابلو ، وتؤيد
عملية الجسر ؟

- اجل .. يا رجل ..

وقال بريمتيفو - وهل انت صادق ؟

- اقسام .

وقال فيرناندو - وتعتقد ان العملية ناجحة ، واصبحت مؤمنا بها .

- ولم لا ؟ الستم واثقين ؟

فقال فيرناندو - اجل ، ولكنني دائم الثقة .

وقال اوغسطين .. انا خارج من هذا المكان .

وقال بابلو بلهجة ودودة .. ان الطقس شديد البرودة في الخارج .

- محتمل . ولكنني لا استطيع البقاء في هذا المستشفى الذي للمجانين

فقال فيرناندو - لا تطلق على هذا الكهف اسم مستشفى المجاذيب .

- انه مستشفى للمجنونين بالجريمة ، وسأخرج قبل ان اجن انا ايضا .

وبدا روبرت جوردان يفكر . . انها اشبه ما تكون بسدوارة الافراس الخشبية ، ولكنها ليست من النوع المرح ، الذي يطوف بسرعة . حاملا صغيرا موسيقيا . والاطفال يمتطون صهوات ابقار خشبية لها قرون من الذهب ، وهناك حلقات يمسك بها اللاعبون بعصيمهم ، وهناك أيضا شارع دي مين الذي تضيئه مصابيح غازية باهتة اللون ، ورائحة السمك المشوي تنبعث من الكشك القائم فيه ، وعجلة الحظ تدور بطياتها الجلدية واسهمها مشيرة الى عدد من المراكز ، وقد وضعت السكاكر في اكوام كالاهرامات لتقدم كجوائز للاعبين . لا انها ليست من هذا النوع ، على الرغم من ان الناس ، رجالا ونساء ، ينتظرون دورهم في تجربة عجلة الحظ . انهم نفس الناس ، ولكن العجلة تختلف هذه المرة . فهي من النوع الذي يدور دورات الى الاعلى والاسفل بدلا من الجوانب .

وقد دارت العجلة حتى الآن دورتين . انها عجلة ضخمة ، اقيمت على زاوية معينة ، وهي تعود بعد كل دورة الى النقطة التي بدأت منها . واحد الجانبين اعلى من الجانب الاخر . والدورة التي تقوم بها تعود الى الورا

والى الاسفل ، الى نفس نقطة البداية . وليست ثمة جوائز هنا . ولن يختار أحد الموجودين ركوب العجلة . ولكن الانسان يستقلها في كل مرة ، ويقوم بالدورة دون ان يكون مصمما على الركوب . أنها دورة واحدة ليس الا ، دورة كبيرة ، اهليلجية ترتفع وتنخفض ثم تعود الى نقطة البداية . . وقال لنفسه . ها قد عدنا الان الى نقطة البداية ، ولم نحزم امرنا على شيء

كان الطقس قد اصبح حاراً في الكهف ، وكانت الرياح قد خفت في الخارج . وكان يجلس الان الى المائدة وامامه دفتر ملاحظاته ، وقد ظهرت فيه جميع الرسوم المتعلقة بالناحية الفنية لنسف الجسر . ورسم ثلاث صور ، ثم حسب ارقامها . ووضع خطة النسف في رسمين ، تماما كرسوم الاطفال حتى يتمكن انسيلمو من اكمالها في حالة وقوع حادث له ، اثناء عملية النسف . وبعد ان اتم الرسوم شرع يدرسها .

وكانت ماريا تجلس الى جانبه ترقبه وهو يعمل . وكان يحس بياض الذي يجلس عبر المائدة وبالاخرين الذين يتحدثون ويلعبون الورق ، وشم روائح الكهف التي تبدلت الان بسبب الطعام والطبخ والنار ووفرة عديد الرجال ودخانهم والتبديد الاحمر ، ورائحة عرق اجسادهم النحاسية ، وعندما وضعت ماريا يدها على المائدة ، بعد ان راته ينتهي من احد رسومه ، تناول يدها بيسراه ورفعها الى وجهه ليشيم رائحة الماء والصابون التي علقته بها بعد تنظيفها للاطباق . وبعد ان وضع يدها ، على المائدة ، عاد الى عمله من جديد ، دون ان ينظر اليها ، وان يرى حمرة الخجل وقد انعكست على وجهها . واراحت يدها في مكانها على مقربة من يده ، ولكنه لم يعد الى رفقها .

وكان قد اتم الان تصميم عملية التدمير ففتح صفحة جديدة من دفتره ، وشرع في كتابة اوامر العملية . وكان يكثر من التفكير في هذه الاوامر التي يضعها ، وقد سره ما كتبه . وبعد ان كتب صفحتين كاملتين من الدفتر ، شرع في قراءة ما كتبه بعناية .

واخذ يحدث نفيه . . اعتقد ان ما عملته فيه الكفاية ، واعتقد انه واضح الان تمام الوضوح . وليس فيه اية ثغرات . سنقوم بنسف المركزين والجسر تنفيذاً لاوامر غولز ، وهذه هي مسؤوليتي كلها . اما موضوع بابلو هذا ، فأمر كان يجب ان لا يحدث وسيحدث عن هذا السبيل او ذلك . فقد يكون بابلو او لا يكون ، وهذا لا يهمني في قليل او كثير . ولكنني لن اعود الى تلك العجلة من جديد . لقد امتطيتها مرتين . وفي المرتين عادت بي بعد دورانها الى النقطة التي بدأت منها ، ولذا فلن اعود الى استقلالها من جديد .

واغلق دفتره وتطلع الى ماريبا وقال . . هولاً ، يا حلوه ، هل فهمت شيئاً من كل هذا ؟

فقال ماريبا وقد وضعت يدها على يده التي ما زالت تحمل القلم . . لا يا روبرتو . . هل انتهيت ؟

– اجل . لقد اعددت كل شيء ، ورتبت اوامري .

وقال بابلو يسأله ، وقد لمعت عيناه من جديد . . ماذا كنت تعمل يا انكليزي ؟

وتطلع روبرت اليه ، عن كذب ، ثم خاطب نفسه قائلاً . . ابعد عن تلك العجلة ، ولا تستقلها ، اعتقد انها ستدور من جديد . . ثم قال . . كنت اعد موضوع الجسر .

وقال بابلو . . وما رأيك ؟

– على ما يرام . . كل شيء على ما يرام .

بـ اما انا فكنت افكر ، في موضوع التراجع بعد العملية . . وتطلع روبرت الى عينيه الثمنتين اللتين تشبهان عيني الخنزير ، والى وعاء الخمر فرأى ان الوعاء قد اشرف على الفراغ . . ثم قال لنفسه . . ابعد عن العجلة . . انه عاد الى الشراب . وهذا مؤكد . ولكن ، عليك ان تنأى بنفسك عن تلك العجلة . ولكن . . الم يكن يقال ان غرات كان يقضي معظم

اوقاته ثملا ابان الحرب الاهلية .. اجل ، لقد كان يسكر دائما . ولكن
غرانت سيثور من هذه المقارنة مع بابلو لو رآه . كان الجنرال غرانت من
مدمني السيكار ايضا . فلم لا يؤمن لبابلو سيكارا . هذا ما يحتاج اليه
وجهه لاستكمال صورته ، سيكار تأكل نصفه . ولكن اين تستطيع العثور
على سيكار لبابلو ؟

وقال روبرت يسأله بدمائة ولطف .. وكيف سارت العملية معك ؟

فرد بابلو وهو يحني راسه الثقيل .. على ما يرام .

وقال اوغسطين يسأله ، من المكان الذي كان يلعب فيه الورق ، هل
فكرت بشيء ؟

فقال بابلو - اجل ، فكرت باشياء كثيرة .

- واين وجدتها ؟ هل وجدتها في وعاء الخمر ؟

- ربما ، من يدري ؟ املاي يا ماريا الوعاء ، ارجوك ؟

فقال اوغسطين وهو يعود الى لعبة الورق .. في الزق افكار رائعة ..
فلم لا ترحف اليه ، وتبحث عنها في داخله ؟

- لا .. انني ابحت عنها في الوعاء .

وعاد روبرت الى افكاره ، انه لا يستقل العجلة ، ولكنها تدور من نفسها .
وانا افترض ، ان ليس في وسعك ان تستقل هذه العجلة طويلا . لا ريب
انها عجلة قاتلة . وكم يسرني ، اننا قد نجونا منها . فقد احسست بالدوران
في راسي منها مرتين على الاقل . ولكنها ذلك الشيء الذي يستقله
السكريون والوضيعون حقا والفظيعون حتى يموتوا . فهل تظل تدور بهم
عاليا وسافلا ، الى ان تتوقف .. اذن فلتدر هذه المرة كما تشاء ، فلن
استقلها ثانية . لا يا سيدي ، لا يا جنرال غرانت ، فقد خرجت من العجلة
ولس اعود اليها .

وكانت بيلار تجلس الى جانب النار وقد استدارت بمقعدتها لتتمكن من
مراقبة لعبة الورق ، من وراء اكتاف اللاعبين اللذين ادارا لها ظهرهما .
انها ترقب اللعب .

أُخيل لروبرت . . أن هذا الوضع انتقال من القتلية الى الحياة العائلية العادية ، وهو اغرب شيء . وليس في وسع العجلة اللعينة ان تصل اليك الا اذا هبطت ، ولكنني قد بعدت عنها الان ، وليس في وسع انسان ان يحملني اليها من جديد .

وقبل يومين لم اكن اعرف بوجود بيلار وبابلو والبقية . ولم يكن ثمة شيء اسمه ماريا في العالم . لقد كان عالما اكثر بساطة . وقد تلقيت تعليمات في غاية الوضوح من غولز ، وبدت لي قابلة للتنفيذ ، على الرغم من الصعوبات المعينة التي انطوت عليها ، والنتائج التي قد تتمخض عنها . ولكن بعد ان نسف الجسر ، كنت اتوقع اما ان اعود الى الخطوط او لا اعود ، ولو قدر لي ان اعود ، كنت سأطلب قضاء بعض الوقت في مدريد . وبالطبع ليس ثمة من اجازات في هذه الحرب ، ولكنني واثق من انسي سأقضي يومين او ثلاثة في مدريد .

اجل كنت اريد ان ابتاع بعض الكتب في مدريد ، وان امضي الى فندق فلوريدا ، حيث اتناول حماما ساخنا . وكنت سأبعث بالبواب لوز ، ليأتي لي بزجاجة من الابسنت من احد الحوانيت اذا استطاع الحصول عليها ، وان استلقي في سريري اقرا بعد الحمام الساخن واشرب قديح من الابسنت ، ثم اهتف الى مطعم جيلورد ، لارى اذا كان في وسعي ان امضي الى هناك لتناول الطعام .

انني لا احب طعام « الفران فيا » فهو سيء ، وعلى الانسان ان يصل الى المطعم في وقت مبكر ، ليحصل على شيء يأكله . وهناك يجتمع عادة عدد كبير من الصحفيين ولم يكن يرغب في ان يظل فمه مغلقا . اجل انه يريد ان يشرب قديح الابسنت وان يشعر بالرغبة في الحديث ، ثم يذهب الى جيلورد حيث يتناول الطعام مع كاركوف ، فهناك الطعام الجيد والجمعة الحقيقية ، وهو يريد ان يعرف حقيقة ما يدور في الحرب .

وعندما ذهب الى جيلورد لأول مرة ، لم يعجبه ، فقد كان هذا الفندق

الذي وضع الروس ايديهم عليه في مدريد ، كثير الفخامة ، وكان الطعام فيه اكثر جودة من ان تحتمله مدينة محاصرة ، والحديث فيه اكثر تشاؤما من ان يدور في حرب . ولكنه سرعان ما فسد . . وقال لنفسه . . ولم لا تسمح لنفسك بان تتناول هذا الطعام الجيد عندما تزور المدينة مرة ثانية . . والحديث الذي سمعته اول مرة ، وخيل اليك انه متشائم ، او لم تتأكد من صحته . هذا ما يجب ان تقوله في جيلورد ، عندما تمضي اليه بعد انتهاء الحرب .

ولكن هل في وسعك ان تأخذ ماريا الى جيلورد ؟ لا ، لن تستطيع . ولكن في وسعك ان تتركها في الفندق ، حيث تأخذ حماما ساخنا في فترة غيابك عنها في جيلورد . اجل في وسعك ان تفعل هذا ، وبعد ان تحدث كاركوف بأمرها . يمكنك ان تأخذها الى هناك ، إذ انهم سيكونون متشوقين لرؤيتها .

ولكنك قد لا تذهب الى جيلورد ابدا . فقد تتناول طعامك بسرعة في غران فيا ثم تعود الى فلوريدا بسرعة . ولكنك تعرف انك ستعود حتما الى جيلورد ، لانك ترغب في ان ترى كل شيء فيه ثانية من جديد . فانت تود ان تذوق طعامه من جديد وان ترى كل ما فيه من متع ، ووسائل للراحة . ثم تعود الى فلوريدا ، حيث تجد ماريا في انتظار اوتك . اجل انها ستكون هناك ، بعد ان تنتهي مما انت فيه . اجل بعد ان تنتهي من مهمتك . ولو انجزت عمك بدقة ، فانت تستحق وجبة ضخمة في جيلورد .

وكان جيلورد هو المكان الذي اجتمعت فيه الى القادة الاسبانيين البارزين من الفلاحين والعمال ، الذين انتضوا السلاح عند بدء الحركة ، دون ان تكون لهم اية خبرة سابقة في شؤون القتال ، أو ان يعمروا بأي تدريب عسكري ، ولكن معظمهم يعرفون الروسية . وكان هذا هو بدء انهيار آماله منذ بضعة اشهر ، عندما شرع يشتاءم . ولكنه عندما ادرك الحقيقة تبينت له صحتها . لقد كانوا عمالا وفلاحين . فقد نشطوا في ثورة عام ١٩٣٤ ، وعندما فشلت اضطروا الى الهرب من البلاد الى روسيا التي بعثت بهم الى الكلية العسكرية ، والى مؤسسة لينين التابعة للكومينترن ،

حتى يتم اعدادهم ، حتى اذا نشب القتال من جديد ، كانوا متأهبين له ،
ولتولي شؤون القيادة .

لقد نفقتم الكومينترن هناك . ففي اية ثورة ، لا تستطيع الاعتراف
بالدور الذي يقوم به الاجانب الذين يساعدونك ، ولا يستطيع اي فرد ان
يدعي معرفة أكثر مما يعرف حقيقة . وقد تعلم هو هذه الحقيقة . واذا
كان الامر صحيحا في اساسه ، فليس الكذب بالشيء المهم . ومع ذلك
فهناك الكثير من الكذب . ولم يكن ليكثرث به في البداية ، ولكنه كان
يكرهه . وسرعان ما بدأ يحبه . اذ انه جزء من عملية ان يصبح الواحد
فردا من حلقة داخلية . ولكنه مع ذلك امر معيب فاسد .

وقد عرفت في جيلورد ان فالانتين غونزاليس ، المسمى بالفلاح ، لم يكن
فلاحا في حياته ، وانما كان عريفا . سابقا في الفرقة الاسبانية الاجنبية .
ثم فر من فرقته وانضم الى عبد الكريم الثائر المغربي . ولا ريب في ان هذا
العمل محمود ، فلم لا يقع ؟ ومن الواجب ان يخوض هؤلاء الفلاحون
الحرب ، وان يتولوا شؤون القيادة ولكن الكثيرين منهم ، قد لا يعدون
ان يكونوا مثل بابلو ، وليس في وسعك ان تنتظر ظهور القائد الفلاح
الحقيقي ، الذي يتصف بالكثير من خصال الفلاحين . اذن عليك ان تصنع
هذا القائد بنفسك . لقد رأى ان في وسع الفلاح غونزاليس ، بانيسا
استنتاجاته على ما رآه فيه ، ان يخلق الكثير من المتاعب كزعيم حقيقي
وكانت المرة الاخيرة التي رآه فيها ، قد اثبتت هذا التحول ، فقد غدا
غونزاليس ، يصدق هالة الدعابة التي نشرها حول نفسه في الماضي ويؤمن
بانه فلاح . انه رجل شجاع ، وقاس ، وليس في العالم من هو اشجع منه .
ولكنه يكثر من الحديث . وعندما يثور ، يتدفق الكلام منه ، مهما كانت
نتائج اقواله ، او الاسرار التي يبوح بها . ولقد كانت هذه النتائج كثيرة
. فعلا . انه قائد كتيبة من الطراز الاول ، على الرغم من قيادته في وضع
يبدو اقرب الى اليأس . وهو لا يستطيع فهم الفشل ، فاذا خسر المعركة
تمكن من القتال ، حتى يسبق طريقه ناجيا منها .

وقد قابلت في جيلورد ايضا ، عامل البناء الساذج هنريك ليستر ، من مقاطعة غاليسيا ، الذي اضحى الآن يقود احدى الفرق ويتحدث الروسية بطلاقة ايضا . وقابلت ايضا العامل الاندلسي خوان موديستو ، الذي اصبح يتولى قيادة فيلق . وبالطبع لم يتعلم الروسية في قريته الا اذا كان في هذه القرية مدرسة لتعلم اللغات يؤمها العمال امثاله . وهو اكثر الجنود الشبان ثقة عند الروس ، لانه من اعضاء الحزب الصادقين مائة في المائة . ولا ريب في انه اكثر ذكاء من ليستر او من الفلاح .

ولا ريب في ان جيلورد هو المكان الذي تحتاج اليه لاستكمال تعلمك . فهناك عرفت كيف تساس الامور حقا ، لا كيف يجب ان تساس . وهما انت قد بدأت في التعلم . ولا ادري اذا كنت ستستمر فيه طويلا . فجيلورد هو المكان الصحيح المناسب الذي تريده وتحتاج اليه . وكنت قد شعرت بصدمة في البداية عندما كنت لا تزال تؤمن بتلك السخافات . اما الان فقد وصلت معلوماتك الى الحد الذي صرت تؤمن فيه بضرورة الخداع ، وكل ما تعلمته في جيلورد قد قوى من اعتقادك في الامور التي كنت تؤمن بصحتها ولكنك تريد ان تعرفها على حقيقة وجودها لا كما يجب ان تكون . ففي الحرب يكثر الكذب عادة . ولكن حقائق ليستر وموديستو والفلاح هي افضل بكثير من الاكاذيب والاساطير . وسيحل اليوم الذي تقال فيه الحقائق لكل انسان اما الان فان مما يسرك ان هناك جيلورد حيث تستطيع ان تتعلم .

ومضى روبرت في تفكيره على هذا النحو ، فقرر ان جيلورد هو المكان الذي يجب ان يؤمه بعد ان يبتاع كتبه وبعد ان ينتهي من حمامه الساخن ويتناول كأسين من الابسنت يشربهما اثناء قيامه ببعض المطالعة . ولكن هذه الخطة كانت قبل ان تظهر ماريا في الصورة . حسنا . في وسعه ان يستاجر غرفتين في الفندق ، وسيكون في امكانها ان تفعل ما تشاء في غرفتها اثناء تنفيذه لخطته السابقة وذهابه الى جيلورد قبل ان يعود اليها لقد تعودت الانتظار طويلا في الجبال كل هذا الوقت وفي وسعها ان تنتظر

مدة اطول ، في فندق فلوريدا . وقرر ان يقضيا ثلاثة ايام في مدريد ، وهي ليست بالوقت القصير . انه سيأخذها الى الاوبرا لتشهد « اخوان ماركس » ، فقد انقضى على هذه الرواية ثلاثة اشهر وهي تمثل على مسرح الاوبرا وستنقضي ثلاثة اشهر اخرى عليها . ولا ريب في انها ستحب هذه الرواية كل الحب .

ومع ذلك فالمسافة بعيدة بين الكهف وبين جيلورد . لا ، لم تكن المسافة طويلة في المجيء ، ولكنها ستكون كذلك في الاياب . وقد اخذه كاشكين اول مرة الى المكان فلم يعجبه . وكان كاشكين قد صرح له بان عليه ان يلقي كاركوف لان هذا يحب الامريكان ، ولانه من اشد المعجبين بلوبي دي فيغا . لكنه لا يوافق كاركوف على هذا الراي .

ولقد احب كاركوف ، ولكنه لم يحب المكان . فكاركوف اذكى انسان عرفه في حياته ، وعندما رآه اول مرة ، كان يبدو مضحكا في حذائسي الركوب اللذين يضعهما في قدميه ، وسراويل « البريدجز » والصدريه . لرمادية ، وبديه الصغيرتين وقدميه ، ووجهه الشاحب ، وطريقته في الحديث التي يقذف بها الكلمات قذفا من فمه . ولكنه يتمتع بمقل لملاح ، وبشخصية مؤثرة ، وسلطة لسان يصل الى النكتة والمزاح اكثر من اي انسان آخر عرفه في حياته .

ولا ريب في ان مطعم جيلورد يبدو كثير الفخامة ، فاسدا كل الفساد . ولكن الا يجوز لمثلي دولة تحكم سدس العالم ، ان يتمتعوا بعض الشيء بحياتهم ؟ انهم يتمتعون كل التمتع وقد عافت نفس روبرت في البداية هذا الوضع ، ولكن سرعان ما تقبله على انه حقيقة واقعة واستساغه . وكان كاشكين قد امتدحه كثيرا ، ولذا فقد سلك كاركوف معه سلوكا مهذبا كل التهذيب الى حد الزاوية ، وعندما رأى اخيرا ان روبرت لا يمثل دور البطل ، وانه لا يتردد في سرد الملح القذرة والنكات ، تخلى كاركوف عن تهذيبه ، وانطلق على سجيته في الحمق والمزاح ، فاصبحا صديقين .

وكانوا يتسامحون مع كاشكين هناك . ولا ريب في ان هذا الانسان كان

يشعر ببعض النقص ، وقد بدأ شعوره هذا في تصرفاته في أسبانيا . وبالطبع لم يكونوا ليصارحوه براهيم في حقيقته ، أما وقد مات الآن ، فانهم لا يتوزعون الآن عن ابداء هذا الرأي . على كل حال ، كان كاشكين قد غدا صديقاً لكاركوف ، كما غدا صديقاً لزوجته الخيلة السمراء الجميلة ، المتوترة الاعصاب والمحرومة من الحياة ، ذات الجسم الرقيق المهمل والشعر الابيض المقصوص ، والتي كانت تقوم بمرور المترجم لرجال فرقة الدبابات . وكان ايضا صديقاً لخيلة كاركوف ذات العينين اللتين تشبهان عيون القطيع والشعر الذهبي الاحمر ، والجسم المشتتهن الكسول ، والفم الذي خلق للقبل ، والعقل الوفي الطموح البليد . وكانت هذه الخيلة تجيب الاشاعات وتسر بالارتباك الذي يسيطر عليه احياناً والذي يخلق التسلية لكاركوف . ويقال ان لهذا الرجل زوجة او زوجتين اخريين ، ولكن احدا لا يعلم عنهما شيئاً . اما روبرت فقد كان يستلمح الزوجة التي يعرفها بالخيلة . ولا ريب في انه سيحب الزوجة الاخرى ان وجدت له فان لكاركوف ذوقنا رائعاً في النساء .

ويقيم الحرس على مداخل جيلورد بيتادقهم وقد اشترعت الحراب في رؤوسهم ، ولا ريب في ان هذا المكان هو اكثر الامكنة امتاعاً الليلة في عصره المحاصرة . وكم ود لو كان هناك هذه الليلة بدلا من ان يكون هنا في هذا الكهف . ولكن الوضع قد تحسن هنا الان ، بعد ان توقفوا عن ادارة العجلة ، كما توقف الثلج عن الخقوط ايضا .

وهو يود ان يعرض فتاته مازيا على كاركوف ، ولكنه لن يجروا على اخذها الى هناك ، الا بعد الاستئذان ، وبعد ان يعرف كيف سيستقبلونه بعد هذه الرحلة . ولا ريب في ان غولز سيكون هناك بعد ان ينتهي هذا الهجوم ، وإذا كان قد اجاد القيام بمهمته فسيعرفون ذلك من غولز نفسه . وبالطبع سيصنحك غولز منه حول موضوع مازيا ، لا سيما بعد الذي ذكره له عن عدم وجود فتيات .

ومد يده الى وعاء الخمر الموجود امام بابلو ، واترع له كأسا وهو

يقول .. باذن منك .

فاحنى بابلو راسه . وخيل لروبرت ان بابلو مشغول بدراساته العسكرية عن الوضع . انه لا يبحث عن حلول المشاكل في افواه المدافع بل في اوعية الخمر . ولكن لا ريب في انه على جانب كبير من المقدرة حتى انه استطاع قيادة هذه العصابة بنجاح هذه المدة الطويلة . واخذ يتطلع الى بابلو ويتصور اي نوع من قادة حرب العصابات سيكون لو قدر له ان يعيش في الحرب الاهلية الامريكية . ولا ريب في ان الحرب قد ضمت عددا كبيرا من امثاله ، ولكننا لا نعرف عنهم شيئا .. ثم موضوع الاغراق في السكر .. فهل حقا كان الجنرال غرانت انسانا سكيما ، وكثيرا ما سمع من جده ان غرانت كان يكثر من الشراب . وانه كان يبدأ الشراب في الرابعة بعد الظهر ، وكثيرا ما امتد سكره يومين على الاقل . ولكن هذا الجدل اكد له ايضا ، ان غرانت كان يعمل بنجاح دائما . مهما كانت كمية الخمر التي شربها ، لكن الصعوبة الوحيدة كانت في ايقاظه من نومه احيانا . اما اذا استيقظ فهو انسان طبيعي عادي .

ولم يظهر اي من امثال غرانت او شيرمان او ستونوول جاكسون عند اي من الفريقين في هذه الحرب . ولكن ظهر فيها عدد من صفار القادة من امثال ماكيللان .

وبالطبع لم ير ايا من العباقرة في هذه الحرب ، حتى ولا عبقرى واحد ، او انسان يشبه العباقرة . وقد قام كليبر ولوكاز وهانز بدور رائع في الدفاع عن مدريد مع الكتائب الدولية . ثم قام مياجا الذي جعلت الدعاية منه المدافع عن مدريد ، والانسان الاصلح ، ذو النظارتين ، والمغرور والبليد والابله والشجاع ، احاسا منه بالغيرة من كليبر ، باقناع الروس ، بنقل كليبر من مدريد الى فالانسيا . وكان هذا جنديا ممتازا ، ولكنه محدود المعلومات العسكرية ، وكثير الكلام عن المهام التي يقوم بها . وكان غولز قائدا ممتازا وجنديا بارزا ولكنهم كانوا دائما يمهدون اليه بالمهام الثانوية ولا يطلقون يده في اي عمل من الاعمال . ولعل هذا الهجوم هو اكبر ما قام

به من أعمال حتى الان ، ولم يعجب روبرت بما سمعه عن هذا الهجوم من انباء حتى الان . وهناك ايضا غول المجري ، الذي يجب ان يقتل رميا بالرصاص اذا صدق الانسان نصف ما يسمعه في جيلورد .

وكم ود لو شهد القتال الذي دار على الهضبة القائمة وراء كوادا لاجارا عندما انتصرت قوات الجمهورية على الايطاليين . ولكنه كان انذاك في ايسترا مادورا . وقد حدثه هانز قبل نحو من اسبوعين في جيلورد ، عن هذه المعركة ، وصورها له ، وكأنه يشهدنا . وقد حلت لحظة واحدة ، كادت قوات الجمهورية تخسر المعركة عندما اخترق الايطاليون خطوط الدفاع ، وهددوا قواتنا بالتطويق ، ولكننا كما قال هانز « لما كنا نعرف انهم من الايطاليين ، فقد قمنا بمناورة ، لم تكن حتما ناجحة ، لو كانت القوات التي تواجهنا من غير الطليان . وقد نجحت مناورتنا » .

وقد عرض عليه هانز المعركة بحذافيرها على الخرائط . وكان يحملها في حقيبته والسرور يفعم فؤاده من نجاح الخطة وتحقق المعجزة . وكان هانز جنديا ممتازا ورفيقا رائعا . وقد حاربت القوات الاسبانية بقيادة ليستر وموديستو والفلاح ، اروع حرب في هذه المعركة ، والفضل في ذلك يعود الى القادة والى تحليهم بالنظام الرائع . ولكن هؤلاء الثلاثة ما كانوا ليعملوا اي عمل الا وفقا لمشورة مستشاريهم الروس . . اجل انهم اشبه ما يكونون بالطلاب الذين يتدربون على الطيران في طائرات مزدوجة الضوابط ، بحيث يستطيع الطيار الذي يتولى تدريبهم السيطرة على الطائرة ، اذا ما اخطأ الطالب في قيادتها . ولكن سرعان ما تختفي الضوابط المزدوجة ، وسيترك اليهم تصريف الامور وقيادة الفرق والفيالق .

وهم من الشيوعيين . ومن المؤمنين بالانضباط الحزبي . ولا ريب في ان النظام الذي سيفرضوه ، سيجعل من جنودهم ، رجالا من خيرة الجنود وكان ليستر يؤمن بالنظام الى حد القتل . وكان متعصبا لعقيدته ، ويملك

افتقار الاسبانين الى احترام الحياة . ولم يعد عدد من الرجال بالجملة لمجرد اسباب تافهة صغيرة ، منذ ايام غزو التتار للغرب في اي جيش ، كما كان يعدم الجنود في ظل قيادته . ولكنه كان ماهرا في صوغ الفرقة وجعلها وحدة مقاتلة ، تحسن الاحتفاظ بالمواقع ، والهجوم على مواقع العدو وتدريب الجيش على المناورة في الميدان . واخذ روبرت يسائل نفسه عن الصورة التي سيكون عليها ليستر ، عندما تنتهي القيادة المزدوجة . ولكن هل تنتهي هذه القيادة ؟ وهل يذهب الروس ؟ او انهم سيزدادون قوة ؟ وما هي حقيقة موقف الروس من هذا الموضوع . ان جيلورد هو المكان المثالي الذي يستطيع ان يدرس فيه جميع هذه الامور . فهناك اشياء كثيرة . يريد ان يتعلمها ، ولن يتيسر له تعلمها الا في جيلورد .

وكثيرا ما خيل اليه ان جيلورد مكان لا يناسبه . فهو يختلف كل الاختلاف عن فيلاسكويز ٦٣ ، القصر المدردي ، الذي غدا مقر الشيوعية الدينية المتطهرة ، ومقر قيادة الفيلق الدولي في العاصمة . ففي فيلاسكويز يشمر المرء ، بانه عضو في رهبنة دينية ، وهو يختلف كل الاختلاف عن الشعور الذي يحس به في جيلورد او في مقر قيادة الفوج الخامس قبل تجزئته الى كتائب تؤلف الجيش الجديد .

وفي اي من هذه الاماكن يشعر المرء ، بانه يشترك في حرب صليبية . ولعل هذه الكلمة هي التي يجب استخدامها ، على الرغم مما لحق بها من تحريف من جراء سوء استعمالها ، حتى انها لم تعد تعطي المعنى الحقيقي منها . فانت تشعر في هذه الاماكن ، على الرغم من بيروقراطيتها ، ونضالها الحزبي ، وافتقارها الى الكفاءة ، نفس الشعور الذي كنت تتوقعه ، والذي لم يكن جزءاً منك ، عندما « تعمدت » لأول مرة . انه شعور التكريس للواجب ، نحو جميع المظتهدين في العالم . وليس في استطاعتك ان تصفه او تتحدث عنه ، كشعور ديني على الرغم من واقعيته ، وتشابهه مع الشعور الذي تحس به عندما تستمع الى موسيقى باخ ، او تقف امام احدى الكاندرائيات لترى النور ينبعث من نوافذها العالية . انه يضفي

عليك شيئاً من الايمان بشيء تستطيع ، ان تعتقد به اعتقادا كاملا وشاملا ، وتشعر نحوه بشعور الاخوة مع الآخرين الذين يرتبطون فيه معك بنفس المصير . ولعلك لم تحس بمثل هذا الشعور من قبل ، ولكنك تجربه الان ، وتضفي عليه وعلى مسبباته اهمية بالغة قصوى ، يختفي امامها تعلقك بالحياة ، ولا يصبح لها اي معنى في نظرك ، سوى انك تريد ان تتجنب الموت لانه يؤخرك عن اداء واجبك . ولكن خير ما في الامر ، ان في وسعك ان تعمل شيئاً تجاه هذا الشعور ، وتجاه تلك الحاجة . وهذا الشيء هو ان تقاوم وتناضل .

وهكذا فقد قاتلت ، ولكن طهر الشعور بالواجب ، قد زال بالنسبة الى اولئك الذين عاشوا بعد انتهاء القتال وابلوا فيه البلاء الحسن . وكان ذلك بعد ستة اشهر ليس الا .

والدفاع عن موقع او مدينة هو جزء من الحرب التي تحس فيها لاول مرة بمثل هذا الشعور . ولقد كان القتال في الجبال ، من هذا النوع حتما فقد قاتل المناضلون فيها تجمعهم رابطة من الزمالة الثورية الصادقة . وعندما اقتضت الحاجة للمرة الاولى ، فرض النظام ، وافق على فرضه ، وفهمه خير فهم . فعند اطلاق نيران المدافع ، جبن بعض الرجال وفروا . وقد راهم يقتلون ، وتترك جثثهم تنتفخ على مقربة من الطريق ، لا يكثرث بهم انسان ، الا طامع في سلبهم ما يحملون من عتاد ومتاع . ولا ريب في ان سلبهم عتادهم ، واحذيتهم ، ومعاطفهم الجلدية ، امر واجب ، اما سلبهم ما يحملون من غوال فأمر واقعي ، اذ انه يحرم الفوضويين من الحصول عليها .

وكان يرى من الحق والعدل والضرورة ، ان يقتل الفارون . فلا ضير في ذلك ولا جناح . ففرارهم مظهر من مظاهر الانانية . فعندما هاجم الغاشيون ، وتمكنا من وقف هجومهم عند منحدرات الصخور الشهباء ، وتمكنا من الصمود امام المدافع التي والتقصف مواقعنا من السهل ، وامام الطائرات ، ثم قمنا بهجومنا المعاكس ، فأخرجنا العدو من المواقع

التي احتلها . وكانوا قد حاولوا القيام بحركة لتطويقنا ، ونجحوا فيها الى حد بعيد لولا الهجوم المعاكس الذي شنناه والذي دحرهم الى مواقعهم الاصلية ، ولولا هذا الهجوم ، لادرنا ما يعنيه التطويق من ويل .

وفي كل هذا ، وفي خضم هذا الخوف الذي يجفف الحلق والقم ، وفي الفزع الناجم عن تهاوي جدار ، وتعطيل مدفع رشاش ، قتل القائمون عليه ، تقدم على حمل المدفع من جديد ، فتضعه في مكان آخر ، وتخرج صندوق عتاده وتشرع في اطلاق النار منه على الطريق . ولقد تعلمت ما توحى به المارك ، من تنكر للخوف ، عندما حاربت طيلة الصيف والخريف دفاعا عن فقراء العالم ، ضد الطفيان ، ودفاعا عن كل ما تؤمن به لايجاد العالم الجديد الذي شبيب على تعلمه . وقد تعلمت في ذلك الخريف كيف تحتمل ، وكيف تتجاهل الالم في اوقات البرد والقر والمطر ، وكيف تقيم الخنادق والتاريس . وقد دفنت جميع مشاعرك في ذلك الصيف وهذا الخريف ، تحت غطاء من التعب والارق ، والهياج العصبي والافتقار الى الراحة . لكن كل ما مررت به من تجارب ، قد جعلت لما تؤمن به قيما ، غالية ، خلقت عندك نوعا من الكبرياء والاعتزاز الذي صيرك وحشا قاتلا فسي جيلورد .

ولكن لا ، انك لم تكن ذلك المثالي في جيلورد وانما كنت انسانا في منتهى الطيبة والسذاجة . ولكن جيلورد لم يكن نفس المكان الذي اصحبه الان . لا . ان جيلورد آنذاك هو غير جيلورد الان .

وقد حدثه كاركوف عن تلك الايام . فقد كان الروس الموجودون في المدينة يعيشون في فندق بالاس . ولم يكن روبرت يعرف ايا منهم آنذاك كان هذا قبل تشكيل اول وحدة من وحدات الغدائيين ، وقبل ان يلتقي كاشكين او غيره من زملائه . وكان كاشكين هذا في سان سيباستيان في الشمال ، ولم يصل الى مدريد الا في كانون الثاني وبعد ان كان روبرت قد قاتل في كارابانشيل وعسيرا ، في تلك الايام الثلاثة التي تمكنوا فيها من

وقف الجناح الايمن من الهجوم الفاشي على مدريد . واخرجوا المغاربة ، من الاماكن التي احتلوها ، بعد معارك دارت من بيت الى بيت ، الى ان تم تطهير الضاحية التي تشرف على مدريد .

ولم يكن كاركوف يحس بالتشاؤم ، حتى في تلك الايام العصيبة . اجل كانت اياما عصيبة . اشترك الجميع فيها ، عندما احسوا ، بان كل شيء قد اشرف على الضياع ، واخذ الواحد منهم ، يفكر بالطريقة التي يجب ان يتصرف فيها فعلا عندما ينتهي كل شيء . وقد تخلت الحكومة عن العاصمة واخذت معها جميع السيارات ، واضطر مياجا العجوز ، عندما قام بالتفتيش على حصون المدينة الدفاعية ، الى امتطاء دراجة هوائية . ولم يستطع تصور مياجا وهو يركب دراجة . ولكنه كان قد كتبها الى الصحف الروسية ، ولعله اراد ان يصدق واقعها ، بعد ان كتبها .

وكانت ثمة قصة اخرى لم يكتبها كاركوف . فقد كان عنده في فندق بالاس ثلاثة من الجرحى الروس ، كان عليه ان يعنى بهم ، وكان اثنان منهم من سائقي الدبابات اما الثالث فطيّار ، وقد اصيبوا بجراح بالغة تجعل نقلهم متعلدا . وكان من المهم جدا ان لا يسقط هؤلاء الجرحى في ايدي العدو في حالة سقوط المدينة ، مخافة اقامة الدليل على التدخل الروسي لتبرير التدخل المكشوف من جانب الدول الفاشية ، ولذا فقد القيت مسؤولية عدم وقوعهم في ايدي العدو على اكتاف كاركوف .

وتقرر في حالة الجلاء عن العاصمة ان يقوم كاركوف بتسميمهم ، وان ينزع منهم كل اوراق هوياتهم ، قبل ان يغادر الفندق . ولم يكن من السهل على الاعداء ، ان يميزوا ان هؤلاء الثلاثة المصابين بجراح بالغة نخينة في رؤوسهم وبطنهم وصدورهم من الروس . اجل ليس في وسع اي انسان ان يعرف ان هذا القليل العاري البدن الملقى في سريره ، هو روسي . فعندما يموت الانسان تختفي بموته جنسيته ، وهويته واراؤه السياسية .

وكان روبرت قد سأل كاركوف عن شعوره تجاه ضرورة قيامه بهذا الواجب ، فرد عليه هذا ، بأنه لا يستطيع حتى الان ان يقرر هذا الشعور . . وعندما سأله . . وكيف ستنفذ الامر ، لا سيما وانت تعرف ان ليس من السهل تسميم الناس ؟ فقال كاركوف . . أجل ان هذا الحادث سهل كل السهولة ، ولا سيما عندما تنفذه ، تحقيقا لاغراضك . . وسرعان ما فتح صندوق سكاثره واطلع روبرت على ما يحمله من جانب منها .

فقال له روبرت . . ولكن اول ما يفعله الناس ان اخذوك أسيرا ، هو الاستيلاء على علبة سكاثرك . وتكون يداك قد ارتفعتا الى ما فوق رأسك .

ورد عليه كاركوف قائلا . . ولكن معي منها هنا ايضا ، وكل ما يطلب اليك هو ان تضع هذه القطعة في فمك ثم تبتلعها . . قال هذا وأشار الى طية سترته .

- هذا افضل . . ولكن قل لي . . هل ان مذاقه شديد المرارة كاللوز المر ، كما نقرأ دائما في القصص البوليسية .

- لا ادري . لم اذق طعمه بعد . اتريد ان نحطم زجاجة صغيرة منه لشمها ؟

- لا . الافضل ان تحافظ عليها .

- أجل . انني لست بالانسان الانهزامي . ولا ريب انك تفهم هذا ، ولكن اياما عصبية قد تعود ، ولا يسهل على الانسان الحصول على هذا الشيء . رأيت البلاغ الرسمي الصادر عن جبهة قرطبة ؟ انه رائع . وقد صرت افضله على جميع البلاغات الاخرى .

- وماذا قال البلاغ ؟ قل لي ؟ . . وكان روبرت ، قد وصل الى مدريد قادما لتوه من قرطبة .

- تواصل قواتنا الظافرة تقدمها ، دون ان تخسر شبرا واحدا من

الارض . هذا ما قاله البلاغ .

- لا . انه لم يقل هذا .

وتذكر روبرت الرجال الذين قتلوا في المعركة التي دارت حول بوزوبلانكو،
ولكن هذا البلاغ ، من النكات التي تروى في جيلورد .

اذن فهذه هي الحالة في جيلورد . ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل شيء ،
فهو يود لو كان ثانية في جيلورد . . وطافت افكاره بذكريانه عن سبيرا
وكارابانشيل وعسيرا . . ثم قال لنفسه . . لا ريب في انك سريع الفساد
والعطب . ولكن هل انت فاسد حقا او انك تخليت عن شعور السذاجة
الذي كان يسيطر عليك في البداية ؟ او لا يمكن ان تشعر بنفس الشعور في
كل شيء ؟ وهل يمكن للانسان ان يحتفظ بنفس المشاعر من الطهارة التي
يبدأ فيها عمله . كما يبدأ الاطباء الفتيان او القسس الشبان ، او الجنود
الحديثو السن . لا ريب في ان القسس يحافظون على نفس المشاعر ، والا
فانهم يتخلون حتما عن عملهم . ولا ريب في ان النازيين يحتفظون بها
وكذلك الشيوعيون الذين يظنون خاضعين للانضباط الحزبي . ولكن
كاركوف . . !!

انه لا يشعر قط بالتعب او الملل من دراسة قضية كاركوف . ففي المرة
الاخيرة التي زار فيها جيلورد ، كان كاركوف رائعا في حديثه عن عالم
اقتصادي بريطاني قضى وقتا طويلا في اسبانيا . وكان روبرت قد قرأ
ما كتبه هذا الرجل طيلة سنوات عدة ، واحترمه بالغ الاحترام دون ان
يعرف شيئا عنه ولم يكن يهتم ، بما كتبه هذا الرجل ، فقد كانت كتاباته
في غاية الوضوح والبساطة والصراحة . وكانت بعض الارقام التي اوردها
قائمة على اساس التمنيات . لكن الانسان يجب ان يحترم على كل حال
بالنسبة الى نواياه .

واخيرا فقد رأى هذا الرجل ، في نفس اليوم الذي وقع فيه الهجوم على
كارابانشيل . كانوا يجلسون في حلبة المصارعة ، وكان صوت العيارات النارية
ينطلق من الشوارع القريبة ، موحيا ، بقرب الهجوم . وكانت القيادة قد

وعدتهم. بارسال دبابة ولكن الدبابة لم تصل ، وقد جلس مونتيرو واضعا رأسه بين ذراعيه يقول ... « لم تأتِ الدبابة . نم تأتِ الدبابة » .

كان اليوم شديد البرودة ، وكان الضباب الاصفر يهب على الشارع ، وكان مونتيرو قد أصيب في ذراعه اليسرى .. وكان يردد القول .. يجب ان تكون لدينا دبابة ، وعلينا ان ننتظرها ، ولكننا لا نستطيع الانتظار .

وكان روبرت جوردان ، قد مضى ليرى اذا كانت الدبابة قد وصلت ، وطاف حول البناية القائمة في نهاية خط الترام ، فرآها هناك . لكنها لم تكن دبابة ، وانما سيارة مصفحة . وكان الاسبانيون يطلقون على كل شيء في تلك الايام اسم الدبابة . انها سيارة قديمة . ولم يرَضْ سائقها ان يترك الزاوية التي اقام فيها ليذهب فيها الى حلبة المصارعة . وكان يقف وراء سيارته ، وقد طوى يديه وراء دروع السيارة واخفى رأسه في الخوذة الفولاذية . وعندما حدثه روبرت . هز رأسه وظل في مكانه . وعاد روبرت يحادثه .. فقال.. ليست لدي اوامر بالذهاب الى هناك .

واخرج روبرت مسدسه ، ووضعه في ظهر السائق وقال .. هذه اوامرك . ولكن الرجل هز رأسه وقال .. ليس معي ذخيرة للمدفع الرشاش .

– عندنا ذخيرة في حلبة المصارعة . هيا بنا ، دعنا نذهب . سنملا امشاط السلاح هناك . هيا .

– ولكن لبس ثمة من يستطيع اطلاق المدفع الرشاش .

– واين هو المدفعي ؟ اين رفيقك ؟

– لقد مات . داخل السيارة .

– اخرجه . هيا اخرجه من داخلها .

– لا اريد ان المسه ، وهو محصور بين المدفع ومقود السيارة ، ولا يستطيع تخطيه .

- هيا بنا ، سنخرجه معا .

وعندما صعد روبرت الى السيارة المصفحة ، اصطدم راسه بطرفها ، فجرح وسال الدم على جبينه ووجهه . وكان القتيل ، بدينا ثقيل الجسم ، واضطر الى ان يطرق راسه حتى يخرجه من المكان الضيق الذي حشر فيه وتمكن اخيرا من انتزاعه ودفع به الى ان وصل الباب . وقال للسائق .. ساعدني في اخراجه .

- لا اريد ان المسه ..

ورأى روبرت الدموع تنساب على وجنتي السائق ، وعلى انفه .. وتمكن اخيرا ، من دفع الجثة حتى كذف بها الى الشارع .

وقال له .. هيا ، ادخل الى السيارة ، عليك اللعنة .. ادخل .. واخذ يهدده بالمسدس .

ورأى رجلا ، يخرج من وراء منعطف البناء ، وقد ارتدى معطفا طويلاً ، وكان عاري الراس اشيب الشعر ، عريض الوجه ، عميق اعينين . وكان يحمل في يده علبة من سكاثر « الشسترفيلد » ، فاخرج سيكارة قدمها الى روبرت الذي كان يدفع السائق الى السيارة المصفحة مهددا اياه بالمسدس .

وقال الرجل الجديد القادم .. دقيقة ايها الرفيق .. هل تستطيع ان تشرح لي شيئا عن القتال ؟

وتناول روبرت السيكارة ووضعها في جيب قميصه . وقد عرف هذا الرجل من صورته . انه العالم الاقتصادي البريطاني .

فرد روبرت عليه قائلا .. اذهب الى الجحيم .. ثم قال لسائق السيارة المصفحة .. هيا الى الحلبة ، اتراها ؟ ثم دخل الى السيارة وجلس بجانب السائق ، وبدأت العيارات النارية تنهال على السيارة من كل جانب فتصيب فولاذها ، محدثة صوتا شديدا .. ووصلت السيارة الى مدخل الحلبة ، وفي الحال فتحت صناديق الذخيرة والعتاد ، وخرج الرفاق بينادقهم

وقنابلهم اليدويه ، وهتف موتيرو قائلا . . حسنا ، ها هي الدبابة ، في وسعنا الآن ان نبدأ الهجوم .

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وبعد ان كانوا قد احتلوا آخر بيت على الجبل ، استلقى روبرت مرتاحا وراء جدار من الآجر ، وقد عمل فيه ثقبا ، يرقب منه عبر الارض المنبسطة الصخور التي تراجع اليها الفاشيون ، والتي اخذوا يطلقون من ورائها النار بعد تراجعهم ، وكان قد انبطح على كومة من القش في ملابسه التي بللها العرق ، واحاط نفسه بحرام مسن الصوف ، منتظرا جفاف العرق . وبينما كان منبطحا في مكانه ، عادت الى خياله صورة العالم البريطاني ، فضحك ، ثم احس بالآلم لانه كان فظا معه ولكنه تذكر انه في تلك اللحظة ، عندما مد يده يقدم اليه لفافة التبغ ، انفجرت في صدره جميع مشاعر الكراهية التي يحس بها المحاربون عادة لغير المحاربين .

وها هو يذكر الان جيلورد ، ويذكر كاركوف متحدثا عن نفس هذا الانسان . ويذكر قوله له . اذن فقد لقيته هناك . اجل فقد ذهب الى الجبهة . اما انا فلم استطع المضي بعيدا عن طليطله . وكان ذلك اليوم ، الاخير من ايام شجاعته كما اعتقد . فقد غادر مدريد في اليوم التالي . لقد كان في طليطله في ذروة الشجاعة ، وكان احد الذين ابلوا البلاء الحسن في احتلال القصر . آه ، لو رايت في طليطله ، فقد كانت جهوده ونصائحه هي التي ادت الى نجاحنا في الحصار الذي فرضناه . ولقد كان هذا الجزء هو اسخف ما مر في الحرب من أحداث ، وقد بلغ الذروة في السخف . . ولكن قل لي ما رأيهم فيه في امريكا ؟ » .

فقال روبرت . . انهم يعتقدون في امريكا انه قريب جدا من موسكو .

فقال كاركوف - لا . انه ليس كذلك ، ولكن له وجه رائعا ، وعن طريق وجهه واخلاقه يستطيع ان يحقق النجاح الذي يريد . اما انا فلا استطيع ان افعل شيئا بهذا الوجه الذي احمله . وان القليل الذي حققته ، قد تم

على الرغم من وجهي ، الذي لا يوحى للناس بحبي ولا يحملهم على الثقة بي . اما ميتشيل هذا ، فيملك وجها يستطيع ان يجمع ثروة عن طريقه . انه وجه متآمر . وكل من قرا عن المتامرين في الكتب ، يثق به على الفور . وهو يسلك ايضا سلوك المتامرين الصادقين . وعندما يدخل الى اية غرفة ، يظن كل من في داخلها ، انه على الفور في حضرة متآمر من الطراز الاول . وجميع مواطنيك الاثرياء ، الذين يودون عاطفيا ان يساعدوا الاتحاد السوفياتي عن عقيدة وايمان او رغبة في ضمان انفسهم في حالة نجاح الحزب ، يرون فوراً في وجه هذا الرجل ، وفي سلوكه ، انه لا يمكن له ان يكون الا عميلاً موثقاً من عملاء الكومنترن .

– او ليست له اية علاقات بموسكو ؟

– لا ابدا . اسمع ايها الرفيق جوردان . هل تعرف شيئاً عن طرازي المجانين ؟

– البسيط ، والشرس ؟

– لا ، وانما اعني الطرازين الموجودين عندنا في روسيا . فهناك اولاً مجنونون الشتاء . وهذا يأتي الى باب بيتك ويقرعه بمنف . فتمضي الى الباب وتراه واقفا عنده . انك لا تعرفه ولا يسبق لك ان رأيت من قبل . ومنظره مؤثر كل التأثير ، فهو ضخّم الجسم ، يرتدي احذية عالية ومعطفاً من الفراء وقبعة من الفراء ، وقد فطنت الثلوج جسمه كله . وهو يهز حذاءيه اولاً فيتساقط الثلج عنهما ، ثم ينزع معطفه ، فتساقط الثلوج عنه ايضا . ثم يخلع قبعته . ويضرب بها الباب ، فيسقط الثلج عنها . ثم يعود فيضرب الارض بقدميه ويدخل الى الغرفة ، وبعد ذلك تتطلع اليه فتري انه مخبول . هذا هو مجنون الشتاء .

.. اما في الصيف فانك ترى مخبولاً يسير في الشارع وهو يحرك ذراعيه ويهز راسه ذات اليمين وذات الشمال ، ويستطيع كل من يراه من مسافة مائتي

ياردة ، ان يعرف انه مخبول . وهذا هو مجنون الصيف . وعالمنا
الاقتصادي من مجانيين الشتاء .

– ولكن لماذا يثق به الناس هنا ؟

– الوجه الذي يحمله . وجه المتأمرين . والحيلة التي يستخدمها ، في
انه قد جاء من مكان اخر ، حيث يثق الناس فيه ، ويعتبرونه انسانا
هاما . وبالطبع عليه ان يسافر كثيرا ، حتى تفعل هذه الخدعة فعلها . ولا
ريب في انك تعرف ان الاسبانيين غريبو الطباع . فهذه الحكومة تملك
الكثير من المال ، من الذهب . وهي لا تعطي اصديقاءها شيئا . فانت
صديق ، هذا حسن . فعليك ان تقوم بعملك بدافع الصداقة ، دون ان
تنال اية مكافأة . ولكنها تعطي الاخرين الذين يمثلون بلادا او شركة غير
صديقة لانها تريد ان تؤثر عليهم . انها تغدق على هؤلاء العطاء . ولعل من
المتع ان تتابع حديثي بدقة وعناية .

– انني لا احب هذه الطريقة ، فالمال ، ملك للعمال الاسبانيين .

– لا يفترض فيك ان تحب جميع الامور وانما عليك ان تفهمها مجرد
فهم ، وانا اعلمك بعض الامور في كل مرة القاك فيها . ولا ريب في انك
ستصبح مثقفا في النهاية ، ولعل من المتع ان يتعلم الاستاذ .

– لا ادري اذا كنت استطيع ان اعمل استاذا عند عودتي ، فمن المحتمل
انهم سيصمونني باللون الاحمر .

– قد يكون في امكانك ان تأتي الى الاتحاد السوفياتي لمواصلة دراستك
هناك . واعتقد ان هذا خير ما تفعله .

– ولكن الاسبانية هي ميداني .

– هناك بلاد كثيرة تتحدث بالاسبانية . ولن يكون من الصعب ان تعمل
في ايها بقدر ما يصعب العمل في اسبانيا . وعليك ان تذكر ايضا انك منذ

تسعة أشهر لم تعد استاذًا . وكان في وسعك في غضون هذه الأشهر التسعة أن تتعلم حرفة ثانية . كم عدد الكتب الفلسفية الشيوعية التي قرأتها ؟

– قرأت « الموجز عن الماركسية » الذي وضعه أميل بيرنر . وهذا كل ما قرأته .

– إذا كنت قد قرأته كله ، فهذا لا يعني إلا القليل . فهو لا يتجاوز الألف والخمسمائة صفحة ، وفي وسعك أن تقضي وقتًا في قراءة كل صفحة . ولكن ثمة أشياء أخرى عليك أن تطلعها .
– ليس لدي وقت للمطالعة الآن .

فقال كاركوف – اعرف ذلك ، ولكنني أعني قريبًا . هناك أشياء كثيرة يجب أن تقرأها فهي تعينك على فهم ما يحدث . ولكن من جميع هذه الكتب ، يمكن أن يخرج كتاب واحد ، ضروري كل الضرورة ، يوضح الأمور التي يجب أن يعرفها الإنسان ويفسرها ، ومن المحتمل أن اكتب هذا الكتاب . وفعلا فلكي أمل ، أن أقوم أنا بكتابته .
– لا أستطيع أن أرى من هو خير منك لهذه المهمة .

– لا تصانعي . فأنا صحفي . ولكن شأني كشأن الصحفيين عامة ، أحب الكتابة في الأدب . وأنا الآن مشغول بوضع كتاب عن كالفوسوتيلو . لقد كان فاشستيا صادقا ، فاشستيا إسبانيا صادقا . أما فرانكو والآخرين فليسوا من الفاشيين . وكنت أدرس جميع كتابات سوتيلو وخطبه . لقد كان إنسانا ذكيا ، ولعل من الذكاء حقا أنه قتل هذا الشهر .

– خيل الي انك لا تؤمن بالاعتقال السياسي .

– انه يطبق على نطاق واسع .

– ولكن ...

– نحن لا تؤمن باعمال الارهاب الفردي ، وبالطبع اعمال الارهابيين

المجرمين والمنظمات المناهضة الثورية . ونحن نزدري بفرع ، غدر الضباع
وازدواجيتهم من القتلة من امثال المخرب بوخارين ، وحثالات البشرية من
امثال زينوفيف وكامينيف ورايكوف ، واشباههم من القتلة . فنحن نكره
ونزدري امثال هؤلاء الابالسة الحقيقيين ، ومع ذلك فما زلت اؤمن ان
الاغتيال السياسي يطبق الآن على نطاق واسع .

– هل تعني ...

– لا اعني شيئاً . ولكننا نعدم ونقضي على الشياطين والحثالات والكلاب
الغادرة من الجنرالات والاميرالات الذين يخونون الامانة الموكولة اليهم .
هؤلاء يجب ان يقضى عليهم ، انهم لا يفتالون . فهل رايت الفرق ؟
– اجل رايته .

– ولما كنت اهزل احيانا ، وانت تعرف ما ينطوي عليه الهزل احيانا
من خطورة . اجل لما كنت اهزل احيانا ، فلا تظن اني امزح عندما اقول
ان الشعب الاسباني لن يعيش حتى يندم لانه لم يقتل عددا من الجنرالات
الذين يتولون القيادة الان . وانا لا احب القتل ، ولعلك تعرف هذا ؟
– لا يهمني امرهم . انا لا احبهم ، ولكني لا يهمني امرهم ابدا .

فقال كاركوف – اعرف هذا ، فقد اخبرني به بعضهم .

– وهل هو على هذا النحو من الاهمية ؟ لقد كنت احاول ان اكون
صادقا ليس الا .

– هذا شيء مؤسف . ولكنه من الامور التي تحمل الناس على اعتبار من
يقوم بهذه المحاولة على انه انسان موثوق يركن اليه ، مع انه في ظروف
اخرى قد لا يستطيع الوصول الى هذه المرتبة الا بعد لاي وجهد .

– وهل من المفروض انني من الموثوقين الذين يركن اليهم ؟

– من المفروض انك في عملك من الموثوقين جدا . وعلى ان اتحدث اليك

أحيانا لارى ما تمتاز به من مواهب عقلية . ومن المؤسف اننا لا نتحدث
ابدا احاديث جديدة .

- لقد توقف عقلي عن التفكير ، في هذه الفترة الى ان تكسب الحرب .
- اذن فقد لا تحتاج اليه الى فترة طويلة . ولكن عليك ان لا تهمل تمرينه
في هذه الفترة ، مرات قليلة .
- انا اقرا العالم الغريب .

- حسنا . . انها نكتة ولكن في هذا العالم الغريب بعض الاشياء الصحيحة
الصادقة التي سجلتها وقائع هذه الحرب .

- اجل ، انا اتفق معك ، ولكن للحصول على صورة كاملة لما يقع ، لا
تستطيع ان تقصر قراءتك على صحيفة الحزب .
- لا .

- ولكنك لا تحصل على هذه الصورة اذا قرأت عشرين صفحة ، ثم اذا
حدثت وحصلت على ما تريد ، فلا تدري ما تفعل بهذه الصورة . فانا مثلا ،
احصل عليها بصورة دائمة ، وكل ما افعله هو انني احاول دائما نسيانها .
- او تظن انها على هذا النحو من السوء ؟

- انها افضل مما كانت عليه . ونحن الآن نتخلص من بعض الامور التي
هي في منتهى السوء . لكن الامور عفنة منتنة ، فنحن نقوم الان ببناء جيش
ضخم ، وبعض العناصر من امثال بوديستو والفلاح وليستر وديوران ،
موثوقة يركن اليها . اجل انها اكثر من موثوقة . انها رائعة . وسترى ذلك
بنفسك . وما زالت لدينا الكتائب ، مع ان الدور الذي كانت تقوم به قد
تغير الان . ولكن الجيش المؤلف من عناصر طيبة وسيئة لا يمكن له ان
يكسب حربا ، فمن الواجب ان تصل كلها الى مستوى معين من التطور
السياسي ، ويجب ان يعرف الجميع لماذا يحاربون ، واهمية هذه الحرب
بالنسبة اليهم . اجل يجب ان يؤمن الكل بالحرب التي يخوضونها ، وان
يقبلوا بالنظام الذي يفرض عليهم . فنحن نقوم الان ببناء جيش ضخم من

المجندين ، دون ان يتوفر لنا الوقت لتلقين جنود هذا الجيش النظام الذي يجب ان يتوفر فيه ، والطريقة التي يجب ان يسلكها في المعركة . ونحن ندعوه بجيش الشعب ، ولكنه سيظل مفتقرا الى كل « موجودات » الجيوش الشعبية الصحيحة ، والى النظام الفولاذي الذي يتوفر في كل جيش نظامي ستري . انها عملية خطيرة جدا .

- ارى انك متشائم اليوم .

- لا ، لقد جئت لتوي من فالانسيا حيث اجتمعت الى عدد كبير من الناس . ولا يعود الانسان عادة من فالانسيا ، متفائلا . وفي مدريد لا تشع الا بالقوة ، والنظافة وتوقع النصر . اما فالانسيا فشيء آخر . فالجبن الذين فروا من مدريد ما زالوا هم الحاكمين هناك . وقد هداوا هناك الى بيروقراطية الحكم وترهله . وهم ينظرون الى جماعة مدريد نظرة ازدراء . واللعنة المسيطرة عليهم الان هي اضعاف قوميسارية الشؤون الحربية . وبرشلونة ، يجب ان تراها .

- وكيف هي ؟

- انها لا زالت مسرحية هزلية . وقد كانت في البداية فردوس المجانين ، وانثوريين الخياليين . اما الان فقد غدت فردوس الجنود المزيفين ، الذين لا هم لهم الا ارتداء البزات العسكرية والتخاطر في الشوارع ، ووضيغ الاوشحة الحمراء والسوداء على اعناقهم . وهم يحبون كل ما يتعلق بالحرب الا شيئا واحدا وهو القتال . ففالانسيا تحمل الانسان على التقيؤ ، وبرشلونة ترغمه على الضحك .

- وما رايك في المحاولة الانقلابية ؟

- لم تكن المحاولة الانقلابية جدية . بل كانت هرطقة قام بها المجانين والاشقياء ولكنها لم تكن اكثر من مجرد لعبة صبيانية . وكان بين الذين قاموا بالمحاولة عدد من المضللين الشرفاء . وكان بينهم عقل مفكر واحد ،

وتلقوا بعض الاموال الفاشية ولكنها لم تكن كثيرة . يا لها من حركة
فاشلة سخيفة .

– ولكن هل قتل في المحاولة الانقلابية عدد كبير من الناس ؟

– لم يكن القتلى كثيرون بقدر من قتلوا فيما بعد ، او من ستنفذ فيهم
احكام الاعدام . آه هذه الحركة ، انها مثل اسمها لا يمكن ان تحمل على
محمل الجد . وكان من الاخرى ان يطلق عليها اسم آخر . كالحصبة او
النكاف . ولكن الحصبة شيء خطر . وقد تؤثر على النظر والسمع .
ولكنهم تأمروا كما تعرف على قتلي وقتل ولتر وموديستو وبريتو .
ارابت الى اي حد بلغت الفوضى عندهم ؟ اننا لسنا متشابهين . يا لها من
حركة تافهة لم تستطع ان تقتل احدا ، لا في الجبهة ولا في اي مكان آخر .
كل ما استطاعت ان تفعله هو ان تقتل بعض الناس في برشلونه ليس الا .

– وهل كنت هناك ؟

– اجل ، وكنت قد ابرقت اشرح شراسة تلك المنظمة المخزية من القنلة
التروتسكيين واساليبهم الفاشية ، وقد ضمنت برقيتي كل احتقار
وازدراء ، ولكن المحاولة كانت سخيفة وتافهة . وكان « نين » الرجل
الوحيد فيها ، وقد اعتقلناه ولكنه فر من ايدينا .

– واين هو الآن ؟

– في باريس . اننا نقول انه في باريس . لقد كان رجلا ممتعا ولكنه
يحمل الكثير من الانحراف السياسي .

– ولكنهم كانوا على اتصال بالفاشيين ، الم يكونوا على اتصال ؟

– ومن لم يتصل بهم ؟

– نحن لسنا على اتصال بهم .

– ومن يدري ؟ آمل ان لا نكون على اتصال . فانت تذهب كثيرا الى
ما وراء خطوطهم . ولكن شقيق احد سكرتيري سفارة الجمهورية في باريس

سافر في الاسبوع الماضي الى سنت جان دي لوز لمقابلة اناس من بيرغوس .
- انا افضل الجبهة . كلما كان الناس اقرب الي الجبهة ، كلما كانوا
افضل واحسن .

- وما رايك بالوضع وراء خطوط الفاشيين !

- على ما يرام ، لدينا الكثيرون من الناس هناك .

- ارايت ؟ لا ريب في ان لهم كثيرين من انصارهم ايضا وراء خطوطنا .
واذا عثرنا عليهم قتلناهم ، كما انهم اذا عثروا على رجالنا قتلوهم . وعليك
ان تفكر عندما تكون في بلادهم ، في عدد الرجال الذين يبعثون بهم الى
ما وراء خطوطنا .

- لقد فكرت في هذا الموضوع .

- حسنا ، اعتقد انك فكرت اليوم بما فيه الكفاية . ولذا اشرب الان
ما امامك من جعة ، وهيا امض عنا ، فعلي ان اصعد الى الطابق العلوي
لارى بعض الناس . انهم في الطابق العلوي ، وعد الي عما قريب .

اجل .. هذا ما فكر به روبرت جوردان .. لقد تعلمت كثيرا فسي
جيلورد وقد قرأ كاركوف الكتاب الوحيد الذي طبعه . لم يكن الكتاب
ناجحا . ولم تتجاوز صفحاته المائتي صفحة .. ولا اعتقد ان اكثر من الف
شخص قد قراه . فقد ضمنه جميع اكتشافاته في اسبانيا اثناء عشر
سنوات من الترحال فيها مشيا على الاقدام او في عربات الدرجة الثالثة
او في سيارات الباص ، او على ظهور الخيل والبغال ، او في السيارات
الشاحنة . انه يعرف بلاد الباسك ، ونافسار ، واراغون ، وغايسيا ،
والقشتاليين ، وايسترامادورا خير معرفة . وكانت قد صدرت عن
الموضوع عدة كتب ممتازة وضعها بورو وفورد واضرابهما حتى انه لم
يستطع ان يضيف الى ما كتبه شيئا . ولكن كاركوف ذكر ، بأن الكتاب
رائع .

ولقد قال له كاركوف ذات يوم . . هذا هو السبب الذي يحملني على
الاهتمام بك ، فانا اعتقد انك تكتب كتابة صادقة ، وهذا شيء نادر
الوجود . ولهذا فانا اريد ان تعرف الكثير .

حسنا . سيكتب كتابا جديدا عندما ينتهي من هذه الحرب . ولكن
الكتاب سيكون مقصورا على الاشياء التي عرفها تمام المعرفة . وقال
يحدث نفسه . . ومع ذلك علي ان اكون مجيدا للكتابة اكثر من الماضي ،
لاستطيع تناول هذه المواضيع . فالامور التي تعلمتها في هذه الحرب ليست
على درجة كبيرة من السهولة .



١٩

- قالت ماريًا تسأله : ماذا تفعل هناك ؟ . . وادار لها رأسه فرأى انها تقف مبتسمة الى جانبه .
- لا شيء . كنت افكر .
 - بم كنت تفكر ؟ ابالجسر ؟
 - لا . لقد تقرر امره . كنت افكر بك ، وبفندق في مدريد اعرف بعض الروس فيه ويكتاب اعتزم كتابته في يوم ما .
 - وهل هناك عدد كبير من الروس في مدريد ؟
 - لا . ان عددهم قليل .
 - ولكن الصحف الفاشية تقول انهم يعدون بالمئات والالوف .
 - هذه اكاذيب . فعددهم قليل .
 - وهل تحب الروس ؟ فالرجل الذي كان معنا هنا ، كان روسيا .
 - وهل اعجبك ؟
 - اجل . كنت مريضة آنذاك . ولكني اعتقد انه كان جميل الصورة

وشجاعا .

وقالت بيلار - يا له من سخف . جميل !! كان انفه منبسطا كيسيدي
هذه ، وكانت عظام وجنتيه بارزة كعظام الغنم .

فقال روبرت - لقد كان من خيرة اصدقائي ورفاقي ، وكنت احبه كثيرا
فقالت بيلار - حقا . ولكنك قتلته .

وعندما فاهت بهذه العبارة ، توقف لاعبو الورق عن اللعب ، ورفهوا
ابصارهم واخذ بابلو ، يتطلع الى روبرت محملا فيه . ولم يفه احدهم
بينت شفة ، الى ان وجد الفجري الشجاعة ليوجه السؤال قائلا .. اما
تقوله حق يا روبرتو ؟

- اجل .. وود لو ان بيلار لم تثر هذا الموضوع ، ولو انه لم يبع به لها
عند ايل سورددو .. ثم استطرد يقول .. اجل .. يطلب منه ، فقد كان
جريحا جرحا بالغا .

وقال الفجري .. كان دائم الحديث عندنا ، عن مثل هذا الاحتمال . ولا
ادري كم مرة وعدته باداء مثل هذا الواجب . يا له من شيء غريب .

وقال بريمتيئو ... كان هو في حد ذاته ، رجلا غريبا فذا .

وقال اندريه .. احد الاخوين . اسمع . انت ايها الاستاذ . اعتقد ان
بامكان الانسان ان يرى ما يخبئه له القدر .

فقال روبرت ، وكان بابلو ، يتطلع اليه بنظرة فيها استغراب وفضول ،
وبيلار ترقبه دون ان يبدو على وجهها اي تعبير .. اعتقد ان الانسان لا
يستطيع ان يرى مستقبله . اما بصدد هذا الرفيق الروسي ، فقد كان
شديد العصبية من طول المدة التي قضاها في الجبهة . فلقد قاتل في ايرون
وكلكم ، تعرفون ما حدث فيها من سوء . اجل كانت معركة سيئة . ثم
قاتل في الشمال . ومنذ اللحظة الاولى التي تم فيها تشكيل هذه الوحدات
التي تعمل وراء الخطوط ، كان يعمل فيها في ايسترامادورا والانجلس .

وأعتقد أنه غدا منهمكا متوتر الأعصاب ، يتصور دائما أشياء بشعة .

وقال فيرناندو - لا ريب في أنه كان يرى أشياء سيئة كثيرة .

فقال اندريه - أنه كغيره من الناس . ولكن اصغ الي يا انكليزي . هل تعتقد ان بإمكان الانسان ان يعرف مسبقا ما سيحدث له ؟
- لا . هذا مجرد جهل وخرافة .

وقالت بيلار - وكأنها تتحدث الى طفل نضج مبكرا .. اكمل .. دعنا نسمع رأي الاستاذ .

فقال روبرت - اعتقد ان الخوف يوحى بالرؤى السيئة ، كان يسرى الانسان النذر التي توحى بالتطير ..

وقاطعه بريمتيفو بقوله .. كطائرات اليوم مثلا ..

وقال بابلو برقة .. او كوصولك الي هنا .

وتطلع روبرت اليه عبر المائدة ، فادرك ، أنه لم يقصد بقوله الاستفزاز وانما مجرد التعبير عن فكرة .. ثم مضى يقول .. « وعندما يرى الانسان الخائف ، العلامات والنذر التي يتطير منها ، يأخذ في تصور نهايته ، ويعتقد ان هذا الخيال قد جاء عن طريق الوحي ، وانا لا اعتقد ان الامر يعدو ما قلت . فانا لا اؤمن بالعرافة او الرجم بالغيب او الغيبات كلها . »

وقال الفجري .. ولكن هذا الرجل ذا الاسم الغريب ، رأى نهايته بوضوح ، وهذا ما تم فعلا .

- انه لم يرها . انما كان يخشى من هذا الاحتمال . واصبحت خشيشه هوسا يسيطر عليه . وليس في وسع احدكم ان يقول ، انه قد رأى شيئا ابسدا .

وقالت بيلار ، وقد التقطت بعض الرماد من النار : ووضعت في يدها ، ثم نفخته بفمها .. حتى ولا انا ؟ او لا استطيع ان اقول انا شيئا .
- حتى ولا انت بكل سحرك وشعوذتك وغجريتك ..

– ذلك لانك معجزة من معجزات الصمم . فانت لست بالانسان البليد .
ولكنك اصم . والاصم لا يستطيع سماع الموسيقى ، او الانصات الى المدياع
ولانه لم يستمع اليهما ، فانه يقول ، ان مثل هذه الامور لا توجد . اليس
كذلك يا انكليزي . لقد رايت موت ذلك الرجل ذي الاسم الغريب في وجهه ،
وكانه موسوم عليه بقطعة من الحديد الملتهب .

فقال روبرت مصرا على رايه – كلا انك لم تر ، موته ، وانما رايت خوفه
وقلقه ، وقد نجم الخوف عن المحن التي مر بها . اما القلق فمن احتمال
وقوع الشر الذي تصوره .

فردت بيلار . . لا لقد رايت الموت يجثم هناك بوضوح وكأنه يجلس على
كتفيه . واكثر من هذا لقد شممت رائحة الموت .

شممت رائحة الموت ؟ لعلك شممت رائحة الخوف . فللخوف رائحة .

– اسمع . عندما كان بلانكيت ، وهو اكبر العرافين ، يعمل تحت امرة
غرانيرو ، قال لي انه في يوم موت مانولو غرانيرو المصارع المشهور ، كانت
رائحة الموت تنبعث من الصباح . فعندما توقفا في الكنيسة في طريقهما الى
الحلبة ، كانت رائحة الموت من العنف والشدة بحيث احس بلانكيت بالحاجة
الى التقيؤ . ولقد كان مع مانولو عندما استحم وارتنى ملابسه في الفندق ،
قبل المضي الى الحلبة . ثم اختفت الرائحة في السيارة عندما جلسا
ملتصقين في الطريق . ولم يحس بالرائحة في الكنيسة الا خوان لويس دي
لاروزا ، اما المساعدان الاخران وهما مارسيال وشيكوكو فلم يحسا بها .
وقال لي بلانكيت ، انه راى وجه خوان لويس شاحبا فقال له . . وهل
شممت الرائحة ايضا ؟ فقال خوان . . اجل حتى انني لا استطيع ان اتنفس
فقال بلانكيت . . ليس في وسعنا ان نعمل شيئا سوى الامل بان نكون
مخطئين . . وفي نفس ذلك اليوم قضى الثور على مانولو غرانيرو وحمله
على قرنيه قاذفا به الى الحاجز امام الجماهير النظارة في مدريد . وقد
كنت هناك مع فينيتو .

فقال فيرناندو - ولكن هل شممت شيئاً ؟

- لا . كنت بعيدة . فقد كنا في الصف السابع . ولكنني كنت في موقف الذي يستطيع ان يرى كل شيء . . . وبلانكيت هذا ، الذي انتقل الى خدمة جوسيليتو فيما بعد ، ابلغ فينيتو ، بالقصة في فورنوس مستشهدا بخوان لويس دي لاروزا الذي ايد القصة تمام التأييد . كنت حاضرة وسمعت كل شيء . ومن هذا يبدو يا انكليزي انك اصم ، ولا تسمع بعض الامور ، او لا تشمها مثل مارسيال وشيكولو . ولكن خوان لويس وبلانكيت لم يكونا اصمين . وانا لست بالصماء .

وقال فيرناندو - ولماذا تطلقين عليه لفظ الصمم بينما هو امر يتعلق بالانف .

- يجب ان تكون انت الاستاذ بدلا من الانكليزي . . . ولكن في وسعي يا انكليزي ان احدثك عن امور اخرى ، وعليك ان لا تشك فيها لمجرد انك لا تستطيع ان ترى او تسمع . فانت لا تستطيع ان تسمع ما يسمعه الكلب ، ولا تستطيع ان تشم ما يشمه الكلب ايضا . واثت حتى الآن ، لم تمر ، الا بالقليل من التجارب التي تمر بالرجل عادة .

ووضعت ماري ايدها على كتف روبرت جوردان ، وارختها هناك ، وخيل اليه ان من الواجب ان يضع حدا لكل هذه السخافات وان يفتنم فرصة الوقت المتبقي ليعمل شيئاً . ولكن الوقت ما زال مبكرا ، ويجب قضاء هذا الشطر من الليل بأي شكل من الاشكال . . . ولذا فقد التفت الى بابلو قائلا . . . وهل تؤمن انت بهذه الشعوذة ؟

فقال بابلو . . . لا ادري . انني اميل الى رايك . ولم يحدث لي حتى الآن اي شيء غريب او غيبي . ولكنني اعرف بلانكيت هذا ، فقد كان رجلا في منتهى الجد والتقوى . وهو ليس بالفجري ، وانما هو بورجوازي من اهل فالانسيا . او لم تجتمع اليه ؟

- اجل لقد رايت عدة مرات . انه رجل قصير ، ابيض الوجه ، يحسن

الضرب براسه . وسريع في العدو كالارنب .

وقالت بيلار . . تماما ، لقد كان له وجه شاحب بسبب بعض المشاكل التي يعانيها في قلبه ، وكان العجز يقولون انه يحمل الموت معه في ثيابه ولكنه يستطيع ان يطرحه جانبا كما يقذف الانسان بالغبار عن المائدة . ومع ذلك ، فانه . وهو ليس بالعجزي ، اشتهم رائحة الموت في جوسيلينو عندما حارب في تالافيرا . ولا ادري كيف ان هذه الرائحة تدفقت الى انفه اكثر من رائحة الخمر . وقد تحدثت بلانكيت عن هذا الامر فيما بعد ، ولكن الذين استمعوا الى حديثه قالوا عنه انه مجرد خيال ، وان ما شمه لم يكن الا الحياة التي كان يعيشها جوزيه آنذاك . خارجة مع العرق ، من تحت ابطيه ثم جاءت قصة مانولو غرانيرد التي اشترك فيها ايضا خوان لويس دي لاروزا . ومن الواضح ان خوان لويس لم يكن رجلا كثير الاحترام ، ولكنه شديد الاحساس في عمله وكان ايضا زير نساء . اما بلانكيت ، فرجل كثير الجد والهدوء ، ولا يعرف الكذب . وانني لاقول لك انني شممت رائحة الموت في زميلك الذي كان هنا

وقال روبرت . . انا لا اصدق هذا ، وقد قلت ان بلانكيت شم نفس الرائحة قبل مصارعة الثيران . وقد نجحتم انتم وكاشكين في قضية الفطار ولكنه لم يقتل فيها . فكيف كان في وسعك ان تشمي الرائحة آنذاك وهو لسم يقتل ؟ . .

فردت بيلار موضحة . . لا شأن لهذا بالموضوع . ففي الدورة الاخيرة التي اشترك فيها اغناسيو سانشيز ميجياس ، كانت رائحة الموت تنطلق منه بقوة حتى ان الكثيرين رفضوا الجلوس معه . وقد عرف جميع العجز هذه الحقيقة .

فقال روبرت . . تخترع هذه الروايات بعد ان يموت الانسان . فكل فرد كان يعرف ان سانشيز ميجياس كان في طريقه الى الموت اذ انه كان يفتقر الى التدريب منذ امد طويل ، ولان اسلوبه كان ثقيلًا وخطرا ، ولان قوته والمرونة في ساقيه كانتا قد ذهبتا ولم تكن انعكاساته على ما كانت عليه .

– طبعا ، كل ما تقوله صحيح . ولكن جميع العجر كانوا يعرفون ان رائحة الموت تنبعث منه ، وعندما وصل الى « فيلا الزهور » رايت اشخاصا من امثال ريكاردو وفيليب غونزاليس ، يغادرون المكان من الباب الخلفي ، وراء البـار .

– ربما كانوا مدينين له ببعض المال .

– هذا ممكن . ممكن جدا . ولكنهم شموا رائحة الموت ، وكلهم عرفوا هذه الحقيقة .

وقال رافائيل الفجري – ان ما تقوله هو الحقيقة يا انكليزي . وكلنا نعرف هذه الأمور .

– انا لا اصدق شيئا منها .

– وقال انسيلمو – اسمع يا انكليزي . . انا ضد السحر والشعوذة ، ولكن بيلار هذه مشهورة بتقدمها في مثل هذه الامور .

وقال فيرناندو متسائلا . . ولكن ما هي رائحة الموت ؟ اية رائحة له ؟ اذا كانت له رائحة ، فانها يجب ان تكون معروفة ومحدودة .

وقالت بيلار وهي تبسم – او تريد ان نعرف يا فيرناندو ؟ او تظن ان في وسعك ان تشمها ؟

– اذا كانت موجودة حقا ، فلم لا استطيع ان اشمها كما يشمها الاخرون ؟

كـ وقالت بيلار ، وهي تسخر به . . ولم لا ؟ اسبق لك ان استقلت باخرة يا فيرناندو ؟

– لا . ولا اريد ان اركب متون البحر .

– اذن فلن يكون في وسعك ، ان تميزها . اذ ان جزءا من الرائحة ، يشبه تلك التي تهب على باخرة ما عندما تكون هناك عاصفة . وتغلق جميع كوات

الباخرة ، فاذا وضعت انفك في درفة احدى هذه الكوات ، وكانت الباخرة تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، فانك تحس ، بنوع من الاعماء والخواء في معدتك ، وتشم شيئاً من هذه الرائحة .

– اذن سيكون من المستحيل علي ان اتعرف الى هذه الرائحة ، لانني لن استقل اية باخرة .

وقالت بيلار – اما انا فقد ركبت البواخر عدة مرات عندما كنت اسافر الى المكسيك وفرنزويلا .

وقال روبرت متسائلا .. وما هو الجزء الباقي من هذه الرائحة ؟ ..

وتطلعت اليه بيلار هازئة ، وقد تذكرت الان باعتزاز رحلاتها البحرية .
وقالت : اسمع يا انكليزي .. حسنا ، تعلم . هذا هو الموضوع . بعد ان تشم رائحة الباخرة ، عليك ان تهبط التل من مدريد ، الى ساحة طليطله في الصباح ، وتقف على الرصيف الرطب من الضباب ، وتنتظر رؤية النساء العجائز ، وهن في طريقهن قبل الفجر لشرب دماء الحيوانات التي تم ذبحها وعندما تبصر باحدى هاته النسوة وقد التفت بوشاحها ، وشحب وجهها وغارت عينها ، وبدت غضون السن وتجمداته على وجهها ، وذقنها ، فعليك ان تطوقها بذراعك يا انكليزي وان تضمها الى صدرك ، وتقبلها في فمها ، وآنذاك تعرف الشطر الباقي من تلك الرائحة .

فقال العجري .. لقد تقززت نفسي من هذا الوصف .

وقالت بيلار تسأل روبرت .. او تريد ان تسمع اكثر ؟

– اجل ، اذا كان من الضروري ان نتعلم ، فلنتعلم .

فقال العجري – لا تتحدثي يا بيلار ، عن تلك الشقوق في وجه العجائز . فلم تتشقق وجوه النساء عندما يشخن . ولا يحدث لنا هذا .

فقالت بيلار تهزا به .. لا ، انها تحدث لنا معشر النساء اللاتي كن في

شبابهن رقيقات الاجسام ، ولكنها لا تحدث طبعاً ، بالنسبة للفجريات
الحوامل ، اللاتي يدفنن بطونهن امامهن دليلاً على رضى ازواجهن ..

فقال رافائيل .. لا تتحدثي على هذا النحو المعيب يا بيلار ..

– اذن فقد استأت . هل رايت في حياتك عجيبة ليست على وشك الوضع؟
– انت .

– دعك من هذا . فليس هناك ، من لا يتألم . وما اردت قوله هو ان
السن يأتي بصورة القبح الى الجميع . ولا ارى لي حاجة الى الافاضة
والاسهاب . اما اذا اراد الانكليزي ان يتعلم تلك الرائحة التي يشكك
بوجودها ، فعليه ان يذهب الى حيث قلت في الصباح الباكر .

فقال روبرت – سأذهب . ولكني ساشم الرائحة عندما يعمرن بي دون
حاجة الى القبل . انني اخشى الاخاديد والشقوق في الوجه .

فقالت بيلار – قبل واحدة يا انكليزي ، بقصد التعلم ، ثم عد وهذه
الرائحة في انفك الى المدينة ، وعندما ترى وعاء فيه بعض الازاهير الميتة
اغرق انفك في هذه الازاهير واستنشق بعمق ، حتى يختلط الاريح الجديد
بالرائحة الموجودة في انفك .

– ولو فرضنا انني قمت بذلك ، فأي نوع من الازاهير هي ؟

– الاحقوان .

– اكلمي ، ولو فرضنا انني شممتها .

– حينذاك ، من المهم ان يكون اليوم من ايام الخريف الماطرة ، او التي
يكثر فيها الضباب على الاقل ، او في مطلع الشتاء ، وأنداك . عليك ان
تواصل السير في المدينة ، وان تشم كل ما تستطيع شمه من روائح عندما
يكنسون الشوارع ، او يجمعون القاذورات من امام البيوت ، واذا مسا

مزجت هذه الروائح . بالماء والصابون ورائحة اقناع السكائر ، مضيت الى حديقة يوتانيكو ، حيث تواصل العتيبات اللاني عجزن عن مزاوله العمل في البيوت . عملهن مع الرجال ، على الابواب الحديدية او الاسوار او الممرات فتري العديد منهن ينفذن كل ما يطلبه الرجل من رغبات جامحة ويتناوان اجرا على ما يعملنه يتراوح من عشرة سنتاب الى بيزيتا ، معابل العمل الرئيسي الذي خلقنا نحن معشر النساء لتنفيذه ، وذلك على اكوام مسن الزهور الميته التي اجثت من مكانها ، واعيد وضعها في الارض في مكان آخر ، لتكسيها ليونة ونعومة . وتجد كمية هائلة من الروائح العبقة من الارض الندية والزهور الميته ، وأعمال الحب . وفي هذه الروائح تسنطيع ان تشم تلك الرائحة التي تشير الى موت انسان وولادة آخر . وحاول ان تشم تلك الرائحة شما عميقا بعد ان تدفن راسك في تلك الروائح .

- لا .

- اجل . عليك ان تدفن راسك وان تستنشق بعمق . اذا كنت لم تفقد الروائح التي سبق لك جمعها ، وأنداك ستشم رائحة الموت القادم كما نعرفها نحن .

- حسنا . وانت تقولين ان كاشكين ، كانت تنبعث منه رائحة الموت عندما اتى الى هنا .

- اجل .

- حسنا ، اذا صح ما تقولين ، فان من الخير اني قد قبلته .

وهتف الفجري ، وضحك الآخرون .

وقال بريمتيفو مستحسنا . . حسن جدا . لا ريب ان هذا سيحملها على التفكير بعض الوقت .

وقال فيرناندو - ولكن يا بيلار ، لا ريب انك لا تتوقعين من انسان مثقف كالدون روبرتو ، ان يفعل كل ما طلبت اليه فعله .

- طبعالا .

.. لان كل ما قنته يبعث التتمزز في النفس .

.. اجبل .

.. وبالطبع ، لن تتوقعي منه ان ينفذ كل هذه الاعمال المشيئة ؟

.. لا . اذهب الى فراشك .. الا تذهب .

.. ولكن يا بيلار ..

.. اغلق فمك .. ولا تحاول ، ان تجعل من نفسك اضحوكة ، وسأحاول ان لا اجعل من نفسي اضحوكة في الحديث الى اناس لا يفهمون ما يقال لهم

نقال فيرناندو - انا اعترف انني لا افهم .

فقالت بيلار - لا تعترف ولا تحاول الفهم . اما زال الثلج ينساقط في الخارج .

ومضى روبرت الى مدخل الكهف ورفع الستار . كان الثلج قد توقف عن الهطول وان كان الطقس ما زال شديد البرودة . وتطلع الى جذوع الاشجار حيث تراكمت الثلوج ، والى السماء الصافية . واخذ نفسا عميقا من الهواء البارد .

وخيل اليه ان ايل سورددو سيترك الكثير من الاثار التي تدل عليه ، اذا كان قد سرق عددا من الجياد تلك الليلة .

واسدل الستار وعاد الى الكهف الذي يغمره الدخان وهو يقول ..
السماء صافية . فقد هدات العاصفة .

واستلقى في فراشه ، في ظلمة الليل ، واخذ ينتظر مجيء الفتاة اليه ، وقد توقفت الرياح ، وهدأت اشجار الصنوبر عن الحركة . واخذت جذوع الاشجار تبرز امامه من الثلج الذي يغطي جميع الارض ، واحس بليسن الفراش ، ودفته فمد رجليه ، بينما كان الهواء البارد يهب على راسه . وانفه . واحس تحت راسه بكومة الملابس التي جمعها ليحفظ منها وسادة ، والى جانبه يقبع مسدسه الاوتوماتيكي الضخم . الذي اخرجته من قرابه ووضعته الى جانبه شادا اباه الى رسفه الايمن . وازاح المسدس بعيدا عنه واخذ يرقب عبر الثلوج ، مدخل الكهف . وكانت السماء صافية ، والنور المنعكس على الثلج كافيا لرؤية جذوع الاشجار ، وكومة الصخور التي يقوم الكهف تحتها .

وكان في ساعة مبكرة من المساء ، قد حمل الفأس ، ومضى الى خارج الكهف ماشيا فوق الثلج ، الى حافة الفرجة القائمة بين الاشجار فقطع شجرة صغيرة من التنوب . وسحب الشجيرة التي اقتطعها في وهداة الدجى الى ان وصل بها الى الجدار الصخري ، ثم اوقفها ممسكا بجذعها بثبات بيد واحدة ثم اخذ يقطع باليد الاخرى جميع فروعها والغصانها الى ان صنع منها كومة عالية . وعاد ثانية الى الكهف لباتي بقطعة من الخشب كان قد رآها مرتكزة الى الجدار . وتمكن بواسطة هذه القطعة

من ازاحة الثلوج عن الارض التي اقام فوقها سريره فوق الاغصان التي
اقتطعها . بعد ان ثبت قوائمه في الارض .

وحمل الفأس وقطعة الخشب عائدا بهما الى الكهف فسمع بيلار تسأله
... ماذا تعمل في الخارج ؟

- عملت سريرا لي .

- ولكن لا تقطع اجزاء من وفتي الخشبي لتقيم سريرك .

- آسف .

- لا اهمية لذلك . فهناك الواح خشبية في الطاحونة . اي نوع من
الاسرة اقمت ؟

- من النوع الذي نقيمه في بلادي عادة .

- اذن نم فيه مرتاحا .

واراد ان يحمل الكيسين الى الخارج ، فقالت له بيلار .. في وسمعها ان
يظلا في رعابتي تماما كليلة الامس .

- او لا تريد ان تبعني بالحرس . فالليل صاف وقد انتهت العاصفة .
- سيذهب فيرناندو .

وكانت ماريبا في مؤخرة الكهف ، فلم يستطع ان يراها .

- اذن طبتم مساء جميعا .. فانا ذاهب الى النوم .

وكان الباقون يهيئون الفراش الذي سينامون فيه على الارض قرب
الموقد ، فتطلع اليه بريمتيفو واندرية وقالوا : اسعدت مساء .

اما انسيلمو ، فكان قد اغفى في زاوية ، بينما نام بابلو على مقعده .

وقالت بيلار .. اوتريد جلدا لسريرك .

- لا . شكرا . لست في حاجة اليه .

- اذن نم جيدا ، وساعني باشيانك .

وخرج فيرناندو معه ، حيث وقف لحظة واحدة في المكان الذي اهد

روبرت سريره فيه وقال .. ان فكرتك غريبة في النوم في العراء يا دون روبرتو .

- انا متعود على هذا الشكل . اسعدت مساء .

- ما دمت متعودا عليه ..

- ومتى تنتهي نوبتك ؟

- في الرابعة صباحا .

- ستشبع بردا ، من الآن حتى الرابعة .

- لقد تعودت عليه .

وقال روبرت بدمائة .. ما دمت متعودا عليه ..

- اجل ، يجب ان امضي الآن الى مركزي . مساء الخير ، يا دون روبرتو

- مساء الخير يا فيرناندو .

ودخل روبرت في فراشه ، واحس بالدفء وبحركة الاغصان تحته واخذ يرقب مدخل الكهف ، عبر الثلوج ، وهو يكاد يستمع الى نبضات فؤاده .

كان الليل صافيا ، واحس بصفاء نكري يشبه صفاء الهواء وبرودته . وشم رائحة اغصان الصنوبر تحته . واخذ يفكر ببيلاز ، ورائحة الموت التي حدثته عنها . وقال هذه الرائحة هي التي احبها ، رائحة الاغصان التي اقتطعت حديثا ، كما احب رائحة الشواء والاخشاب التي تحترق . ورائحة اوراق الخريف التي نلتهمها النيران . لا ريب في انها رائحة الحنين الى الاوطان التي تملأ أنفه .. واخذ يسأل نفسه .. أية رائحة تفضل يا ترى ؟ اتفضل رائحة الاعشاب الحلوة التي يستخدمها الهنود في سلالهم ، او هل تؤثر رائحة الجلد المدخن ، او رائحة الأرض في الربيع بعد المطر او رائحة البحر وانت تسير على الشاطئ في غاليمبيا ، او الريح عندما تقترب الى الساحل في كوبا ؟ انها رائحة ازهار الصبار ، او الميموزا او اعشاب البحر . وقد تؤثر ان تشم رائحة شواء شرائح الخنزير في الصباح والجوع يعصر احتياك ، او رائحة القهوة في الصباح ، او تفاعلة تقضمها او الشمبانيا وهي تعصر او الخبز يخرج طازجا من الفرن . وقال لنفسه .. لا ريب في انك جائع .. تم استلقى على جانبه ومضى يرقب مدخل

الكهف ، على ضوء اشعة النجوم المنعكسة على الثلج .

ورأى شبعا يخرج من الكهف ، ويقف بين الصخور التي تؤلف المدخل .
ثم سرعان ما سمع صوتا غريبا ورأى ذلك الشبح ، يعود فيدخل السى
الكهف .

واخذ يفكر ، انها لن تأتي ، قبل ان ينام الجميع . ولمه يضيع وقته ،
فقد مضى نصف الليل . آه ، يا ماريا ، تعالي الي سراعا الآن . تعالي يا
ماريا فالوقت قصير . وسمع صوت كومة من الثلج تسقط من فوق احد
الانغصان على الارض . وارتفعت الريح . واحس بها تعصف في وجهه .
واحس فجأة بهلع شديد من انها قد لا تأتي . وذكره ارتفاع الرياح ، بأن
الصباح قد أوشك على المجيء . وتساقت الثلوج من الاوراق العالية على
الارض مع هبوب الريح .

تعالي ، يا ماريا ، ارجوا! تعالي بسرعة ، اجل تعالي الي لا تنتظري .
فليس من ضرورة لانتظارك حتى يناموا جميعا .

ورآها تخرج من وراء الستارة التي تغطي باب الكهف . ثم ابصر بها
تتوقف لحظة لا يدري ما كانت تعمله فيها . وصفر لها بغمه صغيرا خفيفا
ناعما ، ولكنها ظلت في مدخل الكهف ، لا يدري ما تصنعه في ظل الصخور
المظلمة . ثم رآها ، تركض متجهة اليه ، وهي تحمل شيئا في يديها .
وسرعان ما كانت الي جانبه ، فقد دفنت رأسها في صدره ، وهي تقذف
بالثلج عن قدميها . وقبلته ، ثم اعطته الرزمة التي تحملها .

وقالت . . ضعها في وسادتك . لقد اتيت بها من الداخل انقاذا للوقت .

- وهل جئت حافية القدمين في الثلج ؟

- اجل ، ولا البس الا قميص عرسي .

وضمها بعنف اليه ، واخذت تفرك رأسها في ذقنه . وقالت . . لا تلمس
قدمي ، انهما باردتان يا روبرتو .

- ضعيهما هنا ، ليدفئا .

- لا ، سينتقل اليهما الدفء سريعا . ولكن قل لي بسرعة الان انك تجبني

- احبك .
- حسنا . حسنا . حسنا .
- احبك ، يا ارنيتي الصغيرة .
- وهل اعجبك قميص عرسي ؟
- انه نفس الرداء .
- اجل . انه الذي كنت ارتديه ليلة امس . فهو قميص عرس .
- ضمي قدميك هنا .
- لا . هذا معيب . انهما ستدفآن وحدهما . انني احس بدنثهما .
- وكان الثلج وحده ، هو الذي جعلك تشمر ببرودتهما . قل ثانية .
- احبك . يا ارنيتي الصغيرة .
- وانا احبك ، وانا زوجتك .
- وهل ناموا ؟
- لا . ولكني لم استطع الاحتمال مدة اطول . واية اهمية في ذلك ؟
- لا اهمية مطلقا ، ما دمت انت الى جانبي .
- ضع يدك على راسي . ودعني ارى اذا كان في وسمي ان اقبلك ..
- وقبلته ثم قالت .. هل كانت قبلة رائعة ؟
- اجل . اخلمي قميص عرسك .
- او من الضروري ان اخلمه ؟
- اجل ، اذا كنت لا تحسن بالبرد .
- اية برودة !!.. انني اكاد التهب .
- وانا احترق . ولكن ، ان تحسي بالبرد فيما بعد ؟
- لا ، فسندو فيما بعد معا كحيوان الغاب ، وسنكون قريبين من بعضنا
- الى الحد الذي لا يستطيع الانسان ان يميز بيننا . او ليس في وسعك ان

تشعر ان قلبي قد غدا قلبك ؟

- اجل ، لا فرق بينهما .

- اذن فاشعر . انا انت .. وانت انا ، وكلانا واحد . وانا احبك .. آه .

انا احبك للغاية . او لسنا شخصا واحدا ؟ الا يمكنك ان تشعر بهذا ؟

- اجل ، انني اشعر به .

- اذن فانت لا قلب لك الا قلبي .

- ولا يدين ولا رجلين ، ولا جسم .

- ولكننا مختلفان . وكنت افضل ان تكون متشابهين .

- انك لا تعنين ما تقولين .

- بل اعنيه . اعنيه . هذا امر اود ان احدثك به .

- انك لا تعنيه ..

- قد لا اعنيه ، ولكنني احببت قوله . ولما كنا مختلفين ، فانا سعيدة

لانك روبرتو ولاني ماريا . ولكن اذا راق لك التغيير ، فكم يسعدني ان

نتبادل . انني احب ان اكونك ، لانني احبك كل الحب .

- انا لا احب التغيير ، ومن الخير ان يظل الانسان كما هو .

- ولكننا سنكون شيئا واحدا ، ولن يفرق بيننا شيء . وساكون انت

عندما لا تكون انت موجودا . آه ، كم احبك ، ولذا علي ان اعني بك .

- ماريا !

- نعم .

- ماريا !

- نعم .

- ماريا !

- نعم .. من فضلك .

- هل تحسین ببرد ؟

- لا .. ارفع الغطاء فوق كتفيك .

- ماريًا !

- لا أستطيع الكلام .

- آه . ماريًا ! ماريًا ! .. ماريًا ! ..

ورقدت هادئة سعيدة بين ذراعيه ، وقد التصقت به تشمس بدفء
الفراش ، امام برد الجو القارص .. وقالت .. وانت ؟

- وهل اتيت ؟

- اجل . ولكن ليس كبعد الظهر .

- لا .

- ولكنني كنت سعيدة كل السعادة . فلا حاجة الى الموت كل مرة .

- لا . ارجو . لا .

- لم أعن ذلك .

- اعرف ما تعنيه . فنحن نعني شيئًا واحدًا .

- اذن لم خالفتني ؟

- يختلف الرجل عن المرأة .

- اذن يسعدني اننا مختلفان .

- وانا كذلك . ولكنني فهمت عن الموت ، كما يفهم الرجل . اما

الاحساس والشعور ، فلا اختلف فيه عنك .

- مهما فكرت . ومهما قلت ، فهذا ما اريدك ان تكونه .

- وانا احبك ، واحب اسمك يا ماريًا .

- انه اسم شائع .

- لا . انه ليس شائعًا .

- الانام الآن ؟ في وسمي ان انام بسهولة .

- دعينا ننام . واحس بالجسم الطويل الناعم ، دافئا بقربه ، يبعث في نفسه السعادة ويطرح عنها شعور الوحدة ، من مجرد لمسة من كتف ، أو مسة من قدم . ويتحالف معه على الموت . . وقال . . نامي يا ارنبتسي الصغيرة .

- لقد نمت فعلا . .

- وسانام انا . نامي يا حبيبتي .

واغمض عيني ، ونام وادعا هائنا سعيدا .

وافاق في الليل ، وضمها بقوة اليه ، وكأنها كل ما له في هذه الحياة ، وانها ، توشك ان تمضي عنه . اجل ضمها ، وكأنها الحياة نفسها ، الحياة الحقيقية التي يريدتها . ولكنها كانت نائمة نوما عميقا ، ولم تستيقظ . فانكفا الى جانبه ، ورفع الغطاء فوق رأسها ، وقبلها في عنقها . ثم رفع المدس ووضعه الى جانبه في متناول يده ، واضطجع في وهدة الليل وهو يفكر .



وهبت ربيع دافئة مع طلوع الصباح ، وسمع صوت ذوبان الثلوج ، على اوراق الاشجار ، وهي تنهاوى الى الارض . كان يوما من ايام الربيع المتأخر وادرك عندما سحب اول نفس عميق ، ان الثلج ، كان عاصفة موقوتة في الجبال ، وانه سيدوب قبيل الظهر ، وسمع وقع حوافر جواد على الثلج، يركض خبيا . وسمع صوت غدارة تتأهب للانطلاق . .

وقال . . ماريا . . وهو يهزها من كتفها ليوقظها . . ماريا ، اخفي راسك تحت الفطاء ، وسرعان ما زرر قميصه بيده ، وحمل مسدسه باليد الاخرى وراى راس الفتاة يختفي ، ثم ابصر ، بالفارس يقترب من وراء الاشجار . وامسك بالمسدس بيديه وصوبه الى الرجل الذي لم يكن قد رآه من قبل .

كان الفارس يقف امامه الآن تقريبا ، وقد استقل جوادا اشهب ضخما ، وعلى راسه قبة من الخاكي ، وفي قدميه حذاءان اسودان ثقيلان . وظهرت من جانب السرج فوهة بندقية اوتوماتيكية . وكان وجهه فتيا وقاسيا ، وفي هذه اللحظة لمح روبرت جوردان .

ومد يده يريد التقاط البندقية ، وابصر روبرت بالاشارة الرسمية التي

يحملها على الجانب الأيسر من قميصه ، فصبوب مسدسه الى صدره ،
واطلق النار ...

وانطلقت الرصاصة داوية في الغابة الملاي بالثلوج .. وهوى الحصان ،
وانزلق الرجل الى الأرض وقد ظلت رجله معلقة في السرج . واندفع
الحصان مهرولا وهو يجر الرجل الذي أخذ رأسه يصطدم بالأرض ،
ووقف روبرت جوردان ، وهو يحمل مسدسه في يده . ومضى الحصان
مهرولا بين الأشجار ، بينما اندفع الجمع خارجين من الكهف . وتناول
روبرت سرواله وبدأ يلبسه . وقال لماريا .. البسي ..

وسمع ازبز طائرة تحلق على ارتفاع عال . ورأى عبر الأشجار ، المكان
الذي توقف فيه الحصان . بينما كان فارسه ، لا يزال معلقا من رجله في
السرج ، ووجهه على الأرض .

وقال لبريمتيفو .. امضي فامسك الجواد .. ثم قال .. ومن كان يتولى
الحراسة في المرتفع ؟

فقالت بيلار من الكهف .. رافائيل .. وكان شعرها لا يزال منسدلا على
كتفها .

وقال روبرت .. في المكان فرسان .. هيا اخرجوا مدفعكم اللعين .

وسمع بيلار تهتف الى داخل الكهف .. اوغسطين ! .. ودلفت السن
الداخل وسرعان ما رأى رجلين يندفعان منه وقد حمل أحدهما البندقية
الرشاشة على كتفه ، بينما حمل الآخر كيسا مليئا بالمشاط .

وقال روبرت لانسيلمو .. امضي معهما . وانبطح قرب المدفع الرشاش
وامسك برجليه .

واندفع الرجال الثلاثة في الطريق الممتد عبر الغابة ، يصعدون الجبل .
ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد على قمم الجبال . ووقف روبرت ، يزور

بمرواله ، ويثبت حزامه ، وقد تدلى المسدس الضخم من وسطه . ووضع
المسدس في قرابه ، بعد ان اعاد رصاصة جديدة اليه ، بدل الرصاصة التي
انطلقت منه .

وتطلع عبر الاشجار : الى حيث يقف بريمتيفو وقد امسك بعنان الجواد
. واخذ يخرج : قدم الفارس من الركاب ، بينما كان لا يزال يبحث في جيوبه
فقال له .. هيا .. هات الجواد .

وانحنى روبرت يلبس حذاءه ، واحس بماريا عند ركبته وهي ترتدي
ملابسها في السرير . انها لم تعد الآن جزءاً من حياته .

وخيل اليه ان ذلك الفارس لم يكن يتوقع شيئاً . انه لم يكن يسير في
الطريق ، التي تطرقها الخيل عادة ، ولم يكن حذراً . او متخذاً احتياطاته .
ولا ريب في انه ينتمي الى دورية متفرقة في الجبال . ولكن عندما ستفتقده
الدورية ستلحق بآثره . الى هنا الا اذا ذاب الثلج اولا . والا اذا حدث
شيء للدورية ثانياً .

وقال لبابلو - من الخير ان تهبط من هنا الى الاسفل .

وكان الجميع قد خرجوا من الكهف الآن وقد حملوا غداراتهم وقنابلهم
اليدوية . ورفعت بيلار كيسا من القنابل اليدوية لروبرت فاخذ ثلاثا منها
وضمها في جيبه . ودلف الى الكهف ففتح احد الكيسين ، واخرج البندقية
نصف الاوتوماتكية وتناول عددا من العتاد لها ، وضع بعضه فيها والباقي
في جيبه ، ثم اغلق الكيس وخرج من الكهف .. وقال لبابلو .. ساصعد
الى المرتفع . افني وسع اوغسطين ان يطلق ذلك المدفع الرشاش ؟

فقال بابلو وهو يرقب بريمتيفو يسحب الجواد .. اجل .. انظروا ما
اجمل هذا الجواد .

وكان الحصان يرتعد بعض الشيء ، فربت روبرت على رقبته .. وقال
بابلو .. ساضمه الى باقي الجياد .

فقال روبرت .. لا . لقد ترك اثارا تقود الى هذا المكان يجب ان نمحها
وقال بابلو - حقا .. سأمتطيه ، واخفيه في مكان ثم اعود به بعد ان
يدوب الثلج . انك وافر التفكير اليوم يا انكليزي .

فقال روبرت .. ابعت واحدا الى الاسفل . اما نحن فعلينا ان نصعد .
ورد بابلو - لا ارى ضرورة ، فالفرسان لا يستطيعون الصعود مسن
الاسفل ولكن في وسعنا ، ان نمضي من هناك ، ومن مكانين آخرين . ومن
الافضل ان لا نترك اثارا سيماء اذا كانت الطائرات ستاتي .. اعطني يسا
بيلاز ، زمزية املاها بالخمير .

فقالت بيلاز - لتسكربها . خذ هذه بدلا منها .. ومد يده واخذ قبيلتين
يدويتين وضعهما في جيبه . ثم قالت .. ما معنى ان اسكرب .. ان الوضع
خطر . ولكن اعطني زمزية . فانا لا اريد ان اعيش على الماء .

وارتقى صهوة الجواد ، وربت على رقبته . وراه روبرت يحك ساقه على
جناح الجواد بحب وعطف . وقال بابلو .. هيا .. كلما اسرعنا كان افضل
واجدى . ومد يده واخرج البندقية الاوتوماتيكية الخفيفة الموضوعة في
جيب السرج وقال انظروا .. تسلمهم . هذا سلاح الفرسان العصري .

فقال روبرت .. ان منظر الفرسان العصري يتراءى في وجهه .

- امض يا اندريه ، فاسرج الجياد ، ولتكن على استعداد . واذا سمعت
صوت عيارات نارية ، فسر بها الى الغابة القائمة وراء المضيق . تعال
بذراعيك ودع النساء يمسكن بالجياد . اما انت يا فيرناندو ، فاحمل
الكيسين ، وكن رفيقا بهما شديد العناية . اما انت يا بيلاز ، فعليك ان
تعني بالكيسين ايضا . وان تتأكد من انهما سيلحقان بنا مع الجياد ..
هيا فلنذهب .

وقالت بيلاز .. سأستعد انا وماريا للذهاب .. ثم قالت لروبرت وهي

تشير إلى بابلو الذي يستقل صهوة الجواد .. انظر اليه . لقد بدله الجواد تمام التبديل .

فقال روبرت بحماس - كنت اود ان يكون لي جوادان .

- ان الخطر جوادك .

- اذن اعطني بغلا .. وقال لبيلاز ؛ وهو يشير براسه الي الرجل المنكفيء على وجهه في الثلج .. أنزعي عنه هذه . وأنزعي من جيبيه كل ما فيها من اوراق ورسائل ؛ وضميها في الكيس . كل شيء . افهمت .

- اجل .

ومضى بابلو في المقدمة ؛ يتبعه الرجلان ؛ كل على انفراد ؛ لئلا تترك اثرا مشتركا على الثلج ؛ وحمل روبرت البندقية نصف الاوتوماتيكية مسن مقبضها . وود لو ان نفس العتاد الذي يصلح لبندقية الفارس يصلح لها . ولكنه لا يصلح لها . فهذه بندقية المانية ؛ وكانت لكاشكين .

وبدات الشمس تشرق الآن على قمم الجبال . وبدات ريح دافئة تهب . واخذ الثلج في الدوبان . لقد كان صباحا رائعا من ايام الربيع المتأخر .

والتفت روبرت ورائه ، فرأى ماريا تقف الآن مع بيلار .. ثم جاءت ترفض على الطريق ورائه ، فتأخر وراء بريمتيفو ليحدثها .

وقالت .. انت .. هل تستطيع ان آتي معك ؟

- لا ، ساعدي بيلار .

وسارت ورائه ووضعت يدها على ذراعه .

- سآتي معك .

- لا .

ولكنها ظلت تسير خلفه .

فألت - في وسمي ان امسك بقائمتي المدفع الرشاش ؛ على النحو الذي

- امرت به انسيلمو .
- لن تمسكي اية قوائم ، لا قوائم مدفع ولا قوائم اي شيء آخر .
- وسارت بجانبه ، ومدت يدها في جيبه .
- فقال لها .. لا .. ولكن انتهي الي قميص عرسك .
- اذن قبلي .. اذا كنت ذاهبا .
- اجل .. كل القبل .. اما الان فعودي . هناك عمل كثير . وقد
نضطر الى القتال هنا اذا اقتفوا اثر الجواد .
- اسمع ، ارايت ما كان يلبسه على صدره ؟
- اجل . ولم لا ؟
- كان يضع القلب المقدس
- اجل . جميع سكان نافار يحملونه .
- وهل اطلقت النار على القلب ؟
- لا . تحته . عودي الان .
- اسمع ، لقد رايت كل شيء .
- لم تر شيئا . كل ما رايته رجلا على جواد . ارجعي الان .
- قبل انك تحبني .
- لا . ليس الان .
- الا تحبني الان ؟
- اوه . ارجعي الان ، ان الانسان لا يقوم بكل هذه الاعمال ويحب في
نفس الوقت .
- اريد ان امضي معك ، وان امسك بقوائم المدفع ، وعندما يتكلم المدفع
اريد ان احبك في نفس اللحظة .
- انك مجنونة . ارجعي الان .
- انا لست بمجنونة . ولكنني احبك .

- اذن عودي .

- حسنا سأعود . واذا كنت لا تحبني ، فان حبي لك بكفيينا معا .

ونظر اليها وابتسم وهو في خضم افكاره . ثم قال .. وعندما تسمعين صوت اطلاق النار ، تعالي مع الجياد ، وساعدي بيلا في حمل الاكياس . من المحتمل ان لا يقع شيء ، وهذا ما آمله .

- سأعود . انظر الجواد الذي يمتطيه بابلو .

وكان الجواد الاشهب يسير حثيثا على الطريق .

- اجل ولكن عودي .

- انا عائدة .

والتصقت يدها بجيبه . وضربت على فخذه . وراى الدموع تنهمر من عينيها . واخرجت يدها ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وقبلته .

- انا ذاهبة ، انا ذاهبة :

ونظر ورائه ، فراها ما زالت واقفة ، وقد انعكست اشعة الشمس الاولى على وجهها الاسمر ، وعلى شعرها المقصوص . ورفع يده باتجاهها فاستدارت وعادت من حيث انت ورأسها خفيض الى الامام .

وتطلع بريمتيفو خلفه ، ونظر اليها . وقال .. لو لم يقصوا شعرها على ذلك النحو لكانت فتاة رائعة الجمال .

وقال روبرت وهو يفكر في شيء آخر .. اجل .

وقال بريمتيفو يسأله .. وكيف هي في الفراش ؟

- ماذا ؟

- في الفراش ؟

- أغلق نمك

- على الانسان ان لا يساء عندما .. .

فقال روبرت .. دع عنك هذا الحديث ..

٢٢

قال روبرت جوردان لبريمتيفو .. اقتطع لي بعض اغصان الصنوبر ؛
واتيني بها بسرعة .. ثم التفت الى اوغسطين وقال .. لا يعجبني
موضع المدفع الرشاش هناك .

- ولم ؟

- ضعه هناك ، وسأخبرك فيما بعد .
وقال وهو يساعده .. هنا .. اجل هنا ..

وتطلع عبر المضييق الضيق ، ملاحظا ارتفاع الصخور على جانبيه ثم قال
.. يجب ان يكون على مسافة ابعد . اجل هنا . هذا مكان مناسب موقتا
له ، الى ان نعثر له على مكان افضل . اجل ضع الحجارة هنا . خذ هذا
حجر . ضع حجرا آخر على هذا الجانب . واترك مكانا للفوهة لتدور .
ابعد الحجر من هذا الجانب يا اتسيلمو . انزل الى الكهف وآتني بفأس
بسرعة . ثم قال يسأل اوغسطين .. او لم يسبق لكم ، ان وضعت المدفع
الرشاش في مكان مناسب ؟

- نضعه دائما هنا .

- او لم يقل لكم كاشكين ابدا ان تضعوه هناك ؟

- لا ، ان المدفع الرشاش لم يصلنا الا بعد ذهابه .
- او لم يكن الذي اتى به يعرف استعماله ؟
- لا ، فقد كان الذين اتوا به من الحماليين .
- يا لها من طريقة في تنفيذ الامور . اذن فقد سلم اليكم دون اية تعليمات ؟

- تماما كما تعطى الهدية . مدفع لنا ومدفع لايل سوردو . جاء بهما اربعة من الرجال كان انسيلمو يدلهم على الطريق .
- لا ريب في انها معجزة ، ان المدفعين قد تمكنا من المرور عبر الخطوط مع الرجال الاربعة .

وقال اوغسطين - وقد استغربت انا نفسي من ذلك . فقد خيل الي ان من بعثوا بالمدفعين ارادوا لهما الضياع ، ولكن أنسيلمو كان بارعا في عمله .
- اتعرف كيف تتصرف بالمدفع ؟

- اجل . فقد جربته ، ونجحت . وبابلو يعرف ايضا ، وكذلك بريمتيفو وفيرناندو . وقد درسنا تجربته كله . ثم اعدينا تركيبه على المائدة في الكهف . ومرة فككناه ، ولم نستطع اعادة تركيبه الا بعد يومين . ومنذ ذلك الحين ، لم نجرؤ على اعادة التجربة .

- وهل هو صالح للاطلاق الان ؟

- اجل ، ولكننا لا نسمح للفجري او الاخرين بان يمسه .
- ارايت ؟ لقد كان هناك ، لا نفع فيه مطلقا . انظر . ان هذه الصخور التي يجب ان تحمي جناحيك كان من المقدر ان تكون سالحة لتفطية من يهاجمك . فبمثل هذا المدفع ، عليك ان تبحث عن منبسط لاطلاق النار . ثم عليك ان تأخذ مهاجميك من الناحية الجانبية . ارايت . انظر الان . انه سيطر على كل ناحية .

- اجل لقد رايت . ولكننا لم نشترك قط في اية حرب دفاعية الا عندما احتلت مدينتنا . اما في القطار ، فقد كان الجنود هم الذين يحملون الرشاش

– اذن فستتعلم معا ، وعلينا ان نلاحظ اشياء معينة . واين هو الفجري
الذي كان يجب ان يكون هنا ؟

– لا ادري .

– اين يمكن ان يكون ؟

– لا ادري .

وكان بابلو ، قد مر عبر المضيق ، ثم مضى بجواده يسير في دائرة عبر
المنبسط الذي كان واقعا تحت هدف المدفع الرشاش . وراه روبرت الان
وهو يهبط المنحدر ، على نفس الانار التي كان الجواد قد تركها في الارض ،
عندما مر من المكان بفارسه للمرة الاولى ، ثم اختفى وراء الاشجار بعد ان
استدار ناحية الشمال .

وقال روبرت جوردان يحدث نفسه – آمل ، ان لا يقع في ايدي الفرسان .
وهو يكثر من التجوال على هذه الصورة .

وجاء بريمتيفو يحمل كومة من اغصان الصنوبر وثبتها روبرت في الثلج ،
تحت الارض غير المتجمدة ، واضعا اياها على شكل قوس فوق المدفع . .
ثم قال . . اتنا باغصان اخرى . . يجب ان تكون التفطية شاملة للرجلين
الذين يطلقان النار من المدفع . وبالطبع هذه التفطية ليست متقنة ، ولكنها
تنفع الى ان يصل الفاس . واذا سمعتم اي صوت ، فانطرحوا حيث انتم
بين الصخور او في ظلالها . اما انا فسأظل مع المدفع الرشاش .

وكانت الشمس قد ارتفعت الآن في كبد السماء واخذت الريح الدافئة
تهب ، وكان المكان الذي تشرق الشمس فيه على الصخور ممتعا . . وبدا
روبرت يفكر . . انها اربعة جياذ . وهناك المراتان وانا وانسيلمو وبريتميفو
وفيرناندو واوغسطين ، والاخ الآخر . . آه لقد نسيت اسمه ! . اذن
فالمجموع ثمانية . وهناك الفجري ، اذن تسعة . وهناك بابلو وقد مضى
مع احد الجياذ فالمجموع عشرة . . آه ان اسم الاخ اندريه . . واخوه
ابلاديو . . اذن فالمجموع عشرة . وهذا يعني اقل من نصف حصان لكل
فرد . في وسع ثلاثة رجال الاحتفاظ بهذا الموقع . ويمضي الخمسة

الباقون ومعهم بابلو مع الجياد . يظل هناك رجلان . . بل ثلاثة مع ايلاديو
فاين هو بحق الجحيم ؟

ولا يعرف الا الله ، ماذا سيقع لسوردو اليوم اذا تابعوا اثار الجياد في
الثلج . ولا ريب في ان سقوط الثلج قد عقد الامور ، ولكن ذوبانه اليوم ،
سيعيد الامور الى نصابها الصحيح . ولكن لا بالنسبة الى سوردو ، فان
ما اخشاه ، ان يكون الوقت قد تاخر لاصلاح الوضع بالنسبة لسوردو .

واذا تمكنا من الصمود اليوم ، دون ان نضطر الى خوض المعركة فقد
ننجح في الموضوع كله غدا ، بما يتوفر لدينا من رجال وعناد . اجل في
وسعنا ان نقوم بالمهمة . وقد لا يكون اتمامنا لها على الوجه الصحيح ، او
كما كان يجب ان يكون ، ولكن العملية ستتم حتما . كل ما نحتاج اليه ان
لا نحارب اليوم . اما اذا حاربنا اليوم ، فليكن الله في عوننا .

ولا اعرف مكانا نستطيع ان نقيم فيه الآن خيرا من هذا . واذا تحركنا
الان فكل ما نفعله اننا سنترك اثارنا تدل علينا . وليس هذا المكان بأسوأ من
سواه ، اما اذا ساءت الامور الى اقصى حد ممكن ، فهناك ثلاثة سبل
للخلاص من هذا المكان ، وعلينا على كل حال ان ننتظر حلول الظلام ،
وحيثما كنا في هذه الجبال ، كان في وسمي ان اصل الى الجسر لانسه
عند الفجر . ولا ادري ما الذي اقلقني حول هذا الموضوع في البداية . ان
الموضوع سهل للغاية . وكل ما آمله ان تصل الطائرات في الوقت المناسب .
اجل هذا كل ما آمله . فغدا ، يوم سينتشر فيه الفبار على الطريق .

اما اليوم ، فاما ان يكون من الايام الممتعة او البليدة . ولنشكر الله ، ان
تلك الفئة من الفرسان ، قد مضت بعيدا عن هذه الناحية . ولا اعتقد مع
ذلك انهم لو جاءوا فسيسيرون على الطريق الممهودة . انهم سيعتقدون ان
زميلهم توقف ودار على نفسه ، ثم يتابعون اثر بابلو . ولا ادري اين ذهب
الخنزير المعجوز . لا ريب انه سيكون ماهرا في اخفاء الاثر . ولا ريب في

ان ذلك الجواد ، صنع له المعجزات . على كل حال ، عليه ان يعني بنفسه، وهو خبير بهذه الامور منذ امد طويل . اما انا فلا استطيع الركون اليه .

افترض ان من الاجدر استخدام هذه الصخور بدلا من بناء مكان ثابت لها . فقد تضطر الى الحفر ، ثم ياتون فيمسكون بك او تاتي الطائرات فتراك . وفي وسع هذه الصخور ان تكون صالحة لاستخدام المدفع الرشاش ، يضاف الى هذا انني لن استطيع البقاء هنا لمواصلة القتال ، فعلي ان اغادر المكان مع تفجراتي ، وسأخذ انسيلمو معي . ومن يستطيع البقاء هنا لحمايتنا ونحن نمضي لاداء المهمة ؟

وفجأة رأى الفجري يندفع من وراء الصخور . وكان يسير سيرامتراخيا وييدا ، وقد وضع غدارته على ظهره ، وقد حمل في يديه ارنبين .

وهتف مرحا .. هولا .. روبرتو .

ووضع روبرتو يده على فمه موعزا له بالصمت ، وتوقف الفجري ذاهلا . وجبا وراء الصخرة الى المكان الذي كان يقبع فيه روبرت قرب المدفع الرشاش . وتطلع اليه روبرت وقال بنعومة .. اين كنت عليك اللعنة ؟
- تبعت اثر الارنيين ، وامسكت بهما على الثلج وهما يمارسان عمل الحسب .

- ومركزك ؟

- لم اغب عنه طويلا . هل وقع شيء .

- هناك فرسان يطوفون بالجبال .

يا للجحيم ، وهل رأيتم ؟

- هناك احدهم عندنا في المعسكر ، جاء يتناول افطاره ..

- ظننت انني سمعت صوت عيار ناري . هل جاء من هنا .

- اجل من هنا . عبر مركزك .

- يا لي من رجل مسكين تميمس الحظ .

- لو لم تكن عجريا لقتلتك .

- لا يا روبرتو ، لا تقل هذا . انا اسف . الذنب ذنب الارنيين . سمعت صوت الذكر ، قبيل الفجر ، يركض على الثلج . لا تستطيع ان تتصور الحالة التي وجدتهما عليها . ومضيت نحو الصوت ، ولكنهما كانا قد مضيا وتبعتهما اثرهما على الثلج ، ثم وجدتهما معا فذبحتهما . ارايت ما اثقلهما . تصور ما تستطيع بيلار ان تفعله بهما . انا اسف يا روبرتو . اسبف كاسفك . وهل قتل الفارس ؟

- اجل .

- وانت قتلته ؟

- نعم .

- لا ريب في انك ظاهرة غريبة حقيقية .

- اذهب الى المعسكر ، وخذ الارنيين معك ، وهات لنا شيئا نأكله .

ثم وضع يده على الارنيين وقال . . حقا ان فيهما لحما كثيرا .

- لحم كثير . . لم ار في حياتي ما يضاھيهما بدانة .

- اذن امض وعد مسرعا بالفطور ، واطلب من بيلار بعض الوثائق التي اعطيتها لها .

- ارجو ان لا تكون غاضبا مني يا روبرتو .

- انتي لست بغاضب . ولكنني نائر لانك تركت مركزك . افترض انهم كانوا جماعة من الفرسان .

- يا للشيطان ! حقا انك عاقل .

- اسمع . ليس في وسعك ، ان تترك مركزك مرة ثانية . ابدا . وانا لا اكون هازلا عندما اتحدث عن القتل .

- طبعا لا . ثم شيء آخر . ان فرصة الارنيين لن تحل ثانية ، انها لن تقع ثانية في حياة اي انسان .

- هيا ، وعد بسرعة .

والتقط الفجري ارنبيه ومضى بين الصخور ، وتطلع روبرت عبر المضييق الى المنحدر العميق . وطاف غراب فوق رأسه ثم هبط على احدى الاشجار . وطاف غراب ثان وهبط قرب رفيقه ، وتطلع روبرت اليهما بهدوء وقال لنفسه : هذان حارساي . وما داما هادئين ، فهذا يعنى ان كل شيء هادىء .

وهذا الفجري ، لا ريب في انه لا يصلح لشيء مطلقا . فهو غير متطور سياسيا ، ولا يحس بأي نظام ، وليس في وسع الانسان ان يتكل عليه باي شيء من الاشياء . ولكنني في حاجة اليه غداً . وفي امكاني ان استخدمه غدا . ومن القريب حقا ان تجد فجرين يشترك في حرب . اذ من الواجب ان يستثنوا منها كالمعارضين عن وعي وادراك ، او كالتاقصين عقليا او بدنيا فهم لا يصلحون لشيء . لكن المعارضين وعيا لم يستثنوا من هذه الحرب التي لم يستثن منها احد وانما دهمت الجميع بصورة متساوية . وها هي تواجه الآن مثل هذا « الطاقم » المتكاسل .

وعاد اوغسطين وبريمتيفو ، يحملان مجموعة كبيرة من الاغصان الصغيرة وسرعان ما اقام روبرت ستارا واقيا للمدفع الرشاش ، ستارا يقبه من الرؤية من الجو ، ويبدو طبيعيا للناظر اليه من الغابة . وبين لهما اين يجب ان يقف الرجل منهما عاليا في الصخور الى اليمين ، بحيث يتمكن من رؤية المنطقة الواقعة امامه الى اليمين واين يقف الى اليسار بحيث يسيطر على المنبسط الواقع تحت الصخور الشاهقة .

وقال روبرت . . لا تطلق النار ، اذا رايت شخصاً يأتي من هذه الناحية واطار الى اليسار ، وانما دحرج صخرة صغيرة كاندادار ، واطار لنا هكذا ببندقيتك . . ورفع البندقية فوق رأسه ، واعمل هذه الاشارة بالنسبة الى عدد الرجال حركة من البندقية لكل رجل ، واذا كانوا مشاة فوجه فوهة البندقية الى الارض . وهكذا لا تطلق النار من مكانك الا اذا سمعت نار المدفع الرشاش . وعندما تطلق النار من مكان عال ، صوب على ركبتي الخصم . واذا سمعتني اصفر بهذه الصافرة مرتين ، فاهبط مختفيا وراء الصخور ، وتعال ، الى مكان المدفع الرشاش .

قال بريمتيفو وهو يحمل البندقية .. لقد فهمت انها اشارة بسيطة .
- ارسل اولا الصخرة الصغيرة كانذار .. وبين الاتجاه والعدد وتاكد
من ان احدا لا يراك .

فقال بريمتيفو .. حسنا .. واذا تمكنت من قذف قنبلة ؟
- لا تقذف شيئا قبل ان تسمع صوت الرشاش . فقد يحاول الفرسان
المجيء بحثا عن رفيقهم ولا يحاولون الدخول . وقد يقتفون اثر بابلو . نحن
لا نريد خوض المعركة اذا تمكنا من تجنبها فعلينا ان نحاول كل سبيل
لتجنبها . والان هيا الى مكانك .

وقال بريمتيفو .. حاضر .. ثم مضى يتسلق الصخور حاملا غدارته .

وقال روبرت .. وانت يا اوغسطين .. اتعرف شيئا عن المدفع ؟
- اعرف تعبسه ، وتحديد الهدف ، واطلاق النار ولا شيء غير هذا .
- عليك ان لا تطلق النار ، الا اذا اصبحوا على بعد خمسين مترا واصبحت
متأكدا من انهم سيأتون الى المر المؤدي الى الكهف .

- اجل .. وعلى اي مدى يقع هذا ؟

- عند تلك الصخرة .. واذا كان معهم ضابط ، فاقتله اولا ، ثم ادر
النار على الآخرين . وتحرك ببطء ، فالحركة بسيطة . وسأعلم فيرناندو ،
كيف يملؤه لك . وامسك بالمدفع بشدة حتى لا يقفز من يديك . وحاول
ان لا تطلق اكثر من ست طلقات في كل مرة . لان نيران المدفع تميل الى
الارتفاع . ولذا وجه هدفك كل مرة الى رجل ثم انتقل منه الى اخر .
واذا كان هدفك فارسا ، فاستهدف بطنه .

- حسنا .

- ويجب ان يمسك انسان بقوائم المدفع ، لئلا يقفز هكذا . ويقوم هو
في نفس الوقت ، بوضع العتاد فيه .

- واين ستكون انت ؟

- هنا الى اليسار على الصخور ، حيث استطيع ان ارى وان احصي
جناحك الايسر بهذا المدفع الآوتوماتيكي الصغير . سأقف هنا . فاذا

جاءوا امكنا ان نقيم مذبحه . ولكن لا تطلق النار حتى يقتربوا من المكان الذي حددته لك .

- اعتقد اننا سنقيم مذبحه .

- ولكنني ارجو ان لا ياتوا .

- لو لم يكن ثمة موضوع الجسر . لذبحناهم هنا ومضينا عن هذه الجبال

- ان مثل هذه المذبحة لا تؤدي الى شيء ، ولا تحقق غرضا . اما الجسر فجزء من خطة عامة للفوز بالحرب . اما مثل هذه المذبحة فشيء عارض ليس الا . شيء لا قيمة له .

- ماذا تعني لا شيء ؟ ان كل فاشي يقتل ، يعني نقص فاشي في المعركة

- اجل ، ولكننا عن طريق الجسر قد نحتل سيفونيا ، وهي عاصمة مقاطعة . فكر بهذا . ستكون اول عاصمة نحتلها .

- اتؤمن بهذا حقا ؟ اتمتقد اننا سنتمكن من احتلال سيفونيا ؟

- اجل . ان احتلالها ممكن ، اذا نسف الجسر بطريقة صحيحة .

- اود ان تقع المذبحة هنا ، وان نسف الجسر ايضا .

- يبدو ان شهيتك مفتوحة تماما .

وكان روبرت يرقب الفرايين طيلة الوقت . وراى ان احدهما كان يرقب شيئا ، ثم نطق وطار . اما الثاني فقد ظل في مكانه على الشجرة . وتطلع روبرت الى المكان الذي يقف فيه بريمتيفو فوق الصخور فراه يرقب الارض تحته دون ان يعمل اية اشارة . ومد روبرت يده ففتح القفل عن المدفع الرشاش ، وتأكد من تعبثه . كان الفرايا لا يزال على الشجرة اما الثاني ، فدار دورة واسعة فوق الثلوج ثم عاد الى مكانه . وكانت الثلوج تنهاوى من اوراق الاشجار تحت وطأة اشعة الشمس والريح الدافئة .

وقال روبرت . . لقد اعددت لك مذبحه صباح غد . فمن الضروري نزيل من الوجود ، المركز الموجود عند الطاحونة .

انا مستعد .

- وكذلك المركز الثاني عند الكوخ تحت الجسر .

- انا على استعداد لهذا او ذاك او لكليهما معا .

لن يمكنك ان تقوم بالعمليتين في آن واحد . اذ انهما يجب ان تنما في وقت واحد .

- اذن فعلي ان اكون بأمن منهما . كم وددت ان اقوم بعمل في هذه الحرب منذ امد طويل . وقد نصبحنا اقرب الى التعفن بفضل نابلو وكسله

ووصل انسيلمو بحمل الفأس .. وقال يسأله .. اتريد اغصانا اخرى ، يبدو لي ان التسمية اصبحت رائعة .

- لا اريد اغصانا ، وانما اريد شجرتين صغيرتين نزرعهما هنا وهناك حتى يبدو المكان طبيعيا اكثر فاكثر . وليس ثمة أشجار كثيرة هنا تجعله يبدو طبيعيا .

- سأتي لك بشجرتين .

- اقطعهما جيدا من جذعهما ، حتى لا يبدو الجذع .

وسمع روبرت صوت الفأس يقطع في الغابة الواقعة خلفه . ونظر الى بريمنيفو في مكانه المرتفع فوق الصخور ، والى اشجار الصنوبر في الاسفل عبر الفرجة . ما زال احد الفرايين في مكانه ، وسرعان ما سمع هدير أول طائرة تقترب . فرفع راسه الى السماء ، وراها تحلق على ارتفاع عال ، وهي تلمع بلونها الفضي في اشعة الشمس . وكأنها لا تكاد تتحرك ..

وقال لاوغسطين .. لا تستطيع هذه الطائرة ان ترانا ، ومع ذلك فمن الخير ان نبطح . هذه طائرة الاستطلاع الثانية اليوم .

- وما شأن طائرات الامس ؟

– لقد مرت كحلم سيء .

– لا ريب في أنها كانت قادمة من سيفونيا . فالحلم السيء ينتظر دوره
هناك ليصبح حقيقة .

واختفت الطائرة عن النظر الآن ؛ فوق الجبال ، وان كان هديرها لا
يزال يسمع .

وعندما رفع روبرت رأسه ، رأى الغراب يطير ، من مكانه دون ان ينبثق



همس روبرت جوردان في اذن أوغسطين ان اهبط الى الارض ، ثم اشار بيده الى انسيلمو طالبا اليه الهبوط ، وكان هذا ، يندفع خارجا من الفجوة وهو يحمل شجرة صنوبر على كتفه وكأنها شجرة عيد الميلاد . وراى الرجل يلقي بشجرته وراء صخرة ثم يختفي عن النظر وراء الصخور ، واخذ روبرت يتطلع الى الفراغ القائم باتجاه الغابة ، فلم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، ولكنه احس بخفقان فؤاده ، وسرعان ما سمع حجرا يضرب على حجر . وابصر بصخرة صغيرة تتهادى . وادار راسه الى اليمين ورفع عينيه ، فرأى بندقية بريمتيفو ترتفع وتنخفض بشكل افقي اربع مرات . ولم يعد يرى شيئا الا الارض البيضاء امامه وقد بانت عليها اثار الجياد تحلق في دائرة ، والاشجار تمتد وراءها .

وقال هامسا في اذن أوغسطين . . الفرسان .

وتطلع أوغسطين اليه : واتسعت عيناه وهو ينظر اليه . وراى روبرت ان العرق يتصبب من الرجل . فمد يده ووضعها على كتفه . وكانت يده لا تزال في موضعها عندما راى الفرسان الاربعة يخرجون من الغابة ، وشعر

بعضلات اوغسطين تنكمش تحت راحته .

كان احد الفرسان يتقدم رفاقه الثلاثة وهو يتابع اثر الجواد ويتطلع الى الارض . وجاء الثلاثة الآخرون وراه وقد انتشروا على شكل مروحة عبر الاشجار . كانوا يقتفون الانار بعناية . واحس روبرت بفؤاده يخفق بعنف وهو منبطح ، يراقبهم من وراء المدفع الرشاش .

ومضى الفارس المتقدم في الطريق الى النقطة التي دار فيها بابلو ثم توقف . واقترب منه الثلاثة الباقون وتوقفوا .

ورأى روبرت جوردان ، وجوههم بوضوح ، وبنادهم الاوتوماتيكية ، والجياد التي تصيب العرق منها ، وملابس النافرين العسكرية التي يرتدونها . وادار القائد جواده مباشرة الى الفجوة القائمة في الصخور حيث اقيم المدفع الرشاش ، ورأى روبرت وجهه الفتي الذي لفحته الشمس ، وحاجبيه المعقوفين وانفه الذي يشبه انف الصقر وذقنه الطويلة .

واشار القائد بيده الى الفجوة التي وضع فيها المدفع ، وغرز روبرت كوعيه في الارض وتطلع من وراء فوهة المدفع الى الرجال الاربعة وقد وقفوا بجيادهم فوق الثلج . وكان ثلاثة منهم يحملون بنادقهم الاوتوماتيكية بايديهم . اما الرابع ، فقد وضعها في جيب السرج .

واخذ روبرت يحدث نفسه ، انه لم يرههم قط على هذا الشكل ، ومن مثل هذه المسافة القريبة ، لقد رأى الكثيرين منهم في الماضي ولكن من مسافات بعيدة . ولم يحدث قط ان رآهم في هذا الشكل الا في القطارات . . ووضع يده على الزناد الآن ، وقال ستموت انت في هذه اللحظة ، وسيموت رفيقك والثالث والرابع ، وكلكم في شرح الشباب . ولكن حسنا تفعلون لو فترتم على انفسكم هذه الميتة . اجل وفروها على انفسكم .

واحس باوغسطين الى جانبه وقد جاءت نوبة من السعال . ولكنه سيطر عليها وخنقها ثم ابتلعها . وسرعان ما رأى قائد المفزة يستدير بفرسه

ورفع روبرت عينيه الى بريمتيفو ، فلم ير اية اشارة ، وانما وقف هادنا

وارتفع رأس انسيلمو من وراء احدي الصخور ، فأشار اليه روبرت ان ينهض من مكانه . واخذ الرجل العجوز يقفز من مكان الى اخر حتى وصل الى جانب المدفع وقال .. انهم كثيرون .

– لم نعد بحاجة الى الاشجار . فقد انتهينا من التعمية . ومن الخطر ان نقوم بزراعة الاشجار الآن ، فقد يمود هؤلاء الرجال .. وبالطبع هم ليسوا شديدي الغباء .

وقال .. على كل حال ، كانت التعمية ناجحة .

فقال اوغسطين .. اجل ، وعلى الفاشيين تنصب اللعنة . كان في وسعنا ان نقتل اربعة منهم . ارايت يا انسيلمو ؟

اجل لقد رايت .

وقال روبرت لانسيلمو – عليك ان تذهب الى مركز امس او اي مركز جيد آخر تختاره وان تراقب الطريق . وتنقل لي ما يقع عليها من حركات كالامس . وقد تاخرنا كثيرا حتى الان . ابق في مكانك حتى يهبط الظلام . ثم تعال فترسل آخر رجل محلك .

– وماذا افعل بالانار التي اتركها ؟

– انزل من الطريق الاسفل عندما يذوب الثلج . وبالطبع ستكون الطريق مغطاة بالوحول من الثلوج الذائبة . ولا خطر ، اذا كانت على الثلج اثار سيارات كثيرة او دبابات . هذا كل ما بوسعنا ان نفعله حتى تاخذ محلك لمراقبة الطريق .

– اتسمح لي ؟

– بالتأكيد .

– اتسمح لي ان ابدى رايًا ؟ الا ترى ان من الافضل لو ذهبت انا الى

لاغرانجا لاستفهم عن السيارات التي مرت ليلة أمس . كما ادبر امر ارسال من يراقب الطريق اليوم بدلا مني على غرار ما علمتنيه بالامس . وفي وسع هذا الرجل ان يعود اليك بتقريره اللبنة ، بينما استطيع انا ان امضي ثانية الى لاغرانجا لاتي بالتقرير .

– اولا تخش ان تقابل الفرسان في طريقك ؟

– انا لا اخافهم اذا ذاب الثلج .

– وهل هناك في لاغرانجا من يستطيع اداء هذه المهمة ؟

– اجل . لهذه المهمة فقط . انها امرأة . ان ثمة عددا كبيرا من النساء الموثقات في لاغرانجا .

وقال اوغسطين – انا اصدق ما يقول . بل واعرفه ، واعرف الكثيرات اللاتي يمكن استخدامهن في اهداف اخرى . اتريد مني ان اذهب الى هناك؟

– لا ، دع الرجل المعجوز يذهب . فانت تعرف كيف تطلق المدفع الرشاش . ولم ينته النهار بعد .

– سأذهب فور ذوبان الثلج . وها هو الثلج يذوب بسرعة .

وقال روبرت يسأل اوغسطين . . ما رايتك ؟ هل يستطيعون القبض على بابلو ؟

– ان بابلو في منتهى الذكاء . وهل في وسع الصيادين الامساك بوعل حكيم دون استخدام كلاب الاثر ؟

– احيانا .

اما بابلو فلا . ولو انه الآن ، نفاية ما كان عليه . ولكن هذا يفسر لك سبب بقائه سميذا وحيا في هذه الجبال ، قادرا على ان يشمل حتى الموت ، بينما مات كثيرون غيره .

– وهل هو ذكي كما يقولون ؟

- انه اذكى مما تتصور .

- ولكن لم تبد عليه اية كفاءة هنا .

- لو لم يكن كفؤا لمات ليلة امس . يبدو لي انك لا تفهم السياسة ايها الانكليزي ، ولا تعرف شيئا عن حرب الانصار . ففي السياسة وحرب الانصار ، ان اهم ما يحتاج اليه الانسان هو الاستمرار في البقاء . انظر كيف استطاع ان يستمر في الوجود ليلة امس ، على الرغم من الاهانات الكثيرة التي تلقاها مني ومنك .

وشعر روبرت بالامتعاض من الحديث عن بابلو ، على هذا النحو ، لا سيما وان الرجل ، قد عاد الى العمل في الحركة . فقد كان هو يدرك تمام الادراك ما عليه بابلو من ذكاء . اذ كان بابلو ، هو الذي ادرك على التو ، ما ينطوي عليه امر تدمير الجسر من اخطاء . وقد اتبعته ملاحظته عن كراهية ، ولكنها كانت في محلها تماما . فقد كانت جزءاً من حديث طويل بعد اجهاد ..

ونظر روبرت الى انسيلمو وقال .. وهل ستذهب الى لاگرانجا في وضع النهار ؟

- لا بأس في ذلك ، وبالطبع لن تمزف امامي جوقة موسيقية .

- وقال اوغسطين .. ولن يحمل جرساً في عنقه ، او يحمل راية في يده .

- وكيف ستذهب ؟

- ساصعد واهبط في الغابة الى ان اصل .

- ولكن اذا وقعت في ايديهم ؟

- معي اوراقتي .

- كلنا نحمل اوراقا مثلك . ولكن عليك ان تأكل الاوراق المغلوطة بسرعة .

وضرب انسيلمو بيده على الجيب الموجود في صدر سترته وقال .. كم تصورت انني سأرغم على ذلك ، ومع ذلك ، لم أرغب يوماً ما في ان ابتلع ورقا .

فقال روبرت - يجب ان تحمل قليلا من الخردل ، لتستسيغ طعمها معه
فانا احمل اوراقا في جيبي الايسر والاوراق الفاشية في الجيب الايمن .
وهكذا لا يقع الانسان في اي خطأ عند الضرورة .

وخيل لروبرت ، انهم يكثرون من الحديث الآن . وقال اوغسطين ..
اسمع يا روبرتو يقولون ان الحكومة تتجه بسرعة الى اليمين كل يوم .
ففي الجمهورية عدلوا عن استعمال كلمة الرفيق ، واجدوا يستعملون كلمة
السنور ، والسنيرة . اولا تستطيع ان تحول جيوبك من اليمين الى
اليسار .

فقال روبرت .. عندما تميل الجمهورية كثيرا الى اليمين ، سأحمل
اوراقها في جيبي الخلفي ثم اخطبها في الوسط .

وقال اوغسطين .. حتى لا تخرج عن قميصك . فهل يقدر لنا ان نكسب
هذه الحرب وان نخسر الثورة ؟
- لا . ولكننا اذا لم نكسب هذه الحرب ، فلن تكون نمة ثورة او جمهورية
ولا انت او انا ، بل السادة العظام .
- وقال انسيلمو .. وهذا راىي . يجب ان نربح هذه الحرب اولا .

وقال اوغسطين .. وبعد ان نربح الحرب نقتل الفوضويين والشيوعيين
ومن على شاكلتهم ، ولا نبقى الا على الجمهوريين الطيبين .

فقال انسيلمو - يجب ان نربح هذه الحرب دون ان نقتل احدا . اذ
علينا ان نجعل حكمتنا عادلا ، وان يسهم الجميع في المنافع بقدر جهودهم
في الثورة . وعلينا ان نعلم اولئك الذين حاربونا ليعرفوا اخطاهم .

فقال اوغسطين .. علينا ان نقتل الكثيرين .. اجل كثيرين .
- لا ، يجب ان لا نقتل احدا ، حتى القادة . بل يجب ان نصلحهم بالعمل
- اعرف العمل الذي سنكلهم اليه .

فقال روبرت جوردان يسأله .. اي عمل ؟

- مهنتان من اروع المهن .

- ما هما ؟

فوضع أوغسطين قليلا من الثلج في فمه ، وتطلع الى الارض العراء التي مرّ منها الفرسان وقذف الثلج من فمه وقال .. يا له من فطور ؟ اين الفجري القدر ؟

وقال روبرت يسأله .. اية مهنة ؟ قل ايها الغم القدر .

- القفز من الطائرات بلا مظلات ، هذا بالنسبة الى من نعني بامرهم .
ووضع الآخرين على « الخوازيق » .

فقال انسلمو - ان هذه الطريقة في الحديث مخزية . اذ لن نستطيع اقامة جمهورية على هذا النحو .

- اود ان اسبح عشرة اميال في حساء مصنوع من لحوم هؤلاء الخنازير
وعندما رايت هؤلاء الفاشيين الاربعة ، كنت كالفرس التي تبحث عن جوادها

وقال روبرت بهدوء .. ومع ذلك ، فانت تعرف لم لم تقتلهم .

- اجل . اجل . ولكني كنت اشعر بالشبق لقتلهم تماما كالفرس الشبقة
في الصيف . انك لا تدرك معنى ذلك .

- كنت ارى العرق يتصبب منك . وظننتك خائفا .

- اجل . الخوف ، والشبق . وليس ثمة ما هو اقوى من الشبق في
هذه الحياة .

وقال روبرت يحدث نفسه .. حقا .. فنحن نقتل ببرود وتصميم . اما
هم فلا . انه قربانهم المقدس الاضافي . اما قربانهم القديم ، الذي كانوا
يتمسكون به قبل ان ياتيهم هذا الدين الجديد ، من وراء الطرف القصي
من البحر المتوسط ، فقد اخفوه دون ان يتخلوا عنه ابدا ، ليعود . فيظهر الى
الوجود في صورة الحروب ومحاكم التفتيش . انهم الشعب الذي يؤمن
بالقتل ؛ والقتل واجب احيانا ، ولكن ايماننا يختلف عن ايمانهم . اما انت
.. يا روبرت ، فلم تفسد روحك بهذا التفكير .. انك لم تشعر بشعورهم

وانت معهم في الجبال او في عسيرا ، ولا في ايسترامادورا .. ولا في
اي مكان آخر .

ولكن لي هذه الفلسفات عن التاريخ .. اعترف بانك اصبحت تحست
القتل كالاخرين ، كالجنود ، الذين يتطوعون في الجندية ، اما انسيلمو ، فلا
يحب القتل لانه صياد لا جندي . ولكن لا تجمل منه مثلا اعلى ايضا .
فالصيادون يقتلون الحيوانات والجنود يقتلون الرجال . ولا تكذب على
نفسك . او تحاول ان تكتب رسالة ادبية عن الموضوع . ان فكرة القتل
تراودك منذمدة الان . ولا تفكر بانسيلمو ايضا ، فهو مسيحي ، بل هو
مسيحي نادر في بلاد كانوليكية .

اما بالنسبة الى اوغسطين ، فقد ظننته خائفا . الخوف الذي يسبق
العمل . اذن فقد كان الشبق لا الخوف . ومن المحتمل انه قد يتبجح الان
فالخوف كان قائما على اي حال . وقد شعر به تحت يدي . ومن الخير
ان يقف الانسان عن الكلام .

وقال لانسيلمو .. انظر اذا كان الفجري قد جاءنا بالطعام . ولا تتركه
يصعد الى هنا . انه مجنون . هات الطعام بنفسك . ومهما تكن الكمية
التي جاء بها ، فارسل بطلب كمية اخرى . فانا جائع .



كان الصباح ، من الايام المتأخرة في شهر ايار ، وكانت السماء زرقاء صافية والرياح الدافئة تهب على اكتاف روبرت جوردان ، واخذ الثلج يدوب بسرعة ، بينما جلس الجميع يتناولون طعام افطارهم . وكانت بيلار قد اعدت لهم شطائر كبيرة من اللحم والجبن مع قطع كبيرة من البصل . واخذ روبرت يتناول قطعاً كبيرة من البصل .

وقال اوغسطين وقد امتلأ فمه بالطعام .. ستبعث منك رائحة ، تصل الى انوف الفاشيين .

فقال روبرت - اعطني زق الخمر ، لاغسل فمي .. وكان فمه مملوءاً باللحم والجبن والبصل .

ولم يكن قد شعر قط بالجوع كما شعر اليوم . وملا فمه بجرعة كبيرة من النبيذ ثم ابتلعها . وسرعان ما ملأ فمه بجرعة ثانية صبها في حلقه ، بعد ان رفع الزق عاليا ليصل الخمر الى جوفه .

وقال اوغسطين وهو يناوله شطيرة اخرى .. الا تريد هذه الشطيرة ايضاً .

- لا ، اشكرك . كلها انت .

- لا استطيع . فما الفت الاكل في الصباح قط .

- الا تريدھا حقاً ؟

- . خذھا .

وتناولھا روبرت منه ، ووضعھا في حضنه ، ثم اخذ راسا من البصل
واخذ يقطع منه شرائح صغيرة بمديته ، يضعھا داخل الشطيرة .

وقال اوغسطين - اناكل البصل دائما في الفطور ؟

- اذا توفر لي .

- وهل ياكل الجميع في بلادك البصل ؟

- لا ، انهم يكرهونه هناك .

- يسرنى هذا . فقد كنت اعتبر امريكا دائما ، بلادا متمدنة .

- ولماذا تكره البصل ؟

- اكره رائحته . لا شيء الا رائحته . والا فهو عندي كالورد تماما .

وقطب روبرت حاجبيه وقال .. كالورد ! قويا كالورد ؟ الورد ، ورد
والبصل بصل .

- لا ريب في ان البصل قد بدأ يؤثر على عقلك . انتبه .

- البصل . بصل ..

- نظف فمك بالنبيذ . انك غريب يا انكليزي . والفرق كبير بينك
وبين الديناميتي الاخير الذي كان يعمل معنا .

- هناك فرق وحيد ليس الا .

- هل لك في ان تقوله ؟

- اننى حسي وهو ميت .

وشرع روبرت يفكر ، ما هذا الذي حدث له ؟ وماذا دهاه ؟ هل هذه
هي الطريقة في الحديث ؟ وهل يجعلك الطعام سعيداً ؟ ماذا ؟ هل -مكرت

من البصل ؟ هل هذا كل ما يعنيه لك الآن ؟ انه لم يكن يعني لك شيئا .
لقد حاولت ان تجعله يعني شيئا لك ولكنه لم يعنه . ولا ضرورة لك للنوم
في ما تبقى من الوقت .

وقال لاوغسطين . . لا . لقد كان ذلك الرجل ، انسانا . تألم اشد الالم
- وانت ، الم تتألم ؟

- لا . انني انسان قليل التألم .

- وانا كذلك . فهناك من يتألمون كثيرا ، وهناك من لا يتألم ابدا ، اما
انا فاتألم قليلا .

- هذا اقل سوءا .

- ولكنني اشعر بالآلم بالنسبة الى الآخرين .

- هذه شيمة جميع الناس الطيبين .

- اما لنفسى فلا اتألم الا القليل .

- وهل انت متزوج ؟

- لا .

ولا انسا .

- ولكن لك ماريا الآن .

- اجل .

- هناك شيء غريب . فمئذ اللحظة الاولى التي حلت فيها عندنا ،
ابعدتها بيلار عنا جميعا بفظلة وقسوة ، وكأنها تعيش في دير للراهبات
الكرمليات . وليس في وسعك ان تتصور الضراوة التي كانت تحميها فيها .
ثم تأتي انت ، فتقدمها اليك كهدية . ماذا تفهم من هذا ؟

- ليس الأمر كما تصورت .

- اذن كيف كان الوضع ؟

- لقد عهدت بها الي لأعني بها .
- وهل العناية ، ان تتمتع بها طيلة الليل ؟
- هذا من حسن حظي .
- يا لها من طريقة للرعاية بانسان .
- الا تستطيع ان تفهم ان بوسع الانسان ان يعني بآخر على هذا النحو ؟
- ولكن كان في وسع اي منا ان يقدم لها هذا النوع من الرعاية .
- دعنا لا نخوض في هذا الحديث . فانا احبها جديا .
- اتحبها جديا ؟
- لا شيء اكثر جدية من حبي لها .
- وماذا بعد ؟ بعد ان نبتهي من الجسر ؟
- سأخذها معي .
- اذن ، يجب ان لا يتحدث اي منا عن هذا الموضوع ، وان نرجو لكما حظا سعيدا .
- وتناول اوغسطين زق الخمر وامتنص جرعة كبيرة ثم ناولها الى روبرت وقال .. نقطة اخرى يا انكليزي ..؟
- قبل ما تريد .
- لقد كنت احبها كثيرا ايضا .
- ووضع روبرت جوردان يده على كتفه .. وقال اوغسطين .. اجل لقد أحببتها ، اكثر مما يستطيع انسان ان يتصور .
- في وسعي ان اتصور .
- لقد تركت في نفسي اثرا لا يمحي قط .
- استطيع ان اتصور .
- اسمع . انني احديثك بمنتهى الجد .

- قل ما تشاء .

- انني لم المسها قط . ولم يقع بيننا اي شيء ، ومع ذلك ، اكاد اعبدها
اسمع يا انكليزي . لا تستهزىء بها ، ولا تعتبرها عاهرة ، لانها تنام معك .

- ساعنى بها .

- انا اصدقك . ولكن ما اريده هو ان تعنى بها اكثر واكثر . ليس في
وسعك ان تفهم ما كانت ستفقدو عليه الفتاة لو لم تقع الثورة . فعليك
مسؤولية كبيرة . لقد عانت الفتاة كثيراً . انها ليست مثلنا .

- ساتزوجها .

- لا . لا . ليست ثمة من حاجة للزواج في ظل الثورة . . ولكن ، قد
يكون في هذا بعض الخير .

- انني عازم على الزواج منها ، فانا احبها كثيراً .

- فيما بعد . عندما تصبح الظروف مواتية . المهم هو ان تتوافر لديك
النية .

- النية متوافرة لدي .

- اسمع . انني اتحدث كثيراً عن موضوع لا حق لي في الحديث عنه او
التدخل فيه ، ولكن ، قل لي ، اعرفت الكثيرات في هذه البلاد ؟

- عرفت بعضهن .

- من العاهرات ؟

- بعضهن لم يكن عاهرات .

- كم عددهن ؟

- لا ادري .

- وهل نعمت معهن ؟

- لا .

- أرايت ؟

- اجل .

- ما اردت قوله : هو ان ماريا ليست سهلة المنال .

- ولا انسا ايضا .

- لو كنت اعرفك غير جاد في موضوعها ، لقتلتك ليلة امس : عندما كنت نائما معها . فنحن كثيرا ما نقتل في هذه البلاد لدوافع من هذا النوع .

- اسمع . ان افتقارنا الى الوقت ، هو الذي يجعلنا ننبو عن الرسميات فنحن نفتقر فعلا الى الوقت . وعلينا ان نحارب غدا . اما بالنسبة الي فلامر ليس كبير الاهمية . اما بالنسبة الى ماريا ولي . فاننا قد نعيش كل حياتنا هذين اليومين .

- ولا ريب في ان يوما وليلة ، وقت قصير .

- اجل . ولكن كان لنا الامس والليلة السابقة .

- اسمع . اذا كان في وسعي ان اساعدك .

- لا . فنحن على ما يرام .

- اذا كان في وسعي ان اعمل شيئا لك ، او لذات الشعر المقصوص . .

- لا .

- حقا فهناك القليل ، مما يستطيع الانسان ان يعمله لآخر .

- لا . . هناك الكثير .

- ماذا ؟

- مهما حدث اليوم وغدا بالنسبة الى المعركة ، امنحني ثقتك ، واطع اوامري حتى ولو بدت لك خطأ

- لقد وضعت ثقتي فيك ولا سيما بعد حادث الفرسان وابعاد الجواد .

– هذه أمور لا تستحق الذكر . فانت ترى اننا نعمل لشيء واحد وهو ان نربح الحرب . وما لم نكسب هذه الحرب . فكل امر لا جدوى منه . وغدا سنواجه عملا كبير الاهمية وصادقها . وسنخوض معركة . وفي مثل هذه المعركة يجب ان يتوافر النظام . ولا تكون معظم الامور دائما كما تبدت في ظاهرها . والنظام لا ينبع الا من الثقة والاطمئنان .

وبصق اوغسطين على الارض وقال : « يجب ان نفصل بين موضوع ماريا وبين الامور الاخرى . فعليك انت وماريا ان تفيدا من الوقت المتواثر لكما . كانسانيين . واذا كان في وسعي ان اساعدك ، فأنا تحت تصرفك . اما بالنسبة الى موضوع الغد ، فساطيعك طاعة عمياء . واذا كان من الضروري ان يموت الانسان في سبيل معركة الغد ، فانه يمضي الى الموت بقلب فرح .

– وهذا ما اشعر به انا ، اما ان اسمعه منك ، فهذا ما يفغر قلبي بالسرور .

– وشيء آخر ، فهذا الانسان الواقف في المرتفع – و اشار الى يريمتيفو – انسان يمكن الركون اليه والاعتماد عليه . اما بيلار ، فهي اكثر مما تتصور . وكذلك الرجل العجوز انسيلمو . واندرية وايلاديو ، وهما مسن النوع الهادئ ، ولكن الموثوق . اما فيرناندو ، فلا اعرف رايتك فيه . لكنه انقل من الزئبق . وهو يبعث الملل في نفس الانسان ، ولكنه مقاتل وينفذ ما يؤمر به .

– فنحن سعداء .

– لا . ولكن بيننا عنصرين ، الفجري وبابلو . اما عصابة بابلو فأحسن من جماعتنا بكثير بنفس النسبة التي تتفوق فيها نحن على روث الماعز .

– اذن فالامور على ما يرام .

– اجل . ولكن كنت اود لو وقعت المعركة اليوم .

– وانا ايضا . فأنا راغب في الانتهاء من الموضوع . ولكنه لم يتم اليوم

– وهل تظن ان المعركة ستكون شاقا ؟

–ربما .

- ولكنك مرح الآن يا انكليزي .

- اجل .

- وانا كذلك على الرغم من تعلقي بماريا .

- او تعرف لماذا ؟

- لا .

- ولا انا ادري . ربما كان السبب اشراق النهار الآن .

- من يدري . او لعله اقتربنا من ساعة العمل .

- اعتقد ان هذا هو السبب . ولكننا لن نخوض المعركة اليوم . بس

يجب ان نتجنبها بكل ثمن وهذا امر في منتهى الأهمية .

وسمع وهو يتحدث شيئاً . انه صوت بعيد يملو على صوت الريح التي تهب على الاشجار . ولم يستطع التأكد من الصوت ، ففتح فمه وأخذ يصفي ، متطلعا الى بريمتيفو في مرتفعه . وخيل اليه انه سمع الصوت ثانية ولكن سرعان ما انقضى . وأخذت الريح تهب على اشجار الصنوبر، وبذل روبرت غاية جهده لينصت . ثم عاد يسمع الصوت الخافت قادما مع الريح .

وسمع اوغسطين يقول . . ان الامر لا يعتبر مأساة بالنسبة الي اذا لم احصل قط على ماريا ، فسأعود الى العاهرات كما كنت سابقا .

وقال روبرت . . اغلق فمك .

- ماذا حدث ؟

ووضع روبرت يده على فمه ومضى يصفي . وجاء الصوت من جديد . كان خافتا وبعيدا . ولكنه لم يخطيء فيه الآن . انه صوت الاسلحة الاوتوماتيكية بكل دقة . وكان الصوت يتوالى وكأنه اطلاق صواريخ الالعاب النارية من مكان بعيد .

وتطلع روبرت الى بريمتيفو فرآه يرفع راسه الان ووجهه يتجه نحو،

وقد وضع يده على اذنه . وأشار بريمتيفو الى الجبل ، الى المكان المرتفع .

وقال روبرت . . ان المعركة دائرة مع ايل سوردو .

— اذن فلنمضِ لمساعدته . اجمع الرجال . وهيا .

— لا . اننا باقون هنا .



تطلع روبرت الى المكان الذي يقف فيه بريمتيفو في مركزه ، وهو يحمل
بندقية ويشير بها . وأحس روبرت رأسه ، ولكن بريمتيفو ظل يشير ،
وهو يضع يده على اذنه ، ويعود الى الإشارة ، ليوضح انه واثق من ان
روبرت لم يفهمه بعد .

وقال روبرت لاوغسطين . . قف بجانب المدفع ، وما لم تتأكد من انهم
قادمون ، فلا تطلق النار حتى يصلوا الى تلك الشجيرة الصغيرة . افهمت؟

— أجل ولكن . .

— ليس هناك ولكن . سأوضح لك فيما بعد . ساذهب الى بريمتيفو .

وكان انسيلمو يقف الى جانبه فقال للرجل العجوز . . قف انت مع
اوغسطين عند المدفع الرشاش ، وعليه ان لا يطلق النار الى ان يتأكد من ان
الفرسان يتوغلون . . اما اذا رأيهم مجرد رؤية فعلية ان يتركهم وشأنهم ،
كما عملنا في المرة الاولى . واذا تحتم عليه ان يطلق النار فأمسك بقوائم
المدفع الرشاش ، وسلم اليه امشاط العتاد .

— حسنا ، ولاغرانجا ؟

- فيما بعد .

وارتقى روبرت الصخور ، وكانت الشمس مستمرة في اذابتها الثلوج ،
واخذت قمم الصخور تجف شيئاً فشيئاً من البلل الذي نخلفه الثلوج .
وتطلع الى ما حوله ، فرأى غابات الصنوبر الشاسعة الفسيحة . والجبال
التي ترتفع وراءها . ووصل الى جانب بريمتيفو وراء صخرتين ضخمتين
وقال الرجل القصير الاسمر الوجه . . انهم يهاجمون سوردو . فماذا
يجب ان نفعل ؟

- لا شيء .

واضحى يسمع اطلاق النار بوضوح ، وعندما جال ببصره في الاراضي
الفسحة المنبسطة امامه . حيث ترتفع الجبال وراءها . رأى جماعة من
الفرسان يخرجون من بين الاشجار ويعبرون الارض الثلجية . صاعدين في
الجبل في اتجاه اطلاق النار . وابصر بالصف المزدوج من الجبال وهم
يصعدون ثم يدخلون الغابة البعيدة .

وقال بريمتيفو - علينا ان نساعدهم . . كان صوته جافاً اجشاً .

- هذا مستحيل . لقد كنت اتوقع هذا طيلة الصباح .

- كيف ؟

- لقد ذهبوا لسرقة الجياد ليلة امس ، وقد توقف الثلج ، فاستطاعوا
اقتفاء اثرهم .

- ولكن يجب ان نساعدهم . ليس في وسعنا ان نتركهم لوحدهم دون
مساعدة ! انهم رفاقنا .

والقى روبرت بيده على كنف الرجل وقال . . ليس في وسعنا ان نفعل
شيئاً . لو كان في استطاعتنا لما تأخرت لحظة واحدة .

- هناك طريق للوصول اليهم من ورائهم . في وسعنا ان نصعد في تلك
الطريق مع الحيات والمدفعين . المدفع الاسفل ومدفعك . وآنذاك في وسعنا
ان نساعدهم .

- اسمع .

- هذا ما استمع اليه .

كان اطلاق النار مستمرا في موجات متعاقبة . ثم سمعوا صوت انفجار القنابل اليدوية ممزوجة مع نيران الرشاشات .

وقال روبرت .. لقد ضاعوا . لقد ضاعوا منذ توقف الثلج . واذا ذهبنا اليهم ضعنا معهم ايضا . فمن المستحيل ان نجزيء ما نملكه من قوة .

وبدت لحية بريمتيفو البيضاء ترتعد من الغضب . وشفتهاه تهتران . ورقبته ترتجف . وبان انفه الانفطس المستوي وعيناه العميقتان في وجهه الاسمر ، وهو يقول .. اسامع انت ؟ انها مذبحه .

- اذا كانوا قد نجحوا في تطويق المعسكر ، غدت مذبحه . اما اذا تمكن عدد من النجاة .

- في وسعنا ان نداهمهم من الورا . دع اربعة منا يذهبون مع الجياد .

- وماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا يحدث بعد ان نداهمهم من الورا ؟

- ننضم الى سوردو .

- لنموت معه . انظر الى الشمس . ما زال النهار طويلا .

وكانت السماء عالية لا غيوم فيها والشمس المحرقة تلمح ظهر بهما . وكان الثلج قد تساقط جميعه عن اوراق اشجار الصنوبر . واخذت الصخور التي كانت قبل قليل تبدو مبتلة من مياه الثلوج تجف بسرعة في الشمس الدافئة .

وقال روبرت .. عليك ان تحتمل الصدمة . فكثيرا ما يقع مثل هذا في الحروب .

- ولكن اليس في وسعنا ان نفعل شيئا ؟ حقا ؟ الا نستطيع ان توفدني

مع رجل آخر ومعنا المديع الصغير ؟

سيكون مثل هذا الانقاد عديم الجدوى .. اجل لا فائدة حسى ولو

ذهبنا جميعنا ..

ورأى صقرا يسير مع الرياح طائرا فوق الغابات ، واشتد صوت اطلاق النار ، ودوي القنابل اليدوية .. وقال بريمتيفو - عليهم اللعنة .. وانهالت الدموع من عينيه .. آه يا الله . يا عذراء .. عليهم اللعنة .
- هدىء من روعك . ستحاربهم بعد قليل . ها قد جاءت المراد .

كانت بيلار ترتقي الصخور صاعدة اليهما ، وظل بريمتيفو ، يسسب ويشتم كلما انطلقت دفعة من الرصاص ، تحمل الرياح صوتها . وصعد روبرت ، ليساعد بيلار على الصعود ، وقال .. ماذا حدث يا امرأة .
- خذ منظارك .. اذن فقد داهموا سورودو .

- نعم .

- يا لسورودو المسكين .

كانت تتنفس بصعوبة ، وقد أمسكت يد روبرت بيديها ، تشدها ، وهي تنظر الى البعيد . وقالت .. كيف تبدو المعركة ؟
- سيئة . سيئة جدا .

- لقد وقع في الفخ .

- اعتقد ذلك .

- مسكين .. لا ريب في ان الجياد هي السبب .

- ربما .

- مسكين . لقد جاء رافائيل وحدثني عن قصة الفرسان الذين اتوا فماذا حدث ؟

- كانت دورية وجزءا من سرية .

- الى اي حد وصلوا ؟

واشار روبرت الى النقطة التي وصلت اليها الدورية وتوقفت عندها ، ثم

أوما لها الى المكان الذي يختفي فيه المدفع الرشاش ، حيث بدا احد حذائي
أوغسطين . خارجا من وراء غطاء التعمية .

وقالت بيلار - قال لي العجري انهم اقتربوا الى الحد الذي اصاب
فوهة المدفع صدر قائد الدورية . يا له من شعب ! كان منظارك في الكهف .

- وهل حزمت متاعك واعدته ؟

- اعددت كل ما يمكن اخذه . هل هناك انباء عن بابلو ؟

كان يسبق الفرسان بأربعين دقيقة . وقد اقتفوا اثره .

ونظرت اليه وقد قطبت جبينها . وكانت لا تزال تمسك بيده ، فتخلت
عنها ، وقالت . . لن يروه في حياتهم . . والان بصدد سورودو ، الا نستطيع
ان نفعل شيئا ؟

- لا شيء .

- يا للمسكين . كنت احبه كثيرا . هل انت واثق انهم طوقوه .

- اجل . فقد رايت الكثيرين من الفرسان .

- اكثر من الذين كانوا هنا ؟

- كانت فئة كاملة في طريقها اليه .

- انصت . . اسمع . . مسكين سورودو !!

واخذوا يصغيان الى اطلاق النار . . وقال روبرت . . لقد اراد بريمتيفو
ان يمضي الى هناك .

فقالت بيلار للرجل المنبسط الوجه . . هل انت مجنون ؟ اي نوع من
الناس نجد حولنا هنا ؟

- اردت مساعدتهم ؟

- اية مساعدة ؟ مغامرة مجنونة . الا تعتقد انك ستموت بسرعة هنا
دون الحاجة الى رحلات لا جدوى منها .

وتطّلع اليها روبرت جوردان . الى وجهها الاسمر ، بوجنتيها اللتين تشبهان وجنات الهند ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وقمها الضاحك . وشفتها العليا الغليظة .

وقالت لبريمتيفو - عليك ان تسلك سلوك الرجال . الرجال الكبار . وانت تحمل مثل هذا الشعر الاشيب .

- لا تهزئي بي . اذا كان الرجل يملك قلبا صغيرا وخيالا صغيرا ..

- عليه ان يعرف كيف يتحكم بهما .. ستموت قريبا معنا . فلا تبحث عن الموت مع الاغراب . اما بالنسبة الى الخيال ، فان الفجري يملك خيالا يكفيننا جميعا . يا لها من قصة رائعة سردها علي .

فقال بريمتيفو - لو رايت الوضع ، لما قلت انها قصة . كانت لحظة حرجة للغاية .

- اية حرجة ! جاء بعض الفرسان الى هنا ، ثم مضوا . وكلكم تريدون ان تأخذوا لانفسكم دور البطولة . لا ريب في ان هذا الوضع ، هو الذي ادى بنا الى هذا الكسل .

- او ليس موضوع سورودو حرجا ايضا ؟ كان بريمتيفو يشعر بالالام كلما وصلت الى اذنيه اصوات الرصاص . فهو يريد احد امرين اما ان يمضي الى المعركة ، او تنسحب بيلار تاركة اياه وشأنه .

وقالت بيلار - ما وقع قد وقع . فلا تفقد عقلك من جراء متاعب الآخرين

وقال بريمتيفو - اذهبي عليك اللعنة . ففي النسوة بلادة ووحشية لا تطاق .

- اجل لمساعدة اولئك الرجال المغتقرين الى عنصر الرجولة .. واذا لم يكن ثمة ما اراه ، فانا ماضية .

وسمع روبرت آنذاك صوت طائرة في كبد السماء . كانت على ارتفاع عال ، وبدت وكأنها طائرة الاستطلاع الاولى التي رآها في الصباح . انها الان في

طريق العودة من الخطوط ، وهي تتجه الى المنطقة الجبلية التي يقع فيها الهجوم على ايل سور دو .

وقالت بيلار - هذه هي طائرة الشؤم . اني رسةها ان ترى ما يدور هناك ؟

فقال روبرت - حتما .. الا اذا كان ملاحوها من العميان ..

وظلوا يرقبون الطائرة وهي تمضي في طريقها على ذلك الارتفاع الهائل في وهج الشمس . انها قادمة من ناحية اليسار ، وكان في وسعهم ان يروا فراستها تشرقان في اشعة الشمس المنعكسة عليهما .

وقال روبرت .. اهبطا الى الارض .

وسرعان ما كانت الطائرة تحلق فوقهم وراوا ظلها على الارض ، واشتد دويها حتى وصل الذروة . وراوها تختفي عن انظارهم ، لتمود محلقة في دائرة واسعة ، فوق المنطقة الجبلية العالية ، ثم تختفي باتجاه سيفونيا . وتطلع روبرت الى بيلار . كان العرق يتصبب من جبهتها ، وهي تهز راسها ، وتعض على شفتها السفلى باسنانها .

وقالت .. لكل انسان ما يخافه . ولا اخاف الا من هذه .

وقال بريمتيفو هازنا .. لعل عدوى خوفاي لم تسر اليك ؟

فوضعت يدها على كتفه وقالت .. لا . انك لا تخاف حتى تسري عدواك . وانا اعرف هذا . ويوسفني ان مزاحي معك كان قاسيا عنيفا . اننا جميعنا في نفس القدر .. والتفتت الى روبرت تقول .. سابعث لكم بالطعام والنيذ . فهل تحتاج شيئا آخر .

- لا ، لا احتاج شيئا في هذه اللحظة . اين الآخرون ؟

- ان قوتك الاحتياطية سليمة عند الجياد . لقد تم اخفاء كل شيء وتم اعداد كل شيء للرحيل . وماريا تقف الى جانب حاجبانك .

– اذا قدر وجاءت الطائرات ، فدعيها تظل داخل الكهف .

فقالت بيلار . . امرك يا سيدي الانكليزي . اما عجريك ، فقد بعثت به ليجمع لنا بعض الفطر ، لنطبخه مع الارنبين . فهناك الان الكثير من الفطر ، وقد خيل الي ان في وسعنا ان ناكل الارنبين اليوم بدلا من ان نتركهما للغد او بعده .

– اعتقد ان من الخير ان ناكلهما اليوم .

ووضعت بيلار يدها الضخمة على كتفه واحسنت ببندقيته الممتدة على صدره ، واخذت تداعب شعر راسه بيدها وقالت . . يا لك من انكليزي !! سأبعث اليك بماريا ، تحمل الطعام بعد ان ينتهي اعداده .

وتوقف اطلاق النار من المكان المرتفع ، باستثناء بعض العيارات النارية المتقطعة من وقت الى آخر .

وقالت بيلار تسأله . . او تظن ان الامر قد انتهى ؟

فقال روبرت . . لا . على ضوء الاصوات التي سمعناها نستطيع ان نقول ، ان الهجوم قد وقع ، وقد صد . ولكن في وسعنا ان نقول ان المهاجمين قد طوقوهم . وقد اركن المهاجمون الان الى الراحة ، في انتظار وصول الطائرات .

وقالت بيلار لبريمتيفو – الا تفهم يا هذا انني لم اكف اقصدا هانتك ؟ – اجل . ولكنني تعودت على ما هو اسوأ من هذا منك . فلك لسان سام . ولكن عليك ان تتحفظي في كلامك فلقد كان سورددو زميلا طيبا لي .

فقالت بيلار – اولم يكن زميلا لي ايضا ؟ اسمع ، يا هذا . ليس في وسع الانسان في ايام الحروب ان يتحدث بما يشعر به . فتكفينا الان مشاكلنا . لنبحث في مشاكل الآخرين .

وخيم الوجود على بريمتيفو .

وقالت بيلار .. عليك ان تاخذ بعض الدواء .. وسأذهب الان
لاعداد الطعام .

وقال روبرت .. هل اتيت بالوثائق ؟
- يا لي من بليدة . لقد نسيتهما . سأبحث ماريا بها .



كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر عندما جاءت الطائرات ثانية . وكان الثلج قد اختفى تماما ، وغدت الصخور حامية من اشعة الشمس . وكانت السحب قد اختفت من السماء . وجلس روبرت جوردان فوق الصخور ، ولهيب الشمس ، يلفح ظهره ، يقرأ الرسائل التي كانت في جيب الفارس القتيل . وكان يرفع رأسه من وقت الى آخر ، فيتوقف عن القراءة ، ويتطلع الى الارض الفضاء القائمة امام الغابة ، ثم ينظر الى المرتفع البعيد ، ويعود بنظره بعد ذلك الى الرسائل . ولم يبداي اثر للفرسان من جديد . وكانت رصاصة عابرة يسمع صداها من وقت الى آخر من اتجاه معسكر ايل سور دو . ولكن هذه الرصاصات كانت فرادى .

وتبين له من دراسة اوراق الفارس ، انه ينتمي الى تافالا في نافار ، ويبلغ الواحدة والعشرين من عمره . وهو غير متزوج ، ويعمل والده حدادا . اما الكتيبة التي ينتمي اليها فهي كتيبة الفرسان التاسعة وهذا ما ادهش روبرت ، اذ كان يعتقد ان هذه الكتيبة تعمل في الشمال . وتبين له ايضا ان الشاب كان قد اصيب بجراح في معركة ابرون في مطلع الحرب .

وراح روبرت يفكر ، فلعله كان قد راى هذا الغلام ، يركض في الشوارع

امام الثيران في حلبة بامبلونا . ولكن الانسان لا يقتل في الحرب الرجل
الذي يود قتله .

وكانت الرسائل الاولى التي قراها ذات طابع رسمي ، وقد كتبت بعناية
شديدة ، وتعالج الاحداث المحلية ، وقد بعثت بها شقيقة الشاب من نافالا ،
تبلغه ان كل شيء على ما يرام ، وان والده بخير . وان والده كسانها
دائما ، وان كانت تشكو احيانا من ظهرها ، واعربت عن املها في ان يكون
بخير ، وان لا يكون معرضا للخطر ، وان يكون سعيدا بادائه لواجبه في
تحرير اسبانيا من الوحوش الماركسيين . ثم سردت له اسماء ابناء نافالا
الذين قتلوا او جرحوا جراحا بالغة منذ كتبت اليه آخر مرة . وذكرت
اسماء عشرة قتلوا . وهذه نسبة كبيرة بالنسبة الى بلدة صغيرة كنافالا .

وكانت الرسالة تتضمن الكثير من التعبد والديانة ، فقد صلت للقديس
انطونيوس ، والمدراء والقديسين الاخرين لحمايته ، وطلبت اليه ان لا
ينسى انه في حماية القلب المقدس الذي يضعه على صدره والذي تؤمن به ،
وبقدرته على منع العيارات النارية من الوصول الى قلبه . وانتهت رسالتها
بالتأكد على انها دائما شقيقته المحبة كونشا .

وكانت هذه الرسالة قد تلوثت ببعض الدماء ، فضعها الى اوراق الشاب
المسكوية ، ثم فتح رسالة اخرى . وكانت من خطيبة الشاب ، وقد
تضمنت عبارات مجنونة هستيرية ، تملن القلق عليه وعلى سلامته . وبعد
ان انتهى روبرت من الرسالة ضمها الى الاوراق الاخرى ووضعها كلها في
جيب سرواله الخلفي . وشعر بالعزوف عن قراءة الرسائل الاخرى ،

وقال يحدث نفسه ، لا ريب أنني تممت بما فيه الكفاية اليوم ،

وقال بريمتيفو يسأله : ماذا كنت تقرا ؟

– الوثائق والرسائل التي وجدناها مع الفارس الذي قتلناه هذا
الصباح ، اتريد ان تراها ؟

- لا اعرف القراءة . افياها شيء مهم ؟

- لا . كلها رسائل شخصية .

- وكيف تسيير الأمور في مسقط رأسه ؟ هل في وسعك ان تحكم على
الأوضاع من الرسائل ؟

- يبدو انها تسيير سيرا عاديا . وقد خسرت بلدته العديد من شبابها .

- والى اي بلدة ينتمي ؟

- تافالا .

وقال يحدث نفسه .. لا بأس ، انا آسف ، اذا كان هذا القول يصلح
الأمور ولكنه لا يصلحها .. اذن فاترك الامور تجري في اعنتها ..

ولكن هل في وسعه ان يترك الامور تسيير على هذا النحو من السهولة ..
كم عدد الذين قتلتهم حتى الان ؟ .. لا ادري . اتعتقد ان من حقدك ان تقتل
اي انسان ؟ لا .. ولكن هذا واجب . وكم من الذين قتلتهم كانوا حقا من
الفاشيين ؟ لا ريب في انهم قليلون . ولكنهم يمتون على كل حال الى قوة
العدو التي نحاربها . ولكنك تحب اهل نافار اكثر من اية مقاطعة اخرى
في اسبانيا . اجل ، ومع ذلك فانت تقتلهم . واذا كنت لا تصدق ذلك ،
فاهبط الى المعسكر . او لا تعرف ان من الخطا ان يقتل الانسان شخصا
آخر . اجل . ولكنك مع ذلك تلجأ الى القتل . اجل . ومع ذلك ، فانت
ما زلت تؤمن بان قضيتك عادلة . اجل .

اجل انها عادلة .. وهو يشعر بالاعتزاز لعدالتها . فانا اؤمن بالشعب
وبحقه في ان يحكم نفسه كما يشاء . ولكن عليك ان لا تؤمن بالقتل . واذا
قدر عليك ان تقتل ، فيجب ان تفعل ذلك كواجب دون ان تؤمن به . اما
اذا كنت تؤمن به ، فكل شيء يكون خاطئا .

ولكن كم عدد الذين تعتقد انك قتلتهم حقا ؟ لا ادري ، فانا لا احفظ
سجلا . ولكن فكر ، كم عددهم ؟ اجل . كم عددهم ؟ ليس في وسعك ان

تأكد من الرقم ، فعند نسفك اي قطار ، تقتل الكثيرين ، ولكنك لا تعرف
الرقم ، ولكنك واثق من عدد ما اكبر من عشرين . ومن بين هؤلاء المشرين
كم كان عدد الفاشيين . اثنان على الاقل . اذ تحتم علي ان اطلق النار
عليهما عندما اخذناهما اسيرين في عسيرا . وبالطبع لم تكثرث بذلك ؟ لا
ولكنك لم تكن مسرورا منه ايضا . لا . وقد قررت ان لا تفعلها ثانية .
وقد تجنبت حتى الان قتل غير المسلحين .

ومضى يحدث نفسه .. اليس من الافضل ان تترك هذه الهواجس .
انها تسيء اليك والى عملك .. ولكن نفسه اخذت ترد عليه قائلة : اسمع
الي ، انك تقوم بعمل خطير في هذه الآونة وعليك ان تكون متاهبا للفهم
دائما . لذا يجب ان ابقىك دائما محتفظا بقوة تفكيرك . فاذا لم تكن محتفظا
بقوة تفكيرك . فليس لك من حق في ان تفعل ما تفعله ، اذ ان كل ما تفعله
لا يعدو ان يكون من الجرائم ، وليس من حق انسان ان ينتزع حياة
انسان آخر ، الا اذا كان عمله هذا يحول دون وقوع ما يسوء الآخرين .
ولذا كن صريحا ولا تكذب على نفسك .

ولكنني لن استمر في محاولة حساب من قتلت من الناس . وكأنه سجل
فخار لي ، او عمل ممتاز . ان من حقني ان استمر في الحساب ومن حقني
ايضا ان انسى .

فقالت له نفسه .. لا . ليس من حقك ان تنسى شيئا ، وليس من حقك
ان تفلق عينيك على اي شيء منه ، ولا من حقك ان تنساه او تخفف من
غلوئه او تبدله .

فقال لنفسه .. اغلقي فمك .. لقد غدوت كثيرة الفرور .. فردت
عليه قائلة ، وليس من حقك ايضا ان تخدع نفسك .

فقال لها .. حسنا ، شكرا لك على نصائحك ، وهل من حقني ان
احب ماريما ؟

فردت عليه نفسه تقول ... اجل ، حتى ولو لم يكن هناك ما يدعى بالحب في اي مفهوم مادي للمجتمع .

وراح نفسه تساله : ولكن متى كانت لك هذه لفاهيم ؟ لم تكن لديك ابدا ولن تستطيع ان تحملها ايضا . فانت لست بالماركسي الصادق ، وهذا شيء تعرفه . فانت تؤمن بالحرية والمساواة والاخاء ، وتؤمن بالحياة والحرية والبحث عن السعادة . فلا تتعب نفسك بالاغراق في البحث عن الجدليات . فهي قد تصلح لغيرك ولكنها لا تصلح لك . وعليك ان تعرفها لئلا تكون غرا كالولد الرضيع . وقد تجاهلت الكثير من مفاهيمك رغبة منك في اكتساب الحرب اولا . اذ ان خسارة الحرب تؤدي الى ضياع الكثير من هذه المفاهيم .

ولكن عندما تنتهي الحرب ، في وسعك ان تنبذ جانبها كل ما لا تؤمن به . فهناك الكثير مما تؤمن به والكثير مما لا تؤمن به .

وشيء آخر . لا تخدع نفسك بالحديث عن الحب . فالموضوع لا يتعدى تنعمك بشيء حرم منه الآخرون . وانت لم تحس بمثل هذا الشعور من قبل ، ولكنك تشعر به الان فعلاقتك بماريا سواء امتدت اليوم وجزءا من الغد فحسب ، او امتدت الى اجل بعيد ، هي اهم ما يمكن ان يقع لانسان وستجد اناسا يتحدثون دائما عن عدم وجود ما يسمى بالحب ، لجرد انهم لا يستطيعون ان يجعلوا منه جزءا من حياتهم . ولكنني اؤكد لك انه حقيقي وانه موجود فيك ، وانك سعيد الحظ ، حتى ولو مت في الغد .

وقال يخاطب نفسه . . ولكن دعني عنك حديث الموت . فليس بالحديث الذي يلد للانسان ان يخوض فيه . انه الموضوع الذي يؤثره اصدقاؤنا الفوضويون على سواه . وعندما تسوء الاوضاع حقا ، فهم يريدون ان يلهبوا النار بشيء ما وان يموتوا . فمقولهم في منتهى الغرابة . اجل انها في منتهى الغرابة . على كل حال لقد اجتزنا النهار اليوم . فها هي الساعة

تقرب من الثالثة . وسيصل اليها الطعام ان عاجلا وان آجلا . انهم ما زالوا يطلقون النار على مقر سوردو ، وهذا يعني انهم قد نجحوا في تطويقه وانهم ينتظرون وصول نجدات جديدة . لكن عليهم ان يقوموا بالهجوم قبيل هبوط الظلام .

واني لاكاد اجهل الوضع عند سوردو . على اي حال ، انه ليس بالوضع السار ابدا . ولا ريب في اننا اوقعنا سوردو في تلك المشكلة بسبب موضوع الجياد ؟ . اجل لقد وضعناه في مأزق يصعب الخروج منه . اعتقد ان يوسمي ان امضي في الخطة على ما يرام . وكل ما عليك هو ان تنفذ الموضوع مرة ، وان تتجرا فتنجح . ولكن اليس من الاسراف ان يواصل الانسان القتال في الوقت الذي يستطيع فيه ذا ما طوق ، ان يستسلم ؟ نحن محصورون !! هذا هو النداء المفزع الرهيب في هذه الحرب . اذ ان التطويق يعقبه الاعدام . دون ان يسبقه اي شيء آخر . هذا اذا كنت محظوظا . وبالطبع لن يكون سوردو سعيدا على هذا النحو . ولن نكون سعداء نحن اذا ما طوقنا ايضا .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة . وسمع هديرا من بعيد ، وعندما رفع راسه كانت الطائرات قد حلقت في السماء .



كان ايل سوردو يقاتل على رابية . ولم يكن يحب هذا التل ولكنه كان مرغما على خوض غمار المعركة عليه . فقد وجد عندما دوهم ، انه خير مكان يمكن ان يلجأ اليه ، فمضى اليه خبيا على ظهر جواده ، وقد ثقل المدفع على ظهره ، بينما انقلت الحمولة من القنابل اليدوية وامشاط المعتاد ظهر الجواد وكان جواكين واغناسيو ، يتوقفان ويطلقان النار ليعطياه الفرصة لينصب مدفعه الرشاش في وضع يمكنه من استخدامه .

وكان الثلج لا يزال يغطي الارض آنذاك ، وهو الثلج الذي دمر عليهم حياتهم ، وعندما اصيب جواده ، واخذ يعرج في مشيته ، رهو بصعد الجزء الباقي من القمة ، كان سوردو قد امسك بعنانه فوق كتفه واخذ يتسلق الجبل ، والرصاص يتطاير من حوله ، عندما يسقط على الصخور . وهو يحمل الكيسين على ظهره ويمسك بعرف الجواد . ثم اطلق النار على الحصان بيد خبيرة في المكان الذي اراده ، فوق الحصان في الثغرة بين صخرتين . ونصب سوردو مدفعه الرشاش فوق الجواد . واطلق دفتين منه على مطارديه من الفرسان ، فارغمهم على محاولة العثور على مخبأ يقيم من رصاصه . واحس سوردو بقشعريرة في ظهره دون ان يعرف سببها . ولكن لما وصل آخر رجاله الخمسة الى الرابية ، زالت القشعريرة

واخذ يوفى ما يملكه من امشاط العتاد حتى يحتاج اليها .

وكان جوادان قد نفقا على المنحدر ، ونفق الثلاثة الباقيون على الراية ، ولم يكن قد نجح الا في سرقة ثلاثة جياد ليلة امس ، جمع واحد منها ، عندما حاولوا امتطاءه عاري الظهر في الحظيرة عند المعسكر . عندما بدأ إطلاق النار .

وكان بين الرجال الخمسة الذين تمكنوا من الوصول الى الراية ثلاثة من الجرحى . واصيب سورودو بجرح في بطن ساقه وفي مكانين في ذراعه الايسر واحس بالعطش الجديد ، وبدأت جراحه تتصلب ، وشعر بالآلم شديد في ذراعه . وشعر بصداع شديد ايضا . وعندما استلقى منتظرا وصول الطائرات ، خطرت بباله نكتة تقال عادة بالاسبانية وهي « ان على الانسان ان يتناول الموت وكأنه قرص من الاسبرين » . ولكنه لم يضحك على هذه النكتة عاليا . وقطب جبينه عندما احس بالآلم في راسه . وفي ذراعه عندما يحركها . واخذ ينظر الى من بقي من رجاله .

وكان الرجال الخمسة منتشرين وكانهم نقاط في نجمة خماسية الاضلع وقد حفروا الارض بأرجلهم وايديهم ، واقاموا متاريس من التراب والحجارة وشرعوا يصلون بين هذه المتاريس بسياج من الاستحكامات اقاموه من الطين والحجارة ايضا . واستخدم جواكين خوذته الفولاذية في الحفر ونقل الطمى .

وكان قد حصل على هذه الخوذة في الفارة التي قاموا بها على القطار ، وفي الخوذة ، ثقب من عيار ناري ، وكان الجميع يهزأون منه لانه يحتفظ بها ، فقام بسد الثقب بقطعة من الخشب .

وعندما بدأ إطلاق النار . وضع الخوذة على راسه . وانزلها عيسه ، ومضى في تلك الرحلة الشاقة المتعبة ، التي اضناها ازيز الرصاص ودوي الانفجارات ، يصعد الراية مع رفاقه ، واحس بشغل الخوذة على راسه ، ولكنه احتفظ بها ولم يعمل على الخلاص منها ، فأفاد منها الآن في عملية

الحفر وكأنها آلة نافعة ولم يكن الفنى قد اصيب بجراح بعد ؛ فسمع ايل
سوردو يقول له بصوته العميق .. لقد نفعتك اخيرا في عمل من الاعمال .

فقال جواكين ؛ وقد امتلأ فمه بالجفاف النابع من الخوف والذي يفوق
عادة العطش الناجم عن المعركة .. حافظ على مركزك ؛ وحصن نفسك .
وستكون الرابع حتما .

وتطلع سوردو من الرابية نحو المنخفض ؛ حيث كان احد الفرسان
مختفيا وراء صخرة يواصل اعمال القناصة ؛ وقال للفنى الذي كان
يحبه كل الحب .. وثقل .. ماذا تقول ؟

والتفت احد الرجال ؛ وكان مشغولا في عملية الحفر والبناء ؛ ويده
تعملان في وضع صخرة في مكانها المناسب في استحكاماته .. وقال للفلام
.. ماذا كانت الكلمة الاخيرة ؟

فقال جواكين .. الرابع حتما .

فقال الرجل .. اللعنة .

وقال جواكين .. هناك حكمة شيعوية اخرى قد تكون اكثر صلاحا لهذا
الموقف .. فقد قالت باسيوناريا .. من الخير لك ان تموت واقفا على
قدميك على ان تعيش راكعا على ركبتيك .

فقال الرجل .. اللعنة ثانية .. وقال ربل ثالث .. نحن على بطوننا
لا على ركبتنا الان .

وقال آخر .. اسمع ايها الشيعوي . اتعرف ان لباسيوناريا ولدا في
مثل عمرك ؛ بعثت به الى روسيا منذ بدء الحركة ؟

فقال جواكين .. انها اكدوبة .

وقال رفيقه .. ماذا تعني انها اكدوبة . لقد حدثني بها الديناميتي ذو
الاسم الغريب .. انه من الحزب ايضا . فلماذا يكذب ؟

فرد جواكين .. انها اكدوية . لا يمكن لباسيوناريا ان تفعل ذلك . وان تخفي ولدها في روسيا لتبعده عن الحرب .

وقال احد الرجال .. كم وددت لو كنت في روسيا . اولا يمكن لهذه الباسيوناريا ان تبعث بي من هنا الى روسيا ايها الشيوعي ؟

وقال ثان .. اذا كنت حقا تؤمن كثيرا بباسيوناريا ، فاحملها على ان تنقلنا من هذه الراية .

وقال آخر .. ان الفاشيين سينقلوننا من هنا .

ورد جواكين .. لا تقل مثل هذا القول .

فرد عليه الرجل قائلا .. امسح حليب امك عن شفطيك واعطني قليلا من الطمي .. لن يرى احد منا مغيب الشمس هذه الليلة .

وكان ايل سورددو غارقا في افكاره .. ان هذا المرتفع على شكل قرحة او على شكل ندي فتاة لا حلمة له ، او على شكل فوهة بركان . ومضى يحدث نفسه .. ولكنك لم تر قط في حياتك بركانا . ولن تراه . اذن فهذه الراية قرحة لا اكثر ولا اقل ، واترك البراكين جانبا . لقد فات الوقت للحديث عن البراكين .

ونظر بعناية الى الجواد الذي جعل منه متراسا ، وسمع دفقة قوية من الرصاص تنصب من وراء احد الجلاميد الصخرية . على الجواد . وشرع ينظر من الزاوية القائمة بين الجواد وبين الصخرة ، فرأى ثلاث جثث على المنحدر . تحته ، وقد سقطت عندما هاجمهم الفاشيون تحت ستار نيران المدافع الرشاشة الخفيفة ، فاضطر مع رفاقه الى تحطيم هذا الهجوم بقذف سيل من القنابل اليدوية . وكانت هناك جثث اخرى لم يستطع رؤيتها على الجوانب الاخرى من منحدر الراية . وليس تمة مكان يستطيع ان ينفذ اليه الفاشيون منه . وادرك انه طالما ظل لديه العتاد والتماسل اليدوية واربعة من الرجال فلن يستطيع الفاشيون الوصول اليه ، الا اذا جاءوا بمدفع هاون . ولم يكن يعرف اذا كانوا قد بعثوا الى لاغرانجا ،

يطلبون مدفعا . ومن المحتمل ان لا يكونوا قد فعلوا ذلك ، ولكن الطائرات ستصل حتما عما قريب . فقد مضت أربع ساعات ، منذ حلقت طائرة الاستطلاع فوق رؤوسهم .

ومضى سورودو بهجس لنفسه ، لا ريب في أن هذه الرابية قرحة . ونحن صديدها . ولكننا قتلنا عددا كبيرا منهم . عندما شنوا هجومهم علينا . كيف خيل اليهم أن يوسعهم مداهمتنا على هذا النحو . أن اسلحتهم الحديثة ، تجعلهم يفقدون عقولهم بالاغراق بالثقة فيها . وهو واثق من أنه قتل الضابط الشاب الذي قاد الهجوم ، فقد رآه يتدحرج من منتصف الرابية الى سفحها ، بعد أن قضى عليه بقنبلة يدوية .

ولا ريب انهم شجعان ، ولكنهم على جانب كبير من الغباء والبلادة . اما الآن فاعتقد ان عقولهم سيردعهم عن محاولة الهجوم من جديد الى ان تصل الطائرات أو يصل اليهم مدفع هاون . والهاون هو الشيء الطبيعي المألوف لكنه عندما تصور الطائرات قادمة ، رأى نفسه عاريا امامها ، وكأنها نزعته عنه ملابسه . . ومضى يحدث نفسه . . ولكن لم يأتون بالطائرات وفي وسعهم ان يخرجونا من مواقعنا بمدفع هاون . ولكن الفاشيين يعززون بطائراتهم وسيأتون بها حتما ، تماما كما كانوا معتزين بأسلحتهم الاوتوماتيكية فاندفعوا يقومون بذلك الهجوم الذي ينطوي على الغباء . . اولا يحتمل ان يكونوا في انتظار الطائرات ومدفع الهاون في آن واحد .

واطلق احد رجاله عيارا ناريا اتبعه بثان بسرعة . . فقال له سورودو . . وفسر عتادك .

فقال الرجل . . حاول احد اولاد الزانية ان يصل الى ذلك الجلمود .

- وهل وصل ؟

- لا لان الفاسق عاد الى مكانه .

وقال الرجل الذي وضع ذقنه في الطمي . . ان بيلار هي عاهرة العواهر

فهي تعرف أننا نموت هنا .

فرد عليه سوردو . . ليس في وسعها ان تعمل لنا شيئا . ماذا تستطيع ان تعمل ؟

– تهاجم هؤلاء الكلاب من الخلف .

– كيف . انهم منتشرون حول رابية . فكيف تراهمهم من الخلف ؟ ان عددهم لا يقل عن المائة والخمسين فارسا . ولربما اربى على ذلك الآن .

وقال جواكين – ولكن اذا تمكنا من الصمود حتى هبوط الظلام .

فقال الرجل ذو الذقن المدفونة في الطمي . . . واذا جاء عيد الميلاد مسع الفصح .

وقال له ثان . . واذا كان لعمتك خصيتان فانها تصبح عمك . . ابعث في طلب باسيوناريا . انها الوحيدة التي تستطيع مساعدتنا .

فرد جواكين . . انا لا اصدق قصة ولدها . واذا وجد حفا في موسكو ، فهو يدرس حتما الطيران او شيئا من هذا القبيل .
– لا ، انه يختفي هناك طلبا للسلامة .

وقال ثان . . لا انه يدرس الجدليات . وقد كانت باسيونارياك هناك . كما كان ليستر وموديستو وغيرهما . وهذا ما حدثني به الرجل ذو الاسم الغريب .

فقال جواكين . . انهم يذهبون ليعودوا الينا لمساعدتنا .
– لماذا لا يساعدوننا الآن . على هؤلاء المدلمين الروس ان يساعدونا الان

واطلق الرجل رصاصة اخرى وقال . . لقد اخطأته ثانية .

فقال سوردو . . وفر عتادك ، لا تكثر من الحديث . لئلا تعطش . فليس لدينا ماء على هذه الرابية .

فقال الرجل ، وهو يمد يده بزق من الخمر الى سورودو . . خذ هذه ،
وأغسل فمك بها . ايها المعجوز . لا ريب انك شديد العطش الان من اثر
جراحك .

فقال سورودو . . ليشرب الجميع منها .

فقال صاحبها . . اذن ابدا انا . . وتناول جرعة كبيرة ، ثم ناولها الى
من بجانبه .

وقال الرجل ذو الذقن المدفونة . . متى تعتقد يا سورودو ان الطائرات
ستصل ؟

- في اي وقت ، كان من المنتظر ان تصل قبل هذا الوقت .
- وهل تعتقد ان اولاد الزانية سيمودون الى الهجوم ؟
- اذا جاءت الطائرات .

ولم يشعر بالحاجة الى الحديث عن مدفع الهاون ، فسيعرفون ذلك
بانفسهم عندما يصل المدفع .

وقال الرجل . . لا ريب في ان لديهم الكثير من الطائرات . بعد الذي
رايناه بالامس .

فرد سورودو . . عندهم اكثر من الزوم .

وكان راسه قد ثقل ، وتصلبت ذراعه ، حتى باتت اية حركة تؤلمها .
وتطلع الى السماء الزرقاء المشرقة الصافية وهو يرفع زق الخمر بيده
السليمة . انه في الثانية والخمسين ، وقد ادرك ان هذه هي المرة الاخيرة
التي يرى السماء فيها .

ولم يكن سورودو خائفا من الموت ، ولكنه تضايق ، من ان يحصل ذلك على
هذه الراية ، التي يرى انها مكان لا يصلح لان يموت فيه الانسان . ومضى
بفكر . . آه لو استطعنا النجاة . . لو تمكنا من حملهم على اللحاق بنا في

الوادي ، او من الاندفاع الى الطريق . اما هذه القرحة في قمة الجبل ،
فعلينا ان نعيد منها الى اقصى ما نستطيع ، وقد افدنا منها فعلا حتى الان

ولو عرف كم يعي التاريخ من الرجال الذين اضطروا الى استخدام قمم
الروابي الموت فيها ، لما عزته هذه المعرفة ، لان الانسان في مثل هذه
الظروف التي يجتازها هو الان ، لا يتاثر كثيرا بما يقع للاخرين الذين
وجدوا في ظروف مماثلة ، تماما كالارملة التي لا يعزبها ادراكها ان ازواجها
محبوبين لآخريات قد ماتوا ايضا . ومن الصعب على الانسان ان يتقبل
موته ، سواء اكان يخاف الموت او لا يخافه . وقد قيل سورددو حقيقة
الموت لكن هذا التقبل ، كان يخلو من كل حلاوة على الرغم من اعوامه
الانين والخمسين وجراحه الثلاثة ، ووقوعه في شراك التطويق .

وهزه بالموت . ولكنه عب من الخمر ، ثم تطلع الى الافق البعيد . وقال
لنفسه ، اذا كان لا بد من الموت ، فليمت ، ولكنه يكرهه .

وهو لا يخشى الموت ، اذ ليست لديه أية صورة واضحة عنه . ما الحياة
فلم تكن تعدو حقلا من القمح تذرره الرياح ، على سفح جبل عال . اجل
ان الحياة كالصقر الذي يحلق في كبد السماء . وليست الحياة الا جرة من
الماء ، في جو قائم تذرره الرياح من كل جانب . وما الحياة الا جواد تحت
سائق ، وغدارة في حضنك وامامك الجبل والوادي والجدول والاشجار .

واعاد سورددو زق الخمر واحنى راسه شاكرا . وانبطح الى الامام وربت
على كتف الجواد الميت حيث احترقت الرصاصة جلده . انه ما زال يشم
رائحة الشعر المحترق . وفكر بالطريقة الناجحة التي امسك بها بعرف
الجواد ، في هذا المكان والعيارات النارية تنهال عليه من كل جانب ، واطلق
عليه رصاصة في نقطة التقاطع بين الخططين الواصلين بين العينين والاذنين .
ثم تذكر كيف جعل من جسد هذا الجواد متراسه .

وكان ابل سورددو مستلقيا الان على جانبه السليم ، يتطلع الى السماء .

وقد حمت الصخرة رأسه ، بينما اقامت جثة الجواد ستارا امام جسده .
وكان الالم من جراحه يكاد يعصره ، لا سيما عندما تصدر منه اية حركة .

وقال الرجل المنبطح الى جانبه . . بماذا تفكر ايها العجوز . . ؟

- لا شيء . . ولكني استريح بعض الشيء .
- نعم ، فستفيق عندما يأتون .

وسمعوا صوتا ينادي من المنحدر قائلا . . اسمعوا ايها اللصوص . .
استسلموا الان قبل ان تمزقكم الطائرات .

فقال سورددو . . ماذا يقول الرجل ؟

ونقل اليه جواكين ما قاله ، وانكفأ سورددو الى جانبه ورفع نفسه قليلا
بحيث اصبح وراء المدفع تماما . وقال . . ربما لا تأتي الطائرات . فلا
تردوا عليهم ، ولا تطلقوا النار . وقد ندفعهم الى مهاجمتنا ثانية .

وقال احد الرجال . . لو سمحت لنا بتحقيروهم قليلا ؟

- لا ، اعطني مسدسا كبيرا . من يحمل مسدسا كبيرا ؟
- هاك .

- اعطني المسدس . . وتناوله بيده ، واطلق عيارا واحدا ، قرب الجواد
ثم انتظر قليلا ، واطلق اربعة عيارات اخرى في فترات غير منتظمة . ثم
انتظر قليلا حتى عد الى الستين ؛ واطلق العيار الاخير في جسم الحصان .
واعاد المسدس الى صاحبه وهو يهمس . . املاه ثانية ، واغلقوا جميعكم
افواهكم ، ولا تطلقوا طلقة واحدة .

وسمعوا الصوت ينطلق ثانية . . ايها اللصوص . . .

ولم يرد عليه احد .

- اسمعوا . . واستسلموا ، قبل ان نمزقكم .

وهمس سورددو . . انهم يستفزوننا . .

وبينما كان يراقب من موضعه رأى أحد الفاشيين يرفع رأسه فوق
صخرة . ولم تصدر طلقة عن الراية . فعاد الراس يهبط وراء صخرته .
وانتظر ايل سوردو بعض الوقت ولكن لم يقع اى تطور جديد . والتفت
الى رفاقه الذين يراقبون قطاعات الراية كلها ، فلم يتلقَ من احدهم
اية اشارة ..

وهمس قائلاً .. لا تتحركوا ..

وطلع الصوت ثانية .. يا ابناء العاهرة الكبرى .. ايها الخنازير الحمر
.. يا معتدين على امهاتكم ، يا شاربين حليب آبائكم ..
وخيل لسوردو ان هذه الاهانات خير من الاسبرين .. كم اهانة سنسمع
ايضا .. هل سيكونون من الحمقى .

وتوقف الصوت ثانية ومضت ثلاث دقائق دون ان يسمعوا شيئاً جديداً
ثم راوا الرجل القابع وراء الصخرة القريبة ، التي تبعد عن مكانهم نحواً من
مائة ياردة ، يرفع رأسه ويطلق النار . ورأى رجلاً آخر ينطلق من المكان
الذي كان فيه الى الصخرة القريبة ليكون بجانب رفيقه .

وتطلع سوردو الى رفاقه ، فأشاروا اليه بانهم لا يرون اية حركة .
وابتسم سوردو وهز رأسه . لا ريب في انها احسن من الاسبرين . وانتظر
وهو يشعر بالسعادة كالصياد .

وسمع الرجل الذي وصل الى الصخرة القريبة يحدث رفيقه ويقول ..
هل تصدق ؟
- لا ادري .

فقال الرجل ، وهو ضابط الفريق .. انه منطقي . فهم مطوقون . وليس
لهم ما ينتظرونه الا الموت .
ولم يفه الرجل الثاني بكلمة .
وقال الضابط يسأله .. ما رأيك ؟

- لا رأي لسي .
- هل رأيت أية حركة بعد الطلقات ،
- ولا حركة .
ونظر الضابط الى ساعته . كانت الثانية والخمسين دقيقة . وقال ..
كان على الطائرات ان تصل قبل ساعة .
وسرعان ما انضم الى الرجلين ضابط آخر وراء الجلمود .
وقال الضابط الاول .. ما رأيك يا باكو ؟
وكان الضابط الثاني يتنفس بصعوبة من ارتفاعه الجبل راكضا ..
فقال .. اعتقد انها خدعة .
- ولكن اذا لم تكن خدعة ؟ الا تكون هزءا وسخرية للناس ونحن نظوق
جماعة من الموتى .
- لقد قمنا حتى الان باكثر مما يشير الهزء والسخرية . الا ترى ذلك
المنحدر ؟
واشار الضابط الى جثث القتلى المنتشرة على سفح الرابية .
وقال الضابط الثاني .. وماذا حدث لمدافع الهاون ؟
- كان عليها ان تكون هنا قبل ساعة ، ان لم يكن اكثر .
- اذن انتظر ، فقد كفانا ما قمنا به من عناء وبلادة حتى الان .
وصرخ الضابط الاول هاتفا من جديد .. وقد وقف على قدميه ، رافعا
رأسه في الجلمود .. ايها اللصوص ، ايها الخنازير الحمر ، ايها الجبناء .
وتطلع الضابط الثاني الى الجندي الواقف بجانبه وهز رأسه .
ووقف الضابط الاول ويده على مسدسه يسب ويشتم ، فلا يسمع ردا
ثم خرج عن الصخرة ووقف في العراء وهو يقول .. اطلقوا النار ايها
الجبناء ، اذا كنتم احياء .. اطلقوا النار على رجل لا يخاف أي أحمر
خرج من بطن عاهرة .

وكانت الجملة طويلة ، فأحمر وجه الضابط قبل ان يكملها .. اما الضابط الثاني فكان رقيق البنية ، لفحته الشمس ، بعينين هادئتين وتم طويل الشفتين .

وكان الضابط الاول هو الذي اصدر امره بالهجوم الاول ، وكان الملازم القليل صديقا لهذا الضابط الثاني الذي يدعى باكو بيريندو .

ومضى الرئيس يقول .. هؤلاء الخنازير هم الذين قتلوا شقيقي وامي .. وعاد يصرخ وهو يكاد يتفجر من الغيظ .. ايها الحمر ، ايها الجبناء .

ووقف الرئيس الآن عاريا تماما واطلق عيارا من مسدسه ، على الجواد الذي يقع سورددو ورائه ، فاصاب الطمى على بعد خمس عشرة ياردة من الجواد . واطلق عيارا ناريا ثانيا اصاب الصخرة .

ووقف الرئيس يتطلع الى الراية ، بينما اخذ الملازم بيريندو يتطلع الى جثة صديقه الملازم الثاني تحت القمة ، اما الجندي ، فأخذ ينظر الى الارض بين قدميه ، ثم رفع راسه الى الرئيس .

وقال الرئيس .. ليس هناك من رجل حي على الراية .. امض ايها الجندي وانظر ..

وخفض الجندي راسه ، ولم يهز جوابا .

وعاد الرئيس يهتف .. او لا تسمعي ؟

ـ اجل ، يا سيدي الرئيس .

ـ اذن هيا الى الراية ، الا تسمعي

ـ اجل يا رئيس .

ـ اذن لم لا تذهب ؟

ـ لانني لا اريد يا رئيسي .

ووضع الرئيس فوهة مسدسه في ظهر الرجل وصرخ .. الا تريد ؟
الا تريد ان تذهب ؟

فقال الجندي .. انا خائف يا رئيسي .

واعتقد الملازم بيريندو ، وهو يرقب وجه الرئيس وعينه ، انه سيقتل الجندي فورا فقال .. ايها الرئيس مورا !

- نعم يا ملازم بيريندو ؟

- من المحتمل ان يكون الجندي على حق .

- امن حقه ان يقول انه خائف ؟ امن حقه ان يقول انه لا يريد اطاعة الامر ؟

- لا . ولكنه قد يكون على حق في انها مجرد خدعة .

- لقد ماتوا جميعا . الا تسمعني اقول انهم قد ماتوا ؟

- اذا كنت تعني رفاقنا على منحدر الرابية ، فانا وافقك .

- لا تكن مجنوننا يا باكو . اتعتقد انك الوحيد الذي احسب جوليان ؟

اؤكد لك ان الحمر قد ماتوا . انظر !!

ووقف على قدميه ثم وضع يديه على الصخر ورفع نفسه عليه وصرخ ..

اطلقوا النار علي ، اقتلوني !

وكان ابل سورددو ، يضحك وراء جواده ..

وانطلق الصوت ثانية .. ايها الحمر ، ايها الرعاع .. اقتلوني ! اطلقوا

النار علي .

ورآه سورددو يقف فوق الجلمود ، ثم رأى ضابطا آخر يقف قرب

الصخرة . بينما يقف الجندي من الناحية الأخرى . وظل يرقب ما امامه ،

وقد غمره السرور .. وقال لنفسه .. اطلقوا النار علي ، اقتلوني .

وهبط الرئيس مورا من الصخرة .. وقال .. هل صدقتني يا باكو ؟

- لا .

- اللعنة .. ليس بيننا الا الحمقى والجبناء .

وكان الجندي قد اختفى من جديد وراء الصخرة ، وهبط الملازم بجانبه

وعاد الرئيس ، الى شتائه وسبابه ، دون ان يترك تعبيراً من السباب في الاسبانية لم يستخدمه . اما الملازم ، فكان كاثوليكيًا تقياً . وكذلك شان الجندي . وكان كلاهما يعتبران السباب خطيئة ، يعترفان للقس اذا اقترفاها لينالا الغفران .

وعندما اقمى الرجلان وراء الصخرة ، فصما كل ما يربطهما برئيسهما ، اذ لم يرغبوا في ان يتحمل ضميرهما وزر هذه الشتائم التي ينهال بها في يوم كهذا قد يموتان فيه . وخيل للجندي ان مثل هذه السباب جالب للشؤم ، لا سيما وانه يقحم اسم العذراء في سبابه الذي تفوق فيه على سباب الحمر .

وكان الملازم بيريندو غارقاً في افكاره . فصديقه جوليان قد مات . وها هي جثته على المنحدر ، وهذا الانسان الكافر ، ينطلق في سبابه ، وشتائه ليجلب لهم جميعاً سوء الحظ

وتوقف الرئيس الآن عن شتائه والتفت الى الملازم بيريندو وقد بدت عيناه غريبتين كل الغرابة .. وقال .. باكو .. سنصعد انا وانت الى الراية .

— لن اصعد .

فقال الرئيس وقد اشهر مسدسه ثانية .. ماذا ؟

وفكر الملازم .. انه يكره هؤلاء الذين يشهرون المسدسات . انهم لا يستطيعون اصدار اي امر دون التلويح بمسدساتهم .

وقال بيريندو .. سأذهب اذا امرتني ، رغماً عني ومع الاحتجاج .

فقال الرئيس .. اذن سأمضي وحيداً ، فرائحة الجبن قوية هنا .

ورفع الرجل مسدسه في يده ، وشرع يخطو صاعداً المنحدر . ووقف بيريندو والجندي يرقبانه . كان يصعد عارياً من كل دفاع او محاولة لاختفاء نفسه ، وهو ينظر الى الامام الى الجواد الميت . واخذ ايل سورودو يرقب الرئيس وهو يصعد الراية .

وفكر سورودو .. اذن فالنتيجة لا تعدو رجلاً واحداً .. ولكنه كما يبدو

هو الرئيس .. انظر الى مشيته .. يا له من حيوان .. انظر اليه يخطو الى الامام .. هذا الرجل من نصيبي ، وساحمله معه في زحمتي . اجل انه سيسافر معي .. تعال ايها المسافر الرفيق .. تعال بخطواتك الواسعة .. اسرع .. تعال قابل النهاية .. واصل سيرك .. واسرع خطوك .. تعال كما نسير دون تمهل .. لا تتوقف وتتطلع الى رفاقك .. حسنا تفعل .. لا تنظر الى الخلف .. واصل السير وعيناك الى الامام .. انظر اليه ان له شاربا .. ما رايك فيه ؟ آه .. انه يحمل رتبة رئيس .. انظر الى كميته .. ان له وجه انكليزي .. انظر اليه .. ان له وجه احمر ، وشعرا اشقر وعينين زرقاوين .. انه لا يضع شيئا على راسه .. وشاربه اشقر .. وعيناه زرقاوان .. ان في عينيه عيبا .. آه . اقترب .. ايها الرفيق المسافر .. خذها ايها الرفيق .

وانطلقت العيارات من مدفعه الرشاش ، وسقط الرئيس على وجهه وقد انكفا على ذراعه اليسرى . اما يده اليمنى التي تحمل المسدس ، فقد امتدت امامه . وسرعان ما انطلقت العيارات النارية من كل مكان من السفح .

واقعى الملازم وراء الصخرة ، وهو يفكر في الطريقة التي سيعود فيها الى موقعه الاول تحت النيران ، وسمع صوت سورودو الاجش وهو يصرخ على الرابية .. ايها اللصوص ، اطلقوا النار علي ! اقتلوني .. !!

ومضى ايل سورودو ، يضحك ويضحك وراء مدفعه الرشاش ، واحس بأن راسه يكاد ينفجر من الضحك .. وعاد يصرخ ثانية .. اقتلوني ايها اللصوص .. وسيحاول قتل الضابط الآخر ، عندما يترك مكانه وراء الصخرة .. فعليه ان يتركها .. اذ ليس في وسمعه ان يتولى القيادة وهو في مكانه .. اذن فسيكون فريسة سائفة له .

وفي تلك اللحظة سمع الرجال اصوات الهدير الاول للطائرات . اما ايل سورودو فلم يسمعها . وانما كان يرقب المنحدر ويفكر ، مخافة ان يتمكن الضابط من النجاة . علي ان اسدد النار عليه والى امامه . واحد بيد تلمس ذراعه ، فأدار راسه ورأى وجه جواكين الخائف الذعر وهو يشير

بيده الى السماء .. فتطلع الى العلى وراى ثلاث طائرات .

وفي تلك اللحظة ، خرج الملازم بيريندو من وراء صخرته ، وهروا الى مكانه الآمن وراء المدفع الرشاش . ولم يره ايل سورودو فقد كان يرقب الطائرات .

وقال ايل سورودو لجواكين .. ساعدني في سحب هذا .. وجر جواكين المدفع الرشاش من مكانه ..

وكانت الطائرات تهبو بشبات .. وفي كل لحظة يرتفع هديرها ، ويتسع حجمها .

وقال سورودو .. استلقوا على ظهوركم لتطلقوا النار عليها .. اطلقوا النار امامها عندما تاتي ..

وقال سورودو .. اغناسيو .. ضع المدفع على كف الغلام .. وانت يا جواكين .. اجلس هناك ولا تتحرك .. اهبط اكثر ..

واستلقى على ظهره يرقب الطائرات وهي تقترب .. وقال .. وانت يا اغناسيو .. امسك قوائم المدفع الثلاث .. وانت يا جواكين ، اخفض رأسك .

وكان جواكين يحدث نفسه .. « تقول يا سيوناريا ان من الافضل أن .. » .. وانتقل من ذلك الى القول وهو يرى الطائرات تقترب .. تحية يا مريم ، ايها العذراء ، بورك الرب معك ، وطوبى لك بين النساء بابنك يسوع .. صلي لنا معشر الخاطئين في ساعة موتنا .. آمين .. وعاد يقول .. « ايها الرب ، كم انا آسف لانني اغضبتك .. وانت يا من احبه واصلني اليه » .

وسمع دوي انفجارات تمر وراء اذنيه ، واحس بحرارة فوهة المدفع على كتفه . وعاد الدوي يصم اذنيه . وواصل اغناسيو الإمساك بالمدفع وشده الى الخلف بينما كانت حرارته تحرق ظهره .

وكل ما أستطاع ان يذكره في ساعة الموت ، هه كلمة « آمين »
اجل آمين .. آمين .. اما الآخرون فيواصلو اطلاق النار .

وبدأت القنابل تنهال على قمة الرابية وتمالت الانفجارات ، وتحطمت الصخور .. وعادت الطائرات ثلاث مرات تقذف بحمما . ولكن لم يبق احد على الرابية يحس بمجيئها .. وقامت الطائرات ، بأخر عملية انقراض واصلت القمة وابلا من نيران مدافعها الرشاشة ومضت الطائرات في طريقها وقد شكلت رقم (٧) .

وواصل الملازم بيريندو ، اطلاق نيرانه الشديدة على الرابية ، ثم دفع باحدى دورياته ، الى نقطة تستطيع ان تقذف منها بالقنابل اليدوية على القمة . وبالطبع كان لا يريد ان يتعرض للخطر من جراء وجود احدهم حيا في القعة . فالقى باربع قنابل يدوية على الحطام المتبقي من الرجال القتلى والجياد الميتة ، فكسرت الصخور وحطمتها شر تحطيم ، ثم تقدم الى القمة ليلقي بنظرة على الموقع .

ولم يكن احد حيا على القمة سوى الغلام جواكين ، الذي كان فاقد اوعيه تحت وطأة جثة اغناسيو ، وكانت الدماء تنزف من انفه واذنيه . وكان قد فقد الوعي فلم يشعر بشيء منذ وجد نفسه فجأة في قلب دوي المعركة وهديرها ، ولكن نفسه تعالى الآن ، فرسم الملازم بيريندو شارة الصليب على صدره واطلق رصاصة من مسدسه على مؤخرة راس الغلام ، فقضت عليه ، تماما كما فعل سوردو مع الجواد .

ووقف الملازم على قمة الرابية ورمى ببصره الى السفح ، الى القتلى من رجاله ، ثم راح نظره الى المكان الذي بدأت منه مطاردة سوردو ورجاله . وبعد ان لاحظ تفرق قواته ، اصدر امره بربط جثث القتلى من رجاله الى الخيل ، لنقلها الى لاغرانجا .

وقال .. خذوا ذلك الرجل الذي يضع يديه على المدفع الرشاش ، فلا

بد انه سور دو . وهو اكبر الموجودين سنا .. ولكن لا .. اقطعوا راسه
ولفوه في وشاح .. وبعد ان فكر لحظة واحدة عاد يقول . وفي وسمكم ان
تأخذوا بقية الرؤوس من قتلاهم هنا وهناك حيث لقيناهم اول مرة . ثم
اجمعوا البنادق والمسدسات والمدفع الرشاش .

ومشى هابطا الى المكان الذي توجد فيه جثة صديقه الملازم الذي قتل
في الهجوم الاول ، ونظر اليه دون ان يلمسه .. ثم قال يحدث نفسه ..
يا للحرب ما اسواها .

وبعد ان رسم شارة الصليب ، على صدره ثانية ، اخذ يهبط الجبل وهو
يعلي على روح صديقه الراحل . ولم يرغب في البقاء لحظة واحدة ليرى
ان كان جنوده قد نفذوا اوامره بحذافيرها .



وبعد ان مضت الطائرات عن ميدان المعركة ، سمع روبرت جوردان وبريمتيفو صوت الرصاص ينطلق من جديد ، فكاد فؤاده يقفز من صدره . وراى سحابة من الدخان تغطي المرتفع الاخير في المنطقة الجبلية ، ثم ابصر الطائرات الثلاث وهي تنكفء بعيدا في السماء .

وقال روبرت جوردان يحدث نفسه . . من المحتمل ان تكون الطائرات قد قصفت فرسانها ولم تصب سوردو ورجاله باذى . ان الطائرات تخيفك الى حدود الموت ولكنها لا تقتلك .

وقال بريمتيفو . . ان المعركة مستمرة . . واخذ يعلق شفثيه الجافتين بلسانه .

- ولم لا ؟ ان الطائرات لا تقتل احدا .

وسرعان ما توقف اطلاق النار بصورة نهائية ، ولم يعد يسمع صوت طلقة واحدة . فان صوت طلقة مسدس الملازم بيريندو لم تصل الى اذنيه

ولم يتأثر عندما توقف اطلاق النار للمرة الاولى . ولكن لما استمر الهدوء سبطر عليه شعور من الخوف . وسمع بعد قليل انفجار القنابل اليدوية

فعاوده الامل . واخيرا عاد الهدوء من جديد .. وظل مدة طويلة ،
فأدرك ان كل شيء قد انتهى .

وجاءت ماريا من المعسكر ، تحمل الطعام ، من الارانب المطبوخة ، والفطر
وكيسا من الخبز ، وزقا من الخمر ، وبعض الصحف ، وكاسين واربع
ملاعق . وتوقفت عند المدفع فوضعت صحنين لاوغسطين وايلاديو الذي
كان قد حل محل انسيلمو ، الذي مضى في مهمته ، وملأت لهما قلاجين
من النبيذ .

وراقبها روبرت وهي تصعد اليه ، في مركز مراقبته ، وقد حملت الكيس
على ظهرها ، وانعكست اشعة الشمس على شعرها القصير . وسرعان ما
هبط ليساندها على ارتقاء ما تبقى من الصخور الباقية وقالت تساله
وقد بدا الخوف في عينيها .. ماذا صنعت الطائرات ؟
- لقد قصفت بقنابلها سورودو .

وكان قد بدا يصب الطعام له ولرفيقه ، فقالت .. اما زالت المعركة
دائرة ؟

- لا ، لقد انتهت .

- آه .. وعضت بنواجذها على شفرتها وتطلعت الى الامام ، الى المرتفع

وقال بريمتيفو - ليست لدي شهية للطعام .

- يجب ان تاكل على كل حال .

- لا استطيع ان ازدد لقمة واحدة .

فقال روبرت وهو يمد يده اليه بزجاجة الخمر .. خذ قليلا من هذا .
ثم كل شيئا .

فرد بريمتيفو - لقد سلبنى موضوع سورودو كل شهية . كل انت ،
فليست لدي رغبة في الطعام .

ومضت ماريا اليه ووضعت يديها حول عنقه وقبلته ، وقالت .. كل

أيها العجوز .. يجب ان تحافظ على قوالك .

وادار بريمينفو رأسه منها . وتناول زجاجة الخمر ، وسب شيئا منها في جوفه وسرعان ما ازدرده . وملا صحنه بالطعام واخذ ياكل .

وتطلع روبرت جوردان الى ماريبا ، وهز رأسه . وجلست بجانبه ووضعت ذراعها حول كتفه . وكان كل منهما يعرف حقيقة مشاعر رفيقه . وجلس روبرت جوردان ، يزدرد طعامه ، ممجبا بالفطر ، ومحتسبا التبيد بشراهة وقال بعد صمت طويل ، وبعد ان انتهى من الطعام .. في وسعك ان تظلي هنا ، يا صبية اذا سُئلت ؟

- لا ، يجب ان اعود الى بيلاد .

- في وسعك ان تظلي هنا . فلا اعتقد ان شيئا سيحدث الان .

- لا ، يجب ان اعود الى بيلار ، فهي تعطني ..

- ماذا ؟

- تعطني .. وابتسمت قليلا ، ثم قبلته .. او لم تسمع قط بالعظاات الدينية ؟ انها من هذا النوع ، ولكن من طراز مختلف .

- اذن امضي الى عظاتك .. وربت على رأسها فابتسمت ثانية ، وقالت لبريمتيفو .. او تريد شيئا من المسكر ؟

- لا يا ابنتي .. وادركت ماريبا كما ادرك روبرت انه لم يعد الى طبيعته المرحة .

- هون عليك ايها العجوز ..

- اسمعي يا ابنتي .. انني لا اخشى الموت .. ولكن لن نتركهم يواجهون الموت وحدهم هكذا ..

فقال زوبرت .. لم يكن لنا خيار في ذلك .

- اعرف ذلك . ولكن ..

ثم يكن لنا خيار في ذلك . ومن الخير ان لا نعود الان الى الحديث في هذا ..

- اجل .. ولكن ان يظنوا وحيدين دون ان نساعدهم ..
- من الافضل ان نترك هذا الحديث .. والان اذهبي يا صبية الى عطاتك وراها وهي تنزل الصخور .. ثم جلس الى نفسه يفكر ويتطلع الى الجبال العالية .

لقد تحدث اليه بريمتيفو ولكنه لم يرد عليه . وكانت الشمس حارة . فلم يعبنا بحرارتها بينما جلس في مكانه يرقب سفوح الجبال ، والمسافات الطويلة من اشجار الصنوبر الممتدة عليها . ومضت ساعة . وكانت الشمس قد انتقلت الى الناحية اليسرى منه ، عندما رآهم ، فوق قمة المنحدر ، فالتقط منظاره .

وبدت الجياد صغيرة ودقيقة ، عندما ظهر الفارسان الاولان في معه المنحدر . ثم رأى اربعة فرسان آخرين انتشروا على الجبال ، ثم رأى وراءهم عددا كبيرا من الفرسان والجياد يسيرون في رتل طويل . وبيضا كان يراقبهم شعر بالفرق يتصبب منه . وكان هناك رجل يسير في مقدمة الرتل . وتلت ذلك جياد لا حصر لها ، لا فرسان لها ، وفي ذيل الرتل فارسان . ثم جاء الجرحى ، وقد سار بجانبهم فرسان آخرون . وانتهى الرتل بعدد آخر من الفرسان .

ورآهم روبرت جوردان ينحدرون .. ثم يختفون بين الاشجار . ولم يستطع روبرت تمييز الاوشحة التي كانت تضم رؤوس سوردو ورفاقه ولا المدفع الرشاش الذي كان يستخدمه .

ولم يشعر الملازم بيريندو ، الذي كان يسير في مقدمة الرتل ، بأية غطرسة او تعجرف ، وانما كان يحس بالخواء الذي يعقب العمل عادة .. كان يفكر فيما عمله .. او ليس قطع الرؤوس من الاعمال المتهامة في الوحشية . ولكنه يريد ان يقيم الدليل ، وان يعرف القتل . وقال يحدث

نفسه .. لا ريب في انني سألقي بعض العنت حول ما فعلت . فمن يدري؟
ولكن قطع الرؤوس قد تعجبهم ، فبينهم من يحب مثل هذا العمل . ومن
المحتمل ان يبعثوا باثرووس المقطوعة كلها الى بورغوس انه عمل متوحش .
وكانت الطائرات في منتهى القسوة والبطش . مع انه كان في وسعنا ان
نتهي من العملية كلها ، بمدفع واحد من مدافع الهاون ، ودون ان نعنى
بأية خسائر . كل ما كنا نحتاجه بفلان يحملان القنابل ، وبفل ثالث يحمل
المدفع نفسه . يا لنا من جيش ! كل هذه القوة النارية لدينا .. ثم مدفع
هاون .. ولكن دع عنك هذا الحديث .. اذك تبني لنفسك جيشا .
وستكون عما قريب بحاجة الى مدفع جبلي .

وراح فكره الى صديقه جوليان ، الذي مات على الرابية ، والذي ربطت
جثته الآن الى احد الجياد ، التي تسير في المقدمة ، والتي بلغت الان حدود
الغابة لتخوض في ظلامها ، تاركة ضوء الشمس الساطع وراءها على الجبل
.. وسرعان ما شرع يصلي على روحه .

وقال .. « طوباك .. يا ام يسوع .. انت رمز حياتنا وآماننا واحلامنا
.. اليك نتطلع باناتنا واحزاننا وبكائنا في هذا الجحيم من الدموع .. »

ومضى يواصل صلواته ، والجياد تضرب بحوافرها فروع الصنوبر
المنشرة هنا وهناك ، والضوء يتسلل من بين الاغصان العالية ، وكأنه
يتسلل من اعمدة احدى الكاتدرائيات .

واجتاز الغابة ليصل الى الطريق الصفراء الممتدة الى لاغرانجا . وارتفعت
حجابه من الغبار ، من حوافر الجياد ، فغطت الموتى والاحياء على حد سواء

وهنا رأهم انسيلمو يمرون به . فعد الموتى والجرحى ، وتعرف على
بندقية سوردو ، الاوتوماتيكية . ولم يدرك ما تنطوي عليه تلك الاوشحة
المحزومة ، الموضوعه على ظهور الجياد ، ولكنه في طريق العودة ، مر
بالارض التي حارب عليها سوردو فادرك لتوه ما تضمنه تلك الاوشحة .
وبعد ان عد القتلى مضي في طريقه الى معسكر بابلو .

ومضى انسيلمو يسير وحيدا في الظلام ، فأحس بخوف يُسأل السى
فزاده . كلما لمست قدماه الفجوات التي تركتها القنابل في الأرض . وكان
هذا الخوف نابعا عن اثر القنابل نفسها . وعما رآه على الرابية .. ومضى
يفذ السير لينقل الانباء الى رفاقه . وأخذ وهو في الطريق ، يصلي على
أرواح سورودو ورفاقه . ولقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يصلي فيها
منذ بدأت الحركة .

ولم يستطع ان يحول بين فكره ، وبين ما يتوقع حدوثه في اليوم التالي ..
ومضى يخاطب نفسه .. ولكن لم التفكير ، وسأفخذ ما يقوله لي الانكيزي
وعلى الشكل الذي يحدده لي . ولكن يجب ان اظل قريبا منه ، واني لأرجو
ان تكون تعليماته دقيقة واضحة ، اذ انني لا استطيع السيطرة على نفسي
تحت وطأة القنابل الهابطة من الجو .. واني لايتهل اليك يا رب ان تساعدني
غدا ، لاسلك سلوك الرجل الصامد في هذه الساعات الاخيرة .. ساعدني
يا رب على تفهم احتياجات اليوم .. ساعدني يا رب على السيطرة على
حركات ساقي ، حتى لا افر عندما تحين الساعة .. ساعدني يا رب ..
على ان اكون رجلا في ميدان المعركة .. ولما كنت قد ابتهلت اليك يا رب ..
طالباً هذا العون ، فأرجو ان تمنحني اياه ، واثقا من انني ما كنت لأطلبه
لو لم يكن الامر جدا ، ومن انني لن اطلب شيئا آخر منك فيما بعد .

واحس بشعور من الراحة يغمره بعد هذه الصلاة ، وهو يسير منفردا في
حلقة الليل . وغدا واثقا من انه سيسلك سلوكا رائعا عندما تحين ساعة
المعركة .. وبدا يهبط الآن من المنطقة الجبلية العالية .. وعاد يصلبي
لأرواح سورودو ورفاقه ، وسرعان ما وصل الى مركز الخفارة الاعلى عندما
سمع صوت فيرناندو ينتهره ..

فقال .. انه انا .. انسيلمو .

— حسنا .

— هل عرفتم ما حل بسورودو ؟

- اجل .. فقد اخبرنا بابلو .

- وهل كان هناك ؟

- ولم لا . لقد ذهب الى الراية ، بعد عودة الفرسان .

- هل قال لكم ..

- لقد قال لنا كل شيء .. يالهم من وحوش هؤلاء الفاشيون . يجب ان نقضي على كل هؤلاء الوحوش في اسبانيا . فهم يفتكرون الى كل مفاهيم الكرامة .

وقطب انسيلمو جبينه في الظلام . وقبل ساعة ، لم يكن يتصور قط ان في وسعه ان يتسم من جديد .. يا له من اعجوبة هذا الانسان ، فيرناندو

فقال لفيرناندو - اجل . يجب ان نعلمهم . يجب ان نستولي على طائراتهم واسلحتهم الاوتوماتيكية ، ودباباتهم ومدافعهم ، وان نعلمهم الكرامة .

- تماما . انا سعيد لموافقتك .

وتركه انسيلمو واقفا وحده بكبريائه في الظلام ومضى هابطا الى الكهف.



ووجد انسيلمو ، روبرت جالسا الى المائدة داخل الكهف ، وامامه بابلو . وكان بينهما وعاء امتلأ بالخمير ، وامام كل منهما كأس مترعة . ورأى ان روبرت يحمل قلمه بيده ، وقد اخرج دفتره امامه . اما بيلار وماريا فكانتا في مؤخرة الكهف . ولم يكن انسيلمو يعرف ان بيلار ، احتفظت بالفتاة هناك لتحول بينها وبين سماع ما يتحدث به الرجلان ، وخيل اليه ان من الغرابة بمكان ، ان لا تكون بيلار معهما على المائدة .

ورفع روبرت بصره عندما دخل انسيلمو ، بعد ان رفع الستارة عن مدخل الكهف . اما بابلو ، فقد ظل محمقا ببصره الى الامام ، يتطلع الى وعاء الخمير دون ان يراه .

وقال انسيلمو - لقد اتيت من الطريق العلوي ..

فقال روبرت .. اخبرنا بابلو كل شيء .

- كان هناك ستة من القتلى على الجبل ، وقد قطعوا رؤوسهم . وقد رايتهم في الظلام .

فاحني روبرت راسه . وجلس بابلو في مكانه لا ينس بينت شفة . ولم

يبدو على وجهه أي تعبير ، وإنما ظلت عيناه تحمقان في وعاء الخمر ، وكأنه لم ير وعاء من قبل .

فقال روبرت جوردان لانسيلمو - اجلس .

وجلس الرجل المعجوز الى المائدة ، ومد روبرت يده فحمل الزجاجة الويسكي التي كان قد اهداه اياها سوردو . كانت الزجاجة لا تزال مملوءة حتى نصفها . ومد روبرت يده فتناول قدحا ، وصب من الزجاجة فيه ثم ناوله لانسيلمو قائلا .. اشرب هذا ايها المعجوز .

ورفع بابلو بصره عن وعاء الخمر ، وتطلع الى وجه انسيلمو وهو يحتسي الويسكي ثم عاد الى نظرتة الذاهلة .

واحس انسيلمو وهو يبتلع الويسكي بشيء يحرق انفه وعينيه وفمه ، ثم احس بدفء لذيذ في معدته . ومسح شفثيه بمؤخرة يده .. وتطلع الى روبرت قائلا .. افني وسمي ان اتناول كاسا اخرى ؟

- طبعا .. وصب له روبرت قدحا ثانيا .

ولم يحس انسيلمو بالنار تحرقه هذه المرة ، وإنما احس بالدفء الشديد يتضاعف . وتطلع المعجوز الى الزجاجة ثانية .. فقال روبرت .. البقية للغد .. ماذا حدث على الطريق ايها المعجوز ؟

- كانت هناك حركة ضخمة . وقد دونتها كلها كما علمتني . وقد اوكلت امر المراقبة الى امرأة من جماعتنا ، وساعدوا اليها لآخذ تقريرها .

- وهل رايت مدافع مضادة للدبابات ؟ هذه المدافع التي تحملها عجلات ولها فوهات طويلة ؟

- اجل . مرت اربع شاحنات على الطريق ، في كل منها مدفع من هذا النوع وقد غطوها باغصان الصنوبر . وفي كل شاحنة ستة رجال ، ومع كل منهم بندقيته .

- اربعة مدافع ؟

- اجل اربعة .

- قل لي ، وماذا مر على الطريق ايضا ؟

وشرع انسيلمو ينقل اليه كل ما رآه على الطريق ، من البدابة حتى النهاية ، مستعينا بذاكرته الممتازة ، وهي الذاكرة التي يعتمد عليها كل من يجهلون القراءة والكتابة ، وفي غضون ذلك ، مد بابلو يده فعلاً لنفسه قدحا آخر من الخمر .

ومضى انسيلمو يقول .. وكان هناك الفرسان الذين وصلوا الى لاغرانجا من المنطقة الجبلية ، حيث قاتل ايل سوردو .. ثم ذكر له عدد الجرحى الذين رأهم وعدد القتلى .. ومضى يقول .. وكانت هناك ربطات لم اعرف محتوياتها اولا ، ولكنني عرفتھا فيما بعد . لقد كانت الرؤوس . كانت القوة سرية من الخيالة ، لم يبق فيها الا ضابط واحد . ولم يكن الضابط الذي رأيناه في الصباح . عندما وصلوا الى هنا . لا ريب في ان ذلك قد قتل . وقد رأيت بين القتلى ضابطين ، ورأيت مدفع سوردو الرشاش .. هذا كل شيء .

- يكفي .. ولكن قل لي ، من سبق له من جماعتنا ، ان مر بالخطوط .

- اندريه وايلاديو .

- ايهما الافضل ؟

- اندريه .

- كم يحمله الوصول الى نافاسيرادا من الوقت ؟

- اذا لم يكن يحمل شيئاً وكان حذراً ، فانه يستطيع الوصول في ثلاث ساعات . اما نحن فقد سلكننا طريقاً اطول ، ولكنها اكثر أمناً بسبب ما نحمله .

- انت واتي من انه يستطيع القيام بالرحلة ؟

١ - ليس هناك من شيء مؤكد .

- حتى ولا انت ايضا ؟

ولا انا .

وقال روبرت يحدث نفسه .. هذا هو القرار ، لو قال انه يستطيع القيام بالرحلة بكل تأكيد ، لما توانى عن ارساله .

- اذن هل فى وسع أندريه ان يصل الى هناك بنفس سرعتك ؟

- قد يكون أسرع منى ، فهو اكثر شبابا .

- ولكن يجب ان تصل هذه الرسالة الى هناك .

- اذا لم يحدث له شيء فسيصل . اما اذا حدث شيء ، فان ما يحدث قد يقع لكل انسان .

- اذن سأكتب رسالة ، وابعث بها معه . سأشرح له اين يجد الجنرال سيكون فى مقر قائد الفرقة .

- انه لن يفهم اى شيء عن الفرق . فطالما كان هذا الموضوع يربكنى . يجب ان تعطيه اسم الجنرال وان تبين له اين يلقيه .

- ولكنه سيبحث عليه فى مقر قائد الفرقة .

- ولكن هل هذا اسم مكان ؟

- طبعا ايها العجوز . انه المكان الذي اختاره الجنرال . انه المكان الذي قرر ان يجعل منه مقر قيادته للمعركة المقبلة .

وقال انسيلمو ، وقد بدا الاعياء عليه بحيث ظهر بليدا لا يفهم الكلمات .. اذن اين هذا المكان ؟ ان الاصطلاحات تربكه فهو يخلط بين الكتابب والفرق والفيالق . لقد كان أولا الارتال ، ثم جاءت الكتابب فاللوية ثم ظهرت الفرق ..

وقال روبرت .. على رسلك ايها العجوز .. وقد تبين لروبرت ان انسيلمو اذا كان عاجزا عن الفهم ، فسيعجز اندريه كذلك . ومضى يقول .. ان هذا المكان ، هو المقر الذي اختاره الجنرال لقيادة فرقته . والفرقة تتألف من لوائين . وقد يكون المكان كهفا او نفقا او ملجأ .. على اندريه ان يسأل عن الجنرال .. وعن مقره ، وعلى اندريه ان يسلم الرسالة الى الجنرال او الى رئيس اركان حربه او الى شخص آخر ساكتب اسمه . سيكون واحد من الثلاثة هناك حتما ، حتى اذا كان الآخرون قد مضوا للتفتيش على استعدادات الهجوم . افهمت الان ؟

— اجل .

— اذن استدع اندريه ، وساكتب الرسالة الآن ، واختمها بهذا الختم .. واخرج ختمه الرسمي .. وقال .. انهم يحترمون هذا الختم .. استدع اندريه وأشرح له ايضا .. يجب ان يذهب بسرعة ، ولكن عليه ان يفهم اولا — اذا كنت انا قد فهمت ، فسيفهم هو حتما . ولكن يجب ان توضح له ايضا كافيًا ، فموضوع الفرق واركان الحرب لغز بالنسبة الينا . لقد كنت دائما امضي الى مكان معين . الى بيت مثلا . ففي نافاسيرادا ، كانت القيادة في فندق عتيق . اما في غواداراما ، فهي في بيت تحيط به حديقة .

فقال روبرت .. اما بالنسبة الى هذا الجنرال ، فستكون في مكان قريب من الخطوط . ولا ريب في انه مكان تحت الارض لوقايته من الطائرات . وسيتمكن اندريه من العثور عليه بسهولة اذا سال ، واذا عرف كيف يسأل وعليه اولا ان يكشف عن الرسالة التي يحملها . ولكن امض الآن وابحث عنه ، اذ يجب ان تصل هذه الرسالة بسرعة .

وخرج انسيلمو .. وشرغ روبرت يدون في دفتره .

فقال بابلو وهو لا يزال يتطلع الى الوعاء .. اسمع يا انكليزي .

فقال روبرت دون ان يرفع راسه .. انني اكتب الآن .

فعاد بابلو يقول .. اسمع يا انكليزي . لا حاجة بك الى الياس . فبدون

سوردو لدينا عدد كاف من الرجال لاحتلال المراكز ونسف الجسر .

وقال روبرت دون ان يتوقف عن الكتابة . . حسنا .

– لدينا الكثير . لقد اعجبت بصواب احكامك اليوم يا انكليزي . واعتقد ان لديك دماغا كبيرا . وانك اذكى مني . ولذا فقد وضعت تقتي فيك .

وظل روبرت يحصر تفكيره في تقريره الى غولز ، محاولا ان يضعه في اقل ما يمكن من العبارات المقتنعة . انه يحاول اقناعه بالعدول عن الهجوم . موضحا ، ان السبب لا يعود الى خوفه من خطر مهمته . ولكنه يريد ان يبسط له الحقائق كاملة .

وعاد بابلو يقول . . يا انكليزي !

– انني اكتب الان .

وخيل اليه ان واجبه يدعو الى ارسال صورتين من التقرير . ولكن اذا بعث برجلين ، من رجاله ، نقص العدد اللازم للمهمة . . ومضى يحدث نفسه . . ترى لماذا هذا الهجوم ؟ انه قد يكون هجوما يقصد الحيلولة دون هجوم معاد . . او انه قد يستهدف سحب هذه الفرق المعادية الى هذه الجبهة من جبهة اخرى . وقد تكون الغاية منه المجيء بطائرات العدو من الشمال . . ومن المحتمل ان لا تكون القيادة العامة تتوقع له النجاح . ما يدريني ؟ على كل حال ، هذا تقريري الى غولز . انني لن انسف الجسر قبل ان يبدأ الهجوم . فالوامر لدي واضحة . واذا توقف الهجوم ولم يحدث ، لن انسف شيئا . ولكن علي ان احتفظ هنا بأقل عدد ممكن من الرجال ، يكفي لتنفيذ الاوامر .

وقال يسأل بابلو . . ماذا قلت ؟

– قلت انني اثق فيك يا انكليزي .

وفكر روبرت . . كم كنت اتمنى او كانت لي الثقة بنفسى . . ومضى يواصل كتابته .

٣٠

وهكذا تم تلك الليلة ، اعداد كل ما يجب اعداده . وقد اصدر روبرت اوامره كلها . ومضى إندريه في مهمته منذ ثلاث ساعات . وعرف كل انسان واجبه في الصباح . . . وهو لا يدري . . . هل يبدأ الهجوم مع الفجر ، او لا يبدأ . . . لكنه يعتقد انه سيبدأ . . . بهذا كان يحدث نفسه ، وهو يعود من المركز العلوي حيث مضى يتحدث الى بريمتيفو .

وشرع يحدث نفسه . . . ان غولز هو الذي سيقوم بالهجوم ، ولكنه لا يملك صلاحية الغائه . اما اوامر الالغاء فيجب ان تصدر عن مدريد . وليس ثمة مجال ، في ايقاظ احد من نومه في مدريد ، وحتى اذا استيقظوا ، فانهم لن يستطيعوا التفكير تحت وطأة النعاس الشديد . . . وكان علي ان ابعث بتقريري الى غولز قبل هذا الوقت ، ولكن . . . كيف كان في امكاني ان اعرف اي شيء قبل وقوعه ؟ انهم لم ينقلوا هذه المعدات الا بعد هبوط الظلام . ولم يكونوا يرغبون في ان ترى الطائرات شيئا من حركات قواتهم . ولكن ما قصة كل هذه الطائرات الفاشية ؟

ولا ريب في ان جماعتنا ، قد تلقوا اندارا كافيا من هذه الطائرات . . .

ولكن الا يحتمل ان يكون الفاشيون يحاولون تغطية هجوم اخر يشنونه في كوادالاجارا . فهناك كما هو المعروف ، قوات ايطالية كبيرة محتشدة في سوريا وفي سيغونيزا ، بالاضافة الى تلك العاملة في الشمال . وليس في وسعهم ان يشنوا هجوما كبيرا في آن واحد ، اذ يفتقرون الى الجنود والى المعدات اللازمة .. هذا مستحيل .. اذن فلا ريب في انها خدعة .

ولكننا نعرف عدد القوات الإيطالية التي نزلت الى البر في قادش في هذا الشهر والشهر الذي سبقه .. وقد يحاول الفاشيون الكر من جديد في كوادالاجارا ، في خطة لا تنطوي على السخف كخطتهم السابقة . وفي وسعهم ان يقوموا بهجوم ناجح هناك ، فقد افهمه هانس هذا الاحتمال . وقد اترفوا الكثير من الاخطاء في المرة السابقة . وكان الهجوم في مجموعته فاشلا ، ولكنهم لم يستخدموا نفس القوات التي استخدموها في هجوم ارغاندا ، على طريق مدريد - فالانسيا . اذن لم يحاولوا هذا الهجوم في نفس الوقت . لم ؟ متى نعرف ؟!

ومع ذلك فقد تمكنا من صدهم في المرتين بنفس ما نملكه من قوات . ولو شنوا الهجومين في وقت واحد لما تمكنا من صدهم .. ولكن لم اقلق انا .. انظر الى المعجزة السابقة . وعليك اما ان تنسف هذا الجسر في الصباح او لا تنسفه . وقد تنسفه في يوم آخر او لا تنسفه ابدا ، فقد تضطر الى نسف جسر آخر . وانت لست الذي تقرر .. وانما تنفذ الاوامر .. اذن فعليك ان تنفذ دون ان تفكر بما وراء هذه الاوامر .

والاوامر لديك الآن واضحة كل الوضوح . اجل انها واضحة .. ولكن لا تجزع ولا تخف .. اذ ان عدوى الخوف قد تنتقل الى من يعملون معك ،

ولكن قصة هذه الرؤوس التي قطعوها .. والرجل العجوز .. يصل بمفرده الى القمة ، ليرى اجسادا بلا رؤوس . هل كان هذا المنظر يعجبك لو وقعت عينك عليه ! لقد اثر عليك هذا ، اجل لقد اثر عليك . وقد تأثرت

اليوم اكثر من مرة . ومع ذلك فقد سلكت حتى الآن سلوكا ممتازا . لقد سلكت حتى الان على ما يرام .

ومضى بضحك .. انك تصلح معيدا للاسبانية في جامعة مونتانا . ولا ريب في انك تتقن هذا العمل . ولكن لا تفكر ، بانك شيء غريب . فانت لم تمض بعيدا في عملك هذا .. وهل تذكر دوران .. الذي لم يتلق اي تدريب عسكري ، وكان ملحنا موسيقيا قبل بدء الحركة .. وقد غدا الآن قائدا ممتازا .. فقد كان من السهل على دوران ان يتعلم كما يتعلم لاعب الشطرنج حل احجية .. وانت . لقد درست فن الحرب منذ كنت صبيا ، وكان جدك قد لفتك دروسا عن الحرب الاهلية الامريكية .. آه لقد تذكرت دوران . وكم يكون رائعا لو رأيت من جديد .. لا ريب في انك ستراه في جيلورد بعد ان تنتهي من موضوع الجسر هذا .. اجل بعد ان تنتهي . لتري ما حققه من اعمال .

اجل ساره في جيلورد ، بعد ان انتهي . ولكن لا تخدع نفسك ، انك ستستجز عملك وتتقنه ، دون ان تخدع نفسك . وقد لا ترى دوران ثانية . ولكن هل رؤية دوران امر مهم .. دع عنك هذه الخيالات ولا تتعلق بمثل هذه التفاهات .

ثم دع عنك هذه العزلة البطولية ايضا ، فنحن لسنا بحاجة الى رجال يحملون مثل هذه الافكار في هذه الجبال . لقد حارب جدك اربع سنوات في الحرب الاهلية ، وها انت تنهي السنة الاولى من حرك هنا الآن . وما زال امامك وقت طويل تقضيه ، وانت لائق تماما لهذا العمل . وهناك ماريامعك الان . لقد تم لك كل شيء . فعليك ان لا تجعل القلق رائدك . فما قيمة احتكاك بسيط بين عصابة من الثائرين وسرية من الفرسان ؟ انها لا شيء في مقياس الحروب . وماذا يضيرك اذا كانوا قد قطعوا الرؤوس ؟ فهل يزعجك هذا ؟ يجب ان لا تهتم به مطلقا .

كان الهنود الحمر يقطعون الرؤوس أيضا عندما كان جدك يحارب في الحرب الاهلية . او لا تذكر الخزانة الموجودة في مكتب والدك ، وما فيها من اثار تلك الحرب من رؤوس السهام ، ورياش كانت على الهنود الحمر ، واقواس وغير ذلك من وسائل الحرب البدائية عند الهنود .

لماذا تتذكر هذه الاشياء ؟ كان اعليك ان تذكر اشياء اخرى اكثر دقة وعملية . او لا تذكر سيف جدك الابيض الصقيل في غمده ، وقد رق طرفه من كثرة استعماله . او تذكر بنذقية جدك ومسده . لقد كان هذا المسدس اروع ما امسكت به يدك من سلاح ، على الرغم من قدمه واهترائه « ماسورته »

وكان في وسعك دائما ، ان تأخذ المسدس من الدرج وان تمسك به فيقول لك جدك .. امسكه بحرية وانطلق .. ولكن لم يكن في وسعك ان تلهو به لأنه كان سلاحا خطيرا .

وقد سألت جدك ذات مرة ، اذا كان قد قتل انسانا بهذا المسدس فكان رده بالإيجاب . وعندما سألته ان يحدد الوقت ، قال « في حرب الثورة وبعدها » . فقلت لجدك .. اولا تروي لي القصة يا جدي ؟ قال : لا يهمني الحديث عنها يا روبرت :

وبعد ان قتل والدك نفسه بهذا المسدس ، وعدت الي بيتك من المدرسة ، ومضيت مع الجثمان الي مقره الاخير ، ثم رجعت الي البيت ، اعاد لك قاضي التحقيق المسدس وهو يقول .. اظنك يا بوب تريد الاحتفاظ بالمسدس . ان الواجب كان يحتم علي الاحتفاظ به ، ولكن والدك كان يعتز به فهو من مخلفات ابيه الذي استخدمه في حروبه . ياله من سلاح . لقد جربته الليلة . وهي ما زال صالحا للاستعمال .

الا تذكر انك اعدت المسدس الي موضعه في الدرج ، ولكنك عدت فحملته عندما مضيت مع احد رفاقك الي الهضبة التي لا ينقطع الثلج عنها ابدا . وفيها مسنقع كبير .. او لا تذكر انك اخذت المسدس ووقفت على طرف

البحيرة تتطلع الى صورتك في الماء وانت تحمل المسدس ، ثم اسقطته في الماء . لترى الدوائر التي احدثها سقوطه . . وقال لك صاحبك . . انا اعرف يا بوب ، لماذا قذفت بالمسدس . . فرددت عليه قائلاً من الخير ان لا نتحدث عن هذا الموضوع ثانية .

ترى . . ماذا يفكر جدك ، لو عاش الآن . وعرف ما فعلته بأسلحته التي لم يبق منها الا سيفه . لقد كان جدك جندياً من خيرة الجنود . . وهذا ما يقوله جميع الناس عنه . .

آه . . كم اود لو كان جدي هنا في مكاني . . ولكن قد التقى به ليلة غد . . هذا اذا صبح ان هناك حياة اخرى كما يقولون ، وان كنت وانقا ، ان ليست هناك مثل هذه الحياة . . ولكنني اود الحديث اليه . فهناك الكثير من المسائل التي اود سؤاله عنها . ومن حقي ان اسأله عنها الآن ، بعد ان اصبحت اقوم بنفسى بما كان يقوم به من عمل . ولا ريب عندي في انه لن يكثر اذا ما سألته الان . اما من قبل فلم يكن لي حق في مثل هذه الاسئلة وقد كنت افهم ، ان لا يرد علي ، لانه لا يعرفني . اما الآن فسنبسح صديقين حتما . . آه كم بودي لو تحدثت اليه الان وسألته المشورة . حتى ولو لم اسأله المشورة ، فاني ارغب في الحديث اليه . . ولعل من العار ، ان تكون مثل هذه القفزات في الزمن بين رجلين . . من طراز كطرازي وطراز جدي .

وبينما مضى روبرت في مثل هذه الافكار ، ادرك ، انه اذا قدر له لقاء جده ، فانهما معا ، سينزعجان من حضور والده هذا اللقاء . . ولكن من حق كل انسان ان يحضر هذا اللقاء ، وان كان مثل هذا الحق امر سيء للغاية . . ثم راح يقول . . وانني افهم هذه الحقيقة ، ولكنني لا اوافق عليها . . فقد يحدث تأخير في موعد اللقاء . . اجل يجب ان يحدث . وهذا مما افهمه . . اجل . . ولكنك مشغول بنفسك الى الحد الذي لا تستطيع ان تقوم فيه بعمل كهذا .

آه ، يا للجحيم ، كم كنت اود ان يكون جدي هنا . ولو لمدة ساعة على

الاقبل . ولعله قد بعث لي بما احمله من مواهب عن طريق ذلك الرجل ،
الذي اساء استعمال البندقية . ولعل هذا هو الاتصال الوحيد الذي قام
بيننا . . ولكن لم لا يطول الزمن فاتعلم منه اشياء كثيرة غير التي تعلمتها
من ذلك . . ثم ذلك الخوف الذي شعر به جدي في البداية . قبل ان يقضى
تلك السنوات الاربع في القتال ، قد انتقل عبر ذلك الوسيط ، لكن العصارة
الطيبة من شجاعته قد انتقلت الي ايضا عن طريق ذلك الجبان .

وانني لن انسى ما شعرت به من الم عندما عرفت انه جيان . . اجل
فلقد جئت من جبان ، اما هو ، فلم يجرى من جيان . لقد كان جباننا وهذا
اسوا ما يمكن للانسان ان يتصف به من صفات . ولو لم يكن جباننا لصمد
لتلك المرأة ، ولم يدعها تخدعه . . ترى كيف كنت سأكون ، لو تزوج امرأة
مختلفة . . هذا شيء لن اعرفه قط . . ولكن لم كل هذا الحديث الان ،
عن العصارة الطيبة وما شابه ذلك ، قبل ان تنتهي من مهمتك في الغد .
لا تتعجل الامور يا هذا . . وانتظر حتى الغد ، لترى اية عصارة تملكها حقا

وعاد يفكر بجده من جديد . . لقد قال له ذات مرة . . اسمع يا روبرت .
ان جورج كاسترو لم يكن قائدا بارزا من قادة الفرسان ، بل لم يكن رجلا
ذكيا بالمرّة . . ولكنه كان قادرا على الخلاص من الورطات دائما . . واخيرا
وقع في ورطة ولم يستطع النجاة منها . اما فيل شيريدان فقد كان رجلا
ذكيا وكذلك كان جيب ستيوارت . اما جون موسبي ، فقد كان اروع
قائد للفرسان وجد حتى الآن . .

ومضى روبرت يحدث نفسه . . علي ان احدث غولز عن جدي . لا ريب
في انه لم يسمع به قط . ولعله لم يسمع ابدا بجون موسبي . امّا
البريطانيون فقد سمعوا بهما حتما ، اذ انهم كانوا اكثر اهتماما باحداث
حربنا الاهلية من غيرهم من الاوروبيين . ولقد قال كاركون : ان في وسعي
بعد انتهاء هذه الحرب ان امضي الى مؤسسة لينين في موسكو ، اذا رغبت

في ذلك . وقال لي ايضا ، ان في رسمي دخول الكلية العسكرية التابعة للجيش الاحمر . . . لا ادري ماذا يرى جدي في هذا الموضوع ، وهو الجدل الذي لم يتنازل قط في حياته ، ان يجلس مع اي ديمر قراطي على مائدة واحسده .

حسنا انني لا اريد ان اكون جنديا . وهذا ما اعرفه تماما . اذن فلنتترك هذا الموضوع بصورة نهائية . وكل ما اريده هو ان نكسب هذه الحرب . واني لاعتقد ان الجنود الممتازين حقا لا يصلحون لأي شيء آخر ابدا . . . ولكن هل هذا هو الراي الصحيح . . لندرس حياة نابليون وولنتغتون فلماذا ، لا تنفك عن ترديد هذه السخافات ؟

ومن عادة عقلك ، ان يكون رقيقا طيبا . . فما شأنه الليلة . . لقد كان طيبا فقط ، عندما كنت تتحدث عن جدك . ولكن حديثك عن والدك ، قذف بك بعيدا في مهامه الفكر . . لقد فهمت قضية والدك ، وقد غفرت له كل شيء ، واشفقت عليه . ولكنك نخجل منه .

من الخير ان لا تفكر ابدا . . وعمما قريب ستكون مع مارينا ، وستتوقف عن التفكير . وهذا خير حل الان . . وعندما تركز تفكيرك على موضوع من المواضيع ، فانك لا تتوقف ابدا . . ومن الخير ان لا تفكر ابدا

ولكن لم لا تفترض ان الطائرات عندما تقذف بحممها ستحطم تلك المدافع المضادة للدبابات ، وتمضي دبابات غولز في طريقها تشقه امام الإبطال من وحدات اللواء الرابع عشر ، ووحدات لواء دوران ، فتحتل قواتنا سيفوفيا ليلة امس .

ولكن عليك ان تنسف الجسر غدا . ولن يكون هناك تأجيل في موضوعه . ولا ريب في ان افكارك الاخيرة ، هي الصورة الحقيقية للموقف كما هو . . . عليك ان تنسف الجسر مهما حدث لاندرية .

وعندما عاودته هذه الفكرة ، وهو يقطع الجزء الأخير من الطريق ، شعر
بإراحة تعاوده . . فقد اختفى منه ذلك الشعور بالقلق ، وعدم التأكد من
الموعد ، الذي لازمه منذ بعث باندرية الى غولز حاملا اليه تقريره . وقد
اصبح واثقا الآن ان الوليمة المقررة للغد تكفي . . وقال لنفسه . . من
الخير للانسان ان يكون واثقا دائما .



٣١

واجتمعما في الفراش ثانية ، وكانت الساعة متأخرة في الليلة الاخيرة .
وكانت ماريا تكاد تثنق به ، وقد احس بنعومة جدها وهي تلمس جسده
كما شعر بشديها الناهدين وكأنهما تلان صغيران يبرزان فوق السهل
الفسيح المنبسط . ويفصل بينهما واد ، بينما يمتد وراءهما ريف فسيح
هو عنقها ، الذي الصق شفثيه به . يقبله ذات اليمين وذات الشمال .
وكان يستلقي الى جانبها هادئا دون ان يفكر بشيء ، فربتت على راسه
بيدها .. وهي تقول .. اذ تقبله بنعومة .. روبرتو .. انني خجلة ..
فانا لا اريد ان اخيب املك الليلة ، ولكنني اشعر بمغض شديد والم كبير
.. ولا اعتقد انني اصلح لك الليلة .

– ولكن المغص والالم موجودان دائما . لا يا ارنيتي . هذا لا يهم . فلن
نعمل شيئا يسبب لك الما .

– ليس هذا ما عنيت يا روبرت . ولكني لا اصلح الليلة لاستقبالك
كما ارشد .

– هذا ليس بالأمر المهم ، وانما هو شيء عارض . فنحن معا ما دمنا
الى جانب بعض .

- أجل ولكنني خجلة . واعتقد ان هذا الالم ناجم عما فعله بي الوحوش ،
لا مما حدث بيني وبينك .

- اتركني هذا الموضوع .

- لا اريد الحديث فيه . ولكنني اشعر بأني عاجزة عن ارضائك الليلة .
فأردت الاعتذار اليك .

- اسمعي يا ارنيتي ، تمر جميع هذه الامور ، ولا يبقى منها اية مشكلة
.. ولكنه فكر قليلا .. وخيل اليه ان ما قالته ليس بالفعال الطيب في الليلة
الاخيرة .. واحس بالخجل من نفسه .. وعاد يقول .. نامي الى جانبي
يا ارنيتي ، انني احبك ، سواء كنت تنامين الى جانبي في هدأة الليل ،
او كنا نمارس عبادة الحب معا .

- ولكنني خجلة جدا ، فقد ظننت انه سيبحدث لنا الليلة ، ما حدث لنا
على الجبل ، عندما كنا عند سورودو .

- ماذا تعنين ، ليس المهم ان نمارس الحب كل يوم . فانا احبك هكذا ،
كما لو كنا نعيد الحب معا . اذن فسنتنام هادئين . دعينا نتحدث السي
بعضنا . فانا لا اعرفك من حديثك الا بعض المعرفة .

- هل نتحدث عن الفد وعن عملك ؟ اريد ان افهم عملك .

فقال وقد استرخى بجسمه واركن وجنته الى كتفها ووضع ذراعه
اليسرى تحت رأسها .. لا ، ان خير ما نفعله ، هو ان لا نتحدث عن
الفد ، وعما وقع الليلة . فنحن في هذا لن نثير موضوع خسارتنا ، ولا
موضوع ما سنفعله غدا . هل انت خائفة ؟

- خائفة ؟ انا دائما خائفة . ولكنني الآن اخاف عليك كثيرا . حتى انني
بت لا اخشى شيئا على نفسي .

وقال وهو يكذب عليها - عليك ان لا تخافي يا ارنبة . لقد مررت
بمخاطر كثيرة اسوا من هذه المخاطرة .

واسر فجاء بالرغبة في الاذعان لغير الواقع فعاد .. دعينا نتحدث عن
مدريد وعن حياتنا في مدريد .

— حسنا .. ولكن انا آسفة يا روبرتو ، انني خيبت ظنك الليلة . اليس
في وسعي ان افعل شيئا آخر لك ؟

وربت على رأسها وقبلها ، ثم استلقى مسترخيا الى جانبها وهو يصفي
الى هدأة الليل .. وقال يحدث نفسه .. لن تستطيع الحديث عن مدريد ،
وعليك ان تترك كل مدخر في نفسك للغد . فأنت في حاجة اليه الغد . اجلي
ستكون بحاجة الى كل شيء غدا .. فمن هو ذلك الذي قذف ببذرته على
الارض في التوراة ؟ انه يونان . ولكن كيف انتهى يونان . انا لا اذكر انني
سمعت شيئا آخر عن يونان .

وعاد يذعن من جديد ، وهو يحس بالرغبة الحارقة في الاذعان لغير
الواقع ، وكأنه خاضع لشعور جنسي عارم يدعو الى قبول اي شيء ، في
الوقت الذي لا يحس فيه الا بما ينطوي عليه القبول من لذة .. وقال ..
اسمعي يا حبيبتني .. لقد كنت افكر تلك الليلة في مدريد .. وكيف سنمضي
اليها ، واترك في الفندق ، لامضي فأقابل الروس في الفندق . ولكن هذا
محال ، فلن اترك في اي فندق .

— ولكن لم لا ؟

— لانني سأعني بك . لن اترك ابدا . وسامضي معك الى سيغويرداد
للحصول على بعض الاوراق ، ثم نذهب لتبتاع بعض الملابس الضرورية .
— انها قليلة ، وفي وسعي ان ابتاعها .

— لا ، انها كثيرة ، وسنمضي معا لشرائها . من اجود الانواع ، وستبدين
جميلة فيها .

— اوثر ان نظل في الفندق ، ونبعث في طلب الملابس . اين الفندق ؟

- انه في ميدان كلاو . سنكون دائما في الغرفة معا في الفندق . ففيها سرير ابيض وعليه ملاءات ناصعة البياض ، وفي الغرفة ماء جار ساخن ، وخزانتان ، اضع في احدهما ملابسني ، وتضعين في الاخرى ملابسك . وللغرفة نوافذ طويلة واسعة ، اما في الخارج فالشوارع حيث يوجد الربيع واعرف اماكن طيبة نستطيع ان نأكل فيها احسن الطعام باسعار السوق السوداء . واعرف حوانيت لا يزال فيها التبيذ والويسكي . وبالطبع ، سنحشد في غرفتنا الكثير مما يؤكل ، وكذلك الويسكي ، وبعض الشراب لك ، لتأكل ونشرب عندما نريد .

- اود ان اجرب الويسكي ؟

- ولكن لما كان من الصعب الحصول عليه ، وأذا كنت تحبين الشراب الخفيف .

- دع الويسكي لك يا روبرت . آه . كم احبك ، اجل احبك واحب الويسكي الذي لا تسمح لي بشربه . يا لك من خنزير .

- لا ، سأسمح لك بأن تجربيه . ولكنه لا يصلح للنساء .

- اذن فلن تسمح لي الا بما يصلح للنساء . اما في الفراش فسأظل في قميص عرسي .

- لا ، سأشتري لك بعض اردية النوم « والبيجامات » اذا كنت تؤثرينها

- سأبتاع سبع قمصان للعرس . واخذ لكل يوم من ايام الاسبوع . وسأبتاع لك قميصا نظيفا . الا تغسل قميصك يا روبرتو ؟

- احيانا .

- سأترك كل شيء نظيفا لك ، وسأصّب لك الويسكي واصب عليه الماء كما فعلت عند سورودو . وسأحصل لك على الزيتون ، والسّمك المملح ، واللوز ، لتأكلها وانت تشرب وسنظل في الغرفة شهرا لا نغادرها ابدا . .

هذا اذا كنت صالحة .. لاستقبالك جنسيا .

- لا تهتمي بهذا . حقا لا تهتمي به . يبدو انك اصبت بجرح آنذاك ترك
ندبة ، وهذه الندبة ، تسبب لك الالم . وهذا امر ممكن . لكنه شيء عارض
يمر . ثم هناك عدد من خيرة الاطباء في مدريد .

- ولكن لم يكن بي شيء من قبل .

- الا تعرفين الوعد ، بأن يعود كل شيء كما كان .

- اذن دعنا نتحدث عن مدريد .. ووضعت ساقها بين ساقيه واخذت
تمر براسها على كتفه وهي تقول .. ولكن ، ان اكون بشعة بهذا الشعر
المقصود ، او لا تخجل مني هناك ؟

- لا ، انك جميلة . فوجهك جميل ، وجسمك اجمل . وجلدك ناعم من
لون الذهب المحروق ، وسيحاول كل انسان ان يسلبك مني .

- ماذا تعني ! ياخذني منك ! لن يمسنني رجل آخر حتى اموت ..
ياخذني منك !!

- ولكن الكثيرين سيحاولون ، وسترين هذا بنفسك .

- سيرون اني احبك الى الحد الذي يجعلهم يدركون ان محاولة لمسي
اشبه ما تكون بمن يضع يده في وعاء من الرصاص الذائب . ولكن انت ؟
عندما ترى الجميلات الاخريات اللاتي يحملن نفس ثقافتك ؟ ان تخجل
منسي ؟

- ابدا . وسأتزوجك

- اذا رغبت ، ولكن لما كنا ، لا كنيسة لنا ، فهذا امر لا بهمنا .

- ولكنني اريد ان نتزوج

- اذا رغبت . ولكن اسمع . اذا ذهبنا الى بلد آخر ، لا تزال الكنيسة
فيه مكانها ، فبوسعنا ان نتزوج هناك .

- لا تزال الكنيسة قائمة في بلادي . في وسعنا ان نتزوج هناك . فانا لم
بسبق لي الزواج . ولن تكون امامنا اية مشكلة .

- كم يسرني انك لم تتزوج من قبل . ولكن يسرني انك تدرك جميع
تلك الأمور التي حدثتني بها . مما يشير الى انك عرفت الكثير من النساء .
وقد قالت لي بيلار . ان مثل هؤلاء الرجال يصلحون ازواجا . اما بعد
الآن فلن تلحق بنساء اخريات ؟ لانني اموت من غيرتي .

- لم تكن النساء كثيرات في حياتي ؛ ولم اعتقد قبلك . ان يوسعي ان
احب .

- وربت على وجنتيه .. وقالت .. ولكنك عرفت كثيرات ..

- عرفتهن ، لا لأحبهن .

- اسمع .. قالت لي بيلار شيئا ..

- قوله . ما هو .

- لا . من الافضل ان لا اقله . لنعد الى الحديث عن مدريد .

- ماذا كنت تريد ان تقولي ؟

- لا ارجب في ان اقله .

- ربما من الافضل ان تقوله اذا كان هاما .

- وهل تظن انه مهم ؟

- اجل .

- . ولكن كيف بوسعك ان تعرف ، وانت لا تعرف شيئا عنه .

- من طريقة حديثك .

- انني لن اخفيه عنك . لقد قالت بيلار ؛ اننا سنموت جميعا غدا ،

وانك تعرف هذا كما تعرفه هي ؛ ولكنك لا تكثر به . وقد قالت لي هذا

لتعرب عن اعجابها بك لا لتتقذك .

– هل قالت لك هذا؟ .. وقال يحدث نفسه .. يا لها من مجنونة ، ولكن هذه هي طبيعتها الفجرية ، وهذه هي طريقة نساء الشارع والجبنة .. . واحس بالعرق يتصبب منه ثم قال لها .. اذن فقد خفت ؟ ولكن لا تخافي انها عاهرة تؤمن بالخرافات .. دعينا نتحدث عن مدريد ثانية .

– اذن فانت لا تعرف شيئا ممن هذا ؟

– ابدأ . ولا اريد منك ان تنطقي بمثل هذه القذارة .

ولكنه عندما عاد الى الحديث عن مدريد هذه المرة ، لم يعد في حديثه رنة من يصدق نفسه . كان يكذب على فتاته وعلى نفسه في الليلة التي تسبق المعركة ، وكان يدرك هذا . وقد احب هذا الكذب ، ولكن متعة القبول ، زالت من نفسه الآن .. وعاد يقول .. لقد فكرت في موضوع شعرك . وماذا نستطيع ان نفعل به فهو ينمو في جميع اجزاء راسك . وانني ليلذ لي ان المسه بيدي واجبه كثيرا . اذ انه كحقل الحنطة النامية في الريح .

– مر بيدك عليه .

ومر بيده على شعرها ، وتركها قليلا فوقه . ومضى يحدثها .. ولكن في وسعنا ان نذهب في مدريد الى « الحلاق » ، وسيشذبه لك ، تماما كما يشذب شعري في الوقت الذي ينمو فيه .

– اذن سأبدو مثلك تماما .. وآنذاك لن ارجب ابدأ في تبدله .

– لا ، انه سينمو طيلة الوقت . ولكن ما عنيته ان يظل مرتبا انيقا وهو في مرحلة النمو .

– اذن سيصبح طويلا ؟

– لا . ولكنه سيفقدو طويلا حتى كتفيك . وهذا ما احبه ان يكون .

– مثل غاربو على الشاشة ،

– اجل .

واحسن بالرغبة من جديد تداهمه في محاولة تصديق نفسه . وسرعان ما اذعن لها . ومضى يقول . . « وهكذا سيتمد شعرك الى كتفيك ، ويتماوج في نهايته كما يتماوج البحر . وسيكون لونه كلون الحنطة الناضجة . أما وجهك ففي لون الذهب المحروق . بينما عيناك . برموشهما السوداء الطويلة ، براقتان . . فامسك براسك وادفعه الى الوراء ، وانطلق في عينيك وانا اضمك الي . .

– اين ؟

– في كل مكان . حيثما وجدنا . وكم نعتفدين ان نمو شعرك سيستغرق؟
– لا ادري . اذن لم يسبق له ان قطع من قبل . ولكن في ستة اشهر سيصل الى ما تحت اذني ، وفي غضون سنة سيصل الى الحد الذي تحبه ولكن اتعرف ما سيقع اولا ؟

– لا . قل لي .

– سنكون في ذلك السرير النظيف الكبير في غرفتك المشهورة ، فسي ندقنا المشهور ، وسنجلس الى بعضنا في الفراش ، ونتطلع الى المرأة ، فأراك وتراني ، ثم التفت اليك هكذا ، واضع ذراعي حول عنقك على هذا النحو ، ثم اقبلك هكذا . .

وتمددا على السرير ، هادئين ، وقد التصق جسداهما ، وهما يشهدان الليل الساجي على جبهما . . واصر روبرت على الحديث عن جميع تلك الامور التي كان يعرف تماما انها لن تحدث . ومضى في عناد يقول لها . . اسمعي يا ارنيتي . . اننا لن نظل في الفندق الى الابد .

– ولم لا ؟

– في وسعنا ان نأخذ شقة مفروشة في مدريد . وقد كنت اعرف امرأة أمريكية تؤجر بعض الشقق المفروشة قبل الحركة . وسيكون في وسعي الحصول على احداها . وهناك مساكن جميلة تطل على الميدان وحديقته

الفناء بسياجها الحديدي الجميل ، وممراتها ، المفروشة ارضها بالحصى ، ومنبسطانها التي تكسوها الاعشاب ، واشجارها الباسقة . ونافورات المياه فيها وشجيرات الكستناء فيها التي لا بد انها ازدهرت الان . وفي وسعنا ان نتمنى في الحديقة ، وان نجذف في البحيرة اذا كان الماء قد عاد اليها .

– ولم ذهب الماء منها ؟

– لقد جمعوه في شهر تشرين الثاني ، لأن المياه كانت تشير بوضوح لطائرات العدو عندما اناتي لقصف المدينة . ولكنني اعتقد ان الماء قد عاد اليها الآن ، وان كنت غير واثق من ذلك . وحتى لو لم يكن فيها ماء . فان في وسعنا ان نمشي في الحديقة بعيدا عن البحيرة . وهناك جزء منها يشبه الغابة تماما وقد امتلا بالاشجار من كل نوع في العالم وقد كتبت اسمائها على لوحات علقت عليها تدل على نوعها ومنشئها .

– ولكنني احب ان امضي الى السينما فور وصولنا الى مدريد . ومع ذلك فان هذه الاشجار تبدو رائعة . وستعلمني اسماءها .

– انها ليست كالأشجار الموجودة في متحف ، بل هي تنمو نموا طبيعيا ، وهناك تلال في الحديقة . ويشبه احد اجزائها ادغال افريقيا السوداء . وهناك معرض الكتب المستعملة ، منتشرة في الاكشاك العديدة معروضة للبيع ، بعد ان سرقت من البيوت التي نهبت اثناء الغارات الجوية ، او من بيوت الفاشيين . وفي وسعي ان اقضي اياما طويلة وانا بجانب هذه الكتب انطلع اليها ، تماما كما كنت افعل قبل بدء الحركة ، عندما اجد متسعا من الوقت في مدريد .

– وبينما تقوم انت بزيارة المعرض ، سأشتغل انا في اعداد شقتنا . قل لي ، ايتوفر لنا المال للحصول على خادمة ؟

– طبعا في وسعي ان آخذ بيترا الموجودة في الفندق اذا كانت ترضيك . انها تتقن العظمي ، وهي نظيفة جدا . وقد اكلت هناك مع عدد من الصحفيين

الذين تتولى الطبخ لهم ، ولديهم افران كهربائية في مساكنهم .

— اذا كنت نريدها . فسنأخذها . والا فسأعثر على واحدة اخرى :
ولكن لن تكون بعيدا كثيرا عني بسبب اعمالك ؟ بالطبع لن يسمحوا لي ان
اذهب معك في مهمات كهذه ؟

— قد اعثر على عمل في مدريد . وقد مضى علي وقت طويل وانا في هذا
العمل ، كما اشتركت في الحرب منذ بدء الحركة . ومن المحتمل : ان يعهدوا
الي الآن بعمل في مدريد . انني لم اطلب منهم ذلك حتى الان . فقد كنت
اعمل دائما اما في الجبهة او في مثل هذه المهام .

اتعرفين انني الي ان لقيتك ، ما كنت اطلب شيئا ، ولا اريد شيئا ابدا .
ولم اكن افكر بأي شيء سوى بالحركة ، وبكسب هذه الحرب . حقا لقد
كنت ظاهرا دائما في جميع مطامحي . وقد جاهدت كثيرا . . ولكنني الان
احبك . . وحيي لك ، يبلغ حبي لكل ما نعارض من اجله . اجل احبك كما
احب الحرية والكرامة ، وحق جميع الناس في العمل والامان من الجوع .
انني احبك كما احببت مدريد التي دافعنا عنها ، وكما احببت جميع
الرفاق الذين قضوا نجبهم دفاعا عنها . ولقد مات منهم الكثيرون . . اجل
الكثيرون . وليس في وسعك ان تتصورى عددهم . . ولكنني احبك كما
احب اكثر شيء اتعلق به في العالم واكثر . احبك كثيرا يا ارنيتي . احبك
اكثر مما استطيع قوله . ولكنني افصح لك الان عن حبي لانقل اليك بعضه
لم تكن لي قط زوجة في حياتي . وها انت قد غدوت زوجتي ، واصبحت
سعيدا كل السعادة .

— ساكون خير زوجة لك يا روبرتو . طبعاً لست مدربة او متعلمة ،
ولكنني سأحاول ما وسعني الجهد ، ان اسد هذا النقص . فاذا عشنا في
مدريد ، فهذا خير ، وان قدر لنا ان نعيش في مكان آخر ، فهذا حسن
ايضا . واذا لم يكن لنا بيت وكان في وسعي ان اصحبك ، فهذا انفع وابقى
واذا ذهبنا الي بلادك فسأتعلم الانكليزية ، واتحدث بها كما يتحدث الانكليز

وسأتعلم عادات بلادكم ؛ فاعمل كما يعملون .

– لا ريب في أنك ستكونين مضحكة .

– طبعاً . سأرتكب هفوات ، ولكنك سترشدني ؛ ولن أعود الى الخطأ ثانية ، وإذا عدت ثانية فلن أعود نالثة . وإذا كنت وحيداً في بلادك فساطهي لك طعامك . وسأذهب الى المدرسة لاتعلم كيف اصبح زوجة مثالية ، هذا اذا كانت هناك مثل هذه المدارس .

– طبعاً هناك مثل هذه المدارس . ولكنك لست بحاجة اليها .

– لقد قالت لي بيلار . ان هذه المدارس موجودة في بلادك وقد قرأت عنها في إحدى المجلات . وقد قالت لي ابضا أن علي أن اتعلم الانكليزية ، وان أجيدها حتى لا تخجل مني .

– منى قالت لك ذلك ؟

– اليوم ؛ عندما كنا نحزم امتعتنا . وفي الحال اخذت تحدثني عما يجب أن افعله لأعدو زوجتك .

وقال روبرت لنفسه . . . لا ريب في انها تريد الذهاب الى مدريد ايضاً .
ثم عاد يسأل ماري . . وماذا قالت لك ايضاً ؟

– قالت ان علي ان اعني بجسدي ، واهتم بقوامي وكأني مصارعة ثيران
وقالت ان هذا امر في منتهى الاهمية .

– حقاً انه موضوع مهم ، ولكنه لن يقلقك لعدة سنين قادمة ،

– لا . فقد قالت ان السمنة تداهم النساء الاسبانيات فجأة . وقد حدثتني انها كانت في يوم ما في مثل قوامي ، ولكن النساء آنذاك لم يكن يعرفن التمارين الرياضية . وقد علمتني التمارين التي يجب ان اقوم بها ، كما نصحتني بعدم الاكثار من الاكل ؛ وارشدتني الى الاطعمة التي يجب ان لا آكلها . ولكني نسيت كل ذلك ، وعلي ان أعود الى سؤالها .

- عليك ان لا تاكلي البطاطا .

- اجل البطاطا ، والامور المقلية . وعندما حدثتها عن هذا الالم ، نصحتني بتحملة وان لا اخبرك عنه . ولكنني اخبرتك لانني لا اريد قط ان اكذب عليك . ولانني خفت ان تعتقد انني لا اشاركك لذتك ، على النحو الذي شاركتك اياها عندما كنا على الجبل .

- كان جيلا منك انك قد ابلغتني .

- احقا ؟ انني خجلة منك ، وعلى استعداد لعمل ما تشتهي . لقد حدثتني بيلار عن اشياء يمكن للمرأة ان تعملها لزوجها .

- ليس ثمة من حاجة لعمل اي شيء . فما نعمله ، نعمله معا ، ونحتفظ به معا . وكل ما احبه منك هو ان تنامي الى جانبي ، وان المسك بيدي ، وان احس حقا انك معي . . وعندما تصبحين قادرة ، سيكون لنا كل شيء

- ولكن اليست لديك من ضرورات استطيع ان البيها لك ؟ لقد اوضحت لي ذلك .

- لا . سنلبي ضروراتنا معا . فليست لدي ضرورات منفصلة عنك .
- هذا افضل لي . ولكن عليك ان تفهم دائما انني على استعداد لتلبية جميع رغباتك . وعليك ايضا ان تبلغني ما تريد فانا جاهلة ، ولم افهم الكثير مما علمتنيه . كنت خجلة من ان اعيد عليها السؤال ، وهي تتمتع بحكمة عظيمة .

- انك رائعة يا ارنيتي .

- ولكنني احاول ان اتعلم كل ما يمت الى الزواج في يوم واحد ونحن نحزم امتعتنا ، ونستعد للمعركة ، واذا ما اخطات فعليك ان تنبهي الى اخطائي لاني احبك . ومن المحتمل ، انني قد اعي بعض ما قالته بصورة خاطئة ، لا سيما وان بعض ما قالته كان كثير التعقيد .

- وماذا قالت لك ايضا ؟

- لقد قالت لي اشياء كثيرة لم اعد اذكرها . قالت ان بوسعي ان احدثك عما فعله الوحوش بي . اذا عدت لتذكره ؛ لانك رجل طيب . ولانك اصبحت تفهم كل شيء . ولكنها استطردت ان من الافضل ان لا اتحدث عنه الا اذا عاودني السويداء . لان الحديث قد يخفف مما اشعر به .

- وهل لا زلت تشعرين بهذه السويداء؟

- لا ؛ انني اشعر ؛ وكأنها لم تقع لي ابدا . وذلك منذ اللحظة الاولى التي اجتمعت فيها اليك ؛ لكنني لا زلت احس بالالم على والدي . ولكن الانسان يتعرض دائما لمثل هذه الامور . وقد صممت . اعتزازا مني بك . ان البلق كما يجب ان تعرفه . كنت دائما اناضل . وكان رجلان على الاقل يجتمعان علي حتى يستطيعا ان يفعلوا بي شيئا . احدهما يجلس علي رأسي ويمسك بيدي . . . واني اقول لك ذلك حرصا على كبريائك .

- ان كبريائي معك . . دع عنك هذا الحديث .

- لا . انني اتحدث به اليك حتى لا تفقد كبريائك في زوجتك . ثم هناك شيء آخر . لقد كان والدي رئيس بلدية القرية وكان رجلا محترما . وكانت امي سيده فاضلة وكاثوليكية نقية ؛ ولكنهم قتلوها مع ابي . بسبب ميوله السياسية . فقد كان جمهوريا . وقد رأيتهما يقنلان معا ؛ وسمعت والدي يهتف . . تحيا الجمهورية . . وهم يطلقون عليه النار بعد ان اوقفوه على جدار مسلخ القرية .

« وهتفت امي عندما اوقفوها في نفس المكان . . » يعيس روجي الذي كان رئيسا لبلدية القرية . وكنت اتمنى لو قتلوني ايضا ؛ وكنت اعززم ان اهتف بدوري ؛ تحيا الجمهورية ؛ وبعيا والدي . . ولكنهم لم يقتلوني . وانما فعلوا بي ما فعلوه بدلا من القتل .

اسمع سأحدثك عن شيء ؛ ما دام يؤثر علينا . لقد فعلونا نحن اقارب

الذين قتلوهم ، الى ساحة البلدة . وكنا نبكي جميعا تقريبا ، ولكن بعضنا اصابه الوجوم مما وقع ، وجفت الدموع في عيون البعض . ولم استطع انا ان ابكي . ولم استطع ان الالحظ شيئا مما يدور حولنا ، ولم يكن امامي الا صورة ابي وامي وقد وقفا على الجدار . ولم اكن اسمع الا صوت امي وهي تقول .. بحيا زوجي رئيس بلدية هذه القرية .. كان هذا القول يدوي في راسي ، كهتاف لا ينقطع . لان امي لم تكن جمهورية ولم تكن لتهتف تحيا الجمهورية ، وانما تهتف بحياة ابي الذي قتلوه ، والذي انبطح على وجهه عند قدميها .

ولكنها قالت ما قالته بصوت عال وكأنه الزعيق ، ثم اطلقوا عليها النار فقتلوها . وحاولت ان اصل اليها ، ولكنهم كانوا قد احكموا وثاقنا جميعا فلم اتمكن . وقد قام رجال الحرس الوطني باطلاق النار ، وظلوا واقفين ينتظرون صدور الامر اليهم باطلاق النار على آخرين ، ولكن الفلانج .. ابعدوننا ، وتركوا رجال الحرس في مواضعهم ، كما تركوا القتلى في اماكنهم ، وكنا صفا طويلا من النساء والفتيات ، وقد شددنا الى بعضنا بحبال ربطوها في ايدينا ، ومروا بنا في الشوارع الى الميدان ، حيث وقفنا امام حانوت الحلاق .

وتطلع الينا رجلان من الفلانج ، وقال احدهما .. هذه ابنة رئيس البلدية .. لنبدأ بها ..

وقطعوا الحبل المثبت في رسغ يدي ، ودفع بي الرجلان الى حانوت الحلاق حيث اجلسوني الى المقعد . ورايت وجهي في المرآة ، كما رايت وجهه من يمسون بي ، ولم اكن اعرف احدا منهم . وخيل الي انني مريضة في عيادة طبيب للاسنان ، وان عددا من الاطباء يحيط بي وكلهم مسن المجانين . ولم استطع ان اميز نفسي بسبب ما كنت احس به من حزن ، ولكنني رايت وجهي اخيرا فعرفت نفسي . وكان الحزن طاغيا علي حتى انني لم اعرف شعورا آخر الا الحزن .

وكانت لي في ذلك الوقت ضفيرتان من الشعر . ورايت احد الرجلين ،
يرفع احدى الضفيرين فيكاد يخله بما تم حلقها بموساه . ورايت راسي بصفيرة
واحدة ، وبجرح في راسي في المكان الذي كانت فيه الضفيرة الثانية .
وسرعان ما قطع الثانية . وجرحني الموسى في اذني ورايت الدم يتفجر
منها . الا تستطيع ان تلمس الندبة باصبعك ؟

فقال روبرت . . اليس من الافضل ان تكفي عن هذا الكلام ؟

— هذا ليس بشيء اذا ما قيس بما وقع لي فيما بعد . ولكنني لن
احدثك عن الامور السيئة التي حلت بي . وضحك الرجل ، بعد ان قطع
ضفيري بموساه . ثم وقف امامي وضربني في وجهي وهو يقول . . هذه
طريقتنا في تحويل الحمرارات الى راهبات . وسيعلمك هذا كيف ستحدثين
مع اخوانك من العمال . يا عروس المسيح ، المسيح الاحمر .

وضربني ثانية وثالثة في وجهي بالضفيرتين ، ثم وضعهما في فمي
وربطهما حول عنقي ليجعل منهما انشودة ، والجميع يضحكون . . وعندما
رايتهم يضحكون . . شرعت ابكي ، اذ كان الدمع قد تجمد في عيني حتى
تلك اللحظة .

وشرع الرجل يمر « بكلاية » على راسي من جميع نواحيه واطرافه
ووراء اذني ، وانا انظر الى نفسي في المراة ، ولا اصفق ما يقومون به ،
وابكي ثم ابكي ، ولا من مشفق ولا من معين ، فادبر راسي فرعا .

وبعد ان فرغ الرجل من عمله ، تناول زجاجة من « اليود » من الرف ،
وكانوا قد قتلوا الحلاق ، لانه عضو في نقابة ، واخذ يضع « اليود » علي
راسي فاشعر بالنار تحرقني . وبعد ان فرغ شرع يكتب على راسي باليود
حروف (U. H. P.) بشكل بارز ، بينما كنت انا قد توقفت عن البكاء ، اذ
تجمد فؤادي مما حل بي وبامي وابي .

وعندما انتهى من الكتابة ، عاد الفلانجي الى الوراء ليفحص نتيجة
عمله . . وعاد فوضع زجاجة « اليود » وتناول الكلاية ، وقال . . هاتوا

غيرها . . ثم اخرجوني من حانوت الحلاق وهم يمسكون بذراعي ، وكدت اعثر بجثة الحلاق الملقاة على الباب ، وكدت اصطدم بصديقتي غراسيا ، التي كانوا يمسكون بها ليدخلوها الى الحانوت . وعندما راتني لم تعرفني لأول وهلة ، وعندما عرفتني صرخت ، وظللت اسمع صراخها طيلة الوقت الذي كانوا يدفعونني فيه الى الميدان ثم عبرت السلم الى قاعة المدينة والى مكتب والذي حيث قذفوا بي على الاربكة . وشرعوا يعملون بي تلك العملية السيئة .

فقال روبرت وقد ضمها الى صدره برقة وعناية ، وقد غمره شعور من الكراهية . . يا ارنبتي لا تتحدثي اكثر مما تحدثت . لا تقولي لي شيئا فقد بلغت الكراهية عندي ذروتها الان .

وكانت متصلبة بين ذراعيه وقد جمدت اطرافها وقالت . . لا لن اتحدث عن هذه القضية ثانية . ولكنهم في منتهى الوحشية ، وكم اود لو سمحت لي يقتل بعضهم معك . وكل ما قصدته من سردي الغسة عليك انسي اردت ان تشعر بالكبرياء لانني زوجتك ، ولتفهم كل شيء .

– كم يسرني انك حدثتني هذا الحديث ففي الغد ، اذا ساعدنا الحظ سنقتل عددا كبيرا منهم .

– ولكن هل سنقتل من الفلانج ؟ انهم هم الذين عملوا معي كل هذا .
– ان الفلانج لا يحاربون . وانما يقتلون في المؤخرة . وفي المعركة لا يقاتل الفلانج ابدا .

– ولكن اليس في وسعنا ان نقتلهم باي شكل من الاشكال ؟ اريد ان اقتل عددا منهم .

– لقد قتلت منهم عددا ، وسنقتل ايضا . اجل كنا نقتلهم في القطارات .
– اود ان اذهب معك الى احد القطارات . وكنت مجنونة تقريبا في حادث القطار ، الذي انقذتني منه بيلار . هل اخبرتك كيف كنت ؟

- اجل . ارجوك ان تكفي عن هذا الحديث .

- كنت مصابة بتبلد في راسي ، وكل ما افعله هو البكاء . ولكن ثمة شيئا آخر يجب ان احدثك عنه . اجل يجب ان احدثك عنه . فقد تمتنع عن الزواج بي . او ليس في وسعنا يا روبرتو ، ان نظل معا ، حتى اذا لم نترغب في الزواج مني .

- سأتزوج .

- لا . لقد نسيت هذا . وقد تعدل عن الزواج بي اذا عرفته . فمن المحتمل انني لن احمل منك ابدا ولدا او بنتا ، فقد ذكرت لي بيلار ، ان من المستحيل ان احمل بعد ان وقع لي ما وقع .

- هذا ليس بالامر المهم يا ارنيتي . وقد لا يصدق قول بيلار . ان الطبيب هو الذي يقرر هذا الموضوع وحده . ثم اني لا اريد ان آتي بطفل او طفلة الى مثل هذا العالم . واخيرا ، فان حبي سيظل محصورا كله فيك .

- ولكنني احب ان احمل لك ولدا وبنتا . وكيف يمكن ان يكون للعالم صلاح اذا لم يكن فيه اطفال منا نحن الذين نقاتل الفاشيين ؟

- انني احبك ، اتسمعين ؟ والان يجب ان ننام يا ارنبة . اذ يجب علي ان استيقظ قبل الفجر بمدة طويلة ، والفجر يأتي باكرا في هذا الشهر .

- اذن فلا ضير مما حدثتك به .. وهل في وسعنا ان نتزوج ؟

- اننا متزوجان الان . وانت زوجتي . ولكن هيا نامي ياسا ارنيتي ، فالوقت ضيق الان .

- اذن فهل سنتزوج حقا ؟ وهل يكون زواجنا فعلا لا قولاً ؟

- اجل .

- اذن سأنام وسأفكر في هذا اذا استيقظت .

- وانسا كذلك .

- اسعدت مساءً يا زوجي .

- اسعدت مساءً . يا زوجي .

وبدا يسمعها تتنفس بانتظام وهدوء ، وعرفت انها راحت في سبات عميق
اما هو فلم يطف النوم بجفنيه ، وان ظل حريصا على ان لا يوقظها بحركة
تصدر منه . وتصور الجزء الذي لم تسرده عليه من قصتها ، فأحس
بالكراهية وشعر بالرضى ، لان الصباح سيأتي له بمن يقتله من هؤلاء
الوحوش .. ولكنه سرعان ما اخذ يؤكد على نفسه وجوب امتناعها عن
الاشتراك في القتل .

ولكن هل في وسعي ان امتنع عن الاشتراك بعد ما سمعت منها ما سمعت؟
وانا اعرف اننا ارتكبنا معهم ايضا بعض الاعمال المخيفة . ولكننا كنا غير
مثققين ، اما هم ، فيقومون باعمالهم عن سابق قصد وتصميم . والذين
يقومون بهذه الاعمال منهم ، هم آخر الزهرات التي انتجتها ثقافتهم . اجل
انهم زهرات الفروسية الاسبانية . ما اعظم هذا الشعب في ماضيه ..
ولكنه سرعان ما انحدر الى ابناء العواهر من امشبال كورتيز وبيزارو
ومينينديز دي افيللا الى ان وصل الى هنريك ليستر وبابلو . ولكنه مع
ذلك شعب رائع . وليس احسن من هذا الشعب . ومن يستطيع ان
يفهمه ؟ انني لا افهمه . اذ لو فهمته لغفرت له . فالفهم يعني الغفران ..
ولكن هذا ليس صحيحا .. فالغفران فكرة بولغ فيها كسل المبالغة .
والغفران فكرة مسيحية ، ولم تكن اسبانيا في يوم من ايامها بالبلد المسيحي
فقد كان لها دائما الصنم الذي تعبده داخل الكنيسة .. وهذا هو السبب
الذي حدا بهم الى الاعتداء على عذارى اعدائهم . لانهم لا يريدون الاعذار
واحدة . ولا ريب في ان هذه الظاهرة اعمق جذورا في التعصب الديني
المسيحي منها في نفوس ابناء الشعب . وقد الف الشعب الابتعاد عن
الكنيسة لان الكنيسة غدت جزءا من الحكومة ، وهذه في نظرهم رمز للتعفن

فاسبانيا هي البلاد الوحيدة التي لم يصل الاصلاح اليها ، وهما هو الشعب
الاسباني يدفع الان الثمن غاليا ، لما قامت به محاكم التفتيش .

هذا موضوع يستحق التفكير ، وهو خليق بأن يقلقك ، وان يبعد
تفكيرك ، عن عملك . انه اسلم عاقبة من التظاهر . . يا لله ، كم اغرق في
التظاهر هذه الليلة . . وكانت بيلار ، تتظاهر طيلة النهار . اجل . . فماذا
يحدث لو قتلوا غدا ؟ . . وماذا بهم طالما انهم سينفذون مهمة الجسر على
اتم وجه ؟ هذا هو كل ما يجب ان يفعلوه في الغد .

ولكنها تهمة ايضا . فليس في وسع الانسان ان يقوم بمثل هذه الامور
دائما . ولكن هل من المفروض ان تعيش الى ابد الابد . ولربما انحصرت
حياتي كلها في هذه الايام الثلاثة التي عشتها . ولو كان هذا حقا ، كم كان
بودي لو قضينا الليلة الاخيرة في شكل مغاير . ولكن الليالي الاخيرة ليست
طيبة ابدا . وكل شيء في آخره يصبح سيئا . . ولكن الكلمات الاخيرة ، قد
تكون طيبة احيانا . . او لم تكن عبارة « يحيا زوجي الذي كان رئيسا
لبلدية هذه البلدة » عبارة رائعة .

انه يعرف انها كانت عبارة رائعة ، فقد سرى في جسمه تيار الكهرباء
عندما سمعها . . وانحنى على مارييا يقبلها فلم تستيقظ . . وهمس في
اذنها بالانكليزية قائلا . . « اود ان اتزوجك يا ارنيتي . . فانا اشعر بالاعتزاز
باسرتك » .



واكتظ فندق جيلورد في مدريد في تلك الليلة نفسها . بالناس . ووقفت سيارة عند مدخل الفندق ، وهبط منها رجل يرتدي حذاء ركوب اسود ، وسروالا من سراويل الركوب ، وجاكيتة رمادية ، ورد تحية الحارسين الواقفين في الباب ، وحيار رجل البوليس المرى للذي كان جالسا الى مكتب موظف الاستعلامات . ثم استقل المصعد . وكان هناك حارسان في الداخل يجلسان الى مقعدين وقد رفعما بصريهما ، عندما مر بهما الرجل القصير متجها الى باب المصعد . وكانت مهمتهما ان يفتشا جيوب كل من لا يعرفانه ليبحثا عما اذا كان يحمل مسدسا ، ليطلبوا اليه وضعه عند موظف الاستعلامات . ولكنهما كانا يعرفان هذا الرجل القصير الذي مر بهما ، ولم ينظرا اليه .

وعندما دخل الى الشقة التي يعيش فيها في جيلورد ، وجد انها مكتظة بالناس . فقد كان هناك عدد كبير منهم يقفون ويجلسون هنا وهناك ، ويتحدثون وكانهم في اي قاعة ، وكان الرجال والنساء يشربون «الفودكا» والويسكي والصودا والجمعة من الاقداح المترعة المنتشرة على الصحاف . وكان اربعة من الرجال يرتدون البزة العسكرية . بينما كان الآخرون في ملابس عادية تتألف معظمها من الجاكيتات الجلدية ، اما النساء فكان

معظمهم في ازياء عادية بينما لبست واحدة فقط ، الزي العسكري .

وعندما وصل كاركوف الى الغرفة ، مضى فوراً الى المرآة التي تليس
الزي العسكري فأحنى رأسه لها وصافحها . انها زوجته . وقد حدثها
بضع كلمات بالروسية بصوت خافت لم يسمعه انسان ، وسرعان ما
اختفى ما في عينيه من علائم العطرسة . ولكن هذه العلامت عادت اليه عندما
راى وجه عشيقته ذات الشعر الاسمر والوجه التواق الى الحب . ومضى
اليها ، فأحنى رأسه ثم صافحها وكأنه يصافح زوجته . ولم تكن زوجته
تنظر اليه عندما مضى الى عشيقته بل ظلت واقفة مع ضابط اسباني طويل
القامة جميل الصورة ، يتحدثان بالاسبانية .

وقال كاركوف للفتاة .. ان جيبك العظيم ، بدأ يميل الى البدانة . وها
نحن ندخل العام الثاني من الحرب ، واخذ ابطالنا يعملون الى البدانة .

فقال الفتاة وهي تبتسم .. يالك من انسان بشع ، تفار من سلحفاة ..
هل في استطاعتي ان امضي معك الى الهجوم في الغد .
- لا ، ولكن ليس ثمة هجوم .

- كل انسان يعرف بالهجوم .. لا تحاول ان تكون غامضا . ان دولوريس
ذاهبة . ساذهب معها او مع كارمين . وهناك الكثيرون سيذهبون .

فقال كاركوف - اذهبي مع من تشائين . انا لن آخذك .

وعاد يلتفت الى الفتاة ويقول جادا .. ولكن قولي ، من ابلضك ذلك ؟

فقال بكل جد - ريشارد .

وسمع صوت رجل متوسط القامة ذي وجه شاحب .. كاركوف ! هل
سمعت الانباء السارة ؟

ومضى كاركوف الى الرجل فقال هذا له .. لقد سمعت بها الان ، قبل
عشر دقائق . انها انباء رائعة . قضى الفاشيون طيلة النهار ، يحاربون

بعضهم البعض عند سيفروفا . وقد اضطروا لاختام الفتنة الى استعمال الاسلحة الاوتوماتيكية والمدافع الرشاشة . وبعد الظهر بعثوا بالطائرات لتقذف قواتهم بحممها .

– حقا؟

– اجل . وقد جاءت لنا دولوريس نفسها بهذه الانباء . كانت هنا تحمل هذه الانباء ، ورايت على وجهها علائم الفرح الطائي . وكان في وسعك ان ترى الاناء السارة في وجهها . . الوجه العظيم .

وقال كاركوف . . الوجه العظيم . .

– آه لو سمعتها . كانت الانباء تشرق منها والضوء ينبعث منها وكأنه لا يمت الى هذا العالم . وفي وسعك ان تحكم على الصدق في قولها من لهجتها . وبالطبع سأبعث بالقصة الى الازفستيا ، لقد كانت لحظة من أعظم لحظات الحرب عندما استمعت الى التقرير صادرا عن ذلك الصوت العظيم الذي يجمع بين الاشفاق والعطف والصدق . ان الطيبة والصدق ينبعثان من قديس . ولهذا فهي تدعى لا باسيوناريا .

وقال كاركوف بصوت جامد – اجل . من الخير ان تكتب القصة للازفستيا الآن ، قبل ان تنسى مقدمتها الرائعة .

– اسمع ان هذه المرأة ، لا يصح المزاح في موضوعها ، حتى ولا من انسان متشائم مثلك . آه لو كنت هنا واستمعت اليها وهي تتحدث ، ورايت وجهها .

– ذلك الصوت العظيم . ذلك الوجه العظيم . اكتب القصة . ولكن لا تضع وقتك في التحدث الي ، اذهب واكتب ما تشاء .

– لا لن اكتبها الان .

فقال كاركوف . . اعتقد ان من الخير ان تكتبها الان . . واطاعه الرجل فابنلع ما في كأسه من الفودكا وخرج من الغرفة .

ومضى كاركوف الى رجل آخر في نحو الثامنة والاربعين من عمره ، وكان قصير القامة ، بدينا ، ويبدو على وجهه المرح ، مع عينين شاحبتين ، وشعر اشقر خفيف ، وفم دائم الابتسام يفظيه شارب اصفر لامع . وكان هذا الرجل في ملابسه العسكرية . وهو من اصل مجري ويتولى قيادة احدى الفرق .

وقال كاركوف يسأل الرجل . . هل كنت هنا عندما جاءت دولوريس ؟

- اجل .

- ماذا روت ؟

- شيئا عن قتال دار بين الفاشيين . انها قصة رائعة ان صحت .

- هل سمعت كثيرا عما سيحدث غدا ؟

- لا ريب انه من الخزي والعار ان يدور كل هذا اللفظ ومن الواجب قتل جميع الصحفيين ومعظم الموجودين في هذه الغرفة ولا سيما ذلك الالمانى الدساس الذي يدعو نفسه ريتشارد . ومن الواجب اعدام كل من امر باسناد قيادة كتيبة الى هذا الانسان . ولربما كان من الواجب اعدامنا انا وانت ايضا . . وهذا ممكن . . ولكن لا تقترحه .

- انني لا احب الخوض في موضوع كهذا . اتعرف ان ذلك الامريكى الذي ياتي احيانا الى هنا ، موجود هناك . لا ريب انك تعرفه ، جوردان ، الذي يعمل مع مجموعة الفدائيين . انه هناك ، في المكان الذي يقال ان العمل سيقع فيه .

فقال الجنرال . . اذن فسيبعث بتقرير هذا المساء . انهم لا يحبونني هناك ، والا فاني امضي لاعرف لك الحقيقة . انه يعمل مع غولز في هذا الموضوع ، اليس كذلك ؟ لا ريب في أنك سترى غولز غدا ؟

- سأراه في ساعات الصباح الباكر .

- ابعد عن طريقه حتى يسير الهجوم سيرا مرضيا . انه يكرهكم ايها الزناديق كما اكرهكم انا ، وان كان يتميز عني بهدوء الطبع .

- ولكن بصدد هذا ..

- ربما كان الفاشيون يقومون بمناورات . سنرى اذا كان في وسع غولز ان يحملهم على المناورة . على كل حال يجب ان يجرب غولز حظه . فقد سبق لنا ان جربنا حظنا في كوادالاجارا .

فقال كاركوف وهو يتشم . . سمعت انك مسافر أيضا . . ووجأة تار غضب الجنرال . . وقال . . اذن فقد انتقل الحديث الي ، وتناولني ، ان هذه الهمسات والوشوشات لا تنتهي ابدأ . وفي وسع الانسان اذا اغلق فمه ان ينقذ البلاد ، ولكنه لا يخلقه .

- ان صديقك بريمتيفو يحسن اغلاق فمه .

- ولكن لا يستطيع ان يؤمن بالنصر . وكيف يمكن لك ان تنتصر اذا كنت لا تؤمن بالشعب .

فقال كاركوف . . هل قررت هذا ، سامضي الى النوم .

ومضى كاركوف ، تاركا القاعة المأوى بالدخان والشائعات والهمسات ، ودلف الى غرفة نومه واخذ ينزع جزمته وملابسه . وكانت اصوات الجمع الحاشد ما زالت تصل الى آذنيه ، فاغلق الباب وفتح النافذة . . ولم يحاول نزع ملابسه لانه كان في الساعة الثانية سيستقل السيارة السى كوليتار ومنها الى سيرسيديا ، فنافاسيرادا . فالجبهة ، حيث سيشرع غولز في هجومه .

٣٣

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا ، عندما ايقظته بيلار . وعندما لمست يد المرأة ، خيل اليه انها يد ماريا فاستدار اليها وقال . . « يا ارنبة » . ثم هزت المرأة كتفه بيدها الكبيرة ، واستيقظ فجأة ، فوضع يده على مقبض مسدسه ، الذي امدته فورا بالطمأنينة والثقة .

ورأى بيلار في حلقة الدجى ، وتطلع الى ساعته ، فرأى انها الثانية . . وقال ماذا دهالك يا امرأة ؟

– لقد ذهب بابلو .

وارتدى روبرت سراويله وحذاءه . ولم تكن ماريا قد افاقت بعد . . وقال . . متى ؟

– منذ نحو من ساعة .

– وماذا ايضا ؟

فقالت المرأة بيأس مرير . . وقد اخذ بعض متفجراتك .

– اذن . ماذا ؟

– لا ادري . تعال انظر .

وسارا في ظلمة الليل الى مدخل الكهف ، ودلغا اليه . ومضى روبرت
جوردان خلفها ، في هذا الجو العابق برائحة النائمين في الكهف ، وهو يضيء
مصباحه الكهربائي ، حتى لا يدوس بقدميه احد النائمين . وافاق انسيلمو
فقال .. هل حان الوقت ؟

فرد عليه روبرت .. لا . واصل النوم .

وكان الكيسان على مقربة من راس سرير بيلار ، الذي فصلته المراد عن
بقية الكهف بستار اقامته من « البطانيات » . وشم روبرت - رائحة العرق
الجاف وهو يجلس على السرير ، وينظر في داخل الكيسين . وراى شقا
طويلا في كل من الكيسين يمتد من الرأس الى القعر . ومد روبرت يده ،
داخل الكيس الاول ، فراى ان صندوق المتفجرات الخشبي قد اختفى كما
اختفت علبة ألسيكار التي تضم المفرقات . وكذلك اختفى الصندوق
الذي يضم الكبسولات والفتائل .

ومد روبرت يده في الكيس الثاني ، فوجد انه لا يزال مليئا بالمتفجرات .
ولم تنقص منه الا رزمة واحدة .

ووقف مستديرا بوجهه الى المراة . وكان يحس بفراغ في صدره ، يشعر
به كل انسان يرى بانه قد اوقظ قبل الاوان ، وهو نوع من الشعور بالكارثة
ولكنه تضاعف معه عشرات المرات .. وقال .. هل هذا ما تسمينه حراسة
حاجات الانسان .

فقالت بيلار - لقد نمت وقد وضعت رأسي على الكيسين ، ويدي
تلمسهما .

- اذن فقد نمت جيدا ،

- واسمع ، لقد استيقظ في الليل ، فقلت له .. اين تمضى يا بابلو ؟
فقال .. ذاهب الى الخارج لاقضى حاجة يا امرأة .. وعدت الى النوم .
وعندما افقت ثانية لم ادر كم مر من الوقت ، وخيل الي انه قد مضى الى
الحياد ليطمئن عليها كعادته .. وعندما لم يعد ، احسست بالقلق ، فمددت
يدي الى الكيسين احسهما ، فرايت الفراغ ، واتيت اليك .

- تعالي ..

وخرجا الى العراء ، وكان الوقت لا يزال قريبا من منتصف الليل ، ولم تكن تباشير الصباح قد لاحت بعد .

- اني استطاعته المضي بالجياد ، الا عن طريق الحرس ؟

- هناك طريقان .

- من في المركز العلوي ؟

- ايلاديو .

ولم يقل روبرت شيئا الى ان وصلا المرج ، حيث كانت الجياد ، فوجد ثلاثة منها ، اما المهر الكبير ، والمهر الاشهب فقد اختفيا .

- كم مضى من الوقت في رايك منذ تركك ؟

- لا بد ساعة .

- اذن ما وقع قد وقع . سأعود لأخذ ما تبقى في الكيسين واعدود الى النوم .

- ساحرسهما .

- تحرسينهما !! لقد حرستهما مرة .. وفي هذا الكفاية .

- اسمع يا انكليزي ، انني اشعر تجاه هذا الموضوع تماما كما تشعر انت وليس ثمة من شيء استطيع ان اعمله ، لاعيد اليك ما فقدته ، وانتردد في عمله . وليس ثمة من ضرورة لاهانتي . لقد خدعنا بابلو معا وخاننا .

وهنا ادرك روبرت ، انه لا يستطيع ان يكون قاسيا معها ، وانه لا يستطيع ان يخاصمها . فعليه ان يتعاون معها في ذلك اليوم الذي مر منه حتى الان نحو من ساعتين او يزيد .

ووضع يده على كتفها وقال .. لا بأس يا بيلار ، ان ما اخذه ليس بالامر

المهم . وسأبتكر طريقة تعوض علينا ما فقدناه .

– ولكن ماذا اخذ ؟

– لا شيء ، سوى بعض الكماليات التي في وسعنا الاستغناء عنها .

– هل كان ما اخذه جزءاً هاماً من عملية تفجيرك ؟

– اجل . ولكن هناك وسائل اخرى لاكمال التفجير . قولني لي الم يكن

عند بابلو كبسولات وفتائل ؟ لا ريب انهم قد اعطوه مثل هذه .

– لقد اخذها . وقد بحثت عنها مرة فلم اجدها . لقد اخذها .

وعادا يسيران عبر الغابات الى مدخل الكهف . . وقال . . اذهبي ونامي

فمن الخير لنا ان بابلو قد مضى .

– لا ريب في انه ذهب من طريق آخر .

– على اي حال ، سأذهب فقد خدعتك ببلاهي .

– لا ، اذهبي ونامي ، وسنبدا سيرنا في الرابعة .

ومضى معها الى الكهف فحمل الكيسين معا بيديه ، حتى لا يسقط من

الشقين اي شيء . وقالت . . دعني اخطهما .

– قبل ان نسير . . اسمعي لقد حملتهما لا خوفا منك ، ولكن تأكدا مني

حتى انام .

– يجب ان يكونا معي باكرا . . لاخطهما .

– سيكونان معك باكرا . . نامي قليلا .

– لا . لقد الحققت بك وبالجمهورية الاذي .

– فقال لها بركة . . اذهبي ونامي قليلا . .

٣٤

كان الفاشيون يحتلون قمة الجبل هنا . وامام هذا الجبل ، وادلا يحتله أحد ، وليس فيه الا مركز خفارة فاشي . اقاموه في مخزن الغلال في احد المزارع وحصنوه ، كما حصنوا الابنية المجاورة للمخزن . وقام اندريه في طريقه الى غولز حامل رسالة روبرت جوردان بدورة كبيرة حول هذا المركز ليتجنبه . وكان يعرف بوجود سلك متصل بينديقية ، تطلق النار اذا مس السلك انسان ، فتجنبه في الظلام . ومر فوقه ، ثم عبس الجدول الصغير الذي تحيط به اشجار الحور ، التي اهتزت اوراقها مع الريح . وصاح ديك في المزرعة ، وتطلع اندريه عبر جذوع اشجار الحور . فرأى نورا ينبعث من احدى نوافذ المزرعة . وكان الليل هادئا وصافيا . فترك اندريه الجدول ومضى بعبر المرج .

وكانت هناك اربعة من اكياس القش في المرج ، ما زالت في مكانها منذ دار القتال فيه قبل نحو من عام . ولم يحمل ابي من الفريقيين الاكياس على الرغم من مرور اربعة فصول ، اذ ان الفاشيين لم يكونوا في حاجة اليها ، بينما كان الجمهوريون مشغولين باشياء اخرى .

ومضى اندريه يفكر وهو في طريقه . . ان الفاشيين يملكون كل شيء ، الحنطة والبن والقش . . ولكننا سموجه اليهم ضربة قاصمة في الغد . .

اجل سنثار لسوردو في الصباح . . يا لهم من قساة ، غلاظ القلوب .
وسيشهد الصباح غبارا على الطريق .

انه يريد ان يسلم الرسالة ويعود للاشتراك في الهجوم في الصباح . او
يريد حقا ان يعود او انه يتظاهر بهذه الرغبة ؟ وكان قد احس بشعور
من الارتياح . عندما ابلغه الانكليزي ، انه سيمضي بالرسالة وكان قد واجه
احتمالات صباح الغد بهدوء ، فهذا ما يجب ان يقع . لقد اقترح الى جانب
الاشترك في العملية ، وعليه ان يشترك فيها . وكان القضاء على سوردو
ورفاقه قد اثر عليه ابلغ التأثير . ولكن ما وقع كان لسوردو لا لهم . وان
عليهم ان ينفذوا ما عهد اليهم بتنفيذه .

ولكن عندما ابلغه الانكليزي . موضوع الرسالة ، احس بنفس الشعور
الذي كان يحس به عندما كان صبيا ، وعندما كان يستيقظ في الصباح . في
يوم العيد في القرية ، فيرى ان السماء تمطر بشدة ، مما يشير الى الغاء
الاحتفالات والعدول عن حفلة مصارعة الثيران .

كان يحب مصارعة الثيران وهو طفل . وكان يتوق الى مشاهدتها دائما
والى اللحظة التي يقف فيها في الساحة العامة ، في الشمس اندافئة . وقد
اغلقت منافذها ، لينزل اليها الثور من المكان المحصور فيه . وكان يتطلع
بحماس وسرور ، الى اللحظة التي يرى فيها الثور خارجا من محبسه .
ويسمع فيها صوت قرونه وهي تضرب هنا وهناك . وقد رفع راسه .
وانسعت فوهتا انفه ، وارتفعت اذناه ، وحملت عيناه جائلة في ما حوله .

اجل كان يرقب طيلة العام ، دنو تلك اللحظة التي يرى فيها الثور ،
يخرج الى الحلبة ، يبحث عن الانسان الذي يختاره لمهاجمته . وها هو
يحس وقد اصدر الانكليزي امره بالمضي بالرسالة ، بنفس شعور الارتياح .
عندما يستيقظ في صباح ذلك اليوم فيرى ان المطر قد يحول دون الحفلة .
التي قد يتعرض فيها لفضب قرون الثور .

ولكنه كان دائما من الشجعان ، في تحدي الشيران ، في القرية ، كغيره من ابناؤها ، ولم يكن ليتأخر عن حضور اية حفلة من الحفلات في قريته . وان كان لا يرغب في الاشتراك في حفلات القرى الاخرى . وكان دائما يتريث حتى يهاجمه الثور فيبتعد عن طريقه في اللحظة الاخيره . وكان يشترك دائما في الهجوم على الثور مع الآخرين ، لانقاذ ، من يقع تحت وطأة قسرونه .

وانه ليذكر ، انه شد مرة الثور من ذيله ، لبعده عن انسان اوقعه ارضا . واخذ يلوي ذيله بشدة ، حتى رفع الثور راسه عن الشخص . وادار نفسه لمهاجمته ، ففر من طريقه ، وهو يدور مع الثور ، ولا يزال ممسكا بذيله حتى اجتمع الناس على الثور فقتلوه بمداهم . وكان دائما . وسط النقع والحرارة ، والهياج والصراخ ، في طليعة الرجال الذين يهاجمون الثور ، ويمسكون بقرونه ويمضون اذنيه .

وانه ليذكر ان ابناء قريته كانوا ينظرون اليه دائما نظرة التجلة والاحترام وكانوا يتوقعون منه في كل عام ان يبلي البلاء الحسن في قتال الثور وصراعه . . ولكنه بعد ان تنتهي المعركة ، ويسقط الحيوان قتيلًا ، وقد اخنته الجراح ، كان اندريه يسير في الحلبة ، وقد احنى هامته خجلا من عضه اذن الثور ، مع الاعتزاز بالدور الذي مثله كرجل كامل . . وكان يمضي الى نافورة الماء ليغسل يديه ووجهه ، فتلتف حوله النسوة يرتبن على كتفه هانقات بحياته .

وكان اندريه يحس بالخجل منهن ، فيبمدهن عنه ، ويفسل يديه وذراعه ومديته ، ثم يتناول من احدى الفتيات قليلا من الخمر ، يديرها في فمه ليغسله من طعم اذن الثور ثم يلقي بما في فمه من الخمر على ارض الشارع ، قبل ان يتناول جرعة كبيرة منه .

حقا ، لقد كان بطل الحلبة ، ولم يكن ليتقاعس عن المعركة ، في اي عام . لكن شعور الارتياح كان يفمره دائما ، عندما يهطل المطر ، فتلغى الحفلة في ذلك العام .

ومضى يحدث نفسه . . ولكن يجب ان اعود ، اجل يجب ان اعود
لاشترك في عملية الجسر والمركزين فاخي ايلاديو هناك . وهو من دمسي
ولحمي . وهناك انسيلمو وبريمتيفو وفيرناندو واوغسطين ورافائيل ، مع
ان هذا الاخير هازل لا جاد ، وهناك ايضا المرانان وبابلو والانكليزي . لكن
الاخير ، ليس له حساب ، فهو اجنبي وخاضع للأوامر التي يتلقاها . .
انهم كلهم على استعداد لخوض المعركة ، ومن المستحيل علي ، ان انجو
منها بفضل هذه الرسالة . . ولذا يجب ان اسلم الرسالة بسرعة ، ثم اعود
باقصى ما يمكنني من العجلة ، لاشترك في الهجوم . ومن العار علي ان لا
اشترك فيه بسبب هذه الرسالة . . يضاف الى هذا ، انني سأشعر بالبع
المتعة من قتل عدد من الفاشيين ، فقد مضى علينا عهد طويل ، لم تقتل
فيه احدا منهم . ولا ريب في ان الغد سيكون من الاعمال الباهرة المحدودة
فالغد يوم من الايام الجديرة بالذكر . . فمتى يأتي الغد واكون قد عدت
الى جماعتي .

وكان الآن ، قد تسلق المنحدر العميق الذي يؤدي الى خطوط الجمهوريين
واحس بطائر من طيور الحجل ، يرتفع عن الارض من بين قدميه ، فشعر
بخوف زائد . كانت مفاجأة الحركة هي التي اربته . فكيف يسع هذه
الطيور ان تخفق باجنحتها بمثل هذه السرعة . لا ريب في انها تفرخ الآن ،
وقد اصبحت قريبا من بيوضها . آه لو لم تكن الحرب ، لوضعت علامة على
المكان ، فأعود في الغد ، وأخذ البيوض ، واضعها تحت احدى الدجاجات ،
لتفرخ وتنمو . . فهل اسلم عينيها .

وهل تطيعني نفسي على القيام بمثل هذا العمل ، بعد ان اكون قد
ريتها . في وسعي ان اقص اجنحتها او اربط رجليها . ولو لم تكن الحرب
قائمة ، لمضيت مع ايلاديو الى ذلك الجدول القائم قرب المركز الفاشي
لتصيد السمك منه . واني لاذكر اننا صدنا مرة عددا كبيرا من هذا السمك
الصغير في يوم واحد . ولو مضينا بعد الانتهاء من عملية الجسر الى جبال
غريدوس . فهناك الكثير من الاسماك الصغيرة . كم اود ان نمضي الى
غريدوس فهناك الحياة ممتعة في الصيف والخريف ، ولكنها مضية في

الشتاء القارس . ولكن عندما يحل الشتاء ، فقد تكون الحرب قد انتهت ،
وغدونا المنتصرين فيها .

ولو لم يكن ابي جمهوريا ، لكنك انا وايلاديو الان جنديين في الجيش
الفاشي . ولا يجد الجندي الفاشي عنتا او مشقة ، فعليه ان يطيع الاوامر ،
وقد يحيا او يموت ، فالنتيجة واحدة . ومن الاسهل على الانسان ان
يعيش في ظل نظام ، بدلا من ان يحاربه .

ولكن هذا القتال غير المنظم ، يحمل الانسان مسؤولية ثقيلة . وفي وسع
الانسان اذا كان من النوع القلق ، ان يشتد قلقه ، وايلاديو يفكر اكثر
مني بكثير ، وهو من النوع القلق . اما انا فأومن حقا بقضيتنا ولذا فلا
اشعر بقلق . لكن حياتنا تنطوي على مسؤولية ضخمة .

واعتقد اننا ولدنا في عهد مليء بالمصاعب والمشقات . ولا ريب في ان
الاقوات الماضية كانت خيرا من وقتنا . وقد لا يشعر الواحد منا بالالام ،
لاننا تعودنا عليه . فالتناس الذين يحسون بالالام لا يصلحون لمثل هذه
الاجواء التي نميش فيها . ولكن الوقت قد حان للقرارات القاسية الصعبة .
وقد هاجمنا الفاشيون وهم الذين ارغمونا على اتخاذ القرار . اننا نحارب
لنعيش . . ولكن كم اود لو تركت علامة على تلك الشجرة وعدت في النهار
لجمع تلك البيوض . فانا ميال الى مثل هذه الاشياء الصغيرة .

ولكنك لا تملك بيتا ولا حديقة . وليست لك عائلة ، سوى هذا الاخ الذي
بمضي غدا الى المعركة ، وانت لا تملك شيئا الا الرياح والشمس والمعدة
الخاوية . اما الريح فخفيضة اليوم ، واما الشمس فلا وجود لها . وفي
جيبك اربع قنابل يدوية ولكنها لا تصلح لشيء الا لالتائها . وعلى ظهرك
غدارة ، ولكنها لا تصلح الا لاطلاق النار . وفي جيبك رسالة ، ولكن عليك
ان تسلمها . وجسدك مليء بالقاذورات التي يجب ان تبرزها ، والبول
الذي يجب ان تخرجه . انك لا شيء ، الا ما تقدمه . وانت ظاهرة من

ظواهر الفاسفة ، ورجل شقي تعيس .

وعلى الرغم من جميع هذه الافكار السامية ، فقد كان لا يزال يحس
بنفس ذلك الشعور الذي كان يراوده عندما يستيقظ في صباحه فيرى ان
المطر قد يحول دون حفلة المصارعة . وامامه الآن يقوم المركز الحكومي الذي
كان يعرف ان الحارس القائم فيه سيتحداه .



استلقى روبرت جوردان في الفراش الى جانب الفتاة ماريا التي كانت لا تزال تغط في نومها العميق . وكان قد ادار لها ظهره . واحس بجسمها اللدن الطويل ملتصقا به ، فخيل اليه ان الحياة كلها سخرية .. واخذ يعنف نفسه .. ويقول .. الا تذكر انك عندما رايتك للمرة الاولى ، قلت لنفسك ان خيانتك ستبدا عندما يشرع في التظاهر بالصدقة . يا لك من انسان مخبول .. على كل ، ما فات مات ، وعليك ان لا تفكر في هذا الآن .

هل يمكن ان يكون بابلو قد اخفاها في مكان ما ، او قدف بها بعيدا ؟ لا . هذا مستحيل . ثم هل في وسعك ان تعثر عليها في الظلام . كان في وسعه ان يخفيها . لقد اخذ معه بعض المتفجرات . يا له من وغد سافل قذر . يا له من عفونة ثنتة . الم يكن في وسعه ان يفر ، دون ان ياخذ ما اخذ ؟ ولماذا كنت من الحماقرة على ذلك النحو ، الذي اترك فيه هذه المواد في عهدة هذه المرأة ؟ يا له من وغد مخادع ذكي .. وجبان قذر .

وشرع يحدث نفسه .. ولكن علام الضجيج ، خذ الامور ببساطة ، كان عليك ان تغامر ، وقد غامرت . وكانت النتيجة انك خدعت . اجل لقد خدعت ، على كل حال ، عليك ان تبقي رأسك مرفوعا ، وان تطرد الغضب

عنك ، وان تتوقف عن العويل على هذا الشكل . فقد مضى بما اخذه ..
لقد مضى الخنزير القدر الى الجحيم . وفي وسعك ان تصلح الأمور ..
وهذا واجبك الآن .. لماذا لا تعود الى جدك تسأله رايه ؟

ولكن اللعنة على جدك وعلى هذه البلاد المخادعة الملعونة وعلى كل اسباني
فيها يحارب الى جانب ابي من الفريقين . وليمض كل شيء الى الجحيم .
اجل لتنصب اللعنة عليهم جميعا . لارغو وبريتو واسينسيو ومياجا
وروجو وغيرهم ، عليهم اللعنة جميعا حتى الموت . واللعنة على جميع هذه
البلاد التي لا تعرف الا الفس والخداع . اللعنة على انانية اهلها وحبهم
لذاتهم وغرورهم وخياناتهم . ليذهبوا جميعا الى الجحيم . ليذهبوا قبل ان
نموت من اجلهم ، او بعد ان نموت . اجل عليهم اللعنة حتى يموتوا ويمضوا
الى الجحيم ، ليلعن الله بابلو ، فهو يمثلهم كلهم ، وليشفق الله على الشعب
الاسباني ، فكل من يتولى قيادتهم سيلعنهم . انهم لم يعرفوا شخصا طيبا
يحكمهم منذ الف سنة الا بابلو ايفلينوياس ، اما الآخرون فكانوا يسومونهم
الخشف دائما . ليتنا نعرف ، كيف كان سيسلك هذا الانسان لو عاش
في هذه الحرب ؟ وانني لاذكر الوضع في لارغو .. كان دور وتي قائدا ممتازا ،
وقد قتله رجاله في ساحة البلدة ، لانه اراد منهم ان يهجموا . لقد قتلوه ،
في منتهى النظام الذي يسود الفوضى عادة . يا لهم من خنازير جبناء .
ليذهبوا الى الجحيم وعليهم اللعنة . وبابلو هذا الذي مضى الآن بحاجياتي
.. ليذهب الى اعماق الجحيم .. ولكن لا ، فهو الذي خدعنا . وهذا
شانهم دائما من ايام كورتيز حتى عهد مياجا الحالي . او لم تر ما فعله
مياجا بكليبر . انه خنزير اناني اصلع . ان راسه كالبيضة . واللعنة على
جميع الخنازير المجانين والانانيين والمخادعين الذين حكموا اسبانيا ، وقادوا
جيوشها . اللعنة على الجميع باستثناء الشعب ، ولكن حذار من هذا
الشعب ايضا عندما يتسلم السلطة .

وبدا غضبه يهدا شيئا فشيئا . عندما غالى في سبابه وشتائمه ، واخذ
يشتم ازدراءه واحتكاره بشكل واسع شمل الكثيرين ظلما وحيفا ، حتى

انه هو لم يعد يصدق نفسه .. واذا كان حقاً فلماذا جئت الى هنا ؟ انه ليس صحيحاً ، وهو يعرف هذا تماماً .. انظر الى جميع الناس الطيبين ، والخيرين انه لا يستطيع ان يكون غير منصف . انه يكره الاجحاف كما يكره القسوة .. وظل مستلقياً في مكانه والغضب يعمي عقله ، حتى اخذ ينجلي عنه شيئاً فشيئاً . وغداً غضبه الان هادئاً ، متلبداً ، بارداً ، تماماً كالرجل الذي انتهى من عملية جنسية مع امرأة لا يحبها .

واتكأ على مرفقه وتطلع الى ماريا التي كانت تتسم في نومها وقال لها .. وانت ايتها الارنبه المسكينه .. لو تكلمت لضربتك وانت نائمة . يا للرجل من حيوان متوحش عندما يثور غضبه .

وكان يضمها الى صدره الان . وهو مستلق الى جوارها ، وقد ضمها اليه ، ووضع ذقنه على كتفها ، وشرع يفكر في الطريقة التي يجب ان يعمل فيها وكيف يجب عليه ان يعمل .

وقال يحدث نفسه .. ان الوضع لم يعد شيئاً للغاية . اجل انه ليس بالوضع السيء . ولا ادري ان كان انسان ما قد قام بمثل هذا العمل من قبل . ولكن منذ الان سيقوم باحتذاء حذوه كل من يجد نفسه في ورطة كالورطة التي وقع هو فيها . ولكن الشرط الاولي ان يسمعوا بمشكلته ، وكيف تخلص منها . هذا هو الشرط . اما اذا لم يسمعوا بها فكيف يمكن لهم ان يتعلموها .. وعدد الرجال معنا قليل ، ولكن هذا لا يقلقني ابداً وفي وسمي ان انفذ موضوع الجسر بهذا العدد القليل من الرجال .. يا لله كم انا سعيد لانني تغلبت على غضبي . لقد كنت لا اكاد استطيع التنفس كالانسان في عاصفة .. والغضب متعة لا نستطيع ان نتمتع بها .

وقال يهمس على كتف ماريا .. لقد اعددت كل شيء يا حلوة . طبعاً انك لم تزعجي نفسك بأي شيء منه . وانت ما زلت تجهلين كل ما حدث . سنقتل ، ولكننا سننسف الجسر . فعليك ان لا تقلقي .. قد لا يصلح ما

اقوله كهدية عرس اليك . ولكن اليست الراحة التي نعمت بها في هذه
الليلة ، جديرة بان تمضي بلا ثمن ؟ لقد نمت نوما هادئا . . انظري اذا كان
في وسعك ان تجعللي من هذا النوم خاتما تضعينه في اصبعك . نامي ، يا
حلوة . نامي يا حبيبتي . انني لن اوقظك . وهذا كل ما استطيع ان افعله
من اجلك .

وظل مستلقيا الى جانبها ، وهو يحس بتنفسها العميق ، وبدقات
فؤادها ، متطاعا بين آونة واخرى الى الساعة في يسراه .





عندما وصل اندريه ، الى المركز ، اطلق الهتاف المعتاد بالتحدي . وكان في امكانه ان يمر حول المركز دون ان يشعر به اي انسان ، لعدم وجود خط دفاعي كامل ، ولكنه رأى ان من الخير ان ينتهي من الموضوع فوراً . . وكان اندريه قد هتف . . تحية ايها المتطوع . . !!

وسمع صوت زناد البندقية يتحرك . وانطلق عيار ناري . وهبط اندريه برأسه الى الارض . . وصرخ . . لا تطلقوا النار يا رفاق . . لا تطلقوا النار ، فانا قادم اليكم .

وانطلق صوت من وراء الحاجز يقول . . كم عددكم ؟

— انا واحد . واحد ليس الا .

— ومن انت ؟

— اندريه لوبيز من قرية فيلا سونيجوز ، ومن افراد عصابة بابلو .
احمل رسالة .

— وهل تحمل بندقية وعتادها ؟

— اجل ، يا رجل .

- ليس في وسعنا ان نقبل رجلا لا يحمل بندقية وعتادا ، وليس في وسعنا ان نقبل اكثر من ثلاثة رجال .

- انا رجل واحد . والموضوع مهم . دعوني امر .

وسمعهم يتحدثون من وراء الحاجز ، ولكنه لم يفهم من حديثهم شيئا . وعاد الصوت ينطلق ثانيا . . كم عددكم !

- قلت اني شخص واحد . انا واحد ، بحق الاله .

وعادوا يتحدثون وراء الحاجز ثانية . ثم سمع الصوت يقول . . اسمع ايها الفاشي .

فقال اندريه - انا لست فاشيا . انا من المناضلين من عصاة بابلو . جئت احمل رسالة الى الاركان العامة .

وسمع احدهم يقول . . لا ريب في انه مجنون . اقدفه بقنبلة .

وصرخ اندريه . . اسمعوا ، انا وحيد . وعاقل كل العقل واللعنة على جميع الاعيان فانا وحيد . دعوني ادخل .

وسمع احدهم يتحدث ويضحك ثم يقول . . انه يتحدث كالمسيحيين . فرد عليه آخر يقول . . ان افضل طريقة ان نقدفه بقنبلة .

فصرخ اندريه . . لا . هذا خطأ فاضح . ان الموضوع هام . دعوني ادخل .

وهذا هو السبب الذي كان يحمل اندريه على كره الرحلات بين الخطوط الحربية . وقد تكون هذه الرحلات احيانا خيرا من مهام غيرها ، ولكنها على الغالب ما تكون سيئة .

وعا بالصوت يقول . . هل انه وحيد؟

فصرخ اندريه . . كم مرة يجب ان اكرر القول بانني وحيد .

- اذن ، اذا كنت وحيدا ، قف ، وارفع بندقيتك فوق راسك .

ووقف اندريه ، ورفع غدارته فوق راسه ، بيديه الاثنتين ،
- اذن ، ادخل الان السلك ، وتأكد ان المدفع الرشاش مسلط عليك .
ووصل اندريه الى المنعرج الاول بين خطوط الاسلاك الشائكة فصرخ
يقول .. احتاج الى يدي للمرور عبر الاسلاك .
فهتف به الصوت آمرا .. دع يديك مرفوعتين .
وصرخ اندريه .. ولكن الشريط قد امسك بي .
وقال صوت .. كان من الاسهل لو قذفناه بقنبلة .
وقال صوت ثان .. دعه يقذف بندقيته . انه لن يستطيع المرور من
ذلك المكان ويده مرفوعتان .. استعمل عقلك .
فقال الصوت الاول .. ان جميع الفاشيين متشابهون . انهم يطلبون
شرطا اخر .

فصرخ اندريه .. اسمعوا ، انا لست فاشيا ولكني مناضل من عصابة
بابلو . قتلنا من الفاشيين اكثر مما قتل التيفوس منهم .
وقال الرجل ، الذي يبدو عليه انه آمر المركز .. لم اسمع قط بعصابة
بابلو ، ولا ببطرس او بولس او غيرهما من القديسين والحواريين ، او
عصاباتهم . ضع بندقيتك على كتفك واستخدم يديك في المرور من الشريط .
وقال الرجل الثاني .. قبل ان تنطلق نيران المدفع الرشاش عليك .
فصرخ اندريه .. انكم لستم بالودودين .
وكان مشغولا في شق طريقه عبر الاسلاك .
وسمع صوتا يقول .. ودودون ! اننا في حرب يا رجل .
- هذا ما بدا لي الان .
- ماذا يقول ؟
وسمع اندريه صوت الزناد ثانية . فصرخ .. لا شيء . لم اقل شيئا .

لا تطلق النار قبل ان انتهي من هذه الاسلاك .

– لا تتحدث بالسوء عن اسلاكنا ، والا قدفناك بقنبلة .

فصرخ اندريه .. يا له من سلك رائع . انه له في بيت خلاء . يا له من سلك جميل . ساكون معكم بعد قليل يا اخوان .

وسمع الصوت يقول .. اقدفوه بقنبلة فهذه هي الطريقة المعقولة لمعالجة هذا الموضوع .

فصرخ اندريه وقد عمره العرق ، اذ كان يدرك ان حامل نظرية القنبلة يستطيع ان يقذف بها في كل لحظة .. اسمعوا يا اخوان ، انا لست بالانسان المهم .

فقال نفس الرجل .. انا اصدقك .

ورد اندريه – انك على حق .. وكان الان يشق طريقه في الطوق الثالث من الاسلاك ، واصبح قريبا جدا من الحاجز ، وقال .. انا لست بالانسان المهم باية صورة من الصور . ولكن الموضوع مهم وخطير .

فقال نفس الرجل .. ليس هناك ما هو اخطر من الحرية . اتعتقد ان ثمة ما هو اخطر من الحرية ؟
– لا يا رجل .

وادرك انه قد وصل الان الى جماعة المجائين من ذوي الاوشحة الحمراء والسوداء ثم هتف بصوت عال . تحيا الحرية .

فردوا عليه .. تحيا النقابات الفوضوية ، وتحيا الحرية .

وقال اندريه .. نحيا نحن جميعا .

وقال الرجل صاحب فكرة القنبلة .. انه من اتباع مذهبنا ، وقد كدنا نقتله بهذه القنبلة .

وتطلع الرجل الى القنبلة اليدوية في يده ، وقد بلغ التائر منه مبلغا كبيرا

عندما رأى اندريه يتسلق الحاجز . وعندما تلقاه الرجل بعناق حار وقبله
ذات اليمين وذات الشمال في وجنتيه . ثم قال .. انا سعيد ، لان شيئاً
لم يحدث لك ايها الاخ . انا سعيد جدا .

وقال اندريه .. اين ضابطكم ؟

فقال لرجل .. انا الامر هنا . ارنى اوراقك .

وانتقل الى حفرة ، واخذ يتطلع في الاوراق ، على ضوء شمعة . ورأى
اشارات الجمهورية وختم القيادة العامة ، كما رأى شهادة حسن السلوك
وفيها اسمه وعمره وطوله ، ومكان ولادته ، كما رأى رسالة روبرت وقد
اغلقت وختمت .

وقال الامر ، وهو يعيد اليه اوراقه .. لقد رأيت كل هذه العلامات ،
ولكن حيازتك لها لا تعني شيئاً بدون هذه الورقة .. واخذ يلوح بشهادة
حسن السلوك .. ثم قال .. اين ولدت ؟

- في فيلاكو نيجوز .

- وماذا يزرعون هناك ؟

- البطيخ .. وهذا ما يعرفه الجميع .

- من تعرف هناك ؟

- لماذا ؟ هل انت من هناك ؟

- لا ، ولكنني كنت فيها . انا من ارانجوير .

- اسألني عمّن تريد .

- صف لي جوزيه رينكون .

- انه ذو رأس حليق ، وبطن كبير ، في عين واحدة .

- اذن فاوراقك صحيحة .. ولكن قل لي ماذا تعمل في ذلك الجانب ؟

- كان والدي قد اقام في فيلاكاستين قبل بدء الحركة . هناك وراء

الجبال في السهل . وهناك داهمتنا الحركة . ومنذ ذلك الحين ، وانسا
اقاتل مع عصابة بابلو . ولكنني في سرعة من امري ، لنقل هذه الرسالة .

وقال آمر المركز يساله : وكيف الوضع في بلاد الفاشيين ؟

فقال اندريه . . لقد وقعت لنا مشاكل كثيرة اليوم . وقد مرت سيارات
كثيرة على الطريق ، وابدوا عصابة سوردو .

وقال الرجل باستنكار . . ومن هو سوردو هذا ؟

قائد احسن عصابة في الجبال كلها .

وقال الامر . . . يجب ان تاتوا جميعا الى الجمهورية ، وتنضموا الى
الجيش فهناك الكثير من اعمال العصابات السخيفة هذه . يجب ان تاتوا
جميعا وتخضعوا لنظامنا العسكري المتحرر . . وعندما نرغب في ارسال
العصابات فاننا نبعث بها حسب الحاجة اليها .

وكان اندريه رجلا يمتاز بقوة الصبر . وكان قد احتمل اجتياز السياج
بهدوء . ولم يتألم من كل ما تبع ذلك من تحقيقات عن الهوية وما شابه ذلك
وقد وجد ان من المألوف تماما ان مثل هذا الرجل قد لا يفهمهم ولا يعرف
ما يعملونه ولذا فان من الطبيعي ان يصدر عنه مثل هذا السخف . وكان
يتوقع ايضا ان تسير كل هذه الاجراءات ببطء ولكنه اراد ان يذهب الان .
فقال . . اسمع ايها الرفيق . . من الممكن ان يكون كل ما تقوله حقا . ولكن
لدي اوامر بان اسلم هذه الرسالة الى الجنرال الذي يقود الفرقة الخامسة
والثلاثين التي ستقوم بالهجوم عند فجر غد في هذه المنطقة ، وها قد اصبح
الوقت متأخرا هذه الليلة ، ويجب ان اعود .

- اي هجوم ؟ ماذا تعرف عن الهجوم ؟

- لا اعرف شيئا . ولكن يجب ان اذهب الان الى نافاسيرادا . وان
امضي من هناك . فهل لك ان تبعث بي الى قائدك الذي يؤمن لي واسطة
للتقل لامضي بها الى هناك ؟ هل لك ان تبعث معي احد رجالك الان الى

قائدك حتى لا يكون اي تأخير ؟

- انني لا اثق بكل ما تقول . كان من الأفضل لو قتلناك عندما اقتربت من الاسلاك السائكة .

- لقد رايت أوراقها الرقيق . وقد اوضحت لك مهمتي .

- في الامكان تزوير الاوراق . وفي وسع اي فاشي ان يخترع مهمة كهذه سأذهب معك بنفسي الى القائد .

فقال اندريه - حسنا . اذن هيا بنا ولنسرع .

- اسمع يا سانشيز . ستتولى القيادة في غيابي فاذت تعرف واجبك كما اعرفه . وانا ساتولى نقل هذا الرقيق المزعوم الى القائد .

وشرعا يهبطان الخندق الضحل القائم وراء قمة التل . وشم اندريه في الظلام الروائح الكريهة المنبعثة من براز المدافعين عن هذا التل . انه لم يحب هؤلاء الناس الذين لا يختلفون عن اطفال خطرين وقدرين ووسخين ومفتقرين الى النظام وجهلاء وسمجاء ، ولكنهم خطرون دائما لانهم مسلحون ولم يكن اندريه يحمل اية آراء سياسية معينة . باستثناء انه انسان جمهوري وقد سمع هؤلاء الناس يتحدثون اكثر من مرة ، وقد خيل اليه ان ما يتحدثون عنه جميل ورائع ، ولكنه لا يحبهم . فليس من الحرية في شيء . ان لا يدفن الانسان ما يبرزه من غائط . وليس هناك من حيوان اكثر ميلا الى الحرية من القط ، ولكنه يدفن برازه دائما . ان القط هو خير حيوان فوضوي والى ان يتعلموا ذلك من القط فلا يستطيع ان يحترمهم .

وكان الضابط يسير امامه ثم توقف فجأة وقال . . الازلت تحمل
غدارتك ؟

- اجل . ولم لا احملها ؟

- اعطنيها في وسعك ان تقتلني باطلاق النار على ظهري .

- لماذا . لماذا اقتلك ؟

- لا يستطيع المرء ان يعرف . فانا لا اتق بانسان . اعطني الغدارة .

وناولها اندريه للضابط وهو يقول .. خذها ، اذا كان يسرك ان تحملها

- هذا خير وابقى .. فقد اصبحت اكثر امنا الان .

ومضيا في طريقهما بهيطان التل .



٣٧

كان روبرت جوردان لا يزال مستلقيا الى جانب الفتاة ، وهو يتطلع الى ساعته ، فيرى الوقت يمر ببطء لا يكاد يلاحظه ، لان ساعته كانت صغيرة ، ولم يكن في وسعه ان يرى عقرب الثواني . ولكنه كان يستطيع ان يضبط مرور الثواني ، من مراقبته لحركة عقرب الدقائق . وكان راس الفتاة تحت ذقنه . وعندما ادار راسه ليرى الساعة احس بشعرها المقصوص ، يلمس خده فشعر بما فيه من نعومة وحيوية . واخذ يمرغ وجهه على شعرها فيحس بفراغ يمتد من خلفه الى جميع اطراف جسمه وسقط راسه واغمض عينيه ، وهو ينصت الى صوت حركة الساعة بينما كان يضم ماريا شيئا فشيئا الى صدره . ولم يكن راغبا في ايقاظها ، ولكن لم يكن في وسعه ان يتركها وحيدة ، في هذه الساعات الاخيرة ووضع شفثيه وراء اذنها . ثم اخذ ينتقل بهما على عنقها وهو يحس بنعومة جلدها وشد من ضمه لها الى صدره ، وسرعان ما اخذ يجري برأس لسانه على وجهها وعلى دائرة اذنها ، واحس بلسانه يرتجف . واخذت الرعدة تنتقل من لسانه الى ما يحس به من فراغ في صدره ، بينما ظل يرقب عقربي الساعة وهما يتحركان . وادار راسها اليه ووضع شفثيه على شفثيتها . واخذ يحركهما بنعومة ورقية . وادار نفسه اليها ،

فاحس برعدة تسري في اوصالها . وسرعان ما صدرت عنها تنهدة عميقة ،
وامسكت به وقد وضعت شفيتها على شفتيه ، بقوة وتصميم ..

وقال لها .. والألم ؟

فقال .. لم يعد هناك الألم

.. يا ارنبة !

لا . لا تتكلم .

.. يا ارنبتى .

لا . لا تتكلم .

وسرعان ما اصبحا جسدا واحدا . بينما اخذ عقربا الساعة يتحركان
وادركا معا ان ليس في وسع اي شيء ان يحدث لاحدهما دون ان يحدث
الى الاخر ، وان ليس هناك ما يمكن ان يحدث ، الا ما حدث ، ويحدث
الان . وان هذا هو كل شيء . وسيظل كل شيء . وانه كان كل شيء في
الماضي ، وسيظل كل شيء بالنسبة لهما في المستقبل ايضا .. وتحقق لهما
ما يريدان وما اراداه ، وما سيريدانه .. الان .. اجل الان ، الان ، ولا
شيء غير الان .. الان هو كل شيء بالنسبة اليهما .. الان ولا شيء
غير الان ..

وقال لها .. آه يا ماري ، احبك .. واشكرك على هذا ..

فقال ماري .. لا تتكلم .. من الخير ان لا تتكلم .

.. ولكن من واجبي ان اقول لك ، انه كان شيئا عظيما .

.. لا .

.. يا ارنبتى ..

وامسكت به تفضمه الى صدرها ، وادارت عنه وجهها فقال بنعومة ..
ماذا هل تأملت يا ارنبتى ؟

.. لا ، ولكنني شاكرة ، لانني حلقت في النسيم مرة ثانية .

وعادا يستلقيان الى جانب بعضهما ، وروبرت دالب على النظر الى

- ساعته .. وقال : لقد كان حظنا رائعا ..
- اجل . فنحن انسانان محفوظان .
- اولم يبق وقت للنوم ؟
- لا . ان العملية ستبدا حالا الان .
- اذن ما دمنا سنستيقظ ، فلنمض لتأتي بشيء نأكله .
- حسنا .
- قل لي اشمع بقلق من أي شيء ؟
- لا .
- حقا ؟
- لا . ليس الان .
- ولكنك كنت قلقا من قبل ؟
- لفترة قصيرة .
- هل في وسمي ان اقدم اي عون ؟
- لا . لقد اعنتني ما فيه الكفاية .
- لقد كان ما عملناه من اجلي .
- لا من اجلنا معا . فليس هناك من انسان لوحده . هيا يا ارنبة .
- دعينا نلبس .

وكان عقله ، وهو رفيقه الامثل ، قد بدأ يعمل الآن ؛ لقد استعملت كلمة النعيم ، وهي كلمة تختلف كل الاختلاف عن كلمة المجد . وهي موجودة في كل مكان ، عند الهنود ، وعند الاغريق وفي سان خوان دي لاكروز . . اذن لم التشاؤم ، وقد كانا في النعيم . وهل يستطيع ان ينكر انه النعيم ، الا اذا كان جاهلا ، او الا اذا ود ان ينكر كل شيء ، حتى دوران الارض حول الشمس او وجود كواكب اخرى .

ومضى يفكر .. يا لنا من جهلاء ، بما يقع حقا .. آه كم كنت اود ان احيا مدة اطول ، بدلا من الموت اليوم ، فقد تعلمت الكثير من حقائق الحياة في هذه الايام الاربعة . اجل لقد تعلمت فيها اكثر من اي وقت مضى . وكم اود لو اصبحت عجوزا ، وعرفت الحياة حقا . لا ادري ، اذا كان الانسان يستمر في التعلم ، او ان هناك حدودا للمعرفة يتوقف عندها الانسان . كثيرا ما خيل الي انني اعرف اشياء كثيرة ، بينما انا لا اعرف عنها شيئا ابدا . كم وددت لو طال بنا الزمن . وقال لها بالانكليزية اخيرا .. لقد علمتني كثيرا يا حلوة .

- ماذا قلت ؟

- قلت اني تعلمت الكثير منك .

- ماذا تعني .. انك انت المثقف .

ثقافة .. اتد عاد الي التفكير .. انه لا يعرف الا مبادئ الثقافة .. مبادئها البسيطة الضئيلة .. واذا مت الان ، فالخسارة في اني قد بدأت اعرف بعض الاشياء . لا ادري اذا كان سبب اقبالك على التعلم . انك مغرق في الاحساس بقصر الوقت . ومع ذلك فليس ثمة هناك ، ما يدعى بقصر الوقت . وعليك ان تدرك هذا . وقد كنت طيلة حياتك مذجنت الي هذه البلاد تعيش في هذه الجبال . وانسيلمو هو اقدم اصدقائي . واني لاعرفه خيرا مما اعرف شارل او شاب او غاي او مايك ، مع انني اعرفهم طيبا جميعا . واوغسطين بلسانه السليط اخ لي ، مع اني لم يكن لي اخ من قبل . وما ماريا الا حبيبتي الحقيقية وزوجتي . ولم تكن لي حبيبة حقيقية من قبل . ولم تكن لي زوجة . انها ايضا اختي ، ولم تكن لي اخت من قبل . وهي ابنتي ، ولن يكون لي ابنة ابدا . انني اكره ان اترك حياة كهذه .

وعاد يقول لماريا .. اني اجد الحياة ممتعة .

وكانت تجلس الي جانبه على السرير ، وقد تشابكت يداها حول ركبتيها

ورأيا شخصا يرفع الستارة عن مدخل الكهف وبصيصا من النور يتسرب الى الخارج . كان الليل لا يزال داجيا ، ولم تكن تباشير الصباح قد لاحت بعد ، سوى ان النجوم قد تضاءلت .. ولا ريب في ان الفجر قد بدأ يقترب

وقالت ماريسا .. روبرتو !

- نعم يا حلوة

- ستكون معا في عمل اليوم اليس كذلك ؟

- بعد البداية .

- اذن فلن نكون معا عند البداية .

- لا . ستكونين مع الجياد .

- الا تستطيع ان اكون معك ؟

- لا . فلدي عمل ، لا يستطيع غيري ان يقوم به . وساكون قلقا عليك .

- ولكنك ستعود سراها بعد انجازه ؟

- اجل ساعود بسرعة كبيرة . تعالي يا حلوة ولناكل شيئا .

- وسريرك ؟

- اهلقيه ، اذا كان هذا يرضيك .

- انه يرضيني .

- ساساعدك .

- لا دعني اقوم بالعمل وحدي .

وشرعت تمد السرير ، بينما التقط روبرت الكيسين بهناية مخافة ان ينتشر منهما شيء ، من الخرقين اللذين عملهما بابلو ، ومضى الى الكهف .

وكانت الساعة قد قاربت الثالثة عندما دلف الى الكهف .

٣٨

كانوا يقفون جميعا امام النار التي تشعلها ماريا . وقد اعدت بيلار القهوة ولم تكن قد عادت الى الفراش ابدا منذ ايقظت روبرت ، وها هي الآن تخطط الخروق في كيسى جوردان . وانعكس لهيب النار على وجهها .

وقالت تخاطب فيرناندو .. خذ كمية اخرى من الحساء . لا بأس اذا امتلات معدتك . وليس هناك من طبيب لاجراء عملية جراحية اذا اصبت بانتفاخ .

فقال اوغسطين .. لا تتحدثي على هذا النحو يا امرأة . ان لسانك اسلط من لسان اكبر العاهرات .

وكان هذا يتكئ على المدفع الرشاش ، وقد امتلات جيوبه بالقنابل اليدوية وقد تدلت على كتفيه امشاط العتاد . وكان يدخن لفافة من التبغ وقد امسك بقدر من القهوة في احدى يديه .

وقالت بيلار تخاطبه .. انك مخزن متنقل من السلاح . لن تستطيع السير مائة باردة بكل ما تحمله .

ماذا تعنين يا امرأة .. ان الطريق كلها هبوط ..

وقال فيرناندو .. ولكن هناك الصعود الى المركز ، قبل البدء بالهبوط .
- سارتقى هذه المسافة كأنه نمر .

وتطلع الى ايلاديو وقال .. وماذا حل باخيك ؟ آه ، لقد فر اخوك الشهير
وكان ايلاديو يتكئ بنفسه الى الجدار .. فقال .. اغلق فمك .

كان متوتر الاعصاب حاد المزاج قبل الشروع في العمل . وانتقل من
الجدار الى المائدة ، حيث شرع يملأ جيوبه بالقنابل اليدوية .

واقترب روبرت منه ، وتناول اربع قنابل يدوية ، ثلاثا منها من طراز
ميلز ، وقال يخاطب ايلاديو .. من اين اتيتم بهذه القنابل ؟
- من اين ؟ من الجمهورية . لقد جاء بها الرجل المعجوز .
- وما رايت فيها ؟
- ان الواحدة منها ، تعادل ثروة بكاملها .

وقال انسيلمو .. لقد جئت بها يا انكليزي .. ستون في كل كيس يزن
تسعين رطلا .

وقال روبرت لبيلا . وهل استخدمتم هذه القنابل ؟

- ماذا تعني استخدمناها ؟ لقد كانت السلاح الذي اعتمده بابلو في
مداخمة مركز اوتيرو .

وعندما ذكرت اسم بابلو ، شرع اوغسطين يكيل له السباب والشتائم ..
ونظر روبرت الى وجه بيلا في ضوء النار ، فرأى نظرتها الغريبة .. وقالت
المرأة .. دع عنك هذا الحديث فليس من الخير ان نتحدث به .

وقال روبرت .. وهل كانت تنفجر دائما معكم ؟

فرد ايلاديو .. دائما ، ولم يحدث ان توقفت احداها عن الانفجار .

- وهل يتم انفجارها بسرعة ؟

- مسافة الرمي ليس الا . انها سريعة الانفجار .

- وهذه ؟ .. وامسك بقنبلة من طراز آخر ..

- فرد ايلاديو .. انها نفاية .. انفجار بدون شظايا ..

- ولكن هل تنفجر دائما ؟

فقلت بيلار .. ماذا تعني دائما .. ليس هناك من كلمة دائما ، لا في عتادنا ولا في عتادهم .

ولكنكم قلتم ان الاخرى تنفجر دائما ؟

فردت بيلار .. انا لم اقل هذا . لقد سالت غيري . اما انا فقد رايت كلمة دائما غير موجودة احيانا .

فاصر ايلاديو على رايه .. ولكنها كانت تنفجر دائما .. قولي الحقيقة يا امرأة .

- وكيف في وسعك ان تقول انها انفجرت كلها ؟ لقد كان بابلو هو الذي قذف بها . فانت لم تقتل احدا في اوتيرو .

وقال اوغسطين .. يا له من ابن اكبر عاهرة !

فقلت بيلار بحدة .. دعك من هذا .. ومضت تقول .. انها متشابهة كلها يا انكليزي . ولكن المفضنة منها اسهل تناولا وعملا .

وخيل لروبرت ان من الخير ان يستخدم من النوعين ، ولكن المسنين ابسر واكثر امنا .

وقال اوغسطين .. وهل ستقذف بالقنابل يا انكليزي ؟

- ولم لا .

وجلس روبرت ، وشرع يفكر ، وهو يخرج القنابل ، وخيل اليه ان

اثنى وضعها في الليل ، يستحيل تنفيذها ، وانه كان يذرع نفسه . فقد
قضى عليهم منذ هاجم الفرسان سوردو ، كما قضى على سوردو منذ توقف
الثلج عن النزول من السماء . هذه حقيقة لا يستطيع ان ينكرها . فكيف
يضع خطة يشعر انه عاجز عن تنفيذها . لقد ادرك الآن ان الخطة التي
وضعها غير صالحة . اجل انها غير صالحة في الصباح : فليس في وسعه
ان يقتحم المركزين معا بهذه القوة الضئيلة من الرجال . قد يكون في وسعه ،
اقتحام مركز واحد . اما اقتحام المركزين فلا . اذن فلا تذرع نفسك .
حتى ولا عندما يأتي الصباح .

فمن المستحيل محاولة اقتحام المركزين . وقد ادرك بابلو هذه الاستحالة
منذ امد بعيد . . ومضى روبرت يفكر . . واعتقد انه كان دائما يضع خطته
على اساس عدم الاشتراك معهم ، ولكنه حزم امره بعد مهاجمة سوردو .
ومضى يحدث نفسه : ليس في وسعك ان تضع خطة عملية على اساس
توقع حدوث المعجزات . وقد يكون في وسعك ان تقتلهم جميعا . ولكن
الجسر لن ينسف في هذه الحالة . اجل ستضحى ببييلار ، وانسيلمو
واوغسطين وبريمتيفو وايلاديو وهذا الفجري الذي لا ينفع شيئا وفيرناندو
ولن تتمكن من نسف الجسر . فهل تحدث المعجزة ، وتلقى غولز رسالتك
من اندريه ويامر بوقف الهجوم . اما اذا لم تحدث . فان اوامرك ستقضى
عليهم جميعا ، ومعهم ماريا ايضا . . اجل ستقتلها باوامرك . اولا تستطيع
اخراجها من هذه القضية ؟ . . اللعنة على بابلو . .

لا . لا تفضب ، فالفضب مضر كالخوف سواء بسواء . ولكن الم يكن
من الافضل بدلا من قضاء الليل مع فتاتك ، ان تطوف بالجبال طيلة الليل ،
مع المرأة بحثا عن الرجال ، للاشتراك معك في العمل . اجل كان هذا هو
الافضل ولكن اذا حدث لك شيء فلن ينسف الجسر ، وهذا ما حال بينك
وبين الذهاب . ولم يكن في وسعك ، ان تبعث برسول آخر ، لانك لا تريد
ان تجازف برجل اخر ، تفقد . كان عليك ان تحتفظ بمن معك . وان تضع

خطتك على اساس عددهم .

ولكن خطتك فاشلة . انها فاشلة لا ريب ، لقد كانت من هلوسات الليل ،
وها قد طلع النهار . ان احلام الليل كثيرا ما تنهار عند الصباح ، وطريقة
التفكير في الليل لا تصلح مطلقا في الصباح . وهكذا فانت تعرف الان ان
خطتك مقضى عليها بالفشل .

ومضى يفكر .. ماذا كان يحدث لجون موزي ، لو واجه مشاكل معقدة
كمشكلته هذه . لا ريب في ان موزي قد واجه مثل هذه المشاكل ، بل اكثر
منها صعوبة ، ومضى يقول لنفسه : ولماذا تقلل من قيمة عنصر المباشرة ..
ولماذا التشاؤم .. عليك ان تضع خطتك على اساس ثابت .. ولكن انظر ..
كيف مضت الامور حتى الان .. لقد كانت خاطئة منذ البداية .

ورفع نظره عن المائدة فرأى ماريا ترنو اليه وهي تبتسم ، فعاد يقطب
جبينه واختار أربع قنابل اخرى وضعها في حبيه .. ومضى يفكر .. اليس
في وسعك ان ترفع « كبسولات » التفجير وان تستعملها . لكن التجزئة قد
لا تعدي نفعا ابدا . انها ستاتي فورا مع التفجير . ولكني لا اعتقد انها لن
تحدث .. وانا واثق من هذا .

لم هذا التردد ، وكل هذا الشك .. ألم تكن تحدث نفسك ليلة امس
وتتحدث الى جدك ، وتتهم اباك بالجبن .. اذن عليك ان تكون اكثر ثقة
بنفسك الان .

وقطب جبينه ، وهو ينظر الى ماريا ثانية ، ولكن تقطيعته لم تكن اكثر
من مجرد حركة ظاهرة .. انها تفكر بانك انسان رائع ، بينما انت بدأت
بجبن .. ولكن الا تذكر النعيم بالامس . لقد كانت افكارك رائعة .. فالى
الجحيم بكل هذه المخاوف ..

خذ الامور ببساطة ولا تفضب .. فهناك سبل للخلاص من كل ازمة .
وعليك ان تقضي على نواجذك الان . ولكن لا تنكر وجود كل شيء ، لمجرد

انك توشك ان تفقده . ولا تكن كالشعبان الذي كسر ظهره ، واخذ يحاول
ان يعض نفسه . فظهرك لم يكسر بعد .. ولماذا لا تنتظر ان يحل بك الاذى
قبل ان تشرع في البكاء .. اجل انتظر حتى يبدأ القتال . ثم اغضب .
فهناك مجال فسيح للغضب في المعركة . وقد يكون نافعا لك فيها .

وجاءت بيلار اليه تحمل الكيس وقالت .. لقد غدا الان ثابتا .. وهذه
القنابل جيدة . يا انكليزي . وفي وسعك ان تشق بها .
- وكيف تشعرين يا امرأة ؟

فتطلعت اليه وهزت راسها وابسملت ثم قالت .. حسنا .. ولكن ما
شمورك انت ، وانت على وشك البدء بالمعركة ؟
- اشعر اننا قلة .

هذا ما احسُّ به انا ايضا .

وقالت تهمس اليه .. في وسع ماريا وحدها ان تمسك بالجياد . وليس
بي من حاجة الى البقاء معها . سنحجّلها وهي جياد فرسان ، معتادة على
اطلاق النار . سامضي انا الى المركز الاسفل ، فاقوم بالواجب الذي كان
من المفروض ان يقوم به بابلو .. وهكذا يزيد عددنا واحدا .

حسنا .. ظننت انك لا ترغبين في ذلك .

- لا تقلق يا انكليزي ، فستسير الامور على ما يرام . تذكر عنصرا المباغتة
- اجل .

- وهناك شيء آخر يا انكليزي .. في ذلك الشيء المتعلق بالكف ..

- اي شيء يتعلق بالكف ؟

- لا . اصغ الي . لا تغضب ابها الولد الصغير .. بالنسبة الى الكف ،
وهو من سخافات الفجر التي اهتم بها . ليس هناك من شيء من هذا النوع
- دعني عنك هذه الاقوال .

فردت عليه بقسوة مشوبة بالحب .. لا . انها مجرد سخافة ليس الا ..
ولا يجدر بك ان تكون قلقا في يوم المعركة .

– انا لست بقلق ..

– لا يا انكليزي . انك في منتهى القلق ، وهناك ما يبرر ذلك . ولكن كل
شيء سيتم على ما يرام . ولا يربب في اننا خلقنا من اجل هذا .

فقال روبرت .. لست في حاجة الى مفوض (قوميسار) سياسي يرشدني
فابتسمت ابتسامة عريضة وصادقة وقالت .. انني احبك كل الحب
يا انكليزي ..

– انا لا اريد حبك الآن .

– اجل اعرف ذلك . ولكنني وددت ان ابغك ذلك . فلا تقلق ، وستقوم
بالعمل على احسن ما يرام .

– ولم لا ؟ طبعا .. سينتهي كل شيء كما نروم .

وقالت بيلار – ومتى نشرع في السير ؟

وتطلع روبرت الى ساعته وقال .. في اية لحظة .

وسلم احد الكيسين لانسيلمو وهو يقول .. كيف تشعر ايها المعجوز ؟

وكان هذا ينقل رسما وضعه له روبرت .. فقال : حسنا حتى الآن ..
انظر الى يدي .. انهما ثابتتان .

فقال روبرت .. في وسعي دائما ان احافظ على ثبات يدي . مد اصبعك

ومد انسيلمو اصبعه . كان الاصبع يرتعد . فتطلع الى روبرت وهز راسه

ومد روبرت اصبعه وقال .. واصبعي كذلك . دائما . هذا امر مالوف

فقال فيرناندو .. اما انا فلا .. ومد اصبعه الايمن .. ثم الايسر .

وقال اوغسطين لفيرناندو .. افني وسعك ان تبصق ؟

وبصق فيرناندو بصقّة كبيرة على أرض الكهف ثم مسحها بقدمه .
وقالت بيلار .. يا لك من بغل قدر .. ابصق بالنار اذا اردت ان تبرهن
على شجاعتك .

وقال فيرناندو .. ما كنت لابصق على أرض الكهف لو لم تكن على وشك
مغادرته يا بيلار .

فردت عليه بيلار .. كن حريصا اين تبصق اليوم . فقد تبصق في مكان
لسن تتركه .

وقال اوغسطين .. انها تتكلم كقطة سوداء ..

فقالت بيلار .. انني امزح .

- وانا ايضا ، ولكنني ساكون سعيدا عندما تبدأ المعركة .

وقال روبرت يسأل ايلاديو .. واين الفجري ؟

- مع الجياد . في وسعك ان تراه من مدخل الكهف .

- وكيف هو ؟

- شديد الخوف . ولكنه يشمر بالطمانينة عندما يتحدث عن مخاوف
الآخرين .

وقالت بيلار .. اسمع يا انكليزي .. فرفع روبرت رأسه اليها ، وراها
وقد فتحت فمها ، وبانت في عينيها نظرة من عدم التصديق . وسارع بيده
الى مسدسه يلتقطه ، وكان بابلو ، يقف وقد رفع طرف الستارة عن مدخل
الكهف ومد فوهة بندقيته الاوتوماتيكية .

وقالت بيلار وهي لا تصدق نفسها .. انت .. انت .

أجل انا .. ودخل الى الكهف .. ثم قال .. هالو .. يا انكليزي ..
لقد جئت بخمسة رجال من عصابة الياس واليجاندور مع جيادهم . وهم
في الخارج .

وقال روبرت .. ولكن ماذا فعلت باداة الانفجار والكبسولات والفتائل وغيرها من المعدات .

— قذفت بها من المضيق الى النهر . ولكنني عثرت على طريقة للتفجير ؛ عن طريق استخدام القنابل اليدوية .

فقال روبرت .. وقد وجدت انا عين الطريقة .

وقال بابلو .. الديكم شراب من اي نوع .

ومد روبرت يده اليه بائز جاجة ، فازدرد منها جرعة سريعة ثم مسح نمه بمؤخرة يده .

وقالت بيلار .. وماذا دهالك ؟

فقال .. لا شيء . لقد عدت .

— ولكن لم ؟

— لا شيء .. كانت لحظة ضعف . وقد ذهبت ، ولكنني عدت .

والتفت الى روبرت وقال .. اسمع انني في دخيلة نفسي لست جيانا .

وقال روبرت يحدث نفسه .. ولكنك في طويتك اسوا من الجبان ، ومع ذلك فانا سعيد بعودتك يا ابن العاهرة .

وقال بابلو .. لم استطع ان احصل على اكثر من خمسة رجال . وقد ظللت ممتطيا صهوة الجواد ، مذ تركت هذا المكان . كنت اعرف ان تسعة لا يكفون للعمل . فقد فهمت ذلك ، عندما سرح الانكليزي العملية ليلة أمس ان العدد لا يكفي . فهناك سبعة جنود وعريف في المركز الاسفل . ولنفترض وقوع انذار ، ، واضطرابنا لخوض المعركة ؟

وتطلع روبرت الان .. وقال .. وعندما تركتكم خيل الي انك ستدرك استحالة القيام بالعمل ، فتعدل عنه . وبعد ان قذفت بالمعدات في النهر ، عدت نفكرت في الموضوع بطريقة اخرى .

فقال روبرت .. يسرني ان اراك .. وسار متجها اليه .. ان القنابل
اليدوية ستنجز العمل . ولا تهمني تلك المواد الآن .

— لا . انا لم اعمل شيئا من اجلك . فانت رمز للقال السيء . فكل ما
اصابنا من شركان بسببك وليست قضية سورودو ببعيدة . ولكن بعد ان
قذفت المواد في النهر ، وجدت نفسي وحيدا ..

فقال بيلا . . . كانت امك ..

— ولهذا مضيت الى الاخرين ، لاجعل العملية ممكنة . وقد اتيت باكثر
عدد ممكن . وقد تركتهم عند القمة ، لاتحدث اليك اولا . وهم يعتقدون
انني القائد .

فقال بيلا . . . انك القائد اذا اردت .

ونظر اليها بابلو ، ولم يقل شيئا ، ثم مضى يتحدث بهدوء . لقد اطلت
التفكير منذ حادث سورودو . واني لاعتقد انه اذا قدر لنا ان نموت ، فيجب
ان نموت معا . اما انت يا انكليزي ، فانا اكرهك ، لانك جئتنا بكل
هذه الشرور .

وقال فيرناندو وقد انتفخت جيوبه بالقنابل اليدوية ، وعلقت امشاط
العتاد على كتفيه . وهو لا يزال يمسح ما تبقى من صحنه من الحساء
بكسرة من الخبز .. ولكن يا بابلو ، الا تعتقد ان العملية ستنجح ؟ لقد قلت
قبل ليلتين ، انها ناجحة .

وقالت بيلا لماريا .. اعطني قليلا من الحساء .. ثم تطلعت الى بابلو
وقالت .. وهكذا عدت ..

— اجل يا امرأة .

— اين فعرجيا بك . وما كنت اعتقد يوما بانك ذلك الحطام من الانسان
الذي كنت تبدو فيه

فقال لها بابلو بسرعة .. ان الانسان بعد مثل هذا العمل يشعر بفراغ
ووحدة لا يستطيع احتمالها .

- انك لا تستطيع احتمالها ربع ساعة .

- لا تهزني بي يا امرأة . لقد عدت .

- وانا ارحب بك . اولم تسمعني ارحب بك اول مرة . اشرب قهوتك
ودعنا نمضي .. لقد مللت من هذه المسرحية .

فقال بابلو .. اهذه هي القهوة ؟

- طبعا .

- اذن اعطني قليلا منها يا ماريبا .. كيف حالك ؟

- على مايرام . اتريد بمض الحساء ؟

فهبز بلبل راسه نفيا .. ومضى يقول .. انا لا احب الوحدة .. ولم
استطع احتمال ليلة امس .

فقات بيلار - لقد شنق سلفك يهوذا الاسخريوطي نفسه .

فرد ببلو .. لا تحدثيني على هذا النحو يا امرأة . الم تري ؟ لقد عدت .
فلا تحدثني عن يهوذا وامثاله . لقد عدت .

رقلت بيلار تساله .. وكيف ترى هؤلاء الرجال الذين اتيت بهم ؟ اهم
خليقون بان تأتي بهم ؟

- لا بأس بهم ؟

- لا رب انهم صالحون ولكن بلداء . انهم على استعداد للموت بالطريقة
التي تريدنيهم ان يموتوا فيها .

برفع بابلو راسه اليها ، ونظر في عينيها . ولم يبعد نظره عنها هذه المرة ،
بل ل يتطلع اليها ، فقالت بود ظاهر .. انت .. افترض ان الانسان اذا

كان يتمتع بميزة من المزايا فإنه لا يفقدها بسرعة ، وسيظل منها شيء فيه

فقال بابلو .. انا على اتم الاهبة لكل ما يتمخض عنه النهار .

فردت بيلار .. انني اصدقك ، ما دمت قد عدت .. ولكنك بعدت
كثيرا يا رجل .

وقال بابلو لروبرت .. اعطني جرعة ثانية من تلك الزجاجة .. ثم
دعنا نسير .

}



وارتقوا في حلقة الدجى التل ، صعدا عبر الاشجار ، الى الممر الضيق في القمة . وكانوا جميعا مشقلين بما يحملونه ، ولذا فقد كان ارتقاؤهم بطيئا . وكانت الجياد ايضا محملة بالاعباء على اسرجتها .

وقالت بيلار . . في وسعنا ان نخفف من هذه الاعباء ، اذا اقتضت الضرورة ، أما اذا تمكنا من نقلها كلها ، كان في امكاننا ان نقيم منها معسكرا جديدا .

وسأل روبرت جوردان . . واين بقية العتاد ؟

— في جيوب اسرجة الجياد .

واحس روبرت بشقل ما يحمله على ظهره . وفي جيوبه الملى بالتمنابل اليدوية ، وبمسدسه المشدود الى فخذه ، وبامشاط العتاد لبندقيته الاوتوماتيكية في جيوب سرواله . وكان لا يزال يتذوق طعم القهوة في فمه . وفي يمينه بندقية الاوتوماتيكية .

وقال بابلو الذي يسير خلفه تماما في الظلام . . اسمع يا انكليزي !

— نعم يا رجل ؟

ان الرجال الذين اتيت بهم يعتقدون ان العملية ناجحة ، فلا تقل امامهم

شيئا يثبط من عزائهم .

- حسنا ، ولكن يجب ان تنجح العملية .
- فقال بابلو - ان معهم خمسة جياد .
- حسنا ، سنجمع الجياد الى بعضها .
- اجل .

وطافت الافكار بمخيلة روبرت جوردان فقال يحدث نفسه .. لا اعتقد انك مررت بمرحلة الهداية الكاملة في طريقك الى طرطوس يا بابلو . ولكن عودتك معجزة حقا . ولا ارى انه ستكون هناك اية مشكلة في المستقبل في تطويبك قديسا .

وقال بابلو .. ساتمكن بواسطة هؤلاء الخمسة من انهاء قضية المركز الاسفل تماما كما كان سوردو سيفعل . وساقطع السلك واعود الى الجسر كما هو متفق عليه .

وطافت الشكوك في راس روبرت .. فلقد بحث هذا الموضوع مع بابلو قبل عشر دقائق ، فلم العودة اليه من جديد الان ..

ومضى بابلو يقول .. هناك امكان في ان نتمكن من الوصول الى غريديوس وقد فكرت طويلا في هذا الموضوع .

وقال روبرت يحدث نفسه .. لا ريب عندي في ان شيئا آخر قد مضى في فكري في اللحظة الاخيرة .. وقد تكشفت لك رؤيا جديدة ، ولكنك لن تستطيع ان تقنعني بانني مدعو الى الذهاب معكم الى غريديوس . لا يا بابلو . لا تطلب الي ان اصدقك اكثر من اللزوم .

وكان روبرت ، منذ عودة بابلو ، واعلانه وجود الرجال الخمسة ، قد شعر بتحسن في معنوياته . ولم يكن يؤمن بالحظ ، ولذا لم يؤمن بأن طالعه قد تحسن ، وانما اعتقد بان سيبين الامور كلها قد بدأ في الاتجاه نحو

الأصلح وان العملية أضحت ممكنة . وبدلا من ذلك الشعور الأكيد بالفشل الذي كان يفمره من قبل ، أخذ يحس الآن بالأمل والثقة يتسربان الى نفسه تماما كما يتسرب الهواء الى اطار بواسطة منفاخ بطيء . . . وسرعان ما اخذت هذه الثقة تتحول الى سلبية الفهم ، التي تتحول غالبا السى سعادة حقيقية قبل بدء العمل .

وكانت المهوبة العظيمة فيه ، والتي تصلح لهذه الحرب ، قدرته على عدم تجاهل الامور وانما احتقار النتائج السيئة مهما كانت . وقد تحطمت هذه المهوبة من جراء تبعيته للآخرين او اضطرارة للقيام باعمال اسي تخطيطها ، او وضعها . اذ ان الماقبة السيئة وهي الفشل ، في مثل هذه الامور لا يمكن تجاهلها مطلقا . وليست القضية متعلقة بضرر يصيب الانسان نفسه حتى يتجاهله . فهو يعرف ان لا قيمة له ، وان الموت لا قيمة له ايضا . وهو يدرك هذا حقا كما يدرك اي شيء آخر . ولكنه عرف في الايام القليلة الاخيرة ، ان في وسعه ان يكون مع شخص آخر . شيئا له قيمته ، ولكنه كان يعرف في قرارة نفسه ان هذا الوضع استثناء وشذوذ . فكل ما نملكه حصلنا عليه . وكان من حسن طالعي انني قد حققته . ومن المحتمل انني حصلت عليه لانني لم ائشده ابدا . وليس في وسع انسان ان ينتزعه الان مني كما ليس في وسعي ان افقده . ولكن هذا الامر ، قد انتهى الان ، مع هذا الصباح ، وعلينا في هذه اللحظة ان نعود الى عملنا .

ومضى يحدث نفسه . . . ويسرني انك قد استعدت شيئا كنت تفقده امدا من الزمن . لقد اخجلتني ، بمملك هذا فترة من الوقت ، ذلك لاني كنت انت ، ولم يكن لدي قدرة على الحكم عليك . أجل لقد كنا جميعا في وضع سيء ، انت وأنا . فتعال الآن وتوقف عن التفكير كانسان مصاب بازدواج الشخصية . ولكن منفردين ، الان . لقد عدت الى طبيعتك . ولكن عليك ان لا تفكر بالفتاة طيلة النهار . وليس في وسعك ان تفعل شيئا لحمايتها ، الا بابقائها بعيدة عن المعركة التي تخوضها انت . وسيكون هناك مدد وافر

من الجياد اذا كنت تؤمن حقا بالبشائر . ولعل افضل ما تعمله لها ، هو ان تتقن القيام بواجبك وان تسرع به وان تخرج منه . اما التفكير فيها فسيعيقك عن عملك . اذن فلا تفكر فيها مطلقا .

وعندما وصل بتفكيره الى هذا الحد ، انتظر وصول ماريا مع بيلار ورافائيل والجياد . وقال لها .. هي يا حلوة .. كيف انت ؟

- انا بخير يا روبرتو .

- لا تقلقي من شيء .. ووضع يده على كتفها .

- لا يقلقني شيء .

- لقد تم تنظيم كل شيء . وسيكون رافائيل معك ومع الجياد .

- كنت اؤثر ان اكون معك .

وصهل احد الجياد ، فرد عليه جواد آخر من الثفرة الواقعة وراء الصخور .. واشتد الصهيل .

ورأى روبرت جوردان مجموعة الجياد الجديدة في الظلام . واندفع سريعا ليلحق ببابلو . وكان الرجال على صهواتها .

فقال روبرت .. تحية .

فردوا في ظلمة الليل .. تحية .

ولم يستطع تمييز وجوههم ..

وقال بابلو .. هذا هو الانكليزي القادم معنا .. انه الديناميتي .

ولم ينبس احدهم ببنت شفة .. ثم قال احدهم .. هيا بنا يا بابلو ، فسيدهمنا الفجر عما قريب .

وقال آخر .. هل اتيت بكمية اخرى من القنابل اليدوية ؟

- كمية كبيرة ، وستزودون بها عندما نترك الجياد .

فقال ثالث .. اذن دعنا نسير . لقد مضى علينا نصف الليل ونحن ننتظر

وقال آخر .. هولا .. بيلار ..

فقلت بيلار بصوت جاف .. علي اللعنة ان لم يكن يب ..! كيف انت
ايها الراعي .

فقال الرجل .. على احسن ما يرام .

وقالت بيلار .. ماذا تتركب ؟

- جواد بابلو الاشهب . انه حصان رائع .

وقال رجل آخر .. هيا بنا ، دعونا نسير . فليس من الخير ان نظل
نهمس هنا .

وقالت بيلار .. وكيف انت يا ايليكيو ؟

فقال بفظاظة .. وكيف يمكن ان اكون ؟ هيا يا امرأة ، فأمامنا عمل كثير

وامتطى بابلو الحصان الكبير .. وقال اغلقوا افواهكم والحقوا بي ..
وسأقودكم الى المكان الذي تتركون فيه الجياد .





وفي الوقت الذي قضاه روبرت جوردان نائما تلك الليلة ، أو قائما على تخطيط مشروعه لتدمير الجسر ، كان أندريه ، يخطو خطوات بطيئة ، الى ان وصل الخطوط الجمهورية ، قد ارتحل عبر مساحات شاسعة من الارض ، وعبر الخطوط الفاشية ، باسرع ما يمكن لرجل ريفي ، يتمتع بوضع صحي ممتاز ، ويعرف البلاد خير معرفة تمكنه من السير في حلقة الظلام . ولكنه لما وصل الى الخطوط الجمهورية ، اخذت حركته تبطيء شيئا فشيئا .

وكان في امكانه من الناحية النظرية ، ان يبرز جواز المرور الذي اعطاه اياه روبرت جوردان والمختوم بختم القيادة العامة ، والرسالة التي يحملها ، والتي تحمل نفس الختم ، لكي يمر عبر الخطوط بمنتهى السرعة الممكنة ، الى المكان الذي يقصده ، ولكنه قابل اول ما قابل ، قائد الفئة في الخط الامامي ، الذي نظر الى موضوع الرسالة كلها بعين الشك والريبة .

وكان قد سار مع قائد الفئة الى مقر قائد السرية ، الذي كان حلاقا قبل بدء الحركة ، والذي اشتعل حماسا عندما سمع بموضوع مهمته . وقد شتم هذا القائد ، قائد الفئة لبلادته ، وربت على ظهر أندريه ، وقدم له كاسا من الكونياك الرديء ، وقال له انه هو كان يتمنى لو اصبح من

رجال المصائب . وسرعان ما يقظ مساعده وسلمه قيادة السرية ، وبعث بتابعه ليوقظ له الجندي المولج بالدراجة النارية . وقرر غوميز ، وهو لم هذا الضابط ، ان يأخذ اندريه بنفسه الى مقر قيادة الكتيبتين ، ليسرع في مهمته ، وراحا بعد ان استقلا الدراجة النارية ، يقطعان الطريق التسي تحيط بها الاشجار ، الى ان وصلا الى مقر القيادة في البلدة اقربية ، حيث وجدا حارسا يفظ في نومه . امام بيت عتيق مهدم ، وعندما افاق الحارس ليؤدي التحية لغوميز كان هذا يدفعه بيده ويدخل مع اندريه الى غرفة كبيرة غطيت جدرانها بالخرائط حيث وجدا ضابطا غلب النعاس عليه يجلس الى مكتب عليه مصباح وجهازا هاتف ، ونسخة من الصحيفة اليومية

وتطلع الضابط الى غوميز وقال .. ما الذي اتى بك الى هنا ؟ الم تسمع في حياتك بوجود الهاتف ؟

فقال غوميز .. يجب ان ارى المقدم فورا .

– انه نائم . وكان في امكاني ان ارى انواز دراجتك على مسافة ميل وهي تهبط الطريق . اتريد ان تنصب علينا القذائف ؟
– يقظ المقدم ، فالموضوع في منتهى الخطورة .

– قلت لك انه نائم ، من هو هذا اللص ، الذي جئت به معك ؟

– انه من مناضلي المصائب . يعمل في الجانب الاخر من الخطوط ، ويحمل رسالة في منتهى الاهمية الى الجنرال غولز ، الذي يتولى قيادة الهجوم الذي سيقع فجر غد وراء نافاسيرادا . يقظ المقدم .. بحق السماء .

وتطلع اليه الضابط بعينين تبدو فيهما البلاهة وقال .. كلكم مجانيين . لا اعرف انسانا باسم الجنرال غولز ، او هجوما سيقع في الغد . خذ هذا الرياضي وعد به الى سريتك .

فقال غوميز ، واسنانه ترتعد .. ارجوك يقظ المقدم .

- أذهب عليك اللعنة .

وانتضى غوميز مسدسه من جيبه ووجهه الى الضابط ، وهو يقول ..
ايقظ المقدم ايها الوغد الفاشي ، والا قتلتك .

فقال الضابط .. هدىء من روعك . انكم جميعا معشر الحلاقين ،
شديبدو الهياج .

وراى اندريه الكراهية تتجلى في اوضح صورها في وجه غوميز ..
وقال .. ايقظه .

وهتف الضابط بصوت يشوبه الاحتقار .. المراسلة !

وجاء جندي الى الباب وادى التحية ثم خرج .

وقال الضابط ان خطيبته معه .. ثم عاد يقرأ في صحيفته ويقول .. لا
ريب في انه سيكون مسرورا من رؤيتك .

فقال غوميز للضابط .. لا ريب في ان الضباط من امثالك ، هم الذين
يحولون بيننا وبين كسب هذه الحرب .

ولم يكثرث به الضابط . ومضى يقرأ في صحيفته . وقال وكأنه يحدث
نفسه .. يا لها من صحيفة غريبة !!

فقال له غوميز .. لماذا لا تقرأ « الديبيت » ؟ انها صحيفتك المفضلة ..
وكانت هذه الصحيفة هي لسان حال الحزب الكاثوليكي المحافظ في مدريد
قبل الحركة .

وقال الضابط دون ان يرفع بصره .. لا تنسَ اني رئيسك ، وان لتقرير
مني عنك وزنه . انني لم أقرأ في حياتي تلك الصحيفة . فلا توجه الي
تهدا باطله .

فقال غوميز .. انك ما زلت تتهجأ في قراءتك . وقد مني الجيش برجال
من امثالك . اجل من امثالك المحترفين . ونحن واقعون بين الجهلاء

والاوغناد . ولكننا سنثقف الاولين ؛ ونبيد الآخرين .

فرد الضابط دون أن يرفع بصره . . ان كلمة نظهر ، هي المثلى التي كان من الواجب عليك أن تستعملها ؛ فيها هو مقال ؛ عن حركات تطهير اخرى يقوم بها الروس المشهورون . ولا ريب في أنهم يقومون في هذه الحقبة بحركات تطهير اكثر مما تقوم به شربات « الملح الانكليزي » .

فقال غوميز . . مهما كانت الكلمة التي تستعملها ، فان ما يجب استعماله من كلمة لامثالك هي « التصفية » .

– التصفية ! لا ريب في انها كلمة جديدة ، فيها بعض التعابير القشتالية .

– التقتل بالرصاص . هذه قشتالية . هل فهمت ؟

اجل ، ولكن لم ترفع صوتك ، فهناك آخرون غير المقدم ينامون في هذه القيادة . وقد ازعجني حماسك . وهذا هو السبب الذي كان يدفعني دائما الى الحلاقة بيدي . انني لم اكن ارغب في الحلاقين .

وتطلع غوميز الى اندريه وهز راسه ؛ وقد امتلأت عيناه ، بتلك الرطوبة التي تحدث عن الغضب والكراهية معا . ولكنه هز راسه ولم يقل شيئا ، اذ اختزن ما في نفسه الى فرصة تالية في المستقبل . وكان قد اختزن في صدره الكثير في هذه السنة ونصف السنة من عمله في الحركة وارتفاعه الى قيادة السرية . ودخل المقدم الآن الى الغرفة في « منامته » ، فوقف غوميز يؤدي التحية .

وكان المقدم ميراندا ، رجلا قصير القامة ، شاحب الوجه ، قضى حياته في الخدمة في الجيش ، وقد فقد حبه لزوجته في مدريد ، عندما فقد قدرته على الهضم وهو يعمل في خدمة الجيش في مراكش ؛ فانتقل الى صفوف الجمهوريين لانه لا يستطيع طلاق امراته ، واشترك في الحرب الاهلية برتبة مقدم . وكان طموحه ان ينتهي من هذه الحرب ، وهو ما زال في رتبته ؛ وقد دافع عن منطقتة فأبلى في دفاعه بلاء حسنا ، وكان كل ما يريد ان

يفوم بالدفاع كل ما هوجمت هذه المنطقة . وقد شعر بتحسن احواله
الصحية بسبب توافر الاطعمة في الحرب ، وكان لديه مخزون ضخيم من
املاح «الصودا» ، وفي مكنته ان يتناول حاجته من اقداح الويسكي كل
مساء . اما خليلته البالغة الثالثة والعشرين من عمرها ، فقد حملت منه
وهي على وشك الوضع . كثيرها من الفتيات اللاتي انضممن الى الجيش
في البداية كمتطوعات ..

وعندما دخل الغرفة . رد تحية غوميز ومد يده قائلا .. ماذا اتى بك
يا غوميز ؟ اعطني سيكارة يا بيب ..

واطلعه غوميز على اوراق اندريه ورسالته ، ونظر المقدم في جواز المرور
بسرعة ، ثم رفع راسه ليرى صورة اندريه ، ويطابقها على وجهه ، وابتسم
ثم اخنى راسه ، ثم اخذ ينظر الى رسالته بشوق . وبعد ان لمس الختم
باصابعه وفحصه اعاد الاوراق كلها الى اندريه . وقال .. وهل الحياة
قاسية هناك في الجبال !

فقال اندريه .. لا يا سيدي المقدم .

- هل بلفوك عن اقرب نقطة قد تعثر فيها على مقر قيادة الجنرال غولز؟
- نافاسيرادا . يا سيدي المقدم . قال لي الانكليزي انها ستكون في
مكان قريب من نافاسيرادا ، وراء الخطوط ، الى اليمين من هنا .

فقال المقدم - اي انكليزي ؟

- الانكليزي الذي يعمل معنا في التفجرات .

واخنى المقدم راسه . كانت مفاجئة جديدة لا يعرف تفسيرها من
مفاجئات هذه الحرب وغرائبها .

فقال المقدم - من الخير ان تحمله يا غوميز معك على دراجتك .. اما
انت يا بيب فمرهم بكتابة جواز مرور صريح الى مقر قيادة الجنرال غولز
لاوقعه انا . اسرع واطبعه على لالة الكتابة . وضع عليه ختمين .. ولا

ربب في انك يا غوميز تحتاج الى شراب قوي الليلة . وهذا ما يحتاجه الناس في ليلة الهجوم . ساعطيك شرابا قويا .. وتطلع الى اندريه وقال له بلطف .. اتريد شيئا تأكله او تشربه .

- لا يا سيدي المقدم . انا لست جائعا . وقد اعطوني بعض الكونياك في المركز الاخير ، واخشى اذا شربت اكثر ان يؤثر علي ،

فقال المقدم يسأله .. ارايت حركة او نشاطا من العدو في الجبهة المقابلة لجبهتي ؟

- كانت كالمعتاد يا سيدي المقدم . هادئة كل الهدوء .

وقال المقدم يسأله .. او لم اقابلك في سير سيدبلا قبل نحو من ثلاثة اشهر ؟

- اجل يا سيدي المقدم .

- هذا ما ظننته .. ثم ربت على كتفه وقال .. لقد كنت مع المعجوز انسيلمو . كيف هو ؟

- انه بخير يا سيدي المقدم .

- حسنا ، هذا يسعدني .. وجاء اليه الضابط بالورقة التي طبعها ، فقرأها ووقعها ، ثم قال لغوميز واندرية .. عليكما ان تبادرا بالذهاب . احرصا على الدراجة ، واستعملوا الضوء . ولن يحدث شيء من مجرد دراجة نارية . تحياتي الى الرفيق الجنرال غولز . فقد اجتمعت اليه بعد معركة بيغويرينوس . وبعد ان صافحهما قال .. احرصا على الاوراق ، فالرياح شديدة في الطريق .

وبعد ان خرجا ، فتح خزانته ، واخرج زجاجة وقدحا .. وصب لنفسه كأسا من الويسكي ، ثم ملاه بالماء من جرة قرب الحائط . واخذ يمتص الشراب بهدوء وبطء ، وقد وقف امام الخريطة الكبيرة المنشورة على الحائط ، يدرس احتمالات الهجوم في المنطقة الواقعة وراء نافاسيرادا .

وقال اخيرا للضابط .. يسرني ان غولز هو الذي سيقوم بالهجوم لا انا

.. ولم يرد عليه الضابط ، فتطلع اليه المقدم . وراه نائما ، وقد وضع
رأسه على ذراعيه . وبعد ان وضع المقدم جهازي الهاتف الى جانبي رأس
الضابط ، مشى الى الخزانة فملاً كأسا نائيا . وعاد الى خريطته من جديد

وامسك اندرية بفوميز الذي ادار محرك الدراجة ، وشق الضوء
المنبعث منها حلقة الليل ، ومضت بهما تنهب الارض على طرف ساقية
صغيرة ، وعندما وصلا الى مفترق الطرق ، رابا مجموعة من الشاحنات
الفارغة تهبط من الجبل .



اوقف بابلو جواده في الدجى ، وترجل عنه . وسرعان ما تبعه الباكون
 يترجلون عن جيادهم . واصفى زوبرت جوردان الى قرعة حوافر الجياد
 ومهيلها . وشم رائحة القذاره تنبعث من الجياد ومن القادمين حديثا .
 وكان بابلو يقف الى جانبه وقد انبعثت منه رائحة الخمر التي ظل طيلة
 النهار يحتسيها . واشعل سيكارة . وقد اخفاها في يده ، لئلا ينبعث الضوء
 منها . وجر منها نفسا عميقا ، وسمع بابلو يقول بنعومة . . هاتي جراب
 القنايل اليدوية يا بيلار بينما تربط الجياد .

وقال روبرت هامسا . . اوغسطين ، تعال انت وانسيلمو الان معي الى
 الجسر . اسمع اسمع معك جراب العتاد للمدفع الرشاش .

فقال اوغسطين . . اجل ولم لا .

ومضى روبرت الى المكان الذي تقف فيه بيلار ، كانت تنزع حمولة احد
 الجياد بمعونة بريمتيفو فقال لها بنعومة . . اسمعي يا امرأة .

فهيمت . . ماذا حصل ؟

لا شك انك تفهمين ان الهجوم ان يبدأ على المركز ، الى ان تسمعي صوت

القنابل وهي تتساقط .؟

- كم مرة يجب ان تعيد علي هذا القول ؟ لقد اصبحت كالمرأة الثرثرة
المجوز يا انكليزي .

- ان ما ارمي اليه هو التاكيد ليس الا . وبعد ان تدمروا الموقع تنسحبون
الى الجسر ، وتقيمون غطاء واقيا من النار على الطريق ، على جناحي الايسر
- لقد فهمت هذا من المرة الاولى التي شرحت لي فيها الخطة . . فسر
في مهمتك .

- يجب ان لا يتحرك اي انسان او يطلق اية رصاصة ، او يقذف اية
قنبلة ، حتى يبدأ القصف الجوي .

- لا تمتهني اكثر . لقد فهمت كل هذا منذ كنا في معسكر سوردو .

ومضى روبرت الى بابلو ، وكان هذا يربط الجياد وسمعه يقول . . لقد
كمت افواه الجياد التي يؤثر عليها الفزع فقط . اما هذه فقد ربطتها ،
بحيث تكفي جرة من الحبل لاطلاق سراحها .
- حسنا .

- وسأفهم الفتاة والعجري ، كيف يعملون مع الجياد . وكان رجاله
الجدد . يقفون في مجموعة واحدة وقد اتكأوا علي بنادقهم .

وقال روبرت . . هل فهمت كل شيء؟

فرد بابلو - اجل . علينا ان ندمر الموقع ، ونقطع اسلاك الهاتف ، ثم
ننسحب باتجاه الجسر ، لنلقي عليه غطاء من النار ، حتى تكون قد نسفته .
- على ان لا يبدأ اي شيء . حتى بداية القصف الجوي .
- هذا مسا سيئع . .

– اذن اتمنى لكم حظاً سعيداً .

وقال بابلو هامسا .. وانت ستقوم بتعطيتنا بالمدفع الرشاش . والمدفع الصغير ، اثناء تراجعنا . اليس كذلك . يا انكليزي ؟

– هذا اول شيء .

– اذن فلم يعد هناك شيء . ولكن عليك ان تكون شديد الحرص في تلك اللحظة يا انكليزي ، ليس من السهل ان تقوم بهذا الا اذا كنت حريصاً كـل الحرص .

– سأقوم انا باطلاق النار من المدفع الرشاش .

– وهل أنت خبير به ؟ اذ انني لا اربغ في ان اموت على يدي اوغسطين الذي يمتلئ بقلبه بالنوايا الطيبة .

– انني واسع التجربة والخبرة به . وهذا قول حق . واذا قدر لاوغسطين ان يطلق النار من احد المدفعين فسأؤكد بنفسى . من ان نيرانه ستكون فوق رؤوسكم .

– اذن لم يبقَ شيء .. وعاد يقول بنعومة وهمس .. ما زلنا بحاجة الى بعض الجياد .

وقال روبرت يحدث نفسه .. يا له من ابن زانية . اويظن اني لم افهمه منذ المرة الاولى . ثم قال روبرت .. سأسير على قدمي . فالجياد من شأنك .

فقال بابلو بنعومة .. لا . سيكون لك جواد يا انكليزي . وسيكون لكل منا جواده .

فقال روبرت .. هذا شأنك . على كل حال يجب ان لا تحسب حسابي . او لديك عتاد كاف لمدفك الرشاش الجديد ؟

– اجل ، كل ما يمكن للفارس ان يحمله . ولم اطلق منه الا اربع عبارات لاجربه . وقد جربته امس في الجبال العالية .

– اذن فلنمض الان . وعلينا ان نكون في مواقعنا في ساعة مبكرة وان
نجيد الاختفاء .

فرد بابلو .. اذن فسنمضي جميعا .. تحية يا انكليزي ..

وقال روبرت جوردان لنفسه .. لا ادري ماذا يخطط هذا الوغد . ولكنني
على ثقة من انني اعرف . على كل حال . هذا شأنه وليس شاني . وشكرا
لله ، انني لا اعرف هؤلاء الرجال الجدد .

ومد روبرت يده اليه يصافحه وهو يقول .. تحية يا بابلو .. وتماسكت
يداهما في الظلام .

وكان روبرت ينتظر عندما مد يده ليصافحه ، انه سيلمس شيئا كالشعبان
او الأفعى . ولم يكن يعرف حقيقة يد بابلو . ولكن بابلو امسك بيده بقوة ،
وضغط عليها بشدة ، فرد عليه بقوة مثلها . كانت يد بابلو طيبة في الظلام ،
واحسن روبرت عندما امسك بها بشعور غريب ينتابه ذلك الصباح . فمن
الواجب ان نكون حلفاء الان . والمصافحة دائما من شأن الحلفاء ، هذا اذا
لم نذكر الاوسمة والقبيل على الوجنات .. آه كم يسرني انني لم ارغم على
تقبيله . وبقينا ان جميع الحلفاء ، هم على هذه الشاكلة ، يكرهون بعضهم
البعض . لكن بابلو رجل غريب على كل حال .

وقال روبرت وهو يشد يد بابلو .. تحية يا بابلو . لا تخف . فساؤمن
لك الغطاء الناري اللازم .

– يؤسفني انني اخذت اشياءك .. كانت مجرد مغالطة .

– ولكنك اتيت بما نحتاج اليه .

– انا لا احمل ضغينة تجاهك في موضوع الجسر يا انكليزي . فقد بدأت
ارى نهاية ظافرة له .

وقالت بيلار . وقد ظهرت فجأة الى جانبهما في الظلام .. ماذا تفعلان ؟

لقد اصبحتما عشيقين . هذا كل ما كنتما تفتقران اليه . . هيا يا انكليزي
واختصر وداعك ، قبل ان يسرق هذا ما تبقى من متفجراتك .

– انت لا تفهميني يا امرأة . ولكنني والانكليزي ، نفهم بعضنا بعضا .
– فقالت بيلار : لا يستطيع انسان ان يفهمك حتى الله . او حتى امك .
ولا انا ايضا . . هيا يا انكليزي ، ودع حبيبتك ، وامض في طريقك ، والا
فقد بدأت اشك في انك قد اصبحت تخاف من خروج الثور .

فقال روبرت . . امه . . ؟؟

فهمست بيلار ضاحكة . . لم تكن له ام . اما الان فاذهب ، فبي توق
زائد الى البدء بهذا الامر والخلص منه . . وانت يا بابلو ، امض مع رجالك
فلا يدري احد الى متى يدوم تصميمهم . فممك رجلان لا اشتريهما بقرش
خذهم واذهب .

وحمل روبرت جرابه الى ظهره ، ومضى باتجاه الجياد يبحث عن ماريما .
وقال . . وداعا يا حلوة . . ساراك قريبا .

واحسن بشيء غير واقعي ، يساوره ، وكأنه يقف امام قطار على وشك
المسير ، اجل وكأنه يقف امام القطار على رصيف المحطة .

فقالت ماريما . . وداعا يا روبرتو . . واحرص على نفسك .
– طبعاً واحنى راسه ليقبلها فتدحرج الجراب على مؤخره راسه ،
حتى انه اصطدم بها بعنف . .

وقال . . لا تبكي . .

– وانا لا ابكي ، ولكن عد سريماً .

– لا تخافي عندما تسمعين اطلاق النار . فمن المتوقع ان تشتد المعركة .

– لا . ولكن عد سريماً .

- وداعا يا حلوة ..

- وداعا يا روبرتو .

ولم يكن روبرت جوردان ، قد أحس بما يحس به الان من شباب ، منذ استقل القطار لأول مرة في « ريد لودج » ماضيا الى المدرسة . كان خائفا من الذهاب الى المدرسة ولم يكن يرغب في ان يعرف احد بأنه ماض اليها ، وعندما وصل الى المحطة ، ورفع موظف القطار السلم ، قبله والده وهو يقول « ليرعُ الله ما بيننا ونحن بعيدان عن بعضنا » . لقد كان ابوه رجلا متدينا للغاية ، وكان ينطق بهذه الاقوال ، في منتهى البساطة والاخلاص . ورأى روبرت وقد امتلأت عيناه والده وشواربه بالدموع ، فاحتار روبرت من هذه الصلاة ، ومن هذه العواطف ، ومن تلك القبلة الوداعية التي زوده بها والده ، وأحس فجأة ، انه اكبر من سنه بكثير ، واكبر من والده ، الذي رثى لحالته .

وعندما تحرك القطار ، وقف في مؤخرة العرببة . يرقب المحطة ، واخذ خزان الماء يتضاءل امامه شيئا فشيئا الى ان اصبحت المحطة كلها بما فيها نقطة صغيرة في الأفق . وسمع عامل الغرملة يقول .. يبدو يا بوب ان والدك قد تأثر كثيرا لفراقك .

فقال وهو ينظر الى اعمدة البرق ، تمر به مسرعة .. اجل ..

فقال العامل .. اولا يزعجك الذهاب الى المدرسة يا بوب ؟

- لا .

لقد كان صادقا في قوله آنذاك ، وقد أحس الآن ، في هذه اللحظة من الفراق ، بنفس الاحساس الذي شعر به في المحطة ، ورأى نفسه فتيا من جديد .. اجل لقد أحس بالشباب يتدفق في عروقه ، وشعر بشيء من الخجل والتردد ، وهو يودع ماريا ، تماما ، كما يفعل الصبي عندما يودع فتاته ، فلا يدري اذا كان من واجبه ان يقبلها اولا . وسرعان ما عرف ان

الوداع لم يكن العامل في هذا الحياء والخجل ، وانما كان اللقاء الذي سيمضي
اليه ، فالوداع لا يعدو ان يكون جزءاً من اللقاء الذي ينتظره .

وقال لنفسه .. ها قد عدت الى افكارك من جديد .. ولكنني افترض
ان ليس ثمة من انسان لا يشعر بالفتوة في مثل هذا الوضع .. وعاد يقول
لنفسه .. هيا . هيا . ما زال الوقت مبكراً على طفولتك الثانية .

وقال لماريا .. وداعا يا حلوة ، وداعا يا ارنبة !

فقالت ماريا .. وداعا يا روبرتي .

ومضى الى حيث يقف انسيلمو واوغسطين ، وقال لهما .. هيا ..
وحمل انسيلمو حمله الثقيل ، بينما كان اوغسطين قد وضع حمله الثقيل
ومدفعه الرشاش يتكئ على شجرة بجانبه .

فقال اوغسطين .. حسنا ! هيا .

وبدا الثلاثة يهبطون التل .

وقال فيرناندو .. عندما رأيهم يمرون به بين الاشجار .. اسعدتم مساء

فقال روبرت .. اسعدت مساء يا فيرناندو .

وقال اوغسطين .. وحظ سعيد في كل ما تعمله .

فقال فيرناندو .. شكرا يا دون روبرتو ..

وهمس اوغسطين .. لا ريب في ان ذلك الانسان ظاهرة طبيعية قائمة
بتنفسها .

فقال روبرت .. انك صادق .. هل باستطاعتني ان اساعدك ؟ انك
مثقل بالاعباء كالحصان .

وقال انسيلمو .. لا ترفعا صوتيكما . فمنذ الآن ، اقصرا حديثكما على
الضروري جدا ، ولا ترفعا الصوت .

واخذوا يسيرون بحرص بالغ ، وانسيلمو في المقدمة ، يتبعه اوغسطين ،
فروبرت . الذي كان ينقل خطوه بحرص بالغ ، مستخدما يده اليسرى في
الاتكاء على جذوع الاشجار ، حتى وصلوا الى النقطة القائمة فوق الجسر ،
حيث كان روبرت جوردان ، وانسيلمو ، يرقبان الطريق في اليوم الاول .

وتوقف انسيلمو عند شجرة صنوبر ، وامسك بمعصم روبرت جوردان ،
وهمس بصوت خفيض لا يكاد يسمعه روبرت . . انظر لقد اشعل النار في
وعائه النحاسي .

كانت هناك شعلة من النار ، عند نقطة التقاء الجسر بالطريق .

وقال انسيلمو . . لقد كنا نرتقبهم من هذه النقطة . وعاد يمسك بمعصم
روبرت ، وينحني معه الى الارض ، ليلمس ، جذع شجرة وهو يقول . .
لقد تركت هذه الإشارة ، عندما كنت تراقب الطريق في المرة الماضية . والى
اليمين ، يوجد المكان الذي اردت ان تنصب فيه المدفع الرشاش .

— سنضعه هناك .

— حسنا .

وانزلوا ما يحملونه وراء جذع الشجرة . ولحق الرجلان بانسيلمو ، الى
المنبسط الذي توجد فيه بعض الفروع من شجيرات الصنوبر . وقال
انسيلمو . . انه هنا . هنا تماما .

وقال روبرت هامسا في اذن اوغسطين . . من هذه النقطة عندما يطلع
الضوء ، ستري جزءاً من الطريق ، ومدخل الجسر من هذه الناحية ، ثم
تري الجسر كله وجزءاً من الطريق من الجانب الآخر ، قبل ان تلتفت حول
المنمطلف وراء الصخور .

ولم يحرك اوغسطين جوابا . . ومضى روبرت يقول . . وعليك ان تنبطح
هنا ، وان تطلق النار على كل من يأتي صاعدا اوهابطا ، بينما نعد نحن
المتفجرات .

وسأل اوغسطين . . واين ذلك الضوء الظاهر ؟

فهمس روبرت . . انه في ملاذ الحارس في هذا الطرف من الجسر .

– ومن سيعالج موضوع الحارسين ؟

– انا والرجل العجوز ، كما قلت لك . واذا لم نستطع ، فعليك ان تطلق النار على ملاذيهما ، او عليهما اذا رايتهما .

– اجل . لقد افهمتنى ذلك .

– وبعد الانفجار ، عندما تصل جماعة بابلو ، الى تلك الزاوية ، عليك ان تطلق النار فوق رؤوسهم ، عندما يظهرون ، حتى لا يصل اليهم اي اعداء . هل فهمت ؟

– لم لا ؟ انه كما قلت ليلة امس .

– الديك سؤال ؟

– لا . معي جرابان . في وسعي ان احملهما من المكان العلوي وان آتسي بهما الى هنا .

– ولكن لا تقم بحفر اي شيء . عليك ان تظل مختفيا تماما كما كنا عند القمة .

– لا . ساتي بالطمى فيهما والدنيا لا تزال مظلمة . وسترى بنفسك . لن يظهر ابدأ عندما اثبتهما في الارض .

– انك قريب جدا . وستظهر الكومة التي تعتزم اقامتها عند طلوع النهار

– لا تقلق يا انكليزي . اين تذهب انت .

– سأهبط الى مكان قريب ، مع مدفعي الرشاش الصغير . اما العجوز ، فسيمبر المضييق الان الى الناحية الاخرى ليكون على استعداد للملاذ الاخر ان الملاذ يتجه الى الناحية الاخرى .

– اذن لقد انتهينا ، تحية يا انكليزي . الديك بعض الطباق ؟

- لا تستطيع أن تدخن هنا . أن المكان قريب جداً .
- لا . لن ادخن . ولكن اضع اللقافة في فمي . وادخنها فيما بعد .
- وناوله روبرت علبه لثافته . فتناول منها ثلاثا . وضمها في قلسوته .
ثم شرع يضع كل شيء في المكان الذي يريد . ثم قال .. اهناك شيء آخر؟
وتركه انسيلمو وروبرت في مكانه ، وعادا الى حيث تركا متاعهما .
- وهمس روبرت .. اي مكان افضل لنترك هذه الحاجيات فيه .
- امتقد أن هذا هو المكان الافضل . ولكن هل تستطيع التأكد من اصابة
الحارس بمدفعك الصغير من هذا المكان ؟
- اهذا هو المكان الذي كنا فيه في ذلك اليوم ؟
- اجل هذه هي الشجرة عينها . وقد وضعت فيها علامة بمطواتي .
- وأحس روبرت جوردان من جديد ، بذلك الشعور من الاعداء والتكرار
يعاوده ، وكان مصدر الشعور في هذه المرة مجرد السؤال الذي وجهه الى
انسيلمو ، ورد هذا عليه . وكان نفس هذا الموقف قد حدث مع اوغسطين
الذي اعاد السؤال عن الحرس ، مع انه يعرف الرد عليه .
- وقال روبرت .. انه قريب جداً ، بل اقرب من اللزوم ، ولكن الضوء
يقف وراءنا . فالمكان مناسب جداً .
- اذن فسأمضي الآن لمبور المضيق ، ولا اتخذ مركزي في الطرف الاخر
.. ثم قال : اسمع لي يا انكليزي ، حتى لا يقع أي خطأ . مخافة ان لا
اكون بليداً .
- قل ، ماذا ؟
- مجرد التكرار ، حتى لا يقع في خطأ .
- هندما اطلق انا النار ، تطلقها انت . وعندما يقضى على رجلك ، امبر

الجسر الي . وستكون معدات التفجير هناك ، وتنفذ انت ما اطلبه منك ،
في وضع المتفجرات . سأفهمك كل شيء ، فأكمل التفجير انت كما علمتك .
واحرص على ان يكون العمل متقنا .

– لقد غدا كل شيء واضحا لي . وانا اذكر كل شيء . اذن فسأذهب
الآن . حافظ على ان يروك عندما يطلع النهار ، يا انكليزي .

وعندما تطلق النار ، تريث برهة ، وتأكد من اصابتك للرجل . لا تفكر
به كرجل وانما كهدف . ولا تطلق النار على كل مكان فيه ، بل على نقطة
معينة . اذا كان يواجهك فاستهدف منتصف بطنه . واذا كان وجهه الى
الناحية الاخرى ، فاطلق النار على وسط ظهره . اسمع ايها الرجل العجوزة
عندما اطلق النار ، اذا كان رجلك جالسا ، فسيقف قبل ان يركض او
ينبطح . اطلق النار تلك اللحظة . اما اذا ظل جالسا فاطلق عليه النار ولا
تنتظر . ولكن تأكد . اقترب الى مسافة خمسين ياردة ، وانت صياد
ماهر ولن تجد مشكلة .

– سأنفذ أوامرك بحذافيرها .

– اجل ، فانا آمرك بذلك .

وطافت فكرة في رأس روبرت . . لقد سره انه تذكر موضوع الامر .
فهذا الموضوع يساعده كثيرا ، اذ ينقذ العجوز من بعض متاعبه . . ومضى
يقول لنفسه . . أمل ان الامر سيساعده . فقد نسيت ما حدثني به عن
موضوع القتل في ذلك اليوم .

ثم عاد روبرت يقول . . هذه اوامري . والآن هيا .

– الى اللقاء القريب يا انكليزي .

وتذكر روبرت وداع والده في اللحظة والدموع في عينيه ، ولم ينبس
ببنت شفة . . ولكنه عاد يقول . . وهل مسحت الزيت عن بندقيتك ايها
العجوز . . حتى لا يرتفع صوتها .

- اجل في الكهف .. لقد نظفتها تماماً ،

- اذن فالى اللقاء .

ومضى العجوز ، بين الاشجار .. وانبطح روبرت على أرض الغابة ،
واخذ ينصت الى اول نامة بين فروع الصنوبر ، من الرياح التي ستهب مع
الفجر . واخذ يجرب حركة مدفعه الصغير ، ثم شرع ينفخ في فوهته ،
واחס بالزيت على لسانه . ووضع البندقية على ذراعه . واخرج العيارات
فوضعها في مندبل اخرجه من جيبه . واخس يحس كل طلقة بيده من
جميع جوانبها ، ويدخلها في مكانها باصابعه في المشط . ونقل المشط في
يده ، فوضعه داخل البندقية . وانبطح على بطنه وراء الشجرة ، وقد
حمل البندقية في ذراعه ، يرقب الضوء المنبعث من الطريق .. وظل روبرت
جوردان ينتظر طلوع النهار .



كان اندريه في غضون ذلك كله ، يسارع في طريقه الى مقر قيادة غولز ، وقد استقل الدراجة النارية مع غوميز . ولقيا في الطريق دورية خفارة ، فاطلع غوميز افرادها على جواز المرور الموقع من المقدم ميراندا ، فسمحوا لهما بالمرور ، على ان تسيير الدراجة بلا ضوء .

وواصلت الدراجة سيرها صاعدة مع الطريق ، بينما كانت الشاحنات الهابطة دون ان تضيء انوارها في قافلة طويلة . وكان ثمة بعض الشاحنات الصاعدة ايضا ، وقد اثارت جميعها سحباً كثيفة من التمع . حتى تعذر على اندريه ان يبرى .

واجتاز غوميز شاحنة صاعدة ، فثانية ، فثالثة ، بينما كانت الشاحنات الهابطة تسيير الى شماله . ومر غوميز بعدد من السيارات الصغيرة ، وسيارات الاسعاف ، وسيارات اركان الحرب ، والسيارات المدرعة . ووصلا الى دورية جديدة ، في مكان وقع فيه اصطدام ، بين شاحنتين ، اذ وقفت الامامية فجأة فجاءت الثانية وصدمتها من مؤخرتها ، وحطمتها ، ونثرت ما تحمله من صناديق العتاد على الطريق . وتوقفت مئات المياريات في خط طويل ، الى ان يتم اخراج الشاحنة المحطمة عن الطريق . وكان

هناك ضابط ، يركض صاعدا مع الطريق ، وهو يحمل مصباحه الكهربائي بيده ، يحذر السيارات من المضي في سيرها ويأمرها بالوقوف ، بينما الشاحنات مستمرة في المجيء .

وامسك احد رجال الدورية بجواز المرور الذي يحمله غوميز ، ينظر فيه ، ثم مضى عندما رأى سيارة الى الجانب الاخر من الطريق ، فطلب السائقها . ان ينقل الى الدورية الاولى ما حدث ، وأن يطلب اليها وقف سير الشاحنات الى ان يتم الخلاص من هذه المشكلة . وعاد الجندي وهو يحمل الجواز بيده ، وصرخ بسائق السيارة التي تبعثرت صناديق العتاد منها قائلا .. اترك كل شيء ، بحق الاله ، حتى نظف الطريق ، وواصل السير .

— لقد توقف جهاز الارسال معي .

— لعنة الله على جهاز ارسالك ، اكمل السير .

فقال السائق .. ولكنها لا تسير ..

— اذن اطلب الى السيارة الامامية ان تسحبك ، حتى نخرج السيارة المهشمة من الطريق .

ووقف السائق جامدا في مكانه .. فهتف به الجندي ، وجواز المرور ما زال في يده دون ان ينظر اليه .. هيا ، تحرك ..

وقال غوميز .. واوراقي .. جواز مروري .. نحن في مهمة مستعجلة .

— خذ جواز مرورك الى الجحيم .

ومد الجندي يده بالجواز اليه ، وركض الى الجانب الاخر من الطريق ، حيث كانت هناك سيارة هابطة .. وقال لسائقها .. عندما تصل الى مفترق الطريق ، ادر سيارتك وقف في عرض الطريق ..

— ولكن اوامري ..

— لعنة الله على اوامرك .. اعمل كما اقول .

وإدار السائق محرك سيارته ، ومضى يفتد سيره في الطريق ، وقد لفه
الفتبار .

وعاد غوميز يدير محرك دراجته ، فانطلقت بهما الآن مسرعة ، في الجزء
الخالى من الطريق بعد السيارة المهشمة . ومضيا يصعدان الجبل . كانت
السيارات الهابطة تسيير وحدها الآن ، وغذت الدراجة سيرها الى ان
لحقت بالشاحنات التي كانت قد مرت قبل وقوع الحادث .

ومرت الدراجة بآربع سيارات مصفحة ، وبعدد من الشاحنات التي تقل
الجنود . وكان هؤلاء الجنود يملأون السيارات ، وقد خيم عليهم الصمت
ورأى اندريه سيارة من سيارات الضباط ، أمام هذه الشاحنات ، وهي
تبعث بنورها فرأى على ضوئها الجنود بخوذاتهم الفولاذية ، يحملسون
البنادق بشكل أفقي ، وقد اتجهت مدافعهم الرشاشة الى السماء . ورأى
على ملامح الجنود ، آثار الأسي ، اذ أنهم يعرفون وحدهم أنهم يسرون الى
الهجوم ، فكان كل واحد منهم ، يفكر في مشاكله الخاصة .. ولكن هذا
التفكير سينتهي حتما عندما يبدأ القصف الجوي ، ويشرع في الهجوم .

واستمر اندريه ، يمر بهذه الشاحنات واحدة اتر اخرى ، وهو يسبق
سيارة القيادة .. وشرع اندريه يحدث نفسه .. يا له من جيش ، ويا لها
من معدات ، ومن قوات آلية . أنظر الى هؤلاء الناس ، أنهم جيش
الجمهورية . أنظر اليهم . أنهم في شاحنة وراء شاحنة . لباسهم واحد ،
وخوذهم الفولاذية واحدة ، ومدافعهم الرشاشة تتجه الى السماء لمقابلة
الطائرات عند مجيئها ، هذا هو الجيش العظيم الذي اقامته الجمهورية .

ورأى سيارات أخرى ، تختلف عن سابقتها ، وكلها ، تمضي في طريقها
صاعدة الجبل ، والدراجة تنطلق بهما مرة بهذه السيارات ، وادرك أن
ركوبه لهذه الدراجة قد مكنه من رؤية أشياء ما كان يتوقع في حياته ان
يرأها . وايقن الآن انه لن يستطيع العودة هذه الليلة الى رفاقه للاشتراك

في المعركة ، وسط هذا الضجيج والعجيج ، وانه سيكون سعيدا اذا ما تمكن من العودة في ليلة الفد . انه لم يسبق له ان رأى قط هجوما ، او اية استعدادات من هذا النوع للهجوم . وقد اعجب بقوة هذا الجيش وضخامته .

ووصلت الدراجة الى قمة الجبل ، واضطر الى الهبوط عنها ، والسير الى جوارها . وبعد ان مر بالقمة ، كان هناك منعطف ، ومكان تستطيع السيارات ان تدور فيه على نفسها ، ورايا بناء ضخما تنبعت منه بعض الاضواء . وقال غوميز .. دعنا نمضي الى هناك لنسأل عن مقر القيادة . . . ووصلا الى مكان يقف فيه حارسان امام باب معلق في البناء . واركن غوميز الدراجة الى الحائط . عندما رايا ، جندي مراسلة من راكبي الدراجات النارية ، يخرج من الباب المعلق ، وهو مرتد ملابس من الجلد ، وعلى كتفه حقيبة رسائل ، والى جانبه مدس « موزر » ومضى الجندي الى دراجته فاستقلها ومضى صاعدا في الطريق .

وتحدث غوميز الى احد الحارسين . فقال .. انا الرئيس غوميز من الكتيبة الخامسة والستين . هل في وسعك ان تدلني على مقر قيادة الجنرال غولز الذي يقود الفرقة الخامسة والثلاثين ؟

فقال الحارس .. انها ليست هنا .

- اذن ما هذا المكان ؟

- القيادة .

- اية قيادة ؟

- القيادة .

- قيادة ماذا ؟

- لماذا تسأل كل هذه الاسئلة ؟

- انا الرئيس روجيليو غوميز قائد السرية الاولى في الكتيبة الخامسة والستين ، وانا اطلب اليك ان تدلني على مقر قيادة الجنرال غولز .

وفتح الحارس الباب قليلا . وقال : « استدعو عريف الحرس » .

ووصلت في تلك اللحظة سيارة كبيرة من سيارات القيادة واستدارت متجهة الى البناء الضخم الذي يقف غوميز واندرية ، في مدخله . في انتظار عريف الخفر . واتجهت السيارة نحوهما . ووقفت .

وخرج من السيارة رجل ضخم الجسم ، كبير السن ، يضع على رأسه « بيريه » من الخاكي . وعليه معطف ، وفي يده حقيبة خرايط ، وانسى جانبه مسدس ، ومعه رجلان في زي ضباط اللواء الاجنبي .

وكان يتحدث بالفرنسية التي لا يفهمها اندرية ، ولا يفهم غوميز منها الا بضع كلمات . ويخاطب سائقه ، طالبا ابعاد السيارة عن المدخل ، ونقلها الى الملجأ .

وعندما وصل الى الباب مع الضابطين الآخرين ، رأى غوميز وجهها بوضوح في الضوء فعرفه اذ سبق له ان رآه في بعض الاجتماعات السياسية وقرا له بعض المقالات المترجمة من الفرنسية في صحيفة الجمهورية . اجل لقد عرفه غوميز بحاجبيه الكثين ، وعينيه الرماديتين ، وذقنه المزدوجة . وعرف فيه الشخصية الثورية الفرنسية المعاصرة والمعلمة التي قادت عصيان الاسطول الفرنسي في البحر الاسود . وكان غوميز يعرف مكانة هذا الرجل في اللواء الدولي ، ويعرف انه يعلم تماما مقر قيادة غولز . فيستطيع ارشاده اليه . ولم يكن قد عرف ما صنعه الزمن والغفل والمرارة في الداخل وفي السياسة ايضا ، والطموح الفاشل بهذا الرجل . وان مجرد سؤاله ، قد يكون امرا خطيرا كل الخطورة . ولما كان يجهل كل شيء عن ذلك ، فقد تقدم اليه ، وادى التحية وقال : ايها الرفيق ماسارت ، اننا نحمل رسالة هامة الى الجنرال غولز . فهل لك ان ترشدنا الى مقر قيادته ان الرسالة في منتهى الاهمية والالحاق .

وتطلع الرجل الطويل الضخم ، الى غوميسز ، واخذ يفحصه بنظره

بعناية .. وكانت تبدو على وجهه آثار الانهيار والضعف .

وقال لغوميز بلهجة اهل كاتالونيا .. ماذا معك ايها الرفيق .. ؟ وادار نظره بصورة خاطفة الى اندريه ثم عاد الى غوميز .

- معنا رسالة الى الجنرال غولز ، يجب ان نسلّمها في مقر قيادته ايها

الرفيق ماسارت .

ومن اين جاءت الرسالة ؟

- من وراء الخطوط الفاشية .

ومد اندريه ماسارت يده ، فنناول الرسالة والاوراق الاخرى ، وتطلع اليها ثم وضعها في جيبه . وقال لعريف الحرس : اعتقلهما معا . وفتشهما ثم ابعت بهما الي عندما اطلبهما .

ومضى ماسارت يدخل البناء الفخم والرسالة في جيبه .

وقام رجال الحرس بتفتيش غوميز واندريه في غرفة الحرس الخارجية

وقال غوميز .. ماذا دها ذلك الرجل ؟

فقال الحارس .. انه مجنون .

فقال غوميز .. لا . انه شخصية سياسية ذات أهمية بالغة . انه رئيس القومسيارين السياسيين للكتائب الدولية .

فقال لعريف الحرس .. ومع ذلك فهو مجنون . وماذا تعملون وراء الخطوط الفاشية ؟

- هذا الرفيق من مناصلي المصائب هناك . انه يحمل رسالة الى الجنرال غولز .. انتبه الى اوراقى والى تقودي ، والى تلك الرصاصات المرابطة بالشريط . انها من الجرح الاول الذي اصبت به في غواداراما .

فقال لعريف .. لا تخف سيكون كل شيء في هذا الدرج . لماذا لم تسألني عن مكان وجود غولز ؟

- لقد حاولنا . وقد سألت الحارس واستدعاك .

- ولكن جاء آنذاك ذلك الرجل المجنون ، فسألته . يجب ان لا يساله انسان عن اي شيء . اما مكان غولز فهو صعدا في هذه الطريق على مسافة ثلاثة كيلومترات من هنا الى اليمين ، في صخور الغابة .

- الا تستطيع ان تسمح لنا بالذهاب اليه الآن ؟

- لا . سيكلفني ذلك راسي . يجب ان آخذكما الى المجنون . ثم لا تنس ان رسالتكما معه الآن .

- الا تستطيع ان تبلغ اي انسان ؟

- اجل ، استطيع ان ابليج اول مسؤول اراه . فالكل يعرف انه مجنون .

- كنت انظر اليه دائما على انه شخصية عظيمة يمثل امجاد فرنسا .

- قد يكون مجدا في ذاته . ولكنه مجنون . وهوايته قتل الناس بالرصاص .

- قتلهم بالرصاص حقا ؟

- ان ذلك العجوز يقتل من الناس اكثر من الطاعون . ولكنه لا يقتل الفاشيين كما تقتلهم . انما يبحث عن الاشكال الغريبة من التروتسكيين والمنحرفين وغيرهم .

ولم يستطع اندريه ان يفهم شيئا من كل هذا .

ومضى العريف يقول . . وعندما كنا في ايسكوريال ، قتلنا له عددا كبيرا من الناس . كنا فريق الرماية له . ولم يكن في وسع رجال الافواج ان يقتلوا زملاءهم . ولا سيما الفرنسيين . ولتجنب المضاعف ، كنا نحن نقوم باداء هذه المهمة . لقد قتلنا فرنسيين وبلجيكيين ، ورجالا من مختلف الاشكال والجنسيات . دائما لاسباب سياسية . انه مجنون . وهو مطهر اكثر من السالفرسان ؟

- ولكن ارجو ان تبلغ احد الناس بقصة هذه الرسالة ؟

- طبعاً . بكل تأكيد . فانا اعرف كل رجل في هاتين الكتبتين : وكل شخص يمر بنا هنا . وانا اعرف حتى الروس منهم . مع ان القليلين منهم يعرفون الاسبانية . وسنحول بين هذا المجنون وبين قتل الاسبانيين .
ولكن الرسالة .

- لا تخش على الرسالة ايها الرفيق . فنحن نعرف كيف نتعامل معه . انه خطر مع جماعته . ونحن نفهمه تماما الآن .
وانطلق صوت اندريه ماسارت من الداخل يقول . ادخل السجنين .

وسالهما العريف - اتريدان شرابا ؟

- ولم لا .

وتناول العريف زجاجة من اليبانسون من خزانة ، وشرب كل من غوميز واندريه والعريف ثم دعاهما الى الدخول ، فدخلوا من غرفة الحرس ، وقد انتهت أحشاؤهم من دماء الشراب . الى الغرفة التي يجلس فيها ماسارت وراء مكتب كبير ، وقد نشر امامه خريطة ، وحمل قلمه الاحمر والازرق بيده . وكان المنظر جديدا ايضا بالنسبة الى اندريه ، بالإضافة الى المناظر الجديدة الكثيرة التي رآها تلك الليلة . ولكنه شرع يهدىء من روع نفسه ، وهو يقول ، انه ما دامت اوراقه صحيحة والرسالة موجودة فليس ثمة من خطر . . ولكن الرسالة مستمجة وقد طلب اليه الانكليزي ايصالها بسرعة ، وها هو هذا العجوز يضمها في جيبه . وادرك اندريه نهائيا ان من المستحيل عليه ان يعود ليشارك في عملية الجسر .

وقال ماسارت . . قفا بصيدا .

وهنا قال غوميز . . وقد اكسبه الشراب قوة وجرأة وغضبا . . اسمع ايها الرفيق ماسارت . لقد تأخرنا مرة الليلة ، بفضل جهل الفوضويين . ثم تأخرنا ثانية بحماقة فاشي بيروقراطي ، والان نتأخر للمرة الثالثة بفضل الاغراق في شكوك شيوعي .

فقال ماسارت .. اغلق فمك . اننا لسنا في اجتماع .

وقال غوميز .. ولكن القضية في منتهى الخطورة وتتطلب السرعة ايها الرفيق ماسارت .

وكان العريف والجندي يرقبان المشهد ببالح الاهتمام واللذة ، وكانه فصل من مسرحية ، رايها عدة مرات ، ولكن في وسعهما ان يتحملا مشاهدة بعض مناظرها الرائعة مرارا وتكرارا .

وقال ماسارت .. كل شيء على جانب كبير من الاهمية والخطورة .. واخذ ينظر اليهما الان ، وفي يده قلمه . ثم قال .. وكيف عرفتما ان غولز هنا ؟ الا تعرفان الخطورة في ان يصل انسان ليسال عن جنرال فرد ، يوشك ان يقوم بهجوم ؟ وكيف كان في وسعكما ان تعرفا ان هذا الجنرال موجود هنا الان ؟

فقال غوميز لاندرية .. قل له انت .

فبدأ اندرية حديثه قائلا .. ايها الرفيق الجنرال .. ولم يصحح اندرية ماسارت خطاه في اهداق هذه الرتبة عليه .. لقد اعطيت هذه الرسالة في الجانب الثاني من الخطوط .

فقال ماسارت .. من الجانب الثاني من الخطوط ؟ اجل لقد سمعته يقول انك جئت من الخطوط الفاشية

ومضى اندرية يقول .. وقد سلمنيها ايها الرفيق الجنرال ، انكليزي يدعى روبرتو ، جاء الينا ليحلم كديناميتي ، وليقوم بنسف الجسر . هل فهمت ؟

فقال ماسارت .. اكمل قصتك .. وقد استعمل تعبير قصة ، وكانه يود ان يقول اكدوبتك او تلفيقك او اختراكم .

- حسنا ايها الرفيق الجنرال . لقد طلب الي الانكليزي ان احمل الرسالة الي الجنرال غولز بمنتهى السرعة . ويقوم الجنرال بهجوم اليوم في هذه

الجبال . وكل ما نرجوه ، هو ان تنقلها اليه الان بسرعة ، اذا كان هذا يرضيك ايها الرفيق الجنرال .

وهز ماسارت راسه . وكان يتطلع الان الى اندريه دون ان يراه .

انه يفكر بغولز تفكيراً هو مزيج من الفزع والتمجيد الذي يحس به الانسان عندما يسمع ان منافسا له في العمل قد قتل في حادث سيارة مخيفة . او ان شخصا يكرهه ولكنه لا يشك في استقامته ، قد اتهم بالتزوير والغش . ولا ريب في ان غولز هذا هو واحد منهم ايضا ، اذ لا ريب في انه على اتصال بانفاشيين .. غولز .. هذا الذي عرفه منذ نحواً من عشرين عاماً .. غولز الذي استولى على قطار الذهب في ذلك الشتاء في سيبيريا . غولز الذي حارب ضد الكولشاك وفي بولندا ، والقفقاس والصين ، واسبانيا منذ مطلع الثورة . ولكنه كان قريباً من توكاشيفسكي ، ومن فوروشيلوف ايضا . ولكنه كان اقرب الى توكاشيفسكي . ولمن ايضا؟ انه قريب من كاركوف بالطبع ومن لوكاكز . ولكن المجرمين كانوا جميعاً دائماً من الدساسين والخونة . انه يكره غول . وغولز يكره غول . اذكر ذلك . اجل سجل هذه الحقيقة . لقد كان غولز دائماً الكراهية لغول . وهو يحب بوتز . سجل هذه النقطة ايضا . ودوفال هو رئيس اركان حربه . فماذا ينتج عن ذلك . وقد سمعته يقول ان كوبيك مجنون . هذا شيء ثابت . بل موجود . والان ما هي هذه الرسالة تصله من الخطوط الفاشية ولا يمكن للشجرة ان تستمر في النمو بشكل سليم الا اذا قلمت منها اغصانها الذابلة . ولكن من الواجب ان يبدد الذبول قبل ان يتم التقليم . ولكن غولز من دون الناس جميعاً .. ولكن ان يكون غولز احد الخونة .. انه لا يثق بانسان . اي انسان . حتى زوجته او حتى اخيه او اقدم رفاقه . ابدا . ابدا .

وقال للحرس .. خذوهما . واحرصوا عليهما .. وتطلع البريف الى الجندي فقد كان هذا الهدوء من المناظر المألوفة في مسرحيات ماسارت .

وقال غوميز .. ايها الرفيق ماسارت . لا تكن مجنوناً . اصغ الي ،

فانا ضابط مخلص ورفيق . هذه رسالة يجب ان تسلم الى صاحبها . وقد جاء بها هذا الرفيق مجازفا بنفسه عبر الخطوط الفاشية ، ليحملها الى الجنرال الرفيق غولز .

وقال ماسارت بصوت دمث الى رجال الحرس . . خذوهما . . انه يشعر بالاسى بالنسبة اليهما كبشر ، اذا حتمت الضرورة تصفيتهما . ولكن ماساة غولز هي التي تعذبه . ان يكون غولز مسن دون الناس جميعا . وسيحمل الرسالة الفاشية فورا الى فارلوف . لا من الافضل ان يأخذها الى غولز نفسه وان يراقبه عندما يتسلمها . هذا ما يجب ان يفعله . فكيف في وسعه ان يثق بفارلوف اذا كان غولز نفسه واحدا منهم . لا . هذه نقطة يجب ان يكون حذرا منها .

والتفت اندريه الى غوميز وقال وهو لا يكاد يصدق ما يراه . . هل تعني بانه لا يريد ان يسلم الرسالة ؟

فقال غوميز . . الا ترى .

فقال اندريه . . انه مجنون .

.. اجل . انه مجنون . . اسمع انت مجنون . . مجنون . . واخذ يصرح الان على ماسارت الذي انحنى الان على خريطته بقلمه الاحمر والازرق . . اتسمع انت قاتل مجنون .

فقال ماسارت للحرس . . خذوهما . ان ضميريهما لا يتعذبان من جريمتيهما الكبرى .

وكان هناك تعبير سيق للتعريف ان سمعه من قبل . .

فصرخ غوميز . . ايها القاتل المجنون .

وقال اندريه . . مجنون . .

وكانت بلادة هذا الانسان قد اثار غضبه . فاذا كان هذا الانسان

مجنونا فيجب ان يعامل على انه مجنون ، وان تؤخذ الرسالة من جيبه .
وليدهب هذا المجنون الى الجحيم . وبدا غضبه الاسباني العنيف يمتد
شيئا فشيئا ، نابعا من هدونه الطبيعي ومزاجه الطيب . ولا ريب في انه
سيصبح اعمى من الغضب بعد قليل .

وهز ماسارت راسه وهو ينظر الى خريطة ، عندما اخذ رجال الحرس ،
غوميز واندرية الى الخارج . لقد طرب الحراس لسماعهما يشتمانه ،
ولكنهما شعرا بخيبة الامل من المنظر كله . فقد سبق لهما ان رآيا مناظر
اكثر منه جمالا وروعة . ولم يكتث اندريه ماسارت بسماع الرجلين
يشتمانه . فقد شتمه الكثيرون في النهاية . وكل ما يحس به هو الاسف
عليهم كبشر . وكان دائما يردد هذه الفكرة على نفسه ، لانها الفكرة
الاخيرة التي ظلت لديه والتي لم يكن هو مصدرها .

وجلس في مكانه وقد تركت عيناه وشاربه على الخريطة التي لم يفهمها
قط ، وعلى ما فيها من المقاطع الطولية والعرضية التي تشير الى الارتفاع
والانخفاض . انه يرى الارتفاع والانخفاض ولكنه لا يعرف شيئا عنه او عن
مقداره . ولكن في مكانه في اجتماع القيادة العامة ، الذي يحضره وفقا
لنظام القوميسارين السياسيين كمسؤول عن الكتابب الاجنبية ، ان يضع
يده على اية نقطة في الخريطة ، وان يقول . . هنا نقطة الضعف .

وكان غول وكوبيك ، وهما من رجال السياسة والطموح . يوافقانه دائما
وفيما بعد ، يقوم رجال لم يروا الخريطة في حياتهم وانما سمعوا برقم التل
قبل ان يفادروا نقطة البداية ، فيتسلقوها ليجدوا الموت في انتظارهم على
منحدراتها ، او ليجبروا على الوقوف تحت تهديد المدافع الرشاشة التي
اخفيت بعناية بين اشجار الزيتون ومن ثم التراجع عنها . ولكن عندما
كان ماسارت يضع اصبعه على الخريطة في مقر قيادة غولز كان ذلك
الجنرال الاصلع ، الذي امتلا راسه بالندوب ، صاحب الوجه الشاحب
والفك البارز يقول . . يجب ان اقتلك يا اندريه ماسارت قبل ان اسمح
لك بوضع اصبعك على احدي خرائطي . وعليك اللعنة ، على الرجال

الكثيرين الذين قتلهم ، بتدخلك في شؤون لا تعرف عنها شيئا . والعنة على ذلك اليوم الذي اسموا فيه مصانع الحارث والقرى والتعاونيات التي تمثلها ، والتي لا أستطيع ان المسها . فاذهب ، وانثر شكوكك ، وعدب ، وتدخل ، واذبح ، واستنكر في اي مكان تشاء . واترك قيادتي بعمسدة عن نفوذك .

ولكنه كان احيانا بدلا من ذلك . يتكىء في مقعده . ويقول . . « اجل ايها الرفيق ماسارت . انني ارى نقطتك . على كل حال ، انا لا اوافقك عليها . وفي وسعك ان تفعل ذلك في قضايا حزبية . ولكنني لا اوافقك » .

وهكذا جلس اندريه ماسارت يعمل على خريطة الان في مكتبه العاري ، الا من ضوء شاحب فوق راسه ، وقد اسدل قبعته العسكرية على راسه لتغطي عينيه ، متطلعا الى الاوامر الموجودة لديه والمتعلقة بهجوم الغد ، يدرسها بدقة وعناية وكانه ضابط صغير يحاول ان يحل مشكلة في كلية من كليات اركان الحرب . انه مشترك في الحرب . وهو يقود في فكره الجنود ، ومن حقه ان يدخل وان يشكل القيادات . وهكذا جلس وقد وضع رسالة روبرت جوردان في جيبه بينما كان غوميز واندريه محجوزين في غرفة الحرس وكان روبرت جوردان منتظرا في الغابات فوق الجسر بدء الهجوم .

ومن المشكوك فيه ان تختلف النتيجة ، بالنسبة لمهمة اندريه ، لو سمح له ولغوميز ، بالمسير دون هذه الاعاقة من اندريه ماسارت . فلم يكن هناك في الجبهة من يملك الصلاحيات اللازمة لالغاء الهجوم . وكانت الترتيبات قد قطعت شوطا بعيدا بحيث اصبح من المتعذر وقف الهجوم في هذه اللحظة فهناك قوة من الاستمرار الذاتي في كل عملية عسكرية مهما كان حجمها . ولكن متى امكن التقلب على هذا الاستمرار ، وبدأت الحركة فمن الصعب وقفها .

وفي تلك الليلة ذاتها ، وبينما كان الرجل العجوز جالسا امام خريطة ، فتح الباب ودخل كاركوف الصحفي الروسي ، ومعه روسيان اخران في

الملابس المدنية ويرتديان معاطف من الجلد . واغلق عريف الحرس الباب
بيرم وراءهم . فقد كان كاركوف اول رجل مسؤول استطاع الاتصال به .

وقال كاركوف بصوته المهذب الذي ينم عن الاحتقار وهو يبتسم . . ايها
الرفيق ماسارت .

ووقف ماسارت . انه لا يحب كاركوف . ولكن هذا يمثل البرافدا ، وهو
على اتصال مباشر بستالين ، وهو احد الثلاثة الكبار في اسبانيا . . وقال
. . ايها الرفيق كاركوف .

وقال كاركوف وهو يشير الى الخريطة . . هل تعد خطة الهجوم ؟
- لا . انسي ادرسها .

- ولكن هل انت الذي ستقوم بالهجوم او غولز ؟

- انا لست الا مفوضا (قوميسارا) كما تعرف .

- لا . انك متواضع . فانت جنرال حقيقي . وها هي خريطةك امامك ،
ومعك متظارك . قل لي . الم تكن اميرالا ذات مرة يا ماسارت ؟

- كنت مساعدا للمدفعي . . لقد كذب ، فقد كان حقا رئيسا للبحارة
ايام العصيان . ولكنه ظن الان ، انه كان مجرد مساعد مدفعي .

- ظننت انك كنت قبطانا . يبدو لي ان معلوماتي دائما خاطئة ، وهذا
مسايوصم به الصحفي .

ولم يشترك الروسيان الاخران في الحديث ، وانما كانا ينظران السى
الخريطة من حين الى آخر ، ويبديان بعض الملاحظات بلفتها . اما ماسارت
وكاركوف فقد كانا يتحدثان بالفرنسية .

وقال ماسارت وكأنه يريد ان يعيد بناء نفسه . . من الخير ان لا يخطيء
الانسان في تحري الحقائق للبرافدا . . وكان من الصعب على ماسارت ان
يتذكر عندما يتكلم كاركوف ، الاهمية التي جاء بها الى اسبانيا بوصفه

مندوبا عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي . وكان من الصعب عليه ان يذكر ايضا ، انه كان بدوره من الاشخاص الذين لا يجوز التعرض لهم . اما كاركوف هذا فيتعرض له دائما ، وان كان تعرضه بركة ، وفي الوقت الذي يريده . . وعاد كاركوف يقول . . ولكنني اصلح الاخطاء عادة قبل ان ابعث بها الى البرافدا . فانا اتوخى الدقة دائما في رسائلي اليها . قل لي يا رفيق ماسارت ، هل سمعت شيئا عن رسالة وردت عبر الخطوط الى غولز من جماعة من المناضلين العاملين وراء الخطوط في سيفونيا . فهناك رفيق اميركي يعمل هناك ، اسمه جوردان ، وكان من واجبه ان يبعث الينا بتقرير . فقد وصلت انباء عن قتال دار هناك وراء الخطوط الفاشية . ولا بد انه بعث برسالة الى غولز .

فقال ماسارت . . امريكي . . ؟ واخذ يفكر . . لقد تحدث اندريه عن انكليزي . . اذن فهذه هي القضية . وهو قد اخطأ . . فلماذا تحدث اليه هذان الاحتمقان ؟

فقال كاركوف وهو يرنو اليه بازدراء . . اجل ، شخص امريكي لا قيمة سياسية كبيرة له ، ولكنه يتقن العمل مع الاسبانيين وقد ابلى بلاء حسنا في حرب العصابات . اعطني الرسالة يا رفيق ماسارت فقد تأخرت بما فيه الكفاية .

وقال ماسارت يسأله . . اية رسالة ؟ كانت بلادة منه ان يوجه هذا السؤال ، وقد ادرك هو خطاه . ولكن لم يكن في وسعه الاعتراف بخطئه في مثل هذه السرعة ، وقد وجه هذا السؤال ، ليؤخر على الاقل لحظة اذلاله وعاد كاركوف يقول . . اعطني الرسالة ، واعطني جواز المرور معها .

ومد ماسارت يده في جيبه ووضع الرسالة على المكتب ، وتظر السى كاركوف ببلاهة . حسنا لقد اخطأ ، وليس في وسعه اصلاح الخطأ ، ولكنه لا يرضى بالاذلال . . فعاد كاركوف يقول . . وجواز المرور ايضا . .

ووضع ماسارت جواز المرور ايضا بجانب الرسالة .

وهتف كاركوف بالاسبانية . . ايها العريف الرفيق . .

وفتح العريف الباب ودلف الى الغرفة ، ونظر بسرعة الى اندريه ماسارت
الذي كان يتطلع اليه وكأنه خنزير بري اصبح امام صياديه وكلابهم . ولم
يكن هناك اي خوف او مسكنة على وجه ماسارت . وانما كان هناك غضب
وتحد . فهو يعرف ان هذه الكلاب لا تستطيع ان تنال منه .

وقال كاركوف .. خذ هذه الاوراق الى الرفيقين الموجودين في غرفة
الحرس . وارشدتهما الى مقر قيادة الجنرال غولز . . فقد تأخرا كثيرا .

وخرج العريف . ونظر اليه ماسارت وهو يخرج ، ثم عاد يتطلع الى
كاركوف ..

وقال كاركوف .. يا رفيق ماسارت ، سأرى الى اي حد لا يجوز
ان تمس .

وتطلع اليه ماسارت ولم يقل شيئا .

وعاد كاركوف يقول .. لا تفكر بالاساءة الى العريف ايضا . فلم يكن
هو الذي ابلغني . وانما رأيت الرجلين في غرفة الحرس وقد تحدثا الي
ا وكان يكذب في قوله) ، وكم كنت آمل لو تحدث جميع الناس الي دائما
.. وكان كاركوف يؤمن بما يستطيع ان يفعله من خير لو وصل اليه كل
انسان ، وتدخل في جميع الامور في حينها بدافع انساني . هذا هو الشيء
الذي لم يكن قط ليفشل فيه .

وعاد يقول .. اتعرف انني عندما اكون في الاتحاد السوفياتي ، يكتب
الناس الي في البرافدا ، عندما يحسون بحيف يلحق بهم حتى ولو كانوا في
اقاصي اذربيجان . اكنت تعرف هذا ؟ وكانوا يقولون دائما .. ان كاركوف
سيساءدنا .

ونظر اليه اندريه ماسارت وليس على وجهه اي تعبير الا الغضب
والكراهية . ولم يكن يفكر في شيء الآن ، سوى ان كاركوف قد اساء اليه .

حسنا يا كاركوف . فعلى الرغم من قوتك . عليك ان تكون حذرا .

ومضى كاركوف يقول . . وهذا امر آخر . ولكنه نفس المبدأ . وسأتحرى عن المدى الذي لا يجوز فيه ان تمس ايها الرفيق ماسارت . واود ان اعرف ايضا . اذا كان بالامكان تبديل ذلك الاسم بالنسبة الى مصنع المحارث .

واراح ماسارت نظره عنه . وعاد يتطلع الى الخريطة .

وقال كاركوف . . وماذا قال جوردان الشاب في رسالته ؟

فقال ماسارت . . انا لم اقراها . يارفيق كاركوف .

— حسنا سأتركك الان لمشاغلك العسكرية .

وخرج كاركوف من الغرفة الى غرفة الحرس . كان اندريه وغوميز قد مضيا ، ووقف لحظة يتطلع الى الطريق ، وإلى قمة الجبال . التي بدأت تلوح عليها تباشير الفجر . . وفكسر بان الرحيل اصبح ضروريا . فقد اوشك الهجوم على البدء .

وكان اندريه وغوميز يفتان السير بدراجتهما النارية على الطريق ثانية، واخذت تلوح انوار الفجر . وعندما وصلت بهما الدراجة الى القمة ، رآيا بين الغابات الدبابات تغطيها اشجار صنوبر ، والجنود منتشرين في كل مكان . وابصر اندريه بالرجال . يحملون اعمدة طويلة من الخشب على اكتافهم ، كما شاهد ثلاث سيارات من سيارات اركان الحرب الى يمين الطريق ، وقد غطيت كلها باغصان الصنوبر .

وادار غوميز الدراجة حتى وصل الى احدى هذه السيارات . فالتكأ بها على شجرة صنوبر ، وتحدث الى السائق الجالس قرب السيارة ، وقد اركن ظهره الى شجرة . . فقال السائق . . سأخذكما اليه . ضع دراجتكم بعيدة عن النظر . وغطها بفروع الاشجار .

وكانت الشمس قد بدأت تلوح من وراء الاغصان ، وتبع غوميز واندريه

السائق الذي كان يدعى فيسانت عبر الأشجار ، الى الطريق ، ومنها الى مدخل نفق صغير ، ترتفع من سقفه اعمدة اللاسلكي . ووقفا في الخارج ، بينما دلف السائق الى الداخل . واعجب اندريه ببقاء النفق الذي لا يبدو منه اي شيء في الخارج ، بينما كان يظهر فسيحا تماما في الداخل .

وخرج فيسانت السائق يقول . . ان الجنرال قد خرج ، حيث يشرف على توزيع القوات للهجوم . وقد سلمت الرسالة الى رئيس اركان حربه . وقد وقع هنا .

وسلم لغوميز الغلاف الموقع ، فاعطاه لاندرية الذي نظر اليه . ثم وضعه في قميصه . وقال . . ما اسم الرجل الذي وقع .

فقال فيسانت . . دوفال .

— حسنا ، لقد كان احد الثلاثة الذين يجب ان اسلم اليهم الرسالة .

وقال غوميز يسأل اندريه . . وهل ننتظر للحصول على رد ؟

— اعتقد انه الافضل ، مع العلم ، انني لا ادري ، اين سأعثر على الانكليزي وبقية الرفاق ، بعد الانتهاء من عملية الجسر .

— تعالا وانتظرا عندي حتى يعود الجنرال . وسأقدم لكما قهوة . ولا ريب في انكما جائعان .

وقال غوميز . . وهذه الدبابات .

وكانوا يمرون الان بالدبابات التي غطتها الرحول واغصان الأشجار ، وكانت مدافعها من عيار 5 { مليمترا تتجه افقيا تحت الاغصان ، بينما جلس سائقوها ومدفعيوها ، بجاكيتاتهم الجلدية وخوذهم على الارض ، وقد اسندوا ظهورهم الى الأشجار .

فقال فيسانت . . هذه احتياط ، وكذلك الجنود . اما قوات الهجوم فهي هناك على المرتفع .

وقال أندريه .. وهل هي قوات كبيرة .

- أجل فرقة كاملة .

وجلس دوفال في مركز القيادة بحمل بيده الرسالة المفتوحة التي بعث بها روبرت جوردان بيسراه ، ويتطلع الى ساعته بين ثانية واخرى ، وهو يقرأها للمرة الرابعة ، وقد احس بالمرق يتصبب تحت ابطيه . فحمل سماعة الهاتف وقال .. اعطني مركز سيغوفيا اذن .. ترك .. اعطني مركز افيللا ..

وظل يواصل الاتصال بالهاتف دون جدوى . فلقد تحدث الى اللواتين . لقد مر بهما غولز ، وهو في طريقه الى مركز المراقبة ، فتحدث دوفال الى مركز المراقبة فلم يجده .. وعاد يقول على الهاتف .. اذن اعطني سرب الطائرات رقم واحد .. لقد تحمل فجأة المسؤولية كلها . من الخير ان يوقف القارة . فليس في وسعه ان يرسل الطائرات للقيام بغارة مفاجئة ضد عدو ينتظر وصولها . ليس في وسعه ان يفعل ذلك . انها عملية انتحار يجب ان لا تتم . يجب ان تقف . مهما حدث . وفي وسعهم ان يقتلوه اذا ارادوا . سيتصل بالمطار مباشرة ، ويلقي عملية القصف الجوي . ولكن قد يكون الهجوم عملية زجرية ؟ وقد تكون الغاية منه سحب جميع هذه القوات المعادية الى هذه الناحية . اجل لنفترض هذا . فهم لن يخبروك بالغاية من الهجوم .

وعاد يقول الى موظف الاشارة .. الغ طلب السرب رقم واحد ، واعطني مركز مراقبة الكتيبة التاسعة والستين .

وكان لا يزال يطلب المركز ، عندما سمع اول صوت يدوي من الطائرات وفي تلك اللحظة اتصل بمركز المراقبة .. وقال غولز بهدوء .. من الطرف الاخر .. نعم .

كان يتكئ على كيس من الرمل ، وقد وضع قدمه على صخرة ، وفي شفته السفلى لفاقة تبغ مدلاة ، وقد نطلع الى السماء وهو يتحدث . انه يرى الطائرات في مجموعات ثلاثية تهدر في السماء ، قادمة في كتف الجبل ،

حيث ظهرت الشمس من ورائه . انه يراها قادمة وهي تبرق في اشعة الشمس ، وتنعكس على مراوحها .

وعاد يقول بالفرنسية لان دوفال هو المتكلم .. نعم .. اخطانا .. اجل .. هذا شأننا دائما .. اجل .. مصيبة .. نعم .. من العار ان الرسالة وصلت متأخرة .

كانت عيناه ترقبان الطائرات وقد بان الزهو فيهما . ورأى الاشارات الحمراء بوضوح ، ثم ابصر بها تتقدم ، بعزم واصرار . انها طائراتنا . لقد وصلت محمولة على بواخر من البحر الاسود عبر مضائق مرمرة والدردينل فالبحر المتوسط ، حيث جرى تفرغها في اليكانتى ، ثم جمعت الى بعضها وتم اختبارها ، وها هي تطير الان في مجموعات رائعة على شكل رقم (٧) ، وضاءة . مشرقة ، في شمس الصباح ، لتصب حممها على تلك التلال هناك ، وتنسفها ، حتى تقوم بهجومنا .

وعرف غولز ، ان الطائرات بعد ان تمر فوق رؤوسهم ، ستبدأ في القاء حممها ، وأنداك ، ستدوي قنابلها ، ناسفة مراكز العدو ، وسرعان ما تتقدم الدبابات ووراءها ، جنوده . واذا كان الهجوم مباغتاً ، ففي وسعه ان يستمر ، مندفعاً بالسيل ، ومتوقفاً لحظات للقيام باعمال التطهير ، والدبابات تغطي الجنود المهاجمين ، وهم يندفعون هابطين الجبل . هذه هي الطريقة التي سيسير فيها الهجوم اذا نفذ كل انسان الاوامر المعطاة له

هناك الرايبتان ، والدبابات المتقدمة ، ثم هناك لواء المشاة ، على استعداد للزحف ووراءها . وها هي الطائرات تبدأ الهجوم الان . وقد نفذ كل شيء كما يجب ان ينفذ .

ولكنه ادرك الان ، بعد ان سمع رسالة جوردان ، ان الرايبتين ، ستكونان خاليتين . فقد سحب الجنود منهما الى خنادق ضيقة او الى الغابات . وسيعود العدو اليهما بعد ان تمضي الطائرات ، لاستقبال رجاله بمدافعه

الرشاشة واسلحته الاوتوماتيكية ، ومدافعه المضادة للدبابات .

وعاد غولز يقول في سماعه الهاتف ، وهو ما زال يرقب الطائرات ، ماضية في طريقها ، تهدر بشكل مخيف . . « لا . لا تعمل شيئا ، ليس في وسعنا ان نعمل شيئا . فدع التفكير الان . ولنقبل الخطأ » .

وعاد غولز يرقب الطائرات ، بعينيه المزهوتين ، اللتين تدركان تمام الادراك كيف يجب ان تسيير الامور ، وكيف اخذت تسيير الان اته ما زال يصدق ان الامور ستسيير وفق الخطة التي وضعها ، والتي كان من الواجب ان تسيير فيها ، وقال . . حسنا ، اننا نعمل جهد طاقتنا . ثم اقبل الخط . .

ولكن دوفال لم يستطع سماعه . فقد كان لا يزال جالسا الى المكتب وقد امسك بسماعة الهاتف . وكان كل ما يسمعه هدير الطائرات . . وشرع يفكر . . اسمع هذه هي الطائرات تواصل السير ، وستقوم القاذفات بصب حممها الان ، وقد تنسفهم جميعا عن بكرة ابيهم . وقد تتمكن من شق طريقنا في جبهتهم . ولربما حصلنا على القوات الاحتياطية التي طلبناها . هيا . . هيا . . هيا . . وكان الدوي من المنف بحيث لم يعد يسمع افكاره .



طلع الصباح ، وروبرت جوردان ، ما زال مستلقيا وراء الشجرة عند سفح التل . انه يحب دائما هذه الساعة من النهار ، وها هو يرقبها الان ، واحس بشيء من الصفاء في نفسه ، وكأنه جزء من الضوء البطيء الذي يسبق عادة شروق الشمس عندما تبدأ الأشياء الصلدة في الاظلام ، والفضاء في الاضاءة ، وتأخذ انوار الليل ، في الاصفرار ، لتختفي عندما يطلع النهار . ورأى جذوع الأشجار امامه واضحة الان ، وقد اسود لونها ، بينما اضاءت الطريق ، التي تعلوها سحابة خفيفة من الظل . وكانت ملابسه قد تبالت من الندى ، واحس بأرض الغابة تصبح ناعمة ، ونظر امامه ، فبصر عبر سحابة الظل بفولاذ الجسر ، يقف منتصبا امامه فوق الهوة ، وعلى طرفيه بفغف الملاذان الخشبيان .

ورأى الحارس الان يقف في ملاذه وقد ادار له ظهره ، ورفع « ياقة » معطفه ، على رقبته لتتصل بخوذته الفولاذية ، وقد انحنى على مدفتته البخرولية يدفء يديه . وسمع روبرت صوت خرير المياه في الوادي العميق ، وهي تنساب بين الصخور ، ثم رأى دخانا شاحبا يتصاعد من الملاذ .

وتطلع الى ساعته واخذ يفكر .. لا ادري هل اوصل اندريه الرسالة الى

غولز ؟ فاذا كان من المحتوم علينا ان ننسف الجسر ، فاني ارجب في ان اتنفس عميقا وان اؤخر الوقت بعض الشيء ، لاشعر بهذا التنفس . وعاد يحدث نفسه . . اتظن انه اوصلها ؟ اندريه ؟ ولو اوصلها ، هل يوقفون الهجوم ؟ وهل يتوفر لديهم الوقت لوقفه ؟ . لماذا القلق . اما ان يوقفوه ، او لا يوقفوه . فليست هناك قرارات جديدة ، وعمما قريب ستعرف كل شيء . واذا افترضنا ان الهجوم قد نجح . لقد قال غولز ، انه سينجح . هناك احتمال ، فقواتنا ستهبط مع الجبل . لم لا تفكر بالطريقة التي سننتصر فيها ؟ لقد كنت في موقف الدفاع مدة طويلة حتى انك لم تعد تؤمن بنجاح الهجوم حقا . ولكن كل هذا ، قبل ان تتحرك جميع تلك القوات المعادية صعدا في الجبل . كان هذا قبل ان تأتي كل تلك الطائرات . فلا تكن ساذجا . وتذكر اننا ما دمنا قادرين ، على وقفهم في اماكنهم ، فنحن المنتصرون . وليس في وسع الفاشيين ان يهاجموا بلادا اخرى ، الا اذا انتهوا منا ، ولن يستطيعوا الانتهاء منا . ولو ساعد الفرنسيون ، وفتحوا حدودهم ، ولو زدنا الامريكيون بالطائرات ، فلن يستطيعوا الانتهاء منا . ابدا ، ما دمنا نحصل على المساعدات . فرجالنا سيقاتلون الى الابد ، اذا توفر لهم السلاح .

ولكن لا . لا تتوقع النصر قبل مرور عدة سنين . ان الهجوم لا يعدو ان يكون من النوع الكابح . فلا تسرح بعيدا في الخيال . واذا افترضنا اننا تمكنا من فتح ثغرة اليوم في خطوط العدو ؟ انه هجومنا الاول الكبير . . هذا هو المقياس الصحيح . ولكن لنفترض ذلك . لا تتحمس . تذكر القوات التي مرت على الطريق . لقد قمت بواجبك . كان من الواجب ان نحمل اجهزة ارسال على الموجة القصيرة من النوع الذي يحمل باليد . طبعا سيكون معنا ذلك في الوقت المناسب . اما الان فليست لدينا مثل هذه الاجهزة . اذن عليك ان تراقب الان ، وان تعمل ما باستطاعتك .

وما اليوم الا نهار من الايام العديدة التي يجب ان تمر بك . اما ما

سيحدث في الغد ، فيتوقف على ما ستفعله اليوم . هذه هي الطريقة
المألوفة طيلة العام . وهذا ما حدث اكثر من مرة فكل ما يقع في هذه الحرب
لا يعدو ذلك .. ولماذا كل هذا الادعاء اليوم انظر .. من جاء الان .

راى رجلين في معطفهما ، وخوذتيهما ، يسيران باتجاه الجسر ، وقد
وضعا بندقيتهما على ظهريهما . وقد وقف احدهما عند طرف الجسر ،
ثم اختفى في داخل الملاذ . واما الثاني فعبر الجسر ، وهو يخطو ببطء
وشاؤل . وقد توقف قليلا على الجسر ، ثم بصق الى الهوة ، وعاد يستأنف
سيره الى الطرف القريب من الجسر حيث تحدثت اليه الحارس الاخر ،
قبل ان يمضى عبرا الجسر ، بسرعة ، فهو في طريقه الى الراحة ، والى
تناول القهوة .. لقد وقف ايضا وبصق في الهوة .

ماذا ، اهذا البصاق نظير ونفاؤل ؟ اذن يجب ان ابصق انا عندما اصل
اليه . آه لو استطيع الان . ولكن لا ، انه ليس بالعلاج الناجع .

ومضى الحارس الجديد الى داخل الملاذ وجلس ، بعد ان اسند بندقيته
رفى راسها حربة طويلة ، الى الجدار . وتناول روبرت منظاره ، واخذ
ينظع الى الحارس .

كان يجلس متكئا الى الجدار . وقد علق خوذته على مشجب . وظهر
وجهه واضحا امام روبرت . لقد كان نفس الرجل الذي رآه في الخفارة
قبل يومين . وكان يرتدي نفس ملابسه دون ان يحلق ذقنه . كان يبدو
عليه النعاس . ويكثر من التثاؤب ، ثم تناول ، علبه طباق من جيبه ،
اخرج منها لعافه ، فاشعلها واخذ يدخنها .

وظل روبرت مستلقيا في مكانه . وحاول التوقف عن التفكير . وسمع
عصفورا صغيرا ، يزفزع على شجرة قريبة منه فاخذ يراقبه وراى عينيه
الصفيرتين وذنبه القصير يتحرك في حماس . وسرعان ما انتقل العصفور
الى شجرة اخرى ، ثم اخذ يهبط منها الى الارض وهو يهز ذنبه . وتطلع

العصفور الى روبرت ، ثم نشر جناحيه ، وارتفع طائراً الى شجرة بعيدة .

وعاد روبرت يتطلع الى ملاذ الحارس ، آه كم ود لو وضع العصفور في جيبه ، ليكون رفيقاً له ، انه يريد ان يكون معه اي شيء حتى يلمسه . وفرك كوعه على جذع الشجرة ، ولكنه لم يجد الاحساس الذي كان يتوقعه .. واخذ يحدث نفسه .. آه كم اتمنى لو خرجت ارنبتى سليمة من هذه الورطة .. قف ، لا تفكر بها الان . ولكن لم لا ، انك لا تصيدو الاعراب عن الامل ، وهذا من حقلك .. ان ما آمله هو ان احسن نسف الجسر ، وان تنجو هي . حسنا . هذا كل ما اريده . اجل كل مسا اريده الان .

ورجع يستلقي ، واخذ ينظر الى الافق البعيد عند الجبل . انه لا يريد ان يفكر الان . وشرع يرقب طلوع النهار . انه يوم من ايام الصيف الجميلة وقد سارع الصيف بالمجيء في نهاية ايار . وراى راكب دراجة نارية ، يرتدي خوذة وممطفا ، ويحمل بندقية اوتوماتيكية يعبر الجسر ، ويمضي بصعدا في الطريق . وراى سيارة اسعاف ايضا تمر على الجسر . هذا كل شيء . وشم رائحة الصنوبر ، وسمع صوت الجدول ، وبان الجسر واضحاً امامه في ضوء الصباح . وهكذا ظل مستلقياً في مكانه ، دون ان يعسود بنذرته الى ملاذ الحارس ، وبدا له ان شيئاً لن يحدث في هذا الصباح الجميل ، عندما سمع فجأة صوت القنابل الاولى .

ورفع روبرت على الفور بندقيته الرشاشة من مكانها . وكانت ذراعه قد تصلبت من ثقلها . وشمر بان اصابعه لا تطاوعه .

ووقف الحارس عندما سمع صوت القنابل . وراه روبرت يمد يده الى بندقيته ويخرج من الملاذ وهو يصغي . ثم وقف في الطريق والشمس تسطع عليه ، يتطلع الى السماء في الناحية التي بدأت الطائرات تقلد منها حممها وكان الضباب قد اختفى الان ، وراى روبرت الرجل امامه الان واضحاً يتطلع الى السماء .

وأحسن روبرت جوردان ، بنفسه يثقل شيئاً فشيئاً ، وكان شيئاً يقبض على صدره . ثم ثبت مرفقه وأخذ يتلمس باصابعه الزناد « بالتدرج » ، وضبط هدفه على منتصف صدر الرجل وأطلق النار .

ورأى الرجل ، وقد أصابه الدهول ، يقع على ركبتيه ، بينما اتجهت جبهته الى الأرض ، بعد أن سقطت بندقيته الى الأرض بجانبه . ورفع روبرت نظره عن الرجل الذي قتله ، وتطلع الى الطرف الثاني من الجسر . لم يكن في وسعه ان يرى الحارس الثاني . فنظر الى المنحدر ، حيث يعرف ان أوغسطين مختبئ . وسرعان ما سمع رصاصة انسيلمو ، وقد ردد الضيق رجع صداها . وسمعه يطلق النار ثانية .

ومع الطلقة الثانية ، سمع صوت القنابل اليدوية وهي تنفجر من الزاوية السفلى تحت الجسر . وسمع صوت فنايل أخرى من الناحية اليسرى . وتوالى صوت الرصاص وهو يئز من جماعة بابلو ، ورأى انسيلمو يخرج من مكانه ، فحمل بندقيته الرشاشة على كتفه ، والكيسين الثقيلين من وراء شجرة الصنوبر يحمل كلا منهما في يد واحدة ، وهرع متجهها الى الطريق .

وعندما ركض سمع أوغسطين يقول له .. صيد حسن يا انكليزي .. صيد حسن .. ومضى يعبر الجسر ، فرأى انسيلمو يركض اليه وهو يحمل بندقيته في يده ويهتف .. ليس هناك من خطأ ، ولكنني اجهزت عليه وركع روبرت ، وفتح الكيسين في وسط الجسر ، ولخرج منها مواد ، ورأى الدموع تسيل من عيني المعجوز ، ولحيتة البيضاء ترتعد .. فقال له .. لقد قتلت رجلا انا ايضا .

فقال انسيلمو .. اجل يا رجل .. كان من الواجب ان تقتل ، وقد قتلنا .

وأخذ روبرت يرتقي هيكل الجسر . وكان الحديد بارداً من الرطوبة والندى ، فصعد بحرص وعناية ، وقد أحسن بالشمس تلقيها على ظهره ، وسمع صوت خرير الماء في الوادي وبدأ العرق يتصبب منه ، ثم

شرع يهبط تحت الجسر ، حيث انتشرت البرودة ، وهتف بانسيلمو ..
اعطني المتفجرات حزمة . حزمة ..

واخذ انسيلمو يناوله المتفجرات . فيضمها في المكان الذي يريد ..
ومضى يعمل بهدوء ، يربط الاسلاك ببعضها ، ولا يفكر الا في شيء واحد
وهو النسف . كان كالطبيب الماهر ، يقوم بعملية جراحية دقيقة . ثم سمع
صوت قنبلة يدوية ، تبعتها اخرى ، وهي تدوي مع هدير الماء . وسرعان
ما ساد الهدوء ثانية .

وقال لنفسه .. اللعنة .. ترى ماذا اصابهم ؟

كان صوت الرصاص لا يزال ينطلق على الطريق العلوي ، قرب المركز
الاعلى . ان النار شديدة ، فماذا حدث يا ترى ؟ وكان يضع قنبلتين
يدويتين فوق اكوام المتفجرات يربط الاسلاك حولها ، ويثبتها بقوائم
الجسر الفولاذية . ثم هتف بانسيلمو .. لقد انتهينا من هذا الجانب الان ،
فالى الجانب الاخر . ومضى يتسلق الجسر من هيكله السفلي ، وكأنه
طرزان ، وخرج من الظلمة ، والنهر ينساب تحته ، ورفع عينيه فرأى
انسيلمو ، وهو يمد اليه بحزمة من المتفجرات . وتظر في وجهه فوجد انه لا
يبكي الان ، وانما يعبر عن التفاؤل . وها هو لم يبق امامه الا الجانب هذا
فقط وتنتهي العملية كلها ، وبهوي الجسر الى الوادي السحيق كتلة
واحدة .. وشرع يحدث نفسه .. هيا .. لا يؤثر عليك الهياج والحماس
اكثر من اللزوم .. اكمل العمل ، كما بداته ، بشكل رائع ، ولا تحاول
الاسراع في عملك . فليس في الامكان ان تخسر الان . ولن تستطيع قوة
ان تحول بينك وبين نسف جزء منه الان ، اجل لقد قمت بالعمل حتى
الان كما يجب ان تقوم به .. هذا المكان بارد . وحق المسيح انه بارد كالقبو
الذي توضع فيه الخمر .. انه جسر الاحلام . والرجل المعجز الان في
مركز صعب . ولكن لا تسرع في عملك اكثر من اللزوم . كم وددت لو
توقف اطلاق النار الان . فماذا حدث لبيلاز الان ؟ لا ريب انها في ورطة .
ولا ريب في ان بعض رجال المركز ، كانوا في الخارج ، وهم اللذين لا يزالون

يطلقون النار . اجل هذا يعني ان بعضهم لا زال يقاوم في الطاحونة وقد اتخذوا من اكوام النشارة متاريس يدافعون عن انفسهم وراءها . . وما قضية بابلو . . ولماذا عاد الى اطلاق النار ثانية قبل فترة وجيزة . . لا ريب في انها سيارة قادمة او دراجة نارية . . آمل ان لا تصل اية سيارات مدرعة او دبابات في هذه اللحظة . . هيا اكمل عملك باسرع ما تستطيع ، ولا ترتعد كامرأة وجلى . . ماذا حدث لك ؟ انك تحاول ان تسرع اكثر من اللزوم . . ولا ريب في ان المرأة هناك ، لا ترتعد كما ترتعد انت . . اجل بيلار . . انها قد لا ترتعد مثلك الان . . ومن المحتمل انها ترتعد ايضا . . يبدو انها في ورطة شديدة ايضا . . وقد ترتعد كما يرتعد أي انسان .

ورفع راسه ليتناول من جديد ما يعطيه له انسيلمو ، وسمع صوت النيران تشتد والقنابل اليدوية تنفجر . . وعادت القنابل اليدوية تنفجر ثانية فقال لنفسه . . لقد هجموا على الطاحونة الان . . وعاد يحدث نفسه . . من حسن حظي ان المتفجرات معي في كتل لا في قضبان . انها اصلح واحسن . . لو ظلت معدات التفجير معي . ولكن ابن العاهرة قذف بها في هذا النهر . اجل ذلك الوغد بابلو . . اعطني كمية اخرى يا رفيق ! .

ان المعجوز ينفذ العمل بصورة رائعة . انه جريء ولا يخاف شيئا . . لقد كان كارها ان يقتل الحارس ، وكذلك كنت أنا . . ولكن لم هذا التفكير الان ، وما زال أمامك عمل كثير . لا ريب في ان قتل انسان آخر ، بيندية او توماتيكية ، اسهل منه بيندية عادية . . انها الطلقة الاولى التي تحتاج اليها . . يا له من راس مفكر عندك يا جوردان . . هيا يا جوردان ، . انك ما زلت صغيرا . . واصفر من ذلك النهر في منبعه . . كل شيء في منبعه صغير . وها انت قد وجدت مثالك تحت هذا الجسر . . هيا يا جوردان ، ان الامر جد ، الا تفهم ؟ انه جد . وكلما مضيت في عملك ، كلما قلت خطورته . . انظر الى الجهة الثانية . . مهما حدث الان ، فقد نجحت . . سينهار الجسر كما انهار بنو اسرائيل .

وصرخ .. اعطني قليلا ايها العجوز .. لقد كدنا ننتهي ، فحنى الرجل
العجوز راسه .

وانتهى واخذ يلف الاسلاك حول القنابل . لقد انتهى اطلاق النار على
الطريق . واستمر يواصل عمله مع صوت النهر . ونظر الى المنحدر ، فرأى
الماء وكأنه يغلي في الهاوية ، بين الصخور ، وقد انتشر الزبد من اصطدامه
بالجلايد . ورأى سمكة تصعد من الماء بحثا عن بعض الحشرات .. ورأى
الشمس تسطع الآن على سفح الجبل .. وهتف بانسيلمو .. اعطني ربطة
الاسلاك الضخمة الان .

وادرك انه انتهى ، فعاد يفحص كل ما عمله ، ليتأكد من نجاحه .. وعاد
يسلم ربطة الاسلاك لانسيلمو وهو يقول .. امسكها بشدة ولا ترخها .
وصعد الى الجسر فأمسك بالربطة وركض الى الجسر وهو يمد السلك الى
المكان الذي كان الحارس قد هوى فيه ..

وصرخ لانسيلمو .. هيا هات الجرابين .. وتناول بندقيته الرشاشة
ووضعها على كتفه .. وتطلع الى الوراء ، فرأى الرجال قادمين من المركز
العلوي .. لقد رأى اربعة منهم فقط .. لم يكن ايلاديو معهم .

وركض روبرت ، الى ان وصل الى احدى العلامات الفارقة في الطريق ،
فقطع السلك وسلمه الى انسيلمو .. وهو يقول .. امسك به وعد معي
الى الجسر .. وعادا فثبتته في احدى القوائم ، ثم قال لانسيلمو .. خذ
السلك ثانية الى تلك العلامة ، وامسكه بثبات ، ولكن لا تشده كثيرا ، والا
انفجر الجسر .

اجل .

— دع السلك ناعما غير مشدود ولكن لا ترخه كثيرا افهمت ؟

اجل .

وكان روبرت يتطلع آنذاك الى من بقي من عصابة بيلار . كانوا قد اقتربوا
ورأى بريمتيفو ورافائيل يسندان فيرناندو .. الذي كان يسير بصعوبة .
وكانت بيلار ترتقي الضفة وهي تحمل ثلاث بنادق . ولم يستطع روبرت
ان يرى وجهها ، ولكنها كانت تصعد بسرعة .

وقال بريمتيفو .. كيف تسير العملية ؟
- حسنا . كدنا ننتهي .

ولم يشعر روبرت بحاجة الى سؤالهم عن وضعهم . كان الثلاثة قد
وصلوا الى طرف الطريق ، وكان فيرناندو يهز رأسه وهم يحاولون رفعه
عسن الطريق .

وسمعه روبرت جوردان يقول في صوت مخنوق .. أعطوني بندقيّة
هنا ..

- لا سنصل بك الى الجياد .

فقال فيرناندو .. ماذا افعل بالجواد ؟ انني مرتاح هنا .

ولم يسمع روبرت بقية الحديث ، فقد شرع يتحدث الى انسيلمو ..
اذا جاءت الدبابات فانسفه . ولكن عندما تصل فوقه . اذا جاءت السيارات
المصفحة فانسفه اذا صارت فوقه . اما المشاة ، فيستطيع بالبو وقفهم .
- لن انسفه وانت تحته .

- لا تهتم بي . انسفه اذا وجدت نفسك مرغما . سائبت طرف السلك
الآخر ثم اعود ونسفه معا .

وشرع يركض متجها الى منتصف الجسر .

ورأى انسيلمو روبرت يركض فوق الجسر وقد جعل ربطة الاسلاك فوق
ذراعه ، وبندقيته الاوتوماتيكية فوق ظهره ، وراه يصعد حافة الجسر
ويختفي تحته . وامسك انسيلمو بالسلك في يده اليمنى واختفى وراء اشارة
الطريق واخذ يتطلع باتجاه الجسر . ورأى الحارس القليل في وسط الجسر
وراح يطوف بعصره الى الجانب الاخير منه . واخذ يصفى الى فيرناندو وهو

يتحدث الى بريمتيفو والفجري ، ويقول .. دعوني هنا .. ان الجرح
يؤلمني كثيرا . والنزيف شديد في الداخل .

– دعنا نحملك الى المنحدر . ضع ذراعيك حول كتفينا ، وسنحمل ساقيك
– لا فائدة من ذلك . ضعوني وراء حجر هنا . فاستطيع ان اكون مفيدا
كما لو كنت فوق السفح .

وقال بريمتيفو .. ولكن عندما نذهب .

– اتركوني هنا فلا يمكن ان اسافر بهذا الجرح . وهذا يوفر لكم جوادا .
وانا اشعر بالراحة هنا . ولا ريب في انهم سيصلون قريبا .

فقال الفجري .. نستطيع ان نحملك الى الجبل بسهولة .

ولا ريب في ان الفجري كان تواقا للرحيل ، وكذلك بريمتيفو . ولكنهما
كانا قد وصلابه الى هنا ، وشق عليهما ان يتركا .

فقال فيرناندو .. لا .. انا بخير هنا . ماذا حدث لايلاديو .

ووضع الفجري يده على راسه ليشير الى المكان الذي جرح فيه وقال ..
هنا ، عندما هجمنا .

فقال فيرناندو .. اتركاني هنا .. وراى انسيلمو انه يتألم . انه يمسك
بيديه بطنه ، وقد مد ساقيه . وكان وجهه شاحبا ، والفرق يتصبب منه

وعاد فيرناندو يقول .. اتركاني هنا ، رجاء .. كانت عيناه مغمضتين
من الألم .. انني مستريح هنا .

فقال بريمتيفو .. خذ هذه بندقية وعبارات نارية .

فقال فيرناندو .. اهي بندقيتي ؟

– لا . لقد اخذتها . هذه بندقيتي .

- كنت افضل بندقيتي ، فانا متعود عليها .

فقال الفجري .. ساتيك بها . خذ هذه الى ان تصلك الثانية .

وعاد فيرناندو يقول .. انا في وضع طيب هنا ، بالنسبة للطريق والجسر
وفتح عينيه ، وتطلع الى الجسر وعاد يغمضهما .

وربت الفجري على راسه و اشار الى بريمتيفو ليلحق به . وشرعا يصعدان
الجبل ، وقال بريمتيفو قبل ان يتعد عنه .. سنعود اليك .

وكان فيرناندو مستندا بظهره الى طرف الجبل ، وامامه احدى علامات
الطريق الفارقة . وكانت الشمس تسطع باشعتها عليه . والى جانبسه
بندقيته وثلاثة امشاط من العتاد . وسقطت ذبابة على يده ، فلم يحس بها
من شدة المه .

وقال انسيلمو ، من المكان الذي يقمي فيه ، وهو يمسك بيده السلك ..
فيرناندو .

ولم يسمع جوابا .. فعاد يقول .. فيرناندو ..

وفتح فيرناندو عينيه ، وتطلع اليه قائلا .. كيف يسير العمل ؟

- على ما يرام . بعد دقيقة سننسف الجسر .

- يسعدني هذا . اذا احتجتما الي فقولا .. وعاد يغمض عينيه .

وعاد انسيلمو ببصره الى الجسر ، فرأى يد الانكليزي ترتفع بربطة
الاسلاك ، ثم رأى راسه ووجهه . وكان المعجوز ينظر في نفس الوقت الى
ما وراء الجسر ، فلعل شيئا يصل من الطريق .. أن انسيلمو لم يعد
يخاف شيئا . فقد سارت الامور سيرا طبيعيا . واخذ يفكر .. لقد كنت
اكره القتل . وقد احسست بشعور غريب عندما قتلت الحارس ولكن هذا
قد انتهى الآن . وكيف يمكن للانكليزي ان يقول ان قتل الرجل كفتسل
الحيوان ؟ كل حياتي التي قضيتها في الصيد ، كنت اشعر دائما باحساس

من الرفعة ، ولم احس بالخطأ . اما اطلاق النار على انسان ، فيبحث في النفس شعورا بالآثم ، وكان المرء يقتل اخاه .. لا ، لا تفكر بهذا . فقد انتهى كل شيء الان ، وفي وسعك ان تحاول التكفير عن اثمك الجديد ، تماما كما ستحاول التكفير عن اثامك السابقة .. انك الان في المعركة . وليست امامك اية مشكلة . واذا مت هذا الصباح ، فلا اهمية في موتك ابدا .

وعاد ينظر الى فيرناندو المنبطح على الارض ، وهو يتنفس تنفسا بطيئا وثقيلا . وقال لنفسه .. اذا قدر لي ان اموت ، فكم اود ان يكون موتي سريعا . هذا كل ما ارجوه ، اذا تحقق لنا اليوم ما نريد .. ولكن لا ترج شيئا ؟ افهمت .. لن ارجو شيئا .. كل ما اريده هو ان ننجح ..

واصفى الى الصوت البعيد القادم من مكان ناء . صوت المعركة تدور لاحتلال المضيق ، وقال لنفسه .. حقا انه ليوم عظيم .

ولم يحس بحماس . لقد انتهى الحماس ، وعاد الهدوء الى نفسه . وبينما كان يقمي وراء العلامة الفارقة ، لم يشعر بالوحدة التي سبق له ان احس بها . انه يمسك بسلك طرفه في يده ، والطرف الثاني على الجسر . في المتفجرات التي وضعها الانكليزي . انه يعمل مع الانكليزي ، الذي ما زال تحت الجسر ، وهو يشترك الان في معركة من اجل الجمهورية .

ولكن اين حماسه . لقد اختفى . انه هادىء الان . والشمس تسطع على عنقه وعلى كتفيه ، ورفع رأسه فرأى السماء الزرقاء الصافية ، ورأى المنحدر من الجبل فوق النهر ، ولم يحس بسعادة . ولكنه لا يشعر بالوحدة او الخوف .

وكانت بيلار ، فوق الراية . منبطحه وراء شجرة وترقب الطريق الهابطة من المضيق ، والى جانبها ثلاث بندقيات محسومة . ناولت احداها الى بريمتيفو ، وهو يجلس الى جانبها ، ثم قالت .. اذهب وراء نلك الشجرة . وانت يا عجري الى تلك . هل مات ؟

- لا . لم يمت بعد .
- كان الحظ سيئا . لو كان معنا رجلان آخران لما وقع شيء . كان عليه ان يزحف حول النشارة .. وهل المكان الذي تركناه فيه مريح .

نهز بريمتيفو راسه .

وقال العجري من مكانه .. عندما ينسف الانكليزي الجسر ، هل تصل الشظايا بعيدا اليها هنا ؟

- لا ادري ، ولكن أوغسطين بمدفعه الرشاش ، اقرب الى الجسر منك . ولو كانت الشظايا تصل اليه لما وضعه الانكليزي هناك .
- ولكنني اذكر عند نسف القطار ان الشظايا تطايرت فوق راسي ..
كانها العصافير .

فقالت بيلار .. ان لك ذكريات شاعرية . كالعصافير .. اسمع يا عجري ، لقد سلكت سلوكا ممتازاً اليوم ، فلا تتسرك خوفك يتسلط عليك الآن .

- كل ما اردت قوله ان الشظايا اذا كانت تصل الي هنا ، فساخفي نفسي جيداً وراء جذع الشجرة .

- لا تخف .. كم عدد الذين قتلناهم .

- خمسة . وهنا اثنان . الا ترين واحداً على هذا الجانب ؟ انظري الى الجسر عند الملاذ . انظري الا ترين ؟ وهناك ثمانية عند بابلو . وقد كنت ارقب ذلك الموقع من قبل .

- ماذا دها الانكليزي ؟ ماذا يفعل تحت الجسر ؟ هل هو يبني جسر او ينسفه ؟

ورفعت راسها ، وصرخت الى انسيلمو .. ماذا حدث للانكليزي ؟

فرد انسيلمو .. الصبر يا امرأة .. انه ينهي عمله .

- ولكن باسم اكبر عاهرة .. لماذا كل هذا الوقت الطويل ؟

- انها عملية علمية .

- لعنة الله على العلم .. لماذا لا ينسف الجسر وتنتهي .. وصرخت ..
ماريا .. ثم شرعت تكيل سيلا من السباب لأعمال الانكليزي الخيالية
تحت الجسر .

فصرخ انسيلمو من الطريق .. هدئي روعك يا امراة . انه يقوم بعمل
هائل . وقد اشرف على الانتهاء منه الآن ،

فصرخت بغضب .. الى الجحيم .. ان السرعة هي المهم ،

وفي تلك اللحظة سمعوا جميعا ، صوت اطلاق النار من اسفل الطريق ،
حيث كان بابلو يحتفظ بالموقع الذي احتله . وتوقفت بيلار عن الشتائم
وهي تصفي .. وقالت .. آه .. آه .. هذا ما كنت اخشاه .

وسمع روبرت صوت الرصاص ، وهو يقذف بربطة الاسلاك ، وب نفسه
فوق الجسر ، وعندما اصبح على الحاجز الحديدي ، سمع صوت مدفع
عند المنعطف انه صوت يختلف عن صوت بندقية بابلو . ووقف على قدميه ،
وشرع يسحب السلك ويمشي على طرف الجسر .

واخذ صوت الرصاص يعلو في اذنيه ، ومضى يقترب منه . وتطلع خلفه
الى المنعطف . انه لا يرى سيارة ، ولا دبابة ولا رجلا . وكانت الطريق لا
تزال خالية عندما وصل منتصف الجسر . وعندما وصل الى ثلاثة ارباعه
كانت الطريق لا تزال خالية ، والسلك يمتد وراه ، وعندما وصل ملاذ
الحارس ، كانت الطريق لا تزال خالية . ووصل الى الطريق ، وكانت لا
تزال خالية . واصبح الان مقابل الحجر الذي يقف وراه انسيلمو .

ثم سمع صوت الشاحنة تهبط الطريق ، ولف السلك على يده وصرخ
يا انسيلمو .. هيا انسف كانت الشاحنة لا تزال تهدر على الطريق ، وقد
وصلت الى الجسر وسرعان ما صدر دوي هائل ، وارتفع الجسر من
وسطه في الهواء ، كموجة هائلة تنكسر على الصخور ، واحسن بضغط

الانفجار عندما انبطح على وجهه في الخندق . واخذت السماء تمطر
قطعا من الفولاذ .

واحس روبرت انه لا يزال حيا . وكانت الشاحنة قد توقفت وهرع
السائق والرجلان اللذان يستقلان السيارة معه ، الى الخندق يبحثون
عن ملجأ .

اما فيرناندو ، فكان لا يزال متكئا على طرف الطريق ، وهو يتنفس ، وان
كانت ذراعه قد استرخت الى جانبه .

وكان انسيلمو منبطحا على وجهه وراء الحجر . وقد سقطت ذراعه
اليسرى تحت راسه ، وامتدت يده اليمنى وحولها السلك لا يزال مربوطا
بمعصمها . وهب روبرت على قدميه ، وعبر الطريق وركع الى جانبه ،
فتأكد من انه قد مات . ولم يحاول ان يعرف اين اصابته الشظية .

وخيل الى روبرت ان الرجل يبدو صغيرا في موته . . اجل كان صغيرا
اشيب الشعر . . واستغرب روبرت كيف كان هذا الرجل الضئيل الجسم
يحمل كل تلك الاحمال الثقيلة . ومضى فحمل غدارة انسيلمو ، والجرابين
الفارغين تقريبا الان والبنديقية الموجودة الى جانب فيرناندو . واخذ يرتقي
الجبيل نحو الغابة . ولم يلتفت روبرت وراه كما لم يتطلع الى الطريق وراء
الجسر . كانوا لا يزالون يطلقون النار وراء المنعطف ، ولكن لم يمسد
يحمه شيء الان .

وكان يسعل سعالا حادا ، واحس بخدر في جسمه . ووضع احدى
البنديقتين الى جانب بيلار المنبطحة وراء الشجرة .

وقال . . انك في مكان بعيد هنا . فهناك سيارة شحن قادمة من الطريق
وليس في وسعك ان تشاهدها من هنا . لقد ظن مسن في السيارة ، ان
الانفجار من الطائرات . من الافضل ان تهبطي قليلا . اما انا فسانزل مع
اوغسطين لنفطي انسحاب بابلو .

وقالت بيلار . . وماذا حل بالرجل المعجوز ؟

- لقد مات .

وسعل سمعلا حادا . وبصق على الارض .

وقالت بيلار . . لا تنس يا انكليزي ان الجسر قد نسف .

– انا لا انسى شيئا . ان صوتك عال . فقد سمعت صراخك وانا تحت الجسر . اهتفي لماريا وقولي لها ، انني سليم .

وقالت بيلار ، وهي تحاول ان تعهمه . . خسرنا رجلين عند الطاحونة .

– لقد رايت ذلك . هل ارتكبتم خطأ ؟

– اذهب عليك اللعنة يا انكليزي لقد كان ايلاديو وفيرناندو رجلين ايضا .

– لماذا لا تصعدين الى الجياد ، في وسعي ان اقوم بالتغطية هنا بدلا منك

– ولكن عليك ان تغطي انسحاب بابلو . .

– ليذهب بابلو الى الجحيم ، ليغطي نفسه مع حثائه .

– لا . . يا انكليزي . لقد عاد . ولقد قاتل ببسالة هناك . انك لم تسمع شيئا . وهو ما زال يقاتل الان . ضد قوات كبيرة . الا تسمع ؟

– ساغظيه . ولكن عليكم اللعنة جميعا ، انت وبابلو معا .

– هديء من روعك يا انكليزي . . لقد كنت معك على طول الخط . دائما وقد اساء اليك بابلو ولكنه عاد .

– لو كان معي ادوات الانفجار التي سرقها . لما مات الرجل العجوز . وكان في وسعي ان انسف الجسر من هنا . .

– اذا . اذا . اذا .

كان الغضب الذي سيطر عليه . عندما رأى ان انسيلمو قد مات . لا يزال يسيطر عليه . وكان لا يزال واقعا تحت سيطرة الالم الذي تتحول عنده الجنود الى كراهية من ان ظلوا جنودا . . لقد احس بالوحده الان . . وقد غدا بكره كل ما يراه الان .

وقالت بيلار . . لو لم تكن هناك نلج . . وحنة احسن روبرت ان شعور

الكرامية بدأ في الزوال ، أجل الثلج .. انه المسؤول الاول . انه الثلج الذي ادى الى كل هذا .. انه السبب في ما وقع للاخرين .. واخذ روبرت يحدث نفسه .. اما وقد رايت الحقيقة بالنسبة الى الاخرين ، كما رايتها بالنسبة لنفسك . فهذا يعني انك قد تغلبت على انانيتك .. وهذا ما يجب ان تفعله في الحرب دائما ، حيث تنعدم النفس والانانية . وسمع بيلار ، وقد بدأ يشعر بأنه اضاع ذاتيته تقول .. سورودو .

فقال .. ماذا ؟

- سورودو ..

فقال روبرت .. أجل .. على كل انسي ما قلته . لقد كنت مخطئا .. انا آسف يا امرأة . فعليتا ان نكمل العمل الان بدقة معا .. وها هو الجسر قد نسف كما تقولين .

- أجل فعليك ان تفكر في اشياء اخرى الان .

نعم . سامضي الى اوغسطين الآن . ودعي الفجري يهبط . حتى يستطيع ان يرى رأس الطريق . اعط هذه البنادق الى بريمتيفو . وخذي هذه البندقية الرشاشة .. دعيني اعلمك .

- دع البندقية الرشاشة .. لن ننتظر طويلا هنا . لا شك في ان بابلو سيصل الآن ، وسنمضي من هنا .

فقال روبرت .. رافائيل ، تعال معي .. هنا . حسنا . هل ترى هؤلاء الذين يخرجون من الخندق . هناك فوق الشاحنة ؟ يسرون باتجاهها . اصب واحدا منهم . اجلس . خذ الامر ببساطة .

وصوب الفجري بندقيته الى الرجال الثلاثة ، وانطلقت الرصاصة ، لم تصب ايا منهم وقال روبرت .. لقد اصبت الصخرة فوقهم . يجب ان تصوب قدمين الى الاسفل . الآن . بعناية انهم يركضون حسنا .. اطلق .

فقال الفجري . لقد اصبت احدهم . وفعل سقط واحد منهم بين الخندق والشاحنة . ولم يتوقف الاخران ليسحباه بل عادا يهربان الى الخندق ويختفيان فيه .

وقال روبرت .. لا تطلق النار عليه .. بل اطلقها على اطار السيارة . فاذا لم تصب الاطار اصبت الآلة . حسنا اخفض هدفك قليلا .. رائع . انك تصيب على احسن ما يكون . اطلق رأس خزان السيارة . انك بطل . ارايت . لا تترك شيئاً يمر من تلك النقطة هناك . ارايت ؟

وقال الفجري فرحا .. لاحظ ، ساحطم حاجز السيارة .

فرد روبرت .. لا . لقد اصبت السيارة . وفر رصاصاتك الى ان تأتي سيارة جديدة في الطريق . ابدا باطلاق النار عندما تصل الى الخندق . حاول اصابة السائق . وأتذاك اطلقوا النار جميعا .. ووجه هذه المرة كلامه الى بيلار ، التي هبطت مع بريمتيفو .. واضاف .. ان مكانكم رائع هنا ، فالمنحدر يحمي جناحكم .

فقالت بيلار .. هيا ، اكمل مهمتك مع اوغسطين ، ولا تلق محاضرة علي ، فقد رايت مناطق جبلية من قبل .

فقال روبرت .. ضعي بريمتيفو هناك . هناك يا امرأة .

فقالت بيلار .. اتركني ، وامضي يا انكليزي . عليك اللعنة وعلى اتقانك فنحن لسنا في مشكلة .

وسمعوا في تلك اللحظة صوت الطائرات . وهي تهدر فوق رؤوسهم .

★★★

كانت ماريا قد قضت مع الجياد حتى الآن وقتا طويلا ، ولكن هذه الجياد ، لم تبعث في روحها التسلية والمتعة . كما انها لم تبعث في نفوس الجياد اي تسلية . ولم يكن في وسعها من المكان الذي تقف فيه ، في الغابة ، ان ترى الطريق او الجسر ، وعندما بدأ اطلاق النار ، طوقت

بذراعيها عنق الحصان الابيض ، الذي كانت تخصصه بهداياها ، عندما كانت تزور الجياد وهي في حظيرتها عند المعسكر . ولكن ما تحس به ماريا من عصبية ، حمل الجواد ، على ان تثور اعصابه ايضا ، فاخذ يهز راسه ، وقد اتسع منخراه ، وهو يسمع صوت اطلاق العيارات النارية وتفجير القنابل . ولم تستطع ماريا . ان تظل هادئة . بل واصلت السير جائلة حول الجياد ، تربت على هذا وتداعب ذلك ، فتثيرها كلها .

وارادت ان تفكر باطلاق النار ، لا على اساس انه امر مفزع بل على اساس انه بابلو وجماعته من القادمين حديثا في مركزهم البعيد ، وبيلاز مع رفاقها عند المركز الاخر ، مبعدة افكارها عن ان يكون قد حدث شيء لروبرتو الذي وضعت فيه كل ثقها . ولكنها لم تستطع ان تبعد فكرها عنه ، مع هذه الاصوات التي تصل الى اذنيها من عبارات نارية تنطلق هنا وهناك وعلى الجسر ، ومن قنابل انفجر بعيدا في ميدان المعركة الدائرة عند المضيق ، وظلت هذه الاصوات تحول بينها وبين التنفس .

وسمعت فيما بعد صوت بيلاز العالي ، يصرخ ببعض الشتائم والسباب ولم تستطع ان تفهم شيئا .. واخذت تفكر .. آه ، يا الله ، لا . لا . لا . لا تتحدثي هكذا عنه وكأنه في خطر . ولا تسيئي لانسان . وتقومي بمخاطرات لا تجدي ولا تنفع .. اجل لا تستفزي احدا .

وبدات تصلي لروبرت بسرعة وبصورة رتيبة ، كما كانت تصلي وهي في المدرسة . انها تصلي بسرعة ، وتعد صلواتها على اصابع يدها اليسرى ، مكررة الصلاتين اللتين تعرفهما عشرات المرات . ثم انفجر الجسر ، واقتلع احد الجياد رباطه ، ومضى بين الاشجار . واعادت ماريا القبض على الحصان ، وارجمته الى مكانه وهو يرتجف ، وقد تصيب العرق على صدره وسمعت صوت عيارات نارية .. واخذت تحدث نفسها .. لا استطيع ان اتنفس ، لا استطيع ان احتمل اكثر .. لقد جف حلقي .. وانا خائفة ، ولا اصلح لشيء ، فانا اخيف الجياد .. وها قد فر واحد منها ، وعدت

فأمسكت به .. آه يا الله انا لا ادري . لا أستطيع ان احتمل اكثر . يا رب احفظه لي ، رحمة بي وبقلبي . فالجمهورية شيء واحد ، وان نتصر شيء آخر .. ولكن بحق العذراء اعده الي من الجسر ، وسانفذ يا رب كل ما تطلبه مني . فانا لست هنا الآن ، وليس هناك شيء هو انا الان . انني معه اعن به يا رب من اجلي ، لانه انا ، وسانفذ لك كل شيء . وبالطبع لن يكون ما انفذه ضد الجمهورية .. اغفر لي يا رب . فانا مرتبكة الان . اما اذا عنيت به فسانفذ كل ما هو حق . وسانفذ كل ما يامرني به ، وكل ما تأمرني به انت . اجل سانفذه بكل ما في نفسينا معا من قوة . ولكنني الان لا استطيع الاحتمال .

وسمعت صوت بيلار يرتفع ثانية ويقول .. ماريا ، ماريا !! ان انكليزيك بخير ، هل سمعت ؟ .. حسنا .

وبدأت ماريا تبكي ، وقد امسكت بسرج الجواد بيديها .. وسمعت الصوت يصرخ ثانية .. فهتفت .. نعم .. شكرا ، وخنقتها العبرات .. وهي تقول .. شكرا . شكرا جدا .

★★

وعندما سمعوا صوت الطائرات ، رفعوا رؤوسهم ، فراوها قادمة من ناحية سيفونيا ، وهي محلقة عاليا ، فضية في كبد السماء ..

وقالت بيلار .. آه .. هذه الطائرات .. لم يكن ينقص علينا الا ان تجيء هذه . ووضع روبرت ذراعه على كتفيها وهو يرقبها وقال .. لا يا امرأة ، انها ليست قادمة من اجلنا ، .. اذلا وقت معها لتضيمه علينا . هدئي من روعك .

– انني اكرهها .

– وانا ايضا . ولكن يجب ان اذهب الان الى اوغسطين .

وقام بدورة واسعة بين الاشجار ، والطائرات تحلق فوقه ، وعلى الطريق

بدا يسمع نيران المدافع الرشاشة

وهبط روبرت بجانب اوغسطين ، وراء المدافع الرشاش ، وكانت الطائرات ما تزال تتوافد باعداد كبيرة .

وقال اوغسطين .. ماذا يحدث هناك ؟ ماذا يعمل بابلو ؟ الا يعرف ان الجسر قد نسف . الا يدري ان الجسر قد نسف ؟
- ربما تعذر عليه الوصول اليها .

- اذن فلنفادر ، وليذهب الى الجحيم .

- لا ريب في انه سيصل الان اذا استطاع . ولا بد ان نراه الان .

- لم اسمع شيئاً منه منذ خمس دقائق . لا . ها هو . اصغ . ها هو .

وقال روبرت جوردان .. اجل ، ها هو الوغد .

وتطلع الى السماء ، وراى مجموعات جديدة من الطائرات تمر فوق راسه
ثم تطلع الى اوغسطين ، فالى الجسر المحطم ، والى الطريق القائمة وراءه .
وعاد يسمع دوي المدافع وراء المنمطف .. انها في نفس المكان الذي سمع
منه الصوت اولاً .

وقال اوغسطين يسأله .. ما رايك ؟ ما هذا الذي تسمعه ؟

- انه نفس الصوت حتى قبل ان انسف الجسر .. وتطلع الى مكان
النسف فراى النهر المنساب في الوادي تحت الجسر .. وسمع صوت
الطائرة الاولى التي مرت من فوقهم تلقي بقذائفها هناك عند المضيق .. وما
زالت الطائرات تتوافد ، ويملاً هديرها السماء ، وراى حولها الطائرات
المطاردة ، تدور وتحوم .

وقال بريمتيفو .. لا اعتقد انهم قد اجتازوا الخطوط هذا الصباح .
واعتقد انهم عادوا الى التراجع غرباً عندما راوا هذه الطائرات .

وقال روبرت .. ان معظم هذه الطائرات جديد .

كان يحس بشعور غريب ، هو شعور الانسان الذي يرى شيئا يبدأ بداية عادية ، ثم ينتهي الى نتائج ضخمة كبيرة غير متوقعة . اجل كذلك الانسان الذي يلقي حجرا ، فينثر الحجر في الهواء ، وكأنه يحدث موجة من المد . او كذلك الانسان الذي يطلق صوتا ، فيردد الصدى هذا الصوت على شكل هدير كهدير الرعد . او كذلك الانسان الذي يصرع رجلا ، فسرعان ما يهب امامه عدد ضخم من الرجال ، وكلهم مسلح ومدرع بالدروع . وقد سر كثيرا لانه لم يكن مع غولز عند المضيق .

وظل منبسطا في مكانه على مقربة من اوغسطين ، يرقب الطائرات وهي تمر فوقه ، ويصفي الى اطلاق النار وراه ، ويلاحظ الطريق ، حيث يتوقع في كل لحظة ان يرى شيئا جديدا ، لا يعرف كنهه . وكان لا يزال واقفا تحت تأثير الدهشة البالغة من انه لم يقتل عند الجسر . وكان قد تقبل فكرة القتل والموت تمام القبول ، حتى انه رأى في كل شيء الآن امرا غير واقعي . وعاد يحدث نفسه .. هيا ، ابعده عن تفكير هذه الخيالات . تخلص منها . فما زال امامك الكثير لتعمله اليوم . لكن هذه الافكار السوداء لا تبرحه . وشعر بان كل ما يراه لا يعدو ان يكون حلما .

لقد ابتلعت الكثير من هذا الدخان .. ولكن ليس هذا هو السبب .. فهو يحس بان كل ما مر به لا يمت الى الحقيقة بصلة ، الحقيقة المظننة ، عاد يمر بنظره على الجسر الذي هوى ، والحارس الذي قتل ، وانسيلمو الذي مات ، وفيرناندو المتكئ على حافة الطريق ، والسيارة الشاحنة ، وعلى الرغم من كل ما رآه ، فقد ظل هذا المنظر غير واقعي ..

وقال لنفسه .. من الخير ان تتخلص من هذا الشطر من وجودك بسرعة .. فانت مثل هذا الانسان الذي اصيب بجراح ، ولكنه لا يدري اين الجرح الذي اصيب به ، وان كانت برودة الموت تسري في اوصاله .

وعاد يقول لها .. لا ، انك لست الا انسانا ثملا ، استرخى بعد المسؤولية الضخمة التي كان يحس بها .. خذ الامور هنية .

واحسن باوغسطين يمسك بذراعه مشيراً الى ناحية . فتطلع عبر المضيق
رأى بابلو . .

كان بابلو يركض دائراً حول المنعطف الطريق . وراياه يتوقف قليلاً
ويتكئ على صخرة . ثم يطلق النار على الطريق . اجل رأى روبرت
جوردان ، بابلو بجسمه القصير الضخم . وقد طارت قلنسوته عن راسه ،
وهو يتكئ على الصخرة ، ويطلق النار من بندقيته الرشاشة التي اخذها
من الفارس . ثم رآه يزحف ثانية ويستدير فيطلق دفعة ثانية من الرصاص
ثم رآه يركض دون ان يتطلع خلفه ، مستهدفاً الجسر .

وكان روبرت قد ازاح اوغسطين بيده وتسلم زناد المدفع الرشاشي الكبير
وصوبه الى المنعطف الطريق . . وكان بابلو يدنو منهما ، وظل بابلو يرقب
المنعطف فلا يرى شيئاً . وعندما وصل بابلو الجسر ، عاد فتطلع وراءه ،
ورنا الى الجسر ببصره ثم هبط الى المضيق ، واختفى . وظل روبرت
يرقب المنعطف فلا يرى شيئاً . واقعى اوغسطين على ركبة واحدة وهو
يرى بابلو يتسلق وكأنه احد الماعز . وكان صوت اطلاق النار قد توقف
منذ رايًا بابلو اول مرة .

وقال روبرت يسأله . . اترى شيئاً هناك على الرابية ، على الصخور ؟
- لا ارى شيئاً .

وظل روبرت يرقب المنعطف ، وكان يعرف ان الجدار مرتفع في تلك
الناحية ، لا يستطيع انسان ان يرتقيه ، ولكنه ينحدر وراء ذلك ، وفي
وسع اي انسان ان يدور حوله .

وإذا كانت الامور بعيدة عن الحقيقة في الماضي ، فقد غدت فجأة حقيقة
واقعية . وبدت الحقيقة تنجلي امامه ، وكأنها عدسة عاكسة تدور الى ان
وجدت مركزها . ورأى آنذاك ، فوهة مدفع تبدو من المنعطف وينعكس
عليها ضوء الشمس ، فأطلق عليها النار ، وابصر بالشظايا تتطاير بعد ان

اصطدمت بغوثة المدفع وبفولاذ الدبابة . وعادت الدبابة الى الاختفاء وراء الصخور . ثم رأى روبرت انها يعود الى الوراء ، وبرجها يستدير الى ان استهدف الطريق .

وقال اوغسطين .. انها تبدو كفار ينطلق من حجره .. انظر يا انكليزي .
- ان سائقها خائف ، ولا يثق بنفسه .

فعاد اوغسطين يقول .. هذه هي الحشرة الكبيرة التي كان بابلو يحاربها .. اطلق النار عليها ثانية يا انكليزي .

- لا ، فليس في وسعنا ان نفعل له شيئاً ، ولا اريد منه ان يرى مكاننا .

وعادت الدبابة تطلق النار على الطريق ، وتنطلق نيرانها وتصيب حديد الجسر . انه نفس الصوت الذي كانوا يسمونه في السابق .

وقال اوغسطين .. يا له من جبان .. هل هذه هي الدبابة المشهورة يا انكليزي ؟

- انها دبابة من النوع الصغير .

- جبان . لو كانت لدي زجاجة صغيرة ملأى بالكاز ، لتسلقت عليها واحرقتها . ماذا سيصنع يا انكليزي ؟

- انه سيستأنف التطلع من جديد .

- وهل هذا ما يخاف منه الجنود ؟ انظر يا انكليزي ؟ انه يמיד قتل الحراس .

- ما دام لا يجد هدفاً آخر ، فلا تلمه .

ولكنه اخذ يفكر . لماذا السخرية منه . فلو كنت انت في مكانه ، في بلادك ورايتهم يتصدون لك باطلاق النار عليك في بلادك . ثم سمعت صوت جسر ينسف ويتحطم . او لا يخطر ببالك ان الالغام قد وضعت مسن

قُبيل ، أو ان هناك شركا . طبعاً ، هذا ما سيخيل أليك . لقد احسن صنعا حتى الان . انه ينتظر وصول نجدات . وهو يشتبك مع العدو ، مجرد اشتباك ليعرفه ويمنعه من الفرار ، وبالطبع ، لا يستطيع ان يشرح لك ذلك .

واستدارت الدبابة الصغيرة لتستهدف مكانا ابعد حول الزاوية .

ورأى اوغسطين بابلو في تلك اللحظة ، يخرج من حفة الهاوية ، وهو يزحف على يديه ورجليه ، والعرق يتصبب منه .. وقال .. ها قد وصل ابن العاهرة .

— من ؟

— بابلو .

والتفت روبرت جوردان ، فرأى بابلو ، واخذ يطلق النار على برج الدبابة وهادت الدبابة فانسحبت الى الوراء ، وحمل .. برت مدنعه الرشاش على كتفه ، وكان انبوهه لا يزال حاراً حتى انه احرق كتفه .. وقال .. حمل امشاط العناد وبنديتي الصغيرة .. واركض فوراً .

وركض روبرت جوردان الى الجبل عبر اشجار الصنوبر . ووراءه اوغسطين يتلوه بابلو .. وصرخ جوردان .. بيلا .. هيا يا امرأة .

واخذ ثلاثهم يصعدون راكضين باسرع ما يمكنهم سفح الجبل . ولحق بابلو بهم ..

وقال اوغسطين بصوت جاف .. وماذا حل برجالك ؟

فقال بابلو وهو لا يكاد يستطيع ان يتنفس .. ماتوا جميعاً . والتفت اليه اوغسطين ، وقال بابلو وهو يلهث .. لدينا الكثير من الجياد ، يا انكليزي الان .

فقال روبرت جوردان .. حسناً .. واخذ يفكر في هذا الوغد القاتل .. ثم قال له وماذا صادفك في طريقك ؟

– صادفت كل شيء ، وماذا حدث لبيلا ؟
– فقدت فيرناندو والأخ .

فقال اوغسطين .. ايلاديو .

وقال بابلو يسأله .. وانت ؟

– فقدت انسيلمو .

– اذن فلدينا الكثير من الجياد الآن .. عدد يكفي حتى لحمل المتاع .

وعض اوغسطين شفته وتطلع الى روبرت جوردان ثم هز راسه . وكانت
الدبابة تطلق نيرانها من الاسفل على الجسر وعلى الطريق ثانية .

وهز روبرت جوردان راسه وقال .. ماذا حدث لك مع هذه الدبابة ؟
وكان لا يريد ان يتطلع الى بابلو ، ولا ان يشم رائحته ، ولكنه اراد
ان يسمعه .

فقال بابلو .. لم استطع ان اغادر مكاني مع وجود الدبابة . وكنا قد
اقمنا متاريس لنا في المنعطف الاسفل . واخيرا عادت الى الورا ، وجئت انا

وقال اوغسطين .. وعلى ماذا كنت تطلق النار عند المنعطف ؟

فتطلع اليه بابلو ، وقطب حاجبيه ثم فكر قليلا ، ولم يجب .

وعاد اوغسطين يسأله : هل قتلتم جميعا ؟ .. وكان روبرت يفكر ..
امن الخير ان يفلق فمه . فالامر لا يعنيه الان . فقد قاموا بواجبهم واكثر
من الواجب . وهذه مشكلة داخلية محض .. اذن لا تتدخل .. ولا تبني
احكاما اخلاقية . اذ ماذا تنتظر من قاتل . أنك تعمل مع قاتل . اغلق فمك
وقد عرفت عنه ما فيه الكفاية . فهذا ليس بالجديد بالنسبة اليك .
ولكنه ، وغد سافل .

وكان صدره ، يكاد يضيق من الصعود ، ويتفجر من الركنض ، ورأى
امامه الجياد . وسمع اوغسطين يقول .. قل .. لماذا لا تعترف انك
قتلتهم ؟

فقال بابلو .. اغلق فمك . لقد قاتلت كثيرا اليوم وابليت بلاء حسنا .
اسأل الانكليزي .

وقال روبرت جوردان .. والان عليك ان تتولى القيادة . فانست
صاحب الخطة .

فرد بابلو - عندي خطة رائعة ، اذا ساعدنا الحظ قليلا ، نجونا جميعا .
وكان تنفسه قد بدأ ينتظم .

وقال اوغسطين .. وطبعاً لن تقتل احداً منا . اذ اني سأقتلك الان .
فرد بابلو .. أغلق فمك .. علي ان اهتم بمصالحك ، ومصالح العصاةة .
فهذه هي الحرب ولا يستطيع كل انسان ان يفعل فيها ما يشاء .
فقال اوغسطين .. ايها الجبان .. انك تنال كل الجوائز .

فقال روبرت موجهاً حديثه الى بابلو .. قل لي ماذا واجهت هناك ؟
- كل شيء .. كان لا يزال يتنفس بصعوبة ، ولكن حديثه اصبح ثابتا
الان ، واخذ العرق يتصبب من راسه ووجهه ، وتطلع الى روبرت بحدس
ليرى اذا كان حقا ودودا ثم قطب جبينه وقال .. كل شيء . اولاً احتلنا
المركز . ثم جاءت دراجة نارية ، فدراجة ثانية ، فسيارة اسعاف .
فسيارة شحن . ثم جاءت الدبابة وكل ذلك قبل ان تنسف الجسر .
- وبعد ذلك .

- ثم تستطيع الدبابة ان تلحق بنا اي اذى ولكننا لم نستطيع مفادرة
موافقنا اذ انها كانت تسيطر على الطريق ، ثم مضت ، فقفلت عائدا .

وقال اوغسطين وهو لا يزال يبحث عن المشاكل .. ورجالك ؟

وعاد بابلو يقول .. وقد احتد .. إخرس لم يكونوا من عصابتنا .

واصبحوا يرون الجياد امامهم ، والشمس تصل اليهم مخترقة بأشعتها
غصون الاشجار . وراى روبرت جوردان ماريا ، وسرعان ما ضمها الى

صدره ، والبندقية الرشاشة تضغط الى جانبه .. وماريا تقول .. انت يا روبرتو .. انت .

– اجل يا ارنيتي . يا ارنيتي الرائعة . والان هيا بنا .

– هل انت هنا حقا ؟

– اجل . اجل . حقا .

انه لم يكن يعرف ان هناك امرأة ، وهو يخوض المعركة ، ولم يكن يستجيب لافكاره نحوها . ولم يكن يتصور ، حتى لو وجدت هذه المرأة ، ان لها مثل هذين الشديدين الناهدين الرائعين ، وهما يكادان يندفعان من القميص الذي تلمسه . ولكنهما موجودان ، وها هو يحس بهما . وهذا امر حسن . انه لم يكن ليصدق نفسه . وعاد يضمها ، اليه ثانية بقوة دون ان ينظر اليها ثم ضربها بيده ، حيث لم يجرؤ من قبل ان يضربها ، وقال .. هيا استلقي الجواد . يا حلوة .

واخذوا يهلون قيود الجياد ، واعاد روبرت المدفع الرشاش الى اوغسطين ثم حمل بندقيته الرشاشة على ظهره ، واخذ يفرغ جيوبه من القنابل اليدوية ويضمها في جراب السرج . وسرعان ما جاءت بيلار ، وقد تقطعت انفاسها من الصعود ، ولم تستطع الكلام .

وسرعان ما استقل الجميع الجياد ، وكان روبرت يمتطي الجواد الاثهب الكبير الذي كان اول ما رآه في يوم الفلج . واستقلت بيلار جوادا وضعت عليه بعض الاغصان لتفطية سرجه فقال بريمتيفو .. بحق السماء .. ضعي تلك الاغصان عن الجواد فلن تستطيعي ان تركبي فوقها وستسقطين .

– اخرس .. ان هذه الاغصان مستنفنا كثيرا ،

وقال بابلو .. هل تستطيعين الركوب على هذا النحو يا امرأة ؟

– تماما ، كاية باثة حليب .. من اين طريقنا ؟

- سنهبط ، عبر الطريق ، ثم نصعد المرتفع البعيد من الناحية الأخرى
السى الغابة .

فقال اوغسطين وقد حاذاه على جواده .. هل نعبّر الطريق ؟

- أجل يا رجل ، انها الطريق الوحيدة .. ومضى بابلو يقول .. فسي
وسلك أن تسيّر في المؤخرة يا انكليزي . سنصعد الى مكان مرتفع بحيث
نبعد عن مدى نيران ذلك المدفع . وسنمضي فرادى ، ثم نعود الى الاجتماع
فسي الغابة .

فقال روبرت .. حسنا .

وهبطوا عبر الأشجار الى حافة الطريق . وكان روبرت يسيّر بجواده
وراء ماريا ، إذ لم يكن باستطاعته ان يسيّر مجازيا لها بسبب الأشجار .

وقال لماريا .. كوني الثانية عندما يعبرون الطريق . فالاول يتعرض
لبعض الخطر ، اما الثاني فيكون دائما في منجاة . ويتعرض الآخرون
دائما لعين المراقبين .

فقلت ماريا .. وانت ؟

- سأمر فجأة .. لن تكون هناك مشكلة . اما المشكلة فسواجها
عندما نصل الى الخطوط .

وكان يتطلع الى رأس بابلو المدور وقد غطس بين كتفيه ، بينما تعلقت
بندقيته الاوتوماتيكية بكتفه . ونظر الى بيلار برأسها العاري وكتفيها
العريضتين .. وتطلعت اليه وهزت رأسها .

فقال روبرت لماريا .. دعي بيلار تمر قبلك على الطريق .

ونظر امامه عبر الأشجار ، فرأى الطريق ووراءها سفح الجبل الأخضر .
ورأى أنهم قد غدوا فوق الخندق ، وتحت المرتفع ، الذي تنخفض الطريق
هنا ، ماضية نحو الجسر ، ونحو الوادي . وقال لنفسه ، أننا على ارتفاع
نحو من ثمانمائة ياردة فوق الجسر ، وهي مسافة تجعلنا في مدى إطلاق

النار من مدفع « فيات » الموجود في تلك الدبابة الصغيرة ، اذا كانت قد وصلت الى الجسر .

وقال .. ماريا .. هيا انت وبيلا ، ومرا قبل ان نصل الى الطريق ، ونظرت اليه ولم تحر جوابا . ولم ينظر اليها الا ليتأكد من انها قد فهمت كلامه .

فقال لها - هل فهمت .. ؟

واحتت رأسها بالإيجاب .

- اذن هيا ، تحركي .

فهزت رأسها .

- هيا ، تحركي !

- لا ، لن اذهب . الا في المكان الذي يجب ان اذهب فيه .

وفي تلك اللحظة . دق بابلو مهمازه في بطن جواده ، فمضى ينهب الارض قاطعا المسافة التي بقيت امامه من المنحدر ، وعابرا الطريق الى الجانب الاخر ولحق به الآخرون وراهم روبرت جوردان ، يجتازون الطريق ، ويمضون خبيبا في الطريق الصاعد من الناحية الاخرى ، بينما انطلقت نيران المدفع الرشاش من ناحية الجسر . وسرعان ما رأى الطلقات النارية تتساقط على الارض ، فيتصاعد من جراء اصطدامها غبار التراب ،

وتوقف الفجري امامه قرب الطريق وراء الاشجار الاخيرة .. وتطلع الى روبرت جوردان .. فقال له هذا .. هيا يا رافائيل .. افر بجوادك ..

كان الفجري يمسك بزمام جواد آخر يحمل بعض المتاع ويجره وراه .

فقال روبرت .. اترك زمام الجواد الثاني ، وامض خبيبا بجوادك .

ورأى الفجري ، يرفع يده شيئا فشيئا ، ويطلق سراح الجواد الثاني

بينما ، دق مهمازه في الجواد الذي يمتطيه ، وسرعان ما رآه يجتاز الطريق بجواده ، الذي اخذت حوافره تدق الارض .

وانطلقت دفعة جديدة من الرصاص ، وراى العيارات تنهال تسرب الفجري وامامه ووراءه . ولكنه رآه يواصل الاغارة بجواده مرتقيا المنحدر الاخضر ، واصبح في نجوة من الخطر ، وراء كتف الراية مع الاخرين .

وقال روبرت لنفسه . . لا استطيع ان آخذ الحصان الثاني المحمل بالمتاع معي . وان كان باستطاعتي ان اجعله يمشي وبين هدف ذلك المدفع الذي يطلقونه . من عيار ٧٧ ميليمترا . . على كل حال سأحاول ان امر به .

ومضى الى الجواد الاخر فامسك به . وقاده من زمامه والجواد يركض خيبا ووراءه ، ثم سار نحواً من خمسين ياردة عبر الاشجار . وعندما وصل الى نهاية الاشجار . ، القى بنظرة الى الطريق وراء الشاحنة ، باتجاه الجسر وراى عدداً من الناس على الجسر ووراءه ، وكانت المواصلات قد توقفت هناك على الطريق . وتطلع روبرت جوردان حوله ، فابصر بما اراد اخيراً ، ثم قطع غصنا ذابلاً من شجرة صنوبر ، وضرب الجواد الذي يحمل المتاع به . وقال . . هيا يا ابن العاهرة ، ثم قذفه بالغصن وهو يعبر الطريق الى المنحدر . .

ومضى روبرت ثلاثين قدماً اخرى مرتفعاً مع الطريق ، حيث يصبح جانبها عالياً ، ثم همز جواده ، ببطنه . . وقال . . هيا ايها الجواد الفاشي ، ومضى في غارة سريعة . يهبط المنحدر . وسرعان ما غدا مكشوفاً فسي الطريق التي اصبحت قاسية تحت قدميه . واحس بثقل الارض . والجواد يقطعها ، متجها الى المنحدر . وتطلع الى المكان الذي يقوم فيه الجسر . فرآه الان من زاوية لم يره منها من قبل . وراى المكان المحطم من الجسر ، ووراءه تقف الدبابة الصغيرة ، ووراءها دبابة كبيرة ، ارتفع مدفعها الكبير الاصفر ، مضيئاً في الشمس ، وكأنه مرآة . . وعاد بنظرة الى الامام فرأى جواد المتاع ، وقد خف سيره ، ثم عاد ينظر الى الجسر فرأى صفاطويلاً

من الشاحنات . وراى النور يتصاعد من فوهة المدفع مشيراً الى انطلاق القذيفة التي سقطت قريباً منه وقد اطارت كمية كبيرة من التراب في الهواء

ورآهم جميعاً امامه في طرف الغابة ينتظرون وصوله . وهمز جواده من جديد فانطلق مهرولاً نحو المنحدر ، وعاد بنظره الى الوراء ، وابصر القذيفة تنطلق ، ولم يعد يبصر شيئاً ، وانما راى نفسه تحت الجراد الاشهب ، وهذا الجواد يضرب بقدميه بينما يحاول هو الخلاص من تحت وطأة الجواد

في وسعه ان يتحرك . . باتجاه اليمين ، اما ساقه اليسرى فقد ظلت تحت الجواد وكان لها مفصلاً جديداً . ليس المفصل القائم في الورك بل في مكان آخر واخذ يحس بعظام ساقه في المكان الذي احس انها خلقت منه .

ووقف الجواد فوقه ، وراى صدره يعلو ويهبط . وكان المكان الذي يجلس فيه مليئاً بالخضرة ، وبين الاوراق الخضراء ازهاراً مختلفة ، وعاد بنظره الى المنحدر ، والى الطريق والجسر والهوة ، وراى الدبابة في مكانها ، وانتظر القذيفة الثانية . وسرعان ما انطلقت القذيفة ، ومع انفجارها ، وانطلاق رائحة الديناميت منها ، راى الجواد الاشهب الكبير ، يعسود فيجلس الى جانبه . وكأنه حصان من خيول « السيرك » . وسرعان ما اخذ يصفى الى الصوت الصادر عن الجواد .

وسرعان ما كان بريمتيفو واوغسطين يسحبانه من ابطيه المسافة الباقية من المنحدر ، وراى مفصل رجله الجديد ، يجر على الارض . وانطلقت قذيفة ثالثة ، فقدناه من ايديهما وانبطحا على الارض ، ولكنها لم تصب هدفها ، وعادا يرفعانه من جديد حتى وصلابه الى الملجأ الامين بين الاشجار حيث تقف الجياد ، وتقف ماريا وبيلاز وبابلو الى جواره .

وركعت ماريا الى جانبه وهي تقول . . روبرتو . . ماذا اصابك .

فقال والفرق يتصبب منه . . لقد كسرت ساقى اليسرى يا حلوة .

فقال بيلاز . . بسنشدھا . او لا تستطيع ان تتركب هذا . . واشارت

الى احد الجياد وكان محملا بالمتاع وقالت .. انزلوا المتاع عنه .

ورأى روبرت جوردان ، بابلو وهو يهز رأسه فإشار اليه .. تعال يسا بابلو .. اسمع ، اقترب مني .

ودنا الرجل ، وقد تصيب العرق من جبينه ، وشم روبرت جوردان ، رائحته القذرة منبعثة منه .. وقال باباو .. هل تشعر بألم شديد .
- لا ، اعتقد ان العصب قد انقطع . أصغ الي . امض مع الجماعة .
واتركوني ، فأنت ترى انني انتهيت . دعني اتحدث الى الفتاة لحظة واحدة
وعندما أقول لك خذها ، يجب ان تأخذها . انها ستحاول طبعاً البقاء .
وسأتحدث اليها لحظة واحدة .

فقال بابلو .. من الواضح ان الوقت قصير معنا .

- طبعاً .

وعاد روبرت يقول .. واعتقد أنك اذا ذهبت الى الجمهورية ، كسان هذا اصلح واجدى .

- لا ، انا ذاهب الى غريديوس .

- استعمل عقلك .

فقال بابلو .. حدثها الان . فالوقت ضيق . وانا اسف لما وقع يسا انكليزي .

- ما دام قد وقع ، فعلينا ان لا نتحدث عنه . ولكن استعمل عقلك .
فلدريك عقل كبير ، استعمله .

- ولم لا استعمله ؟ تحدث بسرعة الان يا انكليزي . فليس لدينا وقت .

ومضى بابلو الى اقرب شجرة ، واخذ يرقب المنحدر ، وما وراءه حتى الطريق . وكان ينظر الى الحصان الاشهب الكبير ، وفي عينيه علائم الاسى

وجلست بيلار وماريا الى جانب روبرت حيث اتكا الى جذع شجرة .

وقال لبيلار .. اقطعني سروالي من فضلك .. واقمت ماريا الى جانبه

لا تتكلم . واخذت اشعة الشمس تنعكس على شعرها ووجهها الذي كان يبدو وكأنه وجه طفل على وشك البكاء . ولكنها لم تكن تبكي .

وانتضت بيلار مطواتها وشقت السروال تحت الجيب . وازاح روبرت جوردان القماش بيده وتطلع الى فخذة المهشم . رأى العظام وقد تناثرت، والتصق بعضها بجلده . وكانت ساقه تؤلف مع فخذة زاوية غريبة . . وتطلع الى بيلار . . فرأى على وجهها عين الملامح التي رآها في وجه ماريبا . وقال لبيلار . . اذهبي .

فمضت بعيدة عنهما وقد احنت رأسها دون ان تقول شيئا ودون ان تنظر خلفها . . ورأى روبرت ان كتفها يرتعدان .

وقال روبرت لماريا وقد امسك بيديها الاثنتين . . يا حلوة . . اسمعي لن نذهب الى مدريد . . وراها تنفجر باكيا . .

وقال . . لا ، يا حلوة ، لا تبكي . اسمعي الي . . اننا لن نذهب الى مدريد الآن ، ولكنني سأذهب دائما معك اينما تذهبين . هل فهمت ؟ ولم تقل الفتاة شيئا . وانما وضعت رأسه على وجنته ، وطوقت رأسه بذراعيها .

ومضى يقول . . اسمعي يا ارنيتي . . وكان يدرك ان الوقت من ذهب، وقد تصبب العرق من وجهه ، ولكنه يجب ان يقول لها ما يريد قوله ، ويجب ان تفهمه . . اسمعي يا ارنيتي ، ستذهبين الآن . ولكنني معك . فما دام احدنا حيا ، فالآخر حي معه . هل فهمت ؟
- لا ، سأظل معك .

- لا يا ارنيتي . فما عمله الآن ، اعمله وحدي ، اذ لا يستطيع ان اجيد عمله معك ، ولكنك اذا ذهبت ، فانا معك ايضا . الا تستطيعين ان تفهمي ما اقول ؟ فحيثما يوجد احدنا ، يوجد الثاني .

- سأظل معك .

- لا يا ارنيتي . ما سأعمله ، لا يستطيع ان يعمله الناس معا . ويجب ان يعمله كل على افراد ، ولكنك اذا ذهبت ، فانا معك . وانا اعرف انك ستذهبين الان . لانك كريمة ولطيفة . وستذهبين من اجلنا معا .

- ولكن من الاسهل علي ان ابقى معك . بل من الاجدى والافضل .

- اجل . اذن فاذهبي من اجلي . واعلمي معي هذا المعروف . اجل اذهبي من اجلي اذا كنت لا تستطيعين ان تذهبي من اجلك .

ولكنك لا تستطيع ان تفهم يا روبرتو . ماذا يحدث لي ؟ انه اسوا شيء بالنسبة لي .

- طبعاً . من الصعب عليك ان تذهبي . ولكنني وانت شخص واحد الان ولم تقل شيئاً .

ونظر اليها ، والعرق يتصبب منه بشدة ، وتحدث الآن ، وهو يحاول القيام بشيء ، اصعب من كل ما عمله في حياته او حاوله .

ومضى يقول .. اذن فتذهبين الان ، من اجلنا معا . يجب ان لا تكوني اناية يا ارنيتي ، وعليك ان تنفذي واجبك .

فهزت ماريا راسها .

وعاد يقول .. انك انا الان . يجب ان شعري بذلك يا ارنبة . اسمعي يا ارنبة ! هذه هي الطريقة حقاً لذهابي انا . وانا اقسم على ذلك .

ولم تحر جواباً .

وعاد يقول .. لقد بدأت تدركين . لقد رايت الان انك فهمت . اذن فستذهبين حسناً فانت ذاهبة . وقد عرفت منك الان انك ستذهبين .

ولم تقل الفتاة شيئاً .

- واني شاكر لك الان . ستذهبين بسرعة ، وبعيداً ، فنذهب والحالة

هذه معا . والان ضعي يدك هنا واخفضي راسك قليلا . لا اخفضيه . هذا حسن . وانا اضع الان يدي هنا . حسنا . انك طيبة للغاية . ولا تفكري باي شيء آخر فانت الان تنفذين ما يجب ان تفعليه . اجل انك تطيعين الان لا تطيعينني فحسب ، بل تطيعيننا معا . تطيعين نفسي الموجودة في ذاتك الان . اذن فانت ذاهبة من اجلنا معا ، حقا . اننا نذهب معا في ذاتك الان . وقد وعدتك بهذا . كريم منك ان تذهبي بل ولطيف ايضا .

واشار براسه الى نابلو الذي كان يتطلع اليه من وراء الشجرة . . ودنا هذا منه . ثم اشار الى بيلار .

وعاد يقول . . سنذهب الى مدريد مرة اخرى يا ارنبة . حقا . والان قفي ، واذهبي ونحن معا نذهب في ذاتك . قفي . ارايت ؟
- لا . . لا . . وامسكت به ترضه اليها بشدة .

وكان يتكلم الان بهدوء واتزان ، ولكن في صوت ينم عن الارادة الصارمة . والامر . . وقال . . قفي . . انك انا الان . انك كل ما بقى مني . هيا . قفي

ونفضت ببطء وهي تبكي ، وقد احنرت رأسها . . ثم عادت تستقطب بسرعة الى جانبه ، ولكنها سرعان ما اخذت تنهض ببطء وتناقل عندما قال لها . . انهضي يا حلوة !

وكانت بيلار ، تمسك بها من ذراعها ، وهي تقف الى جانبها .

وقالت بيلار . . وهي تنظر اليه وتهز رأسها . . احتجاج الى شيء
يا انكليزي ؟

- لا . . وعاد يحدث ماريا . . ويقول . . لن اودعك يا ماريا ، لاننا لم ننفصل . ستنميين في غريديوس . فهيا ، اذهبي الان . هيا اذهبي . . وكان لا يزال يتحدث بهدوء واتزان بينما مضت بيلار مع الفتاة تمشيان . . لا تلتفتي الى الورا . ضعي قدمك في الركاب . هل وضعت . هيا ساعديها

يا بيلار .. ضعيها على السرج .. هيا انطلقي بالجواد الان .

وادار رأسه ، والعرق يتصبب منه ، ينظر الى المنحدر .. ثم عاد ينظر الى الفتاة وهي على ظهر جوادها ، والى جانبها بيلار ، وبابلو .. وقال .. هيا .. اذهبي .. اذهبي .

وعادت تتطلع حولها .. فهتف روبرت .. لا تنظري ، هيا .. وضرب بابلو الجواد فانطلق ، وكادت تسقط ماريا لولا ان بيلار الواقفة على مقربة منها ، أمسكت بها ، وبدات الجيناد الثلاثة ترتقي الجبل .

ودارت ماريا براسها وصرخت .. روبرتو .. دعني ابقى معك .. دعني! فقال روبرت صارخا .. انا معك . انسا معك الان .. اننا معا الان هيا اذهبي .

وابتعد الثلاثة ، واختفوا وراء الزاوية ، وكان قد تبلل جسده من العرق واخذ يتطلع الى خواء .

ووقف اوغسطين الى جانبه .

وقال اوغسطين وقد دنا منه .. اتريد مني ان اطلق النار عليك يا انكليزي ؟ لحظة وتنتهي .

فقال روبرت .. لا . اذهب .. انني مرتاح هنا .

بكي اوغسطين .. وهو يقول .. الوداع يا انكليزي^٣ .

– الوداع ايها العجوز ..

وعاد ينظر الى المنحدر .. ثم قال .. اعتن بالفتاة .. اتعدني ؟ – ليست بك حاجة الى توصيتي ، فسيتحقق لك ما تريد .. اتريد شيئا .

– في هذه البندقية الرشاشة بعض الطلقات ، ولذا فسأحافظ عليها ، وليس في وسعك ان تعطيني بعض العتاد .

.. لقد نظفت لك « انبوتها » ، فقد اتسخت عندما سقطت .

– وماذا حدث للجواد الذي كان يحمل المتاع ؟

– امسك به الفجري .

وامتطى اوغسطين جواده الان ، ولكنه لم يرد ان يذهب . وانحنى قريبا من الشجرة التي يتكىء اليها روبرت .

فقال له روبرت .. هيا امض في طريقك يا رفيق .. ففي الحروب تكثر مثل هذه الحوادث

فقال اوغسطين .. ان الحرب عهر ..

– اجل يا رجل .. ولكن هيا ..

– الوداع يا انكليزي ..

– الوداع .

وادار اوغسطين جواده ، وهو يكيل السباب والشتائم ، ومضى ، وكان الجميع ، قد اختفوا عن نظره الان . وعاد عند المنعطف ينظر وراه ويلوح بيده . فرد عليه روبرت جوردان اشارته ، ثم اختفى هو ايضا عن نظر روبرت ..

وعاد روبرت يلقي ببصره على المنحدر الاخضر ، فالطريق والجسر .. وراح يفكر .. انني في وضع مريح الان .. ولا اعتقد ان من الخير الانبطاح على بطني ، اذ ان الرؤية ، على هذا النحو ، احسن واصلح .

وشعر بفراغ في نفسه ، وباعياء ، وجفاف ، من كل ما حدث . ومسح تركهم اياه ، وأحس بحلقه يكاد يلتهب .. ها لم تعد له اخيرا اية مشكلة .. فمهما حدث له في الماضي من مشاكل ، لم تعد له مشاكل الان .

لقد مضو جميعا ، وها هو الان وحيدا ، يسند ظهره الى شجرة ، وعاد بنظره الى المنحدر الاخضر ، وراى الجواد الاشهب ، في المكان الذي قتله

فيه اوغسطين وراح ينظر الى ما وراء الطريق من ارض مغطاة بالاشجار .
ورنا يبصره الى الجسر والى ما وراءه ، واخذ يرقب النشاط على الجسر
والطريق . وكان في وسعه ان يرى هذا السيل الطويل من الشاحنات على
الطريق السفلى . وبانت له بالوانها الشاحبة عبر الاشجار . وعاد يرفع
نظره الى الطريق العليا التي تهبط منها الشاحنات . وخيل اليه ان اعدادا
اخرى ستصل من ذلك الاتجاه .

وقال يحدث نفسه .. لا ريب في ان بيلار ستعنى بها كل العناية ..
وانت تعرف ذلك . ولا ريب ان بابلو قد وضع مشروعا سليما للنجاة . والا
لما حاول الهروب .. عليك ان لا تهتم ببابلو .. كما ان التفكير بما رايلا
ينفعك . حاول ان تصدق ما قلته لها . هذا احسن ما يمكن لك ان تفعله .
ثم اليس ما قلته صحيحا ؟ من يعارض هذا الرأي ؟ انعاضه انت ؟ انك
لا تعارضه ، لانك لا تستطيع ان تنفي وجود ما هو كائن . اذن فحافظ
على ما تعتقده . ولا تتشاءم . والوقت قصير وقد ابعدها عنك . فكل
انسان يفعل ما يستطيع . وقد لا يستطيع ان تفعل شيئا لنفسك . ولكنك
تستطيع ان تفعل كل شيء للاخرين . حسنا ، لقد حالفنا الحظ اياما
اربعة . انها ايام اربعة غير كاملة . لقد كان الوقت بعد الظهر عندما وصلت
هناك اول مرة ، ولن تشهد ظهر اليوم . وهذا يجعلها ثلاثة ايام بلباليها ..
كن دقيقا .. اجل كن دقيقا .

ومن الخير ان تهبط الان .. وان تثبت نفسك في مكان تستطيع ان
تؤدي عملا فيه ، بدلا من ان تظل متكئا على الشجرة مثل الافاقين .. لقد
حالفك الحظ . وكان ثمة ما هو اسوأ مما انت فيه . وعلى كل انسان ان
يصل الى ما انت فيه ، ان لم يكن اليوم ففدا .. وبالطبع انت لست بخائف
ما دمت تعرف ان عليك ما تقوم به . هل انت خائف ؟ .. لا . لا . انا
لست بخائف حقا .. ومن الخير ان العصب قد قطع . وانا لا اكاد احس
بأي شيء وراء الكسر . ولمس الجزء الاسفل من ساقه ، وخيل اليه انه

يلمس شيئاً آخر ، لا علاقة له بجسمه .

وعاد يتطلع الى المنحدر من جديد ، وهو يفكر . . انني اكره ان اغادر هذا المكان ، وهذا كل شيء . . اجل انني اكره ان اغادره تماما ، وآمل ان اتمكن من تحقيق شيء عنده . وقد حاولت ان اعمل ، بكل ما اوتيت من موهبة . . هل حاولت ايها الحقيير . . اذن حاول .

اجل لقد حاربت دفاعاً عما اعتقده ، طيلة العام الذي انقضى . واذا كسبنا هنا ، كسبنا في كل مكان . والعالم شيء رائع ، ويستحق ان يقاتل الانسان في سبيله ، وانني اره جدا ان اتركه . . ولكن من حسن حظك ، انك عشت هذه الحياة الطيبة . لقد كانت حياتك لا تقل طيبة عن حياة جدك ، وان لم تعادلها في طولها . وقد نعمت بحياة سعيدة مثل اي انسان آخر بسبب هذه الايام الاخيرة . وليس بك من حاجة الى التذمر ، مادمت قد نعمت بهذه السمادة ، وكنت محظوظا الى هذا الحد . وكم كنت اود لو اتيح لي شخص انقل اليه ما تعلمته . يا للمسيح ، لقد تعلمت الكثير وبسرعة في النهايه . اود ان اتحدث الى كاركوف . ولكنه في مدريد . هناك وراء هذه الجبال ، وعبر ذلك السهل الفسيح . هناك وراء تلك الصخور الشهب ، وراء تلك الاشجار ، حيث يمتد المنبسط الواسع ، والهضبة العالية الصفراء . . هناك حيث يرى القمة عالية بيضاء وجميلة . . ان ذلك الجزء حقيقي تماما كالمجائر اللاني تحدثت عنهن بيلار ، واللاني يشربسن الدماء في المسلخ . ولكن هل هناك شيء صحيح ؟ ان كل شيء صحيح . فالطائرات جميلة سواء اكانت لنا او لهم . . اجل يا للجحيم انها جميلة .

ومضى يحدث نفسه . . خذ الامور ببساطة الآن . ودر حول نفسك ما دام معك وقت . . اسمع هناك شيء واحد . هل تذكره ؟ هل تذكر بيلار والكف ؟ اتصدق تلك الشعوذة ؟ لا . انك لا تصدقها . لا ، رغم كل مسا حدث ؟ لا . انا لا اصدقها . لقد كانت تخشى انني قد صدقتها ، ومع ذلك فاننا لم اصدقها . لكنها تصدق نفسها . انهن يرين شيئاً . . او بهسن

بشيء .. مثل كلب الصيد .. وما رأيك في الإدراك فوق الحسي ، او ما يسمونه بالحاسة السادسة ؟ وما رأيك في القموض ؟ .. انها لم تودعك . لانها كانت تعرف ، انها ان ودعتك ، فان ماريا لن تذهب .. آه مسن بيلار .. ادر نفسك الآن يا جوردان .. ولكن لماذا التردد .

وتذكر انه يحمل الزجاجاة الصغيرة في جيب سرواله الخلفي ، وشرع يفكر .. سأتناول جرعة من السم الهائل ، ثم أحاول .. ومد يده ، فلم يعثر على الزجاجاة في موضعها .. وهنا احسن بالوحدة القائلة ، فقد افتقد هذه الزجاجاة في موضعها .. وقال يحدث نفسه .. لقد كنت اعتمد عليها كثيرًا .

هل تعتقد ان بابلو قد اخذها ؟ .. اوه .. لا تكن سخيًا . لا ريب في انك قد اضعتها على الجسر .. هيا يا جوردان .. ادر نفسك الآن .

وامسك بساقه اليسرى بيديه وشدها نحو القدم بكل ما لديه من قوة ، في الوقت الذي ظل متكئا الى الشجرة . وعاد يستلقي ، ويشد على ساقه حتى لا يرتفع العظم المكسور ، فيخلع جلد فخذه ، واخذ يستدير ببطء على جذعه حتى اصبغت مؤخرة رأسه تواجه منخفض التل . وعاد يمسك بساقه المكسورة بيديه واخذ يتدحرج والعرق يتصبب من وجهه وصدره ، واقمى على مرفقيه ، ومد ساقه اليسرى وراه بيديه ، والعرق يتصبب الى ان اتخذ موقعه . ومد يده يتحسس باصابعها فخذه الايسر ف شعر انه على احسن ما يرام ، فالطرف المكسور من العظم ، لم يندفع خارجا من الجلد ، وانما ظل في مكانه في العضل .

واخذ يفكر .. لا ريب في ان العصب الكبير قد تحطم ، عندما انهار عليه ذلك الجواد الكبير اللعين . فهو لا يشعر بأي ألم حقا ، الا عندما يغير مواقفه . اي عندما يصطدم العظم المحطم بشيء آخر . ارايت ؟ .. او ليس هذا من حسن طالعك ؟ . انك لا تحتاج الى السم القاتل اذا . ومد يده يمسك بالبندقية الرشاشة ، واخرج المشط الموجود فيها ووضع

مشطاً اخر بدلا منه أخرجه من جيبه ، ثم أعد الزناد للضرب ، وتطلع الى المنحدر . قد تمضي نصف ساعة قبل أن تشرع في العمل .. على كل .. خذ الامور ببساطة .

وعاد يتطلع الى طرف الرابية ، والى أشجار الصنوبر ، وحاول ان لا يفكر ابدا .

ونظر الى النهر وتذكر كيف رآه عندما كان في الجسر ينعم ببرودة الظل تحته .. آه كم اود لو جاءوا الان ، فانا لا اريد ، ان اقع في اية مشكلة قبل ان يحيئوا .

ومن تعتقد انه يلقي الموت بسهولة ويسر اكثر ؟ اذلك الرجل الذي يؤمن بالدين ، او ذلك الذي لا يؤمن بشيء ؟ ان الدين يهون الامور على الموتى كثيرا ، ولكنني لا اشعر بأي خوف . والشيء الوحيد السيء ، هو ان يفترق الانسان امرا . ان الموت يغدو شيئا ، عندما يطول مجيئه ، ويتالم الميت كثيرا ، ويشعر بالاذلال .. هنا يكمن حظك ارايت ؟ فانت لا تشعر بأي الم او اذلال ابدا .

ان من الرائع انهم قد نجوا وذهبوا . ولا يهمني الموت الان ، ما داموا قد مضوا .. لقد قلت هذا من قبل .. وهو ما عنيته تماما .. ارايت كم يكون المنظر مختلفا ، لو كانوا مبعثرين جثثا على ذلك التل ، حيث يوجد الحصان الاشهب . او اذا كنا جميعا محصورين هنا ننتظر مجيئهم . لا . لقد ذهبوا .. اجل لقد مضوا .. والان اذا قدر للهجوم ان ينجح ، فماذا تريد ايضا ؟ لقد تحقق كل شيء . انني اريد كل شيء ، وسأحصل على كل ما اريد . واذا لم ينجح هذا الهجوم ، فسينجح هجوم آخر .. انا لم الاحظ متى عادت الطائرات .. يا الله ، لقد كان من حسن الحظ انني اقمعتها بالدهاب .

أود ان احدث جدي عن هذه الفتاة . انا واثق من انه لم يمر مع اهله بتجربة كهذه التجربة التي مررت بها .. ما يدريك ؟ قد يكون اضطر الى

ان يعمل ما عملته خمسين مرة . لقد قال لي مرة .. لا .. كن رقيقا ..
لا يستطيع انسان ان يفعل ما فعلته خمسين مرة .. حتى ولا خمس
مرات .. حتى ولا مرة واحدة ايضا ..

آه كم اود لو جاءوا الان .. اود لو اتوا الان ، فان ساقى بدأت تؤلمني
جدا .. لا ريب في انها اخذت في التورم .

لقد كنا نسير على احسن ما يرام ، عندما اصابتنا تلك القذيفة . ولكن
من حسن الحظ ، انها لم تات وانا تحت الجسر ايضا . فعندما يكون ثمة
خطأ فمن الواجب ان يحد شئ . . لقد قضي عليك ، عندما صدرت
تلك الاوامر لغولز .. وهذا ما عرفته انت ، وما احست به بيلار في الغالب
.. ولكن هذه الاوضاع سيتم تنظيمها فيما بعد .. ولا ريب في انهم
سيوزعون اجهزة ازسال على الموجة القصيرة .. اجل هناك اشياء كثيرة
.. يجب ان نحصل عليها .. فمثلا ، كان من الواجب ان احمل ساقا
اضافية ايضا .

وقطب جبينه ، عندما جاءت هذه الفكرة ، لان ساقه حيث تهشم العصب
الكبير ، قد تورمت ، وبدأ الألم يشتد بها .. آه ليتهم يأتون الآن .. لا
اريد ان افعل ما فعله والدي من قبل .. سأنفذ ذلك تماما ، وان كنت غير
راغب فيه .. فانا ضد الانتحار .. لماذا تفكر في هذا .. لا تفكر علسى
الاطلاق .. كم اود لو جاء هؤلاء البناديق .. اود كثيرا لو جاءوا .

وكانت ساقه قد بدأت تؤلمه كثيرا .. وقد بدأ الألم فجأة عندما شعرت
رجله تتورم ، منذ تحرك من مكانه . اذن اليس من الافضل ان انفذ العمل
الآن . انني لا اصلح للألم . واذا نفذته ، فهل تفهمني .. الى من تتحدث
الآن ؟ .. انا لا اتحدث لانسان .. قد تتحدث الى جدك ، وهذا ما اخمنه ..
لا . ليس ثمة انسان .. آه ليتهم يأتون .

اسمع ، يجب ان تنتهي من نفسك الان ، والا فقد يغمى عليك من الألم
وتصبح عاجزا عن العمل ، وأنداك سيقبضون عليك ويوجهون اليك عددا

من الاسئلة . وينزلون بك انواع المكاره . من الافضل ان لا تسمح لهم بذلك . . اذن لم لا تتخلص من حياتك الان ، وتنتهي من كل شيء؟ . لانك تريد . . آه اصغ . . ليتهم يأتون الان .

انك لا تصلح لهذا يا جوردان . لا تصلح له ابدا . ومن يصلح له ؟ لا ادري ولا يهمني ان اعرف الان . اما انت فلا تصلح . وهذا حق . انك غير صالح مطلقا . . آه . . مطلقا ، مطلقا . . اعتقد ان من الخير . ان تنفذ العمل الان ؟ الا تعتقد ذلك ؟

لا . لان هناك شيئا تستطيع ان تفعله بعد . وما دمت تعرف ما ستعمله ، فعليك ان تفعله . وما دمت تذكر فعليك ان تنتظر . . تعال . . دعهم يأتون . . دعهم يأتون . . دعهم يأتون !

وقال لنفسه . . اذن فكر في انهم قد مضوا . . فكر في انهم يجتازون الان الغابة ، ويعبرون جدولا صغيرا . . تصورهم ، يمرون بجيادهم فوق الاعشاب في المرج . تصورهم وهم يرتقون المنحدر . . فكر بهم . . وقد نجوا الليلة . . اجل تخيلهم يواصلون السير طيلة الليل ، ثم يختبئون غدا . . فكر بهم . . يجب ان تفكر بهم . . وهذا كل ما استطيعه من تفكير بهم الان .

فكر بمونتانا . . لا استطيع . . فكر بمدريد . . لا استطيع . . فكر بكأس مترع بالماء البارد . . حسنا . . هذا هو كل شيء . . ان الموت ككأس من الماء البارد . . انك تكذب . . انه لا شيء . . انه لا شيء . . اذن هيا . . نفذ ما اعترمت عليه . نفذه ، نفذه الان . . من الخير ان تنفذه الان . . هيا نفذه . لا . . يجب ان تنتظر . . ماذا انتظر ؟ . انك تعرف ما تنتظره . ذن فانتظر .

لا استطيع ان انتظر مدة اطول . . فاذا انتظرت فسيغمى علي . . وانا ادرك ذلك ، فقد شعرت بالاغماء يهاجمني ثلاث مرات ثم سرعان ما يختفي ، لانني اريده ان يختفي . . اجل ، فانا الذي اطرده . . وقد تمكنت من طرده حتى الان . . ولكن هل استطيع ان استمر في ذلك . لا ريب في ان نزيغا

داخليا ، قد جرى معك في فخذك ، في المكان الذي تقطع فيه العظم . ولا سيما عند المفصل . وهذا هو سبب التورم ، وسبب هذا الضعف الذي تحس به الان . . والاعماء الذي يهاجمك . . اذن فمن الخير . . ان تنفذ نيتك الان . الان . . حقا هذا هو الافضل .

ولكنك اذا استطعت ان تنتظر قليلا ، وان توقف اندفاعهم بعض الوقت او تصيب ضابطهم ، فقد يكون في عملك بعض الجدوى . . اجل اذا استطعت ان تنفذ عملك باتقان ففي وسعك . .

حسنا . . واستلقى بهدوء وحاول ان يحتفظ بوعيه ، الذي بدأ يتسلل منه ، كما يذوب الثلج احيانا عند منحدر الجبل . . وقرر ان يواصل البقاء اخيرا حتى يصلوا . .

ورأى ان حسن الطالع ما زال حليفا له ، فقد ابصر في تلك اللحظة بالفرسان يخرجون من الغابة ، ويجتازون الطريق ، واخذ يراقبهم ، وهم يرتقون المنحدر . ثم رأى الجندي يقف عند الحصان الاشهب ، وبهتف بالضابط الذي جاء اليه . . رأى الرجلين يتطلعان الى الجواد الاشهب . . وبالطبع فقد عرفاه . اذ فقد مع صاحبه منذ صباح اول امس .

ورأهم روبرت هناك على المنحدر ، قريبا منه الان ، ثم رأى الطريق والجسر والصف الطويل من السيارات . . وشمر بالتكامل يسيطر عليه ، ونظر الى كل شيء نظرة طويلة . . ثم تطلع الى السماء . . كانت فيها سحب بيضاء وكثيرة . ولمس بيده جذع شجرة الصنوبر التي كان ينام وراءها .

ثم اتكا على مرفقيه ، بأسهل ما يستطيع ، واسند فوهة البندقية الرشاشة على جذع شجرة الصنوبر .

وعندما تقدم الضابط خبيا وراء اثر جياد العصاة ، كان سيمر على بعد عشرين ياردة من المكان الذي ينام فيه روبرت جوردان . ولن تكون هناك

مشكلة في هذه المسافة القريبة . كان الضابط هو الملازم بيريندو ، وقد جاء من لاغرانجا عندما وصل الى مسامعهم هناك الانباء الاولى للهجوم الذي وقع على المركز الأسفل . وكان قد جاء مع جماعته بسرعة ، ولكنه اضطر الى التراجع عندما رأى الجسر مهشما والهبوط الى الوادي السحيق ليمود مع جنوده من بين الاشجان . وكانت جياد الفرسان منهكة وقد بللها العرق ، وكان من الواجب حثها على السير خبياً .

ومضى الملازم بيريندو . . وهو يقتفي الأثر ، يصعد التل ، بوجهه التحيل وقد بانت عليه علائم الجهد والجد . وكانت بندقيته الرشاشة امامه على السرج . وكان روبرت جوردان يستلقي وراء الشجرة ، وقد تماسك على نفسه ، وثبت يديه متقلبا على كل ما يحس به من ألم . كان ينتظر وصول الضابط الى المكان الذي تضيئه اشعة الشمس ، حيث تلتقي الأشجار بمنحدر المرج . . واحس روبرت ، بخفقان فؤاده على ارض الغابة التي ملأها فسروع الصنوبر . .



المجموعة القصصية

في هذه المكتبة قصص من مختلف الأنواع والاتجاهات الأدبية ، منها القصة التاريخية ، ومنها الثقافية ، والأدبية والعاطفية ، والتي تعالج المشاكل الانسانية وكلها وضعت بأسلوب فني رائع ورفيع ، وبينها ما هو صالح لمطالعة الطلاب والطالبات ، كما فيها الآثار الكبرى الخالدة من آداب مختلف الأمم قديمة كانت أم حديثة . وقد راعت « دار مكتبة الحياة » في اختيارها للآثار العالمية ، ان تكون هذه الآثار لكبار الأدباء المعروفين ، كما عهدت بالترجمة إلى أمناء موهوبين ارتفعت تعابيرهم الأدبية غالباً إلى مستوى من الجمال الفني يحاكي الأصل الذي كتبه المؤلف بلغته الأم .

| المؤلف | اسم الكتاب |
|---------------------|----------------------------|
| كرم ملحم كرم | ابوجعفر المنصور |
| كرم ملحم كرم | لبنى ذات الطيوب |
| كرم ملحم كرم | صقر قریش |
| كرم ملحم كرم | قطاف العناقيد |
| صباح محيي الدين | اليوم الموعود |
| صباح محيي الدين | السمفونية الناقصة |
| حاتم خوري | تائهة في الشارع |
| فاضل السباعي | ثم ازهر الحزن |
| فاضل السباعي | نجوم لا تحصى |
| نعمان سعيد ابو عيشة | واهيفاء |
| عبد القادر شعبان | يوميات شاطيء |
| عدنان الداعوق | السمكة والبحار الزرق |
| أنيس زكي حسن | السجين |
| خالد برقواوي | شمس الحقيقة |
| محمد الراشد | غروب الالهة |
| وليد مدفعي | غروب في الفجر |
| كاترين معلوف داغر | غصة في القلب |

| المؤلف | اسم الكتاب |
|-------------------------------|-----------------------------------|
| كاترين معلوف داغر | كفاح امرأة |
| علي المك | في قرية |
| منى جيور | فتاة تافهة |
| ميخائيل صوايا | في قلب العاصفة |
| سمير القطب | قلب وضمير |
| صبحي المصري | القبلة المحرمة |
| ترجمة جماعة من اساتذة الأدب | كوفاديس |
| فوزي حداد | أقنعة تتمزق |
| سعاد موريلي | الانتقام في قصور العثمانيين |
| حسن حمام | الصلح سيد الأحكام |
| حسن حمام | بذور الحب والخير |
| أديب سكينى | التراب الساخر |
| أسامة زيلع | ثمن الهيريين |
| غسان صباغ | ثقب في السماء |
| مصطفى شهاب | جريحة الأقدار |
| جوزف مجدلاى | حقيقة الأبطال |
| انطوان خباز | حكاية وجع |
| جورج سانتو | انتقام العشاق |
| انتوني ارمسترونغ | الأمير العاشق |
| فلاديمير نابوكوف | الانسان الضائع |
| ايفواندريتش | جسر على الدرينا |
| ولتر فارلي | الجواد الأدهم |
| جون شتاينيك | خميس عذب |
| سمير القطب | الفردوس السليب |
| قسطنطين سيمونوف | رفاق السلاح |
| كورسيل ترجمة جماعة من الأدباء | الشرف المطعون |

| المؤلف | اسم الكتاب |
|-------------------|-----------------------------------|
| فورستر | المدمرة (هيب فوق البحار) |
| أرنست همنغواي | لمن تفرع الأجراس |
| الدوس هكسلي | لكي يقف الزمن |
| كونراد رختر | المروج الخضمر |
| نقولا استروفسكي | والفولاذسقيناه |
| بطرس خواجه | عمدة الشيطان |
| فاندا فاسيليفيسكا | قوس قزح |
| عيسى الحلو | الوهم |
| منى جيور | الغريبان والمسوح البيضاء |
| ليلي عسيران | المدنية الفارغة |
| مالك نجيب حمدان | وأخيراً تعانقت الأرواح |
| دستوفسكي | الجريمة والعقاب (غلاف) |
| دستوفسكي | الجريمة والعقاب (مجلد) |
| الن باتون | ابك يا بلدي الحبيب |
| جون شتاينبك | رجال وفتران |
| عيسى الحلو | ريش البيغاء |
| بطرس خواجه | المنديل الاسود |
| ايليا اهرنبرغ | الموجة التاسعة ١ / ٢ (غلاف) |
| ايليا اهرنبرغ | الموجة التاسعة ١ / ٢ (مجلد) |
| شارلز ديكنز | الامال الكبيرة |
| لويزا م . الكوت | نساء صغيرات |
| انتوني هوب | سجين زندا |
| جيمس هيلتون | الافق المفقود |
| سمير القطب | كفاح ومصير |

| المؤلف | اسم الكتاب |
|-----------------------|--------------------------|
| خضر نبوه | الحارة القديمة (رواية) |
| مصطفى شهاب | معاً على طريق العذاب |
| جايمس فارن | ثمانون يوماً حول العالم |
| رابحة الجميلي | شيء منه |
| فكتور هيغو | البؤساء (غلاف) |
| فكتور هيغو | البؤساء (مجلد) |
| فكتور هيغو | احدب نوتردام (غلاف) |
| فكتور هيغو | احدب نوتردام (مجلد) |
| بطرس خواجه | جنة الاحزان |
| محمد احمد الامين | الخيط الاسود |
| جورج ابراهيم الخوري | شوك بلاورد |
| ديستوفسكي | الاخوة كرامازوف |
| السير ارثر كونان دويل | العالم المفقود |
| محمد طاهر فلمبان | عواطف وعواصف |
| شاتوبريان | آخر بني سراج |
| ميشال زيفاكو | عشاق فينيسيا ٢/١ |



